

قادة فتح الأندلس

اللواء الركن
محمود شيت خطاب
رحمه الله

المجلد الأول

مؤسسة علوم القرآن

قادة
فتح الأندلس

اللواء الركن
محمود شيت خطاب
رحمه الله

المجلد الأول

مؤسسة علوم القرآن
بيروت

منار للنشر والتوزيع
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

قادة

فتح الأندلس

الطّبعَة الاولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق - هاتف : ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس : ٢١١٤١٦٨ ص.ب ١٣٢٧٧

منار للطباعة والنشر والتوزيع

E:mail : manarest@mail.sy

تَرْجَمَةٌ مُوجَزَةٌ للمُؤلِّف

اللِّوَاءُ الرُّكْن محمود شِيت خَطّاب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالى

بِقَلَمِ

مُحَمّد فَارُوق البَطَل

عُضو هَيئةِ التَّدرِيس في كُليةِ الآداب

قِسمُ الدِّرَاسَاتُ الإسلامِيَة

جَامِعَةُ المَلِكُ عَبْدِ العَزِيز سَابقاً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) رحم الله الفقيد القائد العلامة المجاهد اللواء الركن محمود شيت خطّاب رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، وأجزل مثوبته، وجزاه عن الإسلام والمسلمين كل خير، فقد أعطى لدينه ولأمته الكثير، وبذل الكثير، وعانى الكثير. . . ولم يأخذ من دنيا الناس، ولا من هذه الدنيا الغرور إلا القليل، وأحسب أنه قد لقي وجه ربه بجهاد كبير، وزهد عجيب، وخلُق رفيع، وإخلاص نادر، وتواضع جم، وأعمال جليلة، وقلب ظلّ يخفق بحب الله، وحب رسوله - ﷺ -، وحب الصحابة الأبرار - رضي الله تعالى عنهم -، وحب الإسلام العظيم، حباً ملك عليه ليله ونهاره، وعقله وفكره، وقلبه وعاطفته، وطيلة عمره المبارك. أحسبه كذلك، ولا أزكيه على الله تعالى.

(٢) ولد العلامة المجاهد اللواء الركن محمود شيت خطاب في مدينة الموصل الحدباء[١] سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م من أبوين عربيين، أبوه من قبيلة الدليم - فرع الصقور - الذين يتصل نسبهم بالنبي - ﷺ - من جهة الحسن بن علي بن فاطمة الزهراء - رضي الله تعالى عنهم - وأمه قيسية، وهي ابنة الشيخ مصطفى بن خليل قره مصطفى، وكان من علماء الموصل المشهورين بعلمهم وورعهم[٢].

احتضنته أمه عاماً أو بعض عام، ثم تخلت عنه مكرهة، لأن شقيقه الذي ولد

---

(١) توصف مدينة الموصل بالحدباء لوجود مسجد فيها مميز بمئذنة حدباء، وقد اختُلف في تفسير هذا . . . . . .

(٢) من سيرته الذاتية بخط يده ص١٧.

بعده بسنة استأثر بمكانه، فكفلته جدته أم والده، فأثرت فيه أبلغ التأثير، فقد كانت امرأة صالحة متدينة ومن بيت رفيع التدين، تقضي أكثر ساعات الليل في تهجد وتسبيح، فإذا غلبها الخشوع أجهشت بالبكاء من خشية الله، كان يصحبها إلى المساجد وسماع المواعظ.

وهكذا نشأ الفقيد في بيت علم يُتلى فيه القرآن الكريم صباح مساء، وتُقام فيه الصلوات، ويحرص على الالتزام بالدين الحنيف، ويضم مكتبة عامرة بالمصادر المطبوعة والمخطوطة.

قرأ القرآن على يد أحد الشيوخ، وحفظ شطراً من كتاب الله، ثم أتم مراحل المدرسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية في مدينة الموصل، وخلال سِنِيِّ هذه المراحل درس علوم اللغة والتفسير والحديث على أيدي شيوخ مدينة الموصل، وفي مساجدها العامرة بالحلقات العلمية، وخلال شهور العطلة الصيفية.

وكان من أشد ما أثر في تكوينه الثقافي والعلمي - وهو يافع السن - مجلس الحي الذي يحضره بمعية والده، حيث يلتقي خيار رجال العلم والقضاء لقص الأخبار، وقراءة كتب الفقه والحديث والتاريخ . . يقول - رحمه الله -: (لقد كنت ألازم مجلس والدي مع أني لم أتجاوز الصف السادس الابتدائي، فلقد وقع اختيار والدي عليّ لقراءة كتب التاريخ على الحضور الذين كان معظمهم من أهل العلم المتقنين للغة العربية، لذلك فقد كنت مضطراً للعناية بقواعد اللغة العربية وضبط الألفاظ ، لكي لا أقع عرضة للانتقادات أو اللوم من والدي)[١] ولا شك أن حضوره مثل هذا المجلس العلمي بلور اتجاهه على

---

(١) من رسالة التخرج لابنة المؤلف آمنة محمود شيت خطاب لنيل درجة البكالوريوس بإشراف الأستاذ الدكتور محمود رجب النعيمي -جامعة بغداد- كلية العلوم =

اللغة والتاريخ.

ومما يؤكد نشأته المتدينة أنه أدى فريضة الحج عام ١٩٣٥م ضمن رحلة مدرسية، ولم يكن له من العمر إلا خمسة عشر عاماً. وقد كان لأدائه الحج في هذه السن المبكرة أثر كبير، وخلّف في نفسه معاني عظيمة.

(٣) لما حصل الفقيد -رحمه الله تعالى- على شهادة الدراسة الثانوية تطلعت نفسه إلى دراسة الحقوق، لكن إرادة الله شاءت له غير ذلك (وكل ميسّر لما خلق له). فقد أعلنت وزارة الدفاع العراقية عن حاجتها الكبيرة لمنتسبين للكلية العسكرية، فتقدم بطلبه مع عدد من رفاقه، وسافر إلى بغداد، وبدأ بالتعرف على معالمها لأول مرة، لأنه لم يكن قد زارها من قبل، فكان اسمه على رأس من أُعلِن قبولهم كطلاب في الكلية العسكرية سنة ١٩٣٧م. وتبدأ رحلة الفقيد في السلك العسكري. وحصل على الشهادات التالية:

١ - الليسانس من الكلية العسكرية العراقية ١٩٣٨م.

٢ - الماجستير من كلية الأركان والقيادة العراقية برتبة نقيب عام ١٩٤٨م.

٣ - شهادة دراسات عسكرية عليا من كلية الضباط الأقدمين العراقية عام ١٩٥٤م.

٤ - دبلوم دراسات عسكرية عليا بدرجة ممتاز من كلية الضباط الأقدمين في إنجلترا عام ١٩٥٥م وقد كان ترتيبه الأول بين مائة ضابط من مختلف الجنسيات.

٥ - شهد أربعاً وعشرين دورة تدريبية عسكرية في العراق وشمال أفريقيا وإنجلترا، ومنها دورات في الفروسية والأسلحة والتعبية . . .

=الإسلامية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م (غير مطبوع).

وسواها[1].

(٤) إن استمرار الخطّاب في السلك العسكري هذه المدة الطويلة أمر يثير العجب والدهشة، ذلك أن من يعرف واقع كثير من الجيوش العربية في ظل الأنظمة الاستعمارية أولاً والأنظمة العلمانية والحزبية ثانياً يقدّر مدى الصبر والمعاناة والمرارة التي عاناها ضابط ملتزم بإسلامه وعقيدته، مستقيم في سلوكه، معتز بدينه وتراثه، مثل الضابط محمود شيت خطاب مذ كان شاباً. ذلك أن القائمين على هذه الجيوش فرضوا على عناصرها الإلحاد، والهزء بالدين، والسخرية بالإسلام، واحتقار التديّن، كما فرضوا عليهم كافة ألوان الفساد والمحرمات من خمر وزنا و... و... وما نجى من ذلك إلا القليل، ومن كُشِف منهم على غير ذلك سُرِّح وأُبعد عن الجيش، واعتُبر خطراً على أمنه وأمن البلد!!... حقيقة مؤلمة مبكية، لكنها الواقع!! يحدثنا اللواء الخطاب عن هذا الواقع المّر، وهذه الحقيقة المفجعة فيقول - محدثاً عن نفسه وعن تجربته الشخصية ـ: (تتابعت أسئلة قائد السرية التي انتسبت إليها، في أول لقاء به وأول يوم رأيته وتعرفت إليه: هل تعاقر الخمر؟ هل تلعب الميسر؟ هل تغازل الغيد الحِسان؟).

(وتكرر جوابي على أسئلته المتعاقبة بالنفي، فظهرت على وجهه بوادر خيبة الأمل ونَدَب حظه العاثر لالتحاقي بسريته، ثم عبس وتولَّى وهو يقول: لماذا أصبحت ضابطاً؟! ولماذا اخترتَ سلاح الفرسان؟ ولماذا تعيش؟! الأفضل لك أن تموت).

---

(١) من سيرة الراحل الكريم بخط يده ص١٠، وانظر كتاب اللواء الركن محمود شيت خطاب (سيرته وترجمة حياته ومؤلفاته) للواء الركن يوسف بن إبراهيم السلوم ص١٨ مكتبة العبيكان.

(وكان ذلك أول درس عملي تلقيتُه من قائد سريتي، في أول يوم من حياتي العسكرية العملية في الوحدات العاملة، ثم توالَتْ عليَّ الدروس المماثلة كاللحن المكرر يُعاد على مسامعي صباح مساء).

(ولم أُباغَت بما سمعتُه من قائد السرية، فقد تكاثَرتْ عليَّ نصائح المجربين منذ اعتزمت الالتحاق بالكلية العسكرية: أن أبتعد عن تعاليم الدين الحنيف، وأكيّف نفسي لتلائم مناخ العسكريين).

(وبعد تخرجي ضابطاً في الكلية سنة ١٩٣٨م التحقتُ بمدرسة الخيَّالة في بغداد، فانهالت عليّ الدعوات الشخصية الرسمية التي يسيل الخمر فيها أنهاراً، وانهالت معها عليّ النصائح والانتقادات، وكان اعتذاري عن حضور تلك الحفلات يُقابَل بالنقد اللاذع والسخط المرير).

(ولكنني كنت أتلقى النصح تارة، والنقد تارة أخرى من لِداتي الذين لم يتجاوزوا العشرين، وهم شباب في عمر الورد لا ينقصهم المال والفراغ، ولم أكن أتوقع أبداً أن أسمع نفس النصح أو النقد من قائد سرية تجاوز الأربعين من عمره، وأمضى في الخدمة العسكرية ما يزيد على العشرين عاماً!!).

(وشاء القدر ألا يطول استغرابي من تصرف قائد السرية، لأنني وجدت تصرف قائد الكتيبة نحوي - وهو الذي تجاوز الخمسين من عمره - وكان ضابطاً مخضرماً قضى شطراً من خدمته العسكرية في الجيش العثماني، وشهد الحرب العالمية الأولى، لا يختلف في شيء عن تصرف قائد السرية نحوي، كلاهما يأمر بالمنكر، وينهي عن المعروف).

(وكان من تقاليد الجيش أن تولم الوحدات لضباطها الجدد وليمة، تطلق عليها اسم: (وليمة التعارف والاستقبال) تقدم فيها الخمر مع ما لذَّ وطاب من الأطعمة الشهية، وقد يصاحب ذلك أنغام الموسيقى والرقص زيادة في الحفاوة

والتكريم!!).

(واستدعاني قائد السرية قبيل انتهاء الدوام الرسمي، وبلّغني بأن الكتيبة ستقيم وليمة التعارف والاستقبال في دار الضباط مساء، فلم أستطع التخلف عن حضورها، لأنها أقيمت من أجلي وأجل خمسة ضباط آخرين جُدُد، هم زملاء دورتي في الكلية العسكرية ومدرسة الخيالة).

(وقبل أن يسمح لي قائد السرية بالانصراف غمز عينيه، وهو يبتسم ابتسامة الواثق بنفسه ويقول لعلك تراجع فكرك اليوم، ولعلي أهديك إلى سر الحياة!!).

(وشهدتُ الحفلة مع زملائي في الوقت الموعود، وقدِم قائد الكتيبة يتبختر، فاستقبله الضباط وقوفاً، ثم قدَّم إليه قادة السرايا ضباطهم الجدد، وقدّمني قائد سريتي قائلاً: الملازم ضابط خام يدَّعي أنه لم يذق طعم الخمر في حياته).

(وقال قائد الكتيبة: كيف يكون في سلاح الفرسان ولا يعاقر الخمر؟! هذا غير معقول! وتحرَّج موقفي، وتجمَّع الضباط من حولي يرجونني ويطالبونني، ثم يلحّون ويلحّون، وجاء قائد الكتيبة، وقد ملأ كأساً بالخمر، وأمر أن أبدأ صفحة جديدة من حياتي العسكرية بشرب المدام، وأن أتخلى عن تزمُّتي لأصبح ضابطاً حقاً ... ثم أَقْسَم بشرفه العسكري أن أفعل، وأقسم قائد سريتي ألا أردّ يد القائد الهمام).

(وكان الليل البهيم قد أرخى سدوله، وكانت السماء صافية تتلألأ على صفحات النجوم، وكانت مياه دجلة تعكس النجوم فتزيدها بهاءً ورونقاً).

(وكان قائد الكتيبة برتبة عقيد، يحمل على كتفيه رتبته العسكرية، وهي بحساب النجوم اثنتا عشرة نجمة، على كل كتف تاج يعادل أربع نجوم،

ونجمتان مع التاج، فيكون مجموع النجوم على الكتفين: اثنتي عشرة نجمة).

(ويومها قلتُ له: إنني أطيعك في تنفيذ أوامرك العسكرية، وأطيع الله في أوامره، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنك تحمل على كتفيك اثنتي عشرة نجمة، فانظر إلى سماء الله لترى كم تحمل من نجوم).

(وبهت القائد، وردّد: السماء . . . السماء . . . ! نجوم السماء . . . !

وأشاح قائد الكتيبة بوجهه عني، ومضى غضبان آسفاً وهو يقول: هذا الضابط لا يفيد . . . لا يفيدنا أبداً).

(ويومئذ شعرتُ بأن موقفي ليس مصاولة بيني وبين القائد، ولكنها مبارزة بين إرادته بشراً وإرادة الله خالق البشر).

(وجلستُ وحيداً أتأمل . . . وجلس الضباط جميعاً، ترتفع ضحكاتهم إلى عنان السماء).

(كان الاعتقاد السائد بين أكثر الضباط أن التدين تخلف وجمود وأن التقوى بلادة وتواكل، وصمّمت أن أُثبت أن تلك المفاهيم خاطئة، وأن الضابط المتدين حَرِيٌّ بالتفوق، وأن الدين يستثير الهمم والعزائم، فعزمتُ ألا أرضى بالنجاح وحده، بل بالتفوق في النجاح، وكان سبيلي إلى ذلك العملُ الدائب وإتقانه، والحرص الشديد على أداء الواجب وإحسانه، واستيعاب العلوم العسكرية بدقائقها، والسهر على تدريب الجنود وحل مشاكلهم، حتى أصبح رعيلي نموذجياً، يقصده الزائرون من الوحدات الأخرى والأجانب، ويحوز قصب السبق تدريباً وتهذيباً وضبطاً على رعائل الكتيبة).

(كنت أحضر الثكنة قبل شروق الشمس، وكنت أغادرها الهزيع الأول من الليل، وكنت أقضي وقتي متعلماً ومعلماً ومتدرباً ومدرباً. وكان من الأمور الاعتيادية أن يصدح بوق النهوض وأنا في الثكنة، فيجدني جنودي منتصب

القامة في قاعة نومهم، فشاع بين الضباط أنني أصلّي الفجر في الثكنة، ولا أغادرها إلا بعد صلاة العشاء . . .)

(وبهذا الجهد الجهيد، استطعت تكذيب ما أُلصق بالمتدينين ظلماً وعدواناً، واستطعتُ الاستحواذ على ثقة قادتي وجنودي، وتسنُّم مناصب عسكرية لا يحلم بها زملائي في الرتبة والقدم)[١].

وللقاريء الكريم أن يتصور مدى جهد اللواء الخطاب ومدى معاناته، وكيف صبر وصابر؟ وكم تحمَّل وكابد؟ حتى وصل إلى أعلى رتبة عسكرية في الجيش العراقي وبشكل طبيعي، ودون ترقيات استثنائية.

أقول: إنه صبر ولاشك، ولكن الله أعانه، ولحكمة يعلمها. ولعل الحكمة الربانية في هذا التوفيق أن يفتح الله عليه كتابة هذه المؤلفات والبحوث العسكرية المتخصصة وغير المسبوقة، وخاصة ما يتعلق بإعادة صياغة التاريخ العسكري لأمتنا العربية الإسلامية بأسلوب فني وعلمي متخصص بدءاً من عهد الرسالة وانتهاء بعهد الفتوحات. جزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير.

(٥) وبهذا الجهد الجهيد - كما يقول الخطاب - ومع الاستقامة على أمر الله والاستعانة به سبحانه، فرض احترامه على رؤسائه، وارتقى في السلك العسكري ضابطاً محترماً، رتبة بعد رتبة حتى حصل على رتبة اللواء الركن واستمر في هذه الرتبة حتى اعتُقِل في العهد الشيوعي - عهد عبدالكريم قاسم -، وقد اعتُقِل ثمانية عشر شهراً من أواخر سنة ١٩٥٩م إلى منتصف عام ١٩٦١م ثم أُفرج عنه، بعد أن ترك التعذيب أثره في جسده في (٤٢) كسراً في عظامه[٢]. لم يحفظوا له سناً ولا رتبة ولا علماً ولا قدراً ﴿وما نقموا منهم إلا

---

(١) من مقدمة الخطَّاب لمؤلفه (بين العقيدة والقيادة) ٢٩-٣٣.
(٢) من السيرة الذاتية للواء الخطَّاب بخط يده ص١٣.

أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

يقول - رحمه الله - في ذلك: (لم يكن عبدالكريم قاسم شيوعياً، ولكن كان مضطراً للاستعانة بهم، وبخاصة في تلك الأثناء التي اندلعت فيها ثورة الشوّاف في الموصل، فأطلق أيديهم يعملون ما يشاؤون، ولم يكن بوسعهم الصبر على موقفي منهم[1]، فبعث إلى المنطقة بضابط يصلح لتحقيق رغبات الشيوعيين، وما لبثوا أن تجمّعوا حوله ليخطب فيهم داعياً إياهم إلى سحل كل ضابط وفدائي يقف في طريقهم، أو لا يؤيد ثورتهم، فكان عليّ أن أتدارك ما أمكن من الخطأ، فدخلت على هذا الضابط أحذره مغبة تصرفه، فما كان منه إلا أن اتصل بعبد الكريم قاسم لإقصائي عن طريقه، وهكذا تمّ لهم ما يشاءون، وكان ذلك في الهزيع الأخير من إحدى ليالي رمضان، حيث أوقفني ثلاثة من جنودهم فاعتقلوني ثم حملوني في حراسة مشددة إلى السجن المخصص لأعداء الثورة في بغداد، واستمر وجودي ثمانية عشر شهراً مشحونة بأنواع من التعذيب الذي يعجز الوصف عنه، وفي جسدي اثنان وأربعون كسراً في العظام[2]).

(٦) لم يكن اللواء الخطاب مجرد ضابط موظف محترف، بل خبر العلوم العسكرية، وتبحّر في هذا التخصص، واجتهد فيه يشهد له بذلك الإمام الجليل الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله تعالى - فيقول: (قائد يعرف خصمه، فيدرك مراميه، حتى إنه ليتوقع الحرب أو الهجوم من عدوه في ميقاتها، وقبل أن يعلنها، وقبل أن يفكر فيها من سيكونون حطبها، لأنه يعلم الخصم ومآربه وحاله، ويتعرف من ذلك مآله، علم بهجوم اليهود سنة ١٩٦٧م قبل أن يعلنوه،

---

(١) كان الفقيد يومها رئيس هيئة أركان حرب الفرقة الأولى مسؤولاً عن أمن الجنوب مابين بغداد والبصرة.

(٢) من رسالة التخرج لابنة المؤلف آمنة محمود شيت خطاب ص١٦ (غير مطبوع).

وقبل أن يقدره الذين كانوا في زعمهم يدبرون الأمور. ويلبسون لكل حال لبوسها)[1] . يشير العلامة أبو زهرة بهذا إلى بحث كان قد نشره اللواء الخطاب قبل هذه الحرب المأساة، تحت عنوان: (حرب أو لا حرب) قال فيه: (إن نفير إسرائيل سيكتمل يوم الخامس من يونيو - حزيران - سنة ١٩٦٧م فتكون إسرائيل جاهزة للحرب في هذا اليوم وستهاجم إسرائيل العرب في هذا اليوم حتماً). ثم قال - رحمه الله - وبكل تواضع، وبعد أن حدث بالضبط ما توقعه: (وقد صدقتِ الأحداث ما توقعتُه، ولست نبياً، ولكن الفن العسكري أصبح علماً له قواعد وأسس، عليها استندتُ في كل ما كتبتُه من مقالات)[2].

(٧) كان من جهاده العسكري - رحمه الله تعالى - أنه شهد الحرب العراقية البريطانية في العراق عام ١٩٤١م في ثورة رشيد عالي الكيلاني - رحمه الله تعالى - ثم خاض معظم المعارك التي التقى فيها الجيش العراقي بقوات الإنجليز، وكان أثناء ذلك برتبة ضابط ركن في لواء الخيالة المرابطة بأبي غريب - على بعد (٥٠) كم من الأنبار - التي جرت في ساحتها أهوال المعارك، ونتيجة قصف الطيران المعادي الشديد، أصيب اللواء الخطاب بقنبلة توزعت شظاياها في كل موقع من جسمه، وكان أمل الأطباء في بقائه على قيد الحياة ضئيلاً، ولكن شاءت إرادة الله أن يشفى القائد ليتابع جهاده في خدمة دينه وأمته[3].

ومن جهاده العسكري كذلك أنه لما تخرج من كلية الأركان عام ١٩٤٨م

---

(١) من مقدمة الشيخ محمد أبو زهرة لكتاب (بين العقيدة والقيادة) للواء الخطاب ص١٢ وانظر كتابه (الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها).
(٢) من مقدمة كتاب (العسكرية العربية الإسلامية للواء الخطاب) للأستاذ عمر عبيد حسنه، كتاب الأمة ص١٩.
(٣) من رسالة ابنته آمنة ص١٥، والسيرة الذاتية بقلم الراحل الكريم ص١٣.

قدَّم طلباً إلى وزارة الدفاع العراقية ليتطوّع مقاتلاً في معارك التحرير لإنقاذ فلسطين. يقول - رحمه الله - بعد أن تمت الموافقة على تطوعه: ذهبت إلى منصب ضابط ركن اللواء الرابع في مدينة جنين الفلسطينية، وبقيت هناك نحو سنة، حتى عدت مع الجيش العراقي[1]... ويسجل ذكرياته في هذه الساحة الجهادية فيقول: انتصر فوج واحد يبلغ تعداده (٨٢٢) ضابطاً وجندياً على عشرة آلاف صهيوني كانت خسائرهم في تلك المعركة أكثر من تعداد الجنود العراقيين (٣٠) شهيداً مع أن المعركة معركة تصادفية، ولم يكن أي من المنتسبين إلى الجيش العراقي قد سمع بـ (جنين) أو يعرف حتى مكانها، ولا توجد لديهم خرائط... وكان بين قتلى اليهود ابنة (اين جوريون) رئيس وزراء إسرائيل[2]...

(٨) بعد انقضاء حكم عبد الكريم قاسم تولى منصب الوزارة في عهد الرئيس عبد السلام عارف عدة مرات، ولكنه انتهز أول فرصة، فاستقال للتفرغ للعلم وحده، وقد عُرِضت عليه الوزارة في كل حكومة شكلت بعد سنة ١٩٦٤م، ولكنه اعتذر باستمرار، وفي سنة ١٩٦٨م في ١٧ تموز عُيِّن وزيراً للمواصلات، وكان يومها في مصر رئيساً للجنة توحيد المصطلحات العسكرية فاعتذر عن قبول هذا المنصب وآثر العمل في المجالات العلمية على العمل في المناصب الحكومية، وبقي في القاهرة حتى أخرج للناس المعجمات العسكرية الموحدة الأربعة المعروفة، والتي أعيد طبعها مرات كثيرة، وكان هو الذي اقترح توحيد هذه المصطلحات وهو الذي وضعها في حيز التنفيذ.

وعاد من مصر إلى العراق سنة ١٩٧٣م، فعرضت عليه عدة مناصب

---

(١) كتاب اللواء محمود شيت خطاب للواء الركن يوسف بن إبراهيم السلوم ص٦٤.
(٢) المرجع السابق.

حكومية رفيعة، ولكن اعتذر عن قبولها، وتفرغ كلياً لبحوثه ودراساته وللتأليف والتدريس في المدارس والمعاهد والجامعات العسكرية في أرجاء البلاد العربية كلها، ما وجد إلى ذلك سبيلاً[١].

(٩) تألّقت شخصية اللواء الخطاب العسكرية والعلمية والدعوية على مستوى العالمين العربي والإسلامي فاختير عضواً فاعلاً في كثير من الهيئات والمجامع العلمية منها:

أ - المجمع العلمي العراقي - عضو كامل - منذ سنة ١٩٦٣م.

ب - مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف منذ سنة ١٩٦٨م عضو كامل.

ج - مجمع اللغة العربية في القاهرة - عضو مراسل - منذ سنة ١٩٦٦م.

د - المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي - عضو كامل - منذ سنة ١٩٦٤م.

هـ - مجمع اللغة العربية في دمشق - عضو مراسل - منذ سنة ١٩٦٦م.

و - مجمع اللغة العربية الأردني - عضو مؤازر - منذ سنة ١٩٧٩م.

ح - المجلس الأعلى العالمي للمساجد بمكة المكرمة - عضو مؤسس - منذ سنة ١٩٧٥م.

ط - مجمع الفقه الإسلامي بمكة المكرمة - عضو مؤسس - منذ سنة ١٩٧٧م[٢].

(١٠) تتجلى هذه المكانة الرفيعة والسمعة الطيبة فيما كتبه العلامة الفقيه

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب بخط يده ص ١٤-١٥.

(٢) السيرة الذاتية للواء الخطاب بخط يده ص ٨-٩.

الإمام الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله تعالى - تقريظاً لكتاب اللواء الخطاب (بين العقيدة والقيادة) قال: (وإن صديقي الكريم اللواء الركن محمود شيت خطاب، القائد العظيم المدرك والوزير المخلص - وقليل ما هم - سعدت بمعرفته من نحو أربع سنين أو أقل[1]، والمدة في الحالين لا تزيد، ولكنني بمجرد أن التقيت به أحسست بأني أعرفه منذ سنين تُعَد بالعشرات، لا بالآحاد، وكأن الأرواح قد تعارفت قبل أن تتلاقى الأشباح، وكأن الصورة قد رأيتها، وما لقيتها؛ لأن الأرواح تتآلف وتسبق الائتلاف، وتتقارب وتسبق الاقتراب، ولذلك سرعان ما تصادقنا عندما التقيت به، وكأن صداقتنا ترجع بالماضي على آماد، لا إلى وقت قريب.

إذا اجتمعنا منفرِدَيْن أو في جَمْع، وتبادلنا الأفكار، أحسست بأني لا أنوي فكرة إلا سبقني إليها، وقد أسارع إلى القول بما في خاطره، قبل أن يبديه، وكان ذلك لامتزاج نفوسنا، وصفاء ما في نفسه، وابتعاده عن الالتواء في القول أو الفكر أو الاتجاه، فهو يسير بفكره وقوله وعمله في خط مستقيم، كاستقامة قامته، والخط المستقيم يُعرَف ابتداؤه كما يعرف وسطه وانتهاؤه.

وكانت مجالس نتبادل فيها الحديث على نور من الله، وروحانية نفوس، واستقامة قلوب بيننا، فكنت أتذكر في هذه الصحبة قول النبي - ﷺ -: «إن لله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانتهم من الله» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: قوم تحابّوا بروح من الله على غير أرحام تربطهم، ولا أموال يتعاطونها، والله إنهم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم تلا قوله تعالى ﴿ألا إن أولياء الله لا

---

(١) تاريخ الطبعة الإولى من الكتاب هو سنة ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، ومن خلال هذا التاريخ يعرف تاريخ كلمة الشيخ أبي زهرة رحمه الله تعالى.

خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

تذكرت هذا الأثر النبوي إذ اكتمل بالعمل جمعنا، لكني ولست ممن يتسامى إلى هذه المكانة، وأحسب أن صاحبي يتسامى إليها، أو إني أرجو له ذلك.

وقد جمع الله تعالى لصديقنا اللواء خطاب من الصفات ما تسمو به واحدة منها عن سفاسف الأمور، وتتجه به إلى معاليها.

أولها: الإخلاص في القول والعمل، والإخلاص إذا كان في قلب أشرق، وقذف الله تعالى فيه بنور الحكمة، وكان تفكيره مستقيماً، ولسانه قوياً، وعمله حكيماً، فلا يكون التواء ولا عوج.

ثانيها: الإدراك الواسع، والعلم بما حوله، وتعرّف الأمور من وجوهها، وإدراكها من مصادرها فقلمه نقي، وفكره ألمعي . . .

وثالثها: إيمان صادق بالله، ورسوله النبي الأمين، ولذلك يتَّبع سيرة السالفين، ويجعل منهم نوراً يُهتَدى به، ويعلم منه أعلام الهداية.

ويكمل هذه الصفات التي هي بمنزلة السجايا والملكات، همة عالية، وتجربة ماضية، وخبرة بالعلم والحروب، وخصوصاً ما كان بين العرب واليهود.

(وهو عالم في العربية، وملم إلماماً عظيماً بشؤون الدين، وقارىء يتقصَّى الحقائق فيما يقرأ، يتعرّف ما تسطره الأقلام، وما وراء ما تسطره، ينفر من تقليد الفرنجة، ويُؤْثر ما في القرآن والسنة وما كان عليه السلف الصالح، وهو ممن يؤثرون الاتباع، ولا يرضون عن الابتداع، سلفي في إيمانه وعمله، قوي في تفكيره، ويهضم ما جدَّ في العصر بما في قلبه من إيمان راسخ، واتباع مستقيم، وله مع كل هذا قلم بارع مصور، وكتابته من قبيل

السهل الممتنع، وفقَّهه الله تعالى وهداه)[1].

حسْب اللواء الخطاب هذه الشهادة الحقة المنصفة المحبة الصادقة تأتي من إمام زمانه، وفقيه عصره العلامة الشيخ محمد أبو زهرة الذي ترجم لأعلام الفقه وأئمة الاجتهاد أبي حنيفة ومالك الشافعي وأحمد وغيرهم فأوفى وأبدع، رحمه الله رحمة واسعة، وأجزل مثوبته، وطيَّب ثراه.

(١١) وكان من جهاده الدعوي - رحمه الله تعالى - أنه سخّر قلمه وفكره في الدعوة إلى الله سبحانه إيماناً به، ويقيناً بنصره، واعتزازاً بدينه، ودعوة إلى إقامة شرعه، وإعلاء كلمته، وجهاداً في سبيله، واقتداء برسوله، وتأسياً بصحابة نبيه، وتعريفاً بسيرة المصطفى - ﷺ -، وسيرة القادة الفاتحين - رضي الله تعالى عنهم - وإبرازاً لعظمة الأمة الإسلامية، وعظمة تاريخها، وعظمة حضارتها، وعظمة الانتماء إلى أمجادها، ودعوة لا تعرف الملل ولا السأم إلى إعلان الحرب الحقيقية والصادقة على الاستعمار بكل أشكاله وألوانه، وخاصة الاستعمار الفكري ومَن يمثله من المستشرقين والعلمانيين والملحدين والمتحللين ودعاة التغريب والتقليد.

وكشاهد على ما أقول؛ فقد كتب تقريظاً لكتاب غزوة بدر الكبرى تأليف الشيخ محمد أحمد باشميل[2] - رحمه الله تعالى - قال فيه: (لقد كان الرسول القائد - صلوات الله وتسليمه عليه - أسوة حسنة لأصحابه بأعماله لا بأقواله، وشتان بين الأعمال والأقوال، فلا موعظة في كلام لم يمتلىء من نفس صاحبه ليكون عملاً، فيتحول في النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلاماً.

---

(١) من مقدمة الإمام محمد أبو زهرة لكتاب الخطاب (بين العقيدة والقيادة) ١٠-١٢ أنصح بقراءة المقدمة كاملة والتي تبلغ قرابة عشرين صفحة (٩-٢٨).

(٢) انظر كتابه (غزوة بدر الكبرى) وسلسلة معارك الإسلام الفاصلة (٨-١٤).

ذلك هو الرسول القائد - ﷺ - أما جنوده فكان أمرهم كله عجباً . . . كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويؤثرون عقيدتهم على آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم وأموالهم، بل يؤثرون عقيدتهم على أنفسهم، فيتسابقون إلى الشهادة، فيقول أحدهم للآخر: (هنيئاً لك الشهادة)، وتقول الأمهات والأخوات والزوجات حين يعلمن باستشهاد ذويهن (الحمد لله الذي أكرمهم بالشهادة).

وهؤلاء قادة وجنوداً يبنون للمستقبل، فيعتبرون العلم فريضة لا نافلة، ويعتبرونه عبادة لا تجارة، ويعتبرونه غاية لا وسيلة . . . !

كانوا إخوة في الله يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، وكانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكانوا كالجسد السليم المعافى إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى!.

هؤلاء قادة وجنوداً، كانوا يبنون ولا يهدمون، ويعمرون ولا يخربون، ويفعلون ولا يقولون.

كان انتصار المسلمين في بدر، إيذاناً بمولد دولة الإسلام عملياً، فقاد المسلمون بعدها العالم إلى الخير والصلاح، والمدنية والنور، قروناً طويلة.

وكان انتصارهم بالإسلام، ولن ينتصروا بغيره، وتاريخ المسلمين خير دليل على ذلك.

وكان العرب في الجاهلية متفرقين فتوحدوا بالإسلام، وكانوا أعداء فألف الإسلام بين قلوبهم، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الإسلام منها، فأصبح العرب بالإسلام وحدة رصينة ودولة عظيمة، وأمة متماسكة، وقوة ضارية، وجدت لها متنفساً بالفتح الإسلامي العظيم، فسارت رايات العرب المسلمين تهدي الدنيا، وتحضّر العالم، وتمدّن الناس، فامتدت دولة الإسلام

من سيبيريا شمالاً إلى فرنسا غرباً، إلى الصين شرقاً، إلى المحيط جنوباً.

كانوا ضعفاء فأصبحوا بالإسلام أقوياء، وكانوا أعداء فأصبحوا إخوة، وكانوا مستعبدين فأصبحوا فاتحين.

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فأصبحوا مستعمَرين مستعبدين، أذلاء غثاء كغثاء السيل، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أصبح هؤلاء الخلف يستوردون المبادىء من الشرق والغرب، مبهورين متخاذلين، وأصبحوا يتعشقون تراث الأجنبي، ويحتقرون تراثهم، ويتدارسون تاريخ أعدائهم، ويتركون تاريخهم وراءهم ظهرياً، حتى أصبحنا نسمع بعض العرب المسلمين يقولون ويكتبون ويذيعون علناً باسم الثقافة وباسم التحرر ما لم يستطع أن يقوله أو يكتبه أو يذيعه المبشرون وأعداء الإسلام.

وإذا كان أكثر المستشرقين قد بذلوا قصارى جهدهم لتعميق آثار الاستعمار الفكري بين العرب والمسلمين، فما عذر المستغربين من العرب المسلمين.

إن الدعوة التي تبناها المبشرون وعملاء الاستعمار وأذنابهم في إبعاد الدين الإسلامي عن الحياة دعوة مريبة؛ هدفها إبعاد العرب عن الناحية المعنوية في حياتهم، فالعرب جسم والإسلام روحه، ولا بقاء للجسم بدون روح.

والدعوة التي تبناها هؤلاء لاستعمال العامية بدل العربية الفصحى دعوة مريبة، هدفها أن يجعلوا من الأمة العربية أمماً، ومن الشعب العربي شعوباً؛ لأن اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولغة الرسول - ﷺ - ولغة قادة الفتح وجنوده، ولغة الفكر وجنوده.

والدعوة التي تبناها هؤلاء لإشاعة الفاحشة والتخنث في العرب خلافاً لعقيدتهم وتقاليدهم، دعوة مريبة، لا تخدم غير الاستعمار، وأعداء العرب،

وإسرائيل، وكيف تنتظر من الديوثين والبغايا أن يبذلوا أرواحهم في ميادين الشرف والفداء؟؟!!

إني أتحدّى كل من يزعم أن هناك عقيدة أفضل من عقيدتنا، وأن هناك رجالاً أعظم من رجالنا، وأن هناك تاريخاً أنصع من تاريخنا، وأن هناك تراثاً أروع من تراثنا . . .

والذين يزعمون أنهم طردوا الاستعمار العسكري والاستعمار السياسي والاستعمار الاقتصادي من بلادهم ثم يعملون ليلاً ونهاراً على ترسيخ الاستعمار الفكري في بلادهم، لم يصنعوا شيئاً أكثر من إخراج الاستعمار من باب ضيق، وإدخاله بمحض إرادتهم من باب فسيح.

نطرد الاستعمار، ثم نترجم قوانينه، ونعمل بها نصاً وروحاً، فنشيع في بلادنا فجور القانون . . .

ونتخلص من الاستعمار، ثم نستورد مبادئه ونطبقها حرفياً فنستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . . .

ونحارب الاستعمار، ثم نستورد منه التحلل الخلقي، فنفسد جيلنا الصاعد، ونشيع بينهم الفاحشة والمنكر. عقوبة السارق في الإسلام قطع اليد، فيقول عن ذلك الجهلاء منا: أن ذلك رجعية، وهذا همجية، وهو لا يتفق مع روح القرن العشرين!!

عقوبة السارق في أعظم دول الاشتراكية الإعدام، فيقول عن ذلك الجهلاء منا: هذه تقدمية وهذه مثالية، وهذا يتفق مع روح القرن العشرين؟؟!!

فلمصلحة مَن هذا التهافت الذليل؟؟!! وأي استعمار فكري شنيع نعاني؟؟!!

إن الذين يدَّعون بأن السلوك السياسي لا علاقة له بالسلوك الشخصي التزاماً

بالمبادىء الخلقية الرفيعة واهمون كل الوهم، أو أغبياء كل الغباوة، أو عملاء كل العمالة.

والذين يريدون إشاعة الفحشاء والتخنث في أبنائنا لا يخدمون غير الاستعمار وإسرائيل.

إن عقيدتنا المستمدة من رسالة السماء، وتاريخنا الذي هو التطبيق العملي لتعاليم الإسلام، ورجالنا الذين هم الترجمة العملية لروح الإسلام، وتراثنا الذي هو حصيلة الفكر الإسلامي هي أعظم وأرفع وأنصع وأروع وأنقى وأطهر وأسمى وأبهر من كل ما وجد على الأرض من عقائد وتواريخ وتراث.

وأتحدى كل من يدعي خلاف ذلك، إلا أن يكون جاهلاً أو غبياً أو عميلاً، فلا يجدي شيء مع الجهلاء والأغبياء والعملاء . . .

إن الماضي هو أساس الحاضر والمستقبل، فكيف نتنكر لماضينا المجيد؟

وهل هناك عاقل يبدأ ببناء البنيان أول ما يبدأ من قمته؟!!

إننا سُدْنا بالإسلام عقيدة وعملاً وتضحية وفداء، ولن نَسُوْد بغيره أبداً مهما نحاول من محاولات.

إن الإسلام مفخرة الدنيا ومعجزة العالم، فيجب أن نهاجم به أعداء الإسلام.

يا أتباع محمد - ﷺ - في كل مكان من دار الإسلام!

يجب أن تهاجموا بالإسلام أعداء الإسلام، فلا يقولن قائل بعد اليوم: إنني أدافع عن الإسلام لأن الإسلام أقوى من أن يدافع عنه إنسان. ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ . . . .

﴾[1].

تمسكوا بالإسلام بما فيه من تكاليف التضحية والفداء، وبذلك وحده تعودون إلى قيادة العالم كما فعل أجدادكم من قبل، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2].

رددوا معي ما كان يردده السلف الصالح من رجالنا الغرِّ الميامين: (يا نصر الله اقترب).

إننا مع المسلمين في كل مكان على أعدائهم في كل مكان، فهم إخواننا في الدين، وهم إخواننا في الله والله يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3] وعلينا واجب نصرهم، والذي لا ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً عليه ألا يدّعي الإسلام.

إننا مع لغة القرآن لغة النبي -ﷺ- ولغة العرب الفاتحين، على دعاة العامية الذين يتظاهرون بالشعارات الزائفة، ويخفون ما لا يظهرون.

وكل من لا يكون مع مبادىء القرآن ولغة القرآن، منحرف عن الحق، يعمل لحساب الاستعمار وإسرائيل ولو تظاهر بالعروبة والإسلام.

وإلى هؤلاء المنحرفين، أقول مذكراً ومنذراً ما قاله الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[4].

---

(١) سورة الحج (٣٨-٣٩).
(٢) سورة الأعراف (٩٦).
(٣) سورة الحجرات (١٠).
(٤) حين سمع الصحابة قوله -ﷺ-: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا يارسول الله: ننصره إذا كان مظلوماً، فكيف إذا كان ظالماً؟ قال: تردى من ظلمه فذلك =

وحَّد الله العرب من المحيط إلى الخليج تحت لواء الإسلام، وجعل وحدتهم قاعدة رصينة لوحدة المسلمين من المحيط إلى المحيط، فالعرب بالإسلام كل شيء.

والحمد لله كثيراً وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله، سيد القادات وقائد السادات، ورجل الرجال وبطل الأبطال، ورضي الله عن أصحابه، وعن كل من يخدم العرب والإسلام بأمانة وإخلاص.

هذه السطور تحكي - في مجملها - المنهج الدعوي الذي التزمه الداعية المجاهد اللواء الركن محمود شيت خطاب، بدأ فيه وأعاده في سائر كتبه وبحوثه، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعو بالعلم والحجة والبرهان، يوقظ في الأمة مشاعر الإيمان واليقين، ويحيي فيهم عزة الانتماء إلى الإسلام، ويجدّد فيهم الأمل والرجاء، ويحارب لديهم اليأس والقنوط، ويعطيهم من نماذج القدوة والأسوة ما ينمي فيهم العواطف الدينية، ويولد عندهم مشاعر الحب لله سبحانه ولسيدنا رسول الله - ﷺ - وللقادة الفاتحين والأئمة الأعلام، وما سينهض هممهم وعزائمهم للدعوة إلى الله، والذود عن دين الله، ومواجهة أعداء الله، بكل عزة وشجاعة وحمية، واستبسال وإخلاص.

(١٢) ويبدع الراحل الكريم أيما إبداع في ميدان الجهاد العلمي، فقد قدّم للمكتبة العربية والإسلامية (٣٥٤)[1] إنجازاً علمياً منها (١٢٦) كتاباً و (٢٢٨) بحثاً. أما البحوث فقد نشرت في مختلف المجلات العلمية والدينية والتربوية والعسكرية ....

=نصر له». سورة إبراهيم (٤٥).

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٦.

المتخصصة[1]... أما كتبه فأكثرها مطبوع، وبعضها في طريقه للطبع، وبعضها الآخر لا يزال غير مطبوع. ينتظر دور النشر الملتزمة بهذا العلامة القائد الرائد المؤمن. والذين قرؤوا كتبه أو بعض كتبه - وخاصة ما كتبه في ميدان السيرة النبوية، والتأريخ لحركة الفتح الإسلامي - يعرفون الجهد الضخم والهائل الذي بذله في إعادة صياغة التاريخ العسكري لأمتنا العربية الإسلامية بأسلوب فني متخصص، وبمصطلحات عسكرية حديثة. وكأن الله سبحانه قد هيّأه ليسدّ ثغرة ضخمة في المكتبة الإسلامية الحديثة، لا تقوى عليها مؤسسات علمية ولا جامعات، كما قال الأخ الكريم الأستاذ عمر عبيد حسنة: (تأتي ميزة كتب اللواء الركن محمود شيت خطاب الذي قدّم للمكتبة الإسلامية نحو مائة وستة وعشرين[2] كتاباً وبحثاً بجهوده الفردية في هذا المجال، وذلك ما لم تستطع تقديمه كثير من المؤسسات والجامعات والجماعات.

لقد بدأ خطوة رائدة على طريق تدوين سيرة الرسول - ﷺ - وسيرة قادة الفتح الإسلامي من خلال تصور إسلامي واضح لعوامل النصر والهزيمة المادية والمعنوية، وتخصص عسكري، ولغة عربية مطواعة.

اللواء الركن محمود شيت خطاب من العسكريين الذين نعتز بهم، لأنه أبى السقوط في تربية الاستعمار والتزام منهجه...

تتميز كتاباته بأنها ليست كتابات تراثية فقط، ينبش فيها الماضي دون أن يكون قادراً على التعامل مع الواقع الحاضر، ومتابعة رحلة المستقبل من خلال رؤياه الإسلامية[3]...

---

(١) انظر أسماء الكتب التي ألفها اللواء الخطاب - مطبوعة أو غير مطبوعة - وموضوعات البحوث التي كتبها والمجلات التي نشرتها في سيرته الذاتية ٣-١٠.

(٢) الصحيح كما تقدم بخط الراحل الكريم أنها / ٣٥٤/ مابين كتاب وبحث.

(٣) السيرة الذاتية للخطاب ص١٠.

«كتب دراسات حديثة كثيرة حاول فيها أن يجاهد بقلمه، دفاعاً عن الأمة المسلمة، وتبصيراً لها . . .»[1] مثل هذه الغزارة في الإنتاج العلمي تدل وبالتأكيد على أن الراحل الكريم كان مباركاً في جهده ووقته وعلمه، ملحوظاً بعناية الله، ومسدّداً بتوفيقه، ومشمولاً برعايته . . .

ويزداد قارىء كتبه، والدارس لإنتاجه العلمي الضخم عجباً، لوفرة المصادر والمراجع العربية والأجنبية من أمهات الكتب والأصول التي اعتمدها المؤلف - رحمه الله - في كل معلومة أو خبر وردت في أي كتاب من كتبه أو أي بحث من بحوثه. إضافة إلى الخرائط والرسوم ووسائل الإيضاح التي امتازت بها كتبه.

ويزداد القارىء لهذه الكتب الضخمة الرائدة، والمتابع لهذا الإنتاج العلمي الغزير، يزداد عجباً أكثر فأكثر إذا علم أن الفقيد العزيز لم يكن متفرغاً، وإنما كان ضابطاً في الجيش ويعيش في المعسكرات والثكنات، وبين الجند والمهمات، وفي ساحات التدريب وعلى صهوات الجياد[2]، وفي ميادين التعبية والسلاح والجهاد، وتحت ضغط الأعصاب، ورهق الجسم، وظروف الاستفزاز، وغربة الروح والفكر والتوجه في وسط جيش يقوده علمانيون، ويتحكم فيه ملحدون مفسدون، وحزبيون مما سبق أن تحدث عنه الراحل الكريم.

ويزداد كاتب هذا البحث عجباً، وقد شرفه الله بنشر جزء من تراث الراحل

---

(١) من مقدمة كتاب العسكرية العربية الإسلامية - سلسلة كتاب الأمة - ص١٨و١٩.
(٢) لقد كان اللواء الخطاب في سلاح الفرسان في الجيش العراقي، وكان ضابط ركن لواء الخيالة، ولكنه بعد أن تخرج من كلية الأركان والقيادة احتفظ بشارة الفرسان وأصبح يشغل واجبات الأركان والقيادة في مختلف الجيش (السيرة الذاتية ص١٣ من رسالة ابنته الجامعية).

الكريم، وأشرف على طباعتها، وصحح بعضها، يعجب كيف كان يكتب مؤلفاته على ورق كبير يُصطلح عليه عند أهل الطباعة / A3/ يملأ الصفحة من أولها حتى آخرها، وتكاد السطور يلتصق بعضها ببعض، ولولا أن خطه جميل وحروفه واضحة والحبر الذي يستعمله ظاهرٌ، لما أمكن قراءة ما كتب ـ رحمه الله تعالى ـ.

حقاً لقد كان القائد الخطاب رجلاً صبوراً دؤوباً، يواصل الليل بالنهار، صاحب رسالة ودعوة، من ذوي الهمم والعزائم.

أقدر أن العلامة الخطاب لم يتفرغ كلياً للتأليف والكتابة إلا بعد أن قارب الخمسين من العمر، وبعد أن سُرِّح من الجيش إثر اعتقاله في عهد عبد الكريم قاسم، يقول - رحمه الله تعالى-: (في سنة ١٩٦٨م تموز عينتُ وزيراً للمواصلات، وكنت يومها في مصر رئيساً للجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية التي أعدت المعجمات العسكرية الأربعة الموحدة، فاعتذرت عن قبول هذا المنصب، وآثرت العمل في المجالات العلمية على العمل في المناصب الحكومية، وبقيت في القاهرة حتى أخرجتُ للناس المعجمات العسكرية الموحدة الأربعة، والتي أعيد طبعها مرات كثيرة، وكنت أنا الذي اقترحت توحيد هذه المصطلحات. ثم يسَّر الله عليَّ إذ وضعتها في حيِّز التنفيذ.

وعدت من مصر إلى العراق سنة ١٩٧٣م فعُرِضت عليَّ عدة مناصب حكومية رفيعة، ولكني اعتذرت عن قبولها، وتفرغت كلياً لبحوثي ودراساتي، وللتأليف والتدريس في المدارس والمعاهد والجامعات العسكرية في أرجاء البلاد العربية كلها، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً . . .)[١].

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٤ بتصرف يسير.

(١٣) غذّى - رحمه الله - ببحوثه ومقالاته مختلف الصحف والمجلات العلمية العربية والإسلامية وعلى نطاق البلاد العربية والإسلامية ومنذ سنة ١٩٥٤م، يصعب حصرها، ولكن أشير إلى أهمها: مجلة المجمع العلمي العربي - مجلة مجمع اللغة العربية المصري - مجلة مجمع اللغة العربية السوري - مجلة العربي الكويتية - مجلة الأزهر المصرية - مجلة الفيصل السعودية - مجلة الحرس الوطني السعودية - مجلة الأمة القطرية - مجلة دعوة الحق المغربية - مجموعة بحوث مجمع اللغة العربية المصري - مجموعة بحوث مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف - مجلة المورد العراقية - مجلة رسالة الخليج العربي - مجلة التربية الإسلامية العراقية - مجلة الرسالة المصرية - مجلة حضارة الإسلام السورية - مجلة المسلمون - مجلة كلية الملك خالد العسكرية - مجلة الجندي المسلم السعودية - مجلة التمدن الإسلامي السورية - مجلة المجمع الفقهي (مكة المكرمة) - مجلة الوثيقة البحرانية - مجلة المؤرخ العربي - مجلة الحضارة الإسلامية التي يصدرها مجمع البحوث الإسلامية الأردني - مجلة الوعي الإسلامي الكويتية . . .

في كل هذه المجلات العلمية وعلى مختلف أرجاء الوطن العربي أسهم الراحل الكريم في نشر بحوثه ومقالاته، وفي مختلف الموضوعات العسكرية والتاريخية والتربوية والأدبية والروحية والاجتماعية والسياسية . . . نثراً أو قصة أو شعراً، هذا غير إسهاماته في عشرات الصحف اليومية في العراق وغيرها.

(١٤) وكان للراحل برامج إذاعية وتلفازية في معظم الإذاعات العربية[1]، قدَّم من خلالها أفكاره ومبادئه ومعارفه في السيرة النبوية والتاريخ العربي

---

(١) منها: إذاعات القاهرة وبغداد والإمارات والسعودية والمغرب.

العسكري وقادة الفتح الإسلامي والعدو الصهيوني والأسلحة المتطورة واللغة العسكرية والدفاع عن العربية والإسلام ديناً.

ثم يقول - رحمه الله - في نهاية ترجمته لنفسه والتي كتبها وبخطه: (وصاحب الترجمة متفرغ تفرغاً كاملاً لدراساته وبحوثه وتأليفه، ولولا تفرغه الكامل لما استطاع أن يصنع شيئاً يذكر، فقد بدَّد عمله الوظيفي وقته سُدى، وما أكثر الذين يحبون الوظائف الحكومية، وبخاصة الرفيعة منها، التي غالباً ما تُثري الجيب وتفرح القلب، وما أقل الذين يحبون التفرغ للعلم وحده، وأجره على الله).

ويقول كذلك عن نفسه بصيغة الغائب - تواضعاً - إنه يحب التفرغ الكامل المطلق للعلم وحده، بقدر كرهه للمناصب الحكومية، مهما تكن منزلتها، فلولا فضل الله تعالى وتوفيقه له، الذي أتاح له التفرغ الكامل المطلق، لما استطاع أن ينجز (٣٥٤) كتاباً وبحثاً.

وصدق الإمام الشافعي - رضي الله عنه - في قولته: (لو كلفت بشراء بَصَلة لما استطعتُ حل مسألة) فالحمد لله على توفيقه، والشكر له على تسديده، فما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله[١].

(١٥) تنوعت الموضوعات التي كتب فيها العلامة الخطاب كتبه وبحوثه، وقد صنف هذه الموضوعات في خمسة محاور هي:

أ - <u>محور السيرة النبوية والتاريخ العربي الإسلامي من الناحية العسكرية:</u>

للراحل الكريم اللواء الخطاب في هذا المجال الكتب التالية: الرسول

---

(١) انظر سيرته الذاتية ص١٦.

القائد - ﷺ - قادة النبي - ﷺ - بين العقيدة والقيادة - الشورى العسكرية في عهد الرسالة - جيش الرسول - ﷺ - سفراء النبي - ﷺ - السفارات النبوية - الشورى في المواثيق والمعاهدات النبوية - الأنصار والأمم قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه - قادة فتح العراق والجزيرة - قادة فتح بلاد فارس - قادة فتح بلاد الشام ومصر- قادة فتح بلاد المغرب العربي - قادة فتح السند وأفغانستان - قادة فتح أرمينيا - قادة فتح بلاد الروم - قادة فتح بلاد ما وراء النهر - قادة فتح الأندلس - الصديق القائد - خالد بن الوليد - عقبة بن نافع الفهري - دروس في الكتمان من الرسول القائد عليه الصلاة والسلام - غزوة بدر الكبرى - غزوة بدر الكبرى وعبرتها لحاضر المسلمين ومستقبلهم - ومضات من نور المصطفى (مختصر السيرة)- . . . وكتب العلامة المؤرخ الخطاب بحوثاً كثيرة في هذا المجال، منشورة في أرقى المجلات العربية المعتمدة[١].

ويعلل اللواء الخطاب اهتمامه بالكتابة في هذا المحور بقوله: كنت في بداية حياتي العسكرية، أقرأ عن قادة الأجانب الذين غزوا البلاد العربية، ومعارك الأجانب التي استعمروا بها البلاد العربية، ولم تكن المدارس والمعاهد والكليات العسكرية العربية تدرس تلاميذها وطلابها العرب عن قادة الفتح الإسلامي، ولا عن معارك الفتوح الإسلامية ولا عن غزوات النبي -ﷺ-. وبعد مثابرة مني بَدَأتْ قبل أربعين سنة، واستمرت بدون كلل ولا ملل - حتى اليوم - تبدّل الحال غير الحال - والحمد لله - فأصبحت المدارس والمعاهد والجامعات العسكرية تعج بنشاطها المثمر في دراسة قادة الفتح الإسلامي ومعارك الفتوح وغزوات الرسول القائد عليه الصلاة والسلام[٢].

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٤.

(٢) المرجع السابق.

ب - محور اللغة العسكرية:

للعلامة اللواء الركن محمود شيت خطاب الكتب التالية: المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم[١] - المصطلحات العسكرية في كتاب المخصص لابن سيدة - المعجمات العسكرية الموحدة الأربعة للجيوش العربية (وكانت هذه المعجمات محل فخر واعتزاز اللواء الخطاب بصورة خاصة؛ ذلك لأن توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية كانت حلمه، ووُضِعت باقتراحه، ونُفِذت بجهده، واعتُمدت برأيه، يقول متحدثاً بنعمة الله عليه: فشاعت لغة القرآن الكريم في الجيوش العربية، بدلاً من لغات المستعمر الصليبي، ويكفي أن أذكر أن أحد الجيوش العربية كانت كل مصطلحاته العسكرية فرنسية، فأصبح اليوم ولله الحمد كل مصطلحاته العسكرية عربية، وأن أذكر أن نصف مصطلحات جيش مصر العسكرية - بلد الأزهر الشريف - كانت تركية وبريطانية، فأصبحت كل مصطلحات جيش مصر عربية خالصة)[٢].

ويشمل هذا المحور مؤلفاته التالية: أهمية توحيد المصطلحات العسكرية - المعجم العسكري الموحد (عربي - إنجليزي بالاشتراك) - المعجم العسكري الموحد (فرنسي - عربي بالاشتراك) - المعجم العسكري الموحد (عربي - فرنسي بالاشتراك) تعريب المصطلحات العسكرية وتوحيدها - دراسات في الوحدة العسكرية العربية - الوحدة العسكرية العربية - الأدلة الرسمية في التعابي (تحقيق)[٣].

---

(١) وهو جزءان.

(٢) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٤.

(٣) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص٤-٦.

ويمكن أن نشير في هذا المجال اللغوي أنه قد سبق للعلامة الخطاب - رحمه الله - أن اقترح على مجمع البحوث بالأزهر الشريف أن يؤلّف معجماً للقرآن الكريم، يشرح الألفاظ اللغوية، والأسماء التاريخية والجغرافية والعلمية، بحسب المعجمات العربية المعروفة، كما هو الحال في معجمات الكتب المقدسة الأخرى، والتي صدرت بمختلف اللغات، ومنها العربية، لغرض الاستفادة منها؛ أي من معجم القرآن الكريم، لاستخراج معاني الكلمات بسهولة وسرعة، مما يكون المسلم بحاجة إليه من معاني القرآن الكريم لغة وتاريخاً وجغرافية وعلوماً . . . وافق مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف على هذا الاقتراح، وقرّر تشكيل لجنة للنهوض بهذا المشروع، ولكن ظروف العراق في الحرب(١) عرقلت تحقيق المشروع، وكان - رحمه الله - حتى آخر لحظة في حياته يؤمل أن ينجز هذا المشروع وأن يرى النور، فيقول: والأمل وطيد في تحقيقه في المستقبل القريب - بإذن الله بعد أن وضعت الحرب(٢) أوزارها، وزالت الظروف التي حالت دون تحقيقه(٣).

ج ـ المحور الثالث: محور العدو الصهيوني:

هدف اللواء الخطاب في هذا الميدان - كما يقول -(٤): أن يعرف العرب والمسلمون عدوهم على حقيقته، لا كما يحلو للعدو الصهيوني أن يعرف العرب والمسلمون عنه وتأتي أهمية التأليف والكتابة في هذا الميدان وفي ذلك الوقت أن المعلومات الميسرة عن العدو الصهيوني كانت قليلة ومضللة

---

(١) لعله يعني الحرب العراقية الإيرانية.
(٢) يؤسفنا أن الحرب الخليجية الأولى لم تكد تنتهي حتى وقعت الحرب الخليجية الثانية.
(٣) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٦.
(٤) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٤.

أيضاً بالنسبة للعرب بخاصة والمسلمين بعامة، فكان هذا الجهل المطبق بالعدو الصهيوني من أهم أسباب نكسة ١٩٦٧م التي أصيب بها العرب والمسلمون في الحرب العربية الصهيونية، هي قلة المعلومات الميسَّرة عن العدو الصهيوني لدى العرب، وغزارة المعلومات الميسّرة عن العرب لدى عدوهم الصهيوني، فقاتل العرب في تلك الحرب عدواً لا يكادون يعرفون عنه شيئاً، فكانوا كمن يقاتل عدوه في ظلام دامس، في منطقة مجهولة، وهو معصوب العينين!!..

وكان من الصعب للغاية أن يحاضر المحاضر، أو يؤلف المؤلف بعد تلك الحرب في العسكرية الصهيونية، لأن المصادر العربية يومئذ كانت نادرة أو لا وجود لها، ولأن المصادر الأجنبية ممنوعة في البلاد العربية فلا تصل إلى المحاضر أو المؤلف العربي، ولأن كشف الحقائق عن العدو الصهيوني بالنسبة للمحاضر العربي والمؤلف العربي قد يؤدي على اتهامه بالانحياز إلى العدو، وإذا لم يكشف المحاضر أو المؤلف الحقائق كان مقصراً في حق عقيدته وأمته وأمانته...

فلا عجب أن يعتذر كل من فوتح بأن يحاضر أو يؤلف عن العدو الصهيوني في حينه، أي بعد حرب / ١٩٦٧م/ [1] لكن الرائد القائد اللواء الركن محمود شيت خطاب اقتحم هذا الميدان بجرأة وكفاءة عالية واقتدار، وقرر أن يحاضر ويؤلف في العسكرية الإسرائيلية، وبدأ بإلقاء محاضراته على طلاب معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة، وكان عدد الطلاب يومئذ لا يزيدون عن مائة طالب، ولكن الذين كانوا يحضرون هذه المحاضرات أكثر من ثلاثمائة عدداً، بينهم عدد لا يستهان به من ضباط

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٤و١٥.

المخابرات المصرية، ثم امتدت المحاضرات إلى الكليات والجامعات المصرية وغيرها من الأقطار العربية، فكان أول من بدأ بإلقاء محاضرات عامة عن عسكرية العدو الصهيوني، وأول من ألف في هذا الموضوع[1]. . .

صدر للواء الخطاب في هذا المحور الكتب التالية: أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية - الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها - حقيقة إسرائيل - الوجيز في العسكرية الإسرائيلية - العسكرية الإسرائيلية - العدو الصهيوني والأسلحة المتطورة[2].

ولعله من المناسب أن نضيف هنا وفي هذا المحور كتباً ألّفها الخطاب يستنهض فيها همم المسلمين وعزائمهم، لمواجهة العدو الصهيوني المتغطرس، وللجهاد لإعزاز دين الله، ونصرة شريعته، وتحرير الأرض الإسلامية المقدسة، فلسطين والأقصى الشريف. . . من هذه الكتب التي ألفها الخطاب في هذا الميدان: إرادة الجهاد في الجهاد الإسلامي - طريق النصر في معركة الثأر - الوحدة العسكرية العربية - بين العقيدة والقيادة[3]. . .

د - المحور الرابع: محور الدعوة الإسلامية والدفاع عن الإسلام ديناً والعربية لغةً:

في هذا المحور ألف الداعية اللواء الركن الخطاب الكتب التالية: دروس في الكتمان من الرسول القائد عليه الصلاة والسلام - الرسالة العسكرية للمسجد - طريق النصر في معركة الثأر - ومضات من نور المصطفى - أقباس روحانية - نفحات روحانية - الإسلام والنصر - عدالة السماء (قصص هادفة)

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٥.

(٢) صدر عام ١٩٦٧ وتوالت طبعاته.

(٣) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص٦.

- تدابير القدر (قصص هادفة) - سفراء النبي - ﷺ - الرقيب العتيد (قصص هادفة) - اليوم الموعود (قصص هادفة) السفارات النبوية . . . .

والداعية الخطاب - عليه رحمة الله ورضوانه - يعتبر خادماً في ميدان الدعوة إلى الله ولهذا الدين العظيم، في كل ما كتب وألّف، يقول: والواقع أن المحاور الأربعة هي في واقعها تنصب في محور الدعوة؛ فمحور التاريخ العسكري العربي الإسلامي هو لاستعادة معنويات العرب والمسلمين إليهم، واستعادة ثقتهم بدينهم الذي يقودهم إلى النصر، كما قاد أجدادهم إلى النصر، ومحور كشف العدو الصهيوني للعرب والمسلمين، هو دعوة إلى الله أيضاً، ليستعيد العرب والمسلمون أسباب النصر على عدوهم، لأن العزة لله ولرسوله والمؤمنين، ومحور اللغة العسكرية هو الاعتزاز بلغة القرآن الكريم، والإثبات عملياً أنها صالحة لغة للعلم في مختلف الظروف والأحوال، والأمكنة والأزمنة[١].

وكان اللواء الخطاب يعتزُّ باللغة العربية، ويفتخر بها، ويحرص في دروسه ومحاضراته على الحديث باللغة العربية الفصحى، ولا عجب في ذلك فقد تمرّس بالنطق بالعربية مذ كان طالباً في المرحلة الإعدادية، حين كان يقرأ في مجلس الحي - وبحضرة والده وكبار علماء الموصل وفقهائها - كتب التاريخ على مسامعهم، ومن ثم فقد كان مضطراً للعناية بقواعد اللغة العربية وضبط الألفاظ، لكي لا يقع عرضة للانتقادات أو اللوم من والده، بل قرأ عليهم كتاب المستدرك لسيبويه، ونتيجة لذلك فقد كان فذاً في علم النحو الصرف[٢].

يقول - رحمه الله - محدثاً بنعمة الله عليه ومظهراً اعتزازه بلغة القرآن

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٥.
(٢) المرجع السابق.

الكريم، اللغة العربية: أحرص حرصاً لا مزيد عليه على تدريس العلوم كافة في الجامعات العربية باللغة العربية الفصحى، ولا أرضى أبداً باستعمال اللغة العامية المحلية في معاهد العلم، لأنني أُرى في ذلك تفريقاً للأمة العربية التي تجمعها الفصحى، وتفرقها العامية، ولا أقبل باستبدال الأرقام العربية بالأرقام الفرنجية المستعملة في قسم من أقطار المغرب العربي لأنني أرى أن الأرقام المستعملة في المشرق العربي هي الأصل، والأرقام المستعملة في المغرب العربي عربية بالاسم لا بالواقع.

ثم ذكر أنه يعمل في المجمع العلمي العراقي في اللجان التالية: لجنة الحضارة - لجنة الهندسة - لجنة الزراعة - اللجنة العامة لإقرار مصطلحات لجان المجامع، مجتهداً في مجال وضع المصطلحات العربية لمصطلحات تلك العلوم بالتعاون مع أعضاء تلك اللجان من أعضاء المجمع العلمي العراقي، ومن الخبراء المتخصصين.

هذا بالإضافة إلى ترؤسه للجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية، ويسعى الخطاب في هذا الميدان سعياً حثيثاً دائباً على وضع المصطلحات العسكرية باللغة العربية، عوضاً عن المصطلحات العسكرية المستخدمة في اللغات الأجنبية[١].

ولولا خشيتي أن تطول هذه المقدمة فيملَّ القارىء الكريم لتحدثت عن الجانب الشعري في حياة الخطاب كشاهد على تفوقه في اللغة العربية، وحبه لها، واعتزازه بها، وأنه - رحمه الله - طرق كل فنونها نثراً وقصة وشعراً، ولكنني أترك ذلك للأدباء والنقاد وأرباب الاختصاص، أو عسى أن يبارك الله لي في الوقت والجهد فأصدر كتاباً موسعاً في ترجمة القائد اللواء الركن محمود

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٥.

شيت خطاب، ويكون شعره فصلاً من فصول هذا الكتاب، أسأل الله أن يوفقني إلى ذلك، وأن يعينني عليه، وأن يفيدني مما سكبه في قلبي من حب لهذا الرجل، وتقدير له.

هـ - المحور الخامس: في الميدان العسكري التخصصي والفني:

أشار اللواء الخطاب لهذا المحور في مقدمة حديثه عن المحاور التي كتب فيها مؤلفاته وبحوثه، وقد فصَّل في الكلام في المحاور الأربعة[1]، لكنه ترك التفصيل في المحور الخامس.

وبالرجوع إلى قائمة كتب الخطاب - رحمه الله - استنتجت هذا المحور، وهذا العنوان. وقد كتب في هذا الميدان الكتب التالية: الأدلة الرسمية في التعابي الحربية (تحقيق) - المشير فون ردشتر . . التدريب الفردي ليلاً (يجري التدريب بموجبه في كثير من جيوش الدول العربية، وقد صدرت منه عدة طبعات) - القضايا الإدارية في الميدان (وهو كتاب تدريبي فني)[2]. ولا شك أن كل ما كتبه مما سبق الحديث عنه كان في ميدان تخصصه.

وما أظن إلا أن القارىء الكريم يشاركني الرأي بعد الاطلاع على هذا التراث العلمي الضخم والمتعدد الجوانب، والذي تفرَّد اللواء الخطاب في الإبداع في كثير من هذه الجوانب، وكان له فيه فضل السبق والريادة . . .

بالتأكيد سيشاركني القارىء الكريم الرأي أن اللواء الركن محمود شيت خطاب، كان واحداً من عظماء الأمة في القرن العشرين، وواحداً من قادتها المخلصين، وروادها الأعلام، ودعاتها المخلصين الأبرار الذين قرنوا العلم بالعمل، والقول بالفعل، وأنه سدَّ ثغرة ضخمة في المكتبة العسكرية والتاريخية

---

(١) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص١٤-١٦.
(٢) السيرة الذاتية للواء الخطاب ص٧.

والحضارية، وأنه قام ولوحده بعبء علمي ضخم تعجز عنه جامعات ومعاهد بأكملها. رحمه الله رحمة واسعة وأجزل مثوبته.

(١٦) وفي ختام هذه الترجمة الموجزة لحياة اللواء الركن محمود شيت خطاب أستأذن الأخ القارىء الكريم أن أحكي قصة لقائي به، وتعرفي عليه، والشرف العظيم الذي أنالني إياه بانتدابه لي لخدمته ونشر كتبه، وتفويضي بتوقيع العقود عنه لنشر مخطوطاته التي لم تطبع بعد، وإعادة نشر كتبه التي طبعت في السابق.

لقيت الفقيد العزيز في منزله الكائن في بغداد - حي اليرموك - مرتين، وصحبة الأخوين العزيزين: الأديب الأستاذ عبد الله الطنطاوي، والشاعر الأستاذ محمد محمود الحسناوي، وذلك أواخر الثمانينات، ولقيته مرة ثالثة مع الأديبة الكبيرة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) - رحمها الله - فقد كانت متلهفة للقائه، ولا تعرف بيته ولا عنوانه، ولا أدري مَن أرشدها إليَّ حتى أصحبها للقاء العلامة اللواء الخطاب، فلما التقيناه، أقبلت عليه محجبة بأدب ودود واحترام بالغ، وتواضع جم، وأرادت أن تقبل يده كأنها تلقى أباها أو عمها.

لقيته شيخاً جليلاً، وعالماً وقوراً، يغلبه هم المسلمين، ويبكي مآسيهم، ويتحرق لعمل يستنقذ فيه أمة العرب والإسلام، ويستحث همم جلسائه وزواره، ويحرك عزائمهم، ويثير فيهم الغيرة الدينية للنهوض بواجب الإسلام، والدعوة إليه، والعمل لإعزازه وإعادة مجده.

ويشهد الله أنني منذ لقيته - أول مرة - أحببته في الله، وعزمت على خدمته، تقرباً إلى الله، ونشراً لعلمه، وإشفاقاً على شيخوخته، ورحمة به في مرضه، ولكونه لم يرزق أولاداً ذكوراً يتحركون بين يديه، أضف إلى ذلك أنه لا يتمكن من مغادرة العراق لمرضه وشيخوخته وظروف بلده - التي لا تخفى على أحد

- .

وأثار ألمي حين حكى لي أمر بعض دور النشر التي ابتُلِي بها - وفيها من يدَّعي الإسلام وخدمة الكتاب الإسلامي - . حكى وبأسلوب مؤثر محزن كيف أن هذه الدور التي تعاقدت معه ولطبعة واحدة، تطبع كتبه مرة بعد مرة دون إذنه أو علمه !! تنشرها وتستثمرها وتأكل ثمنها مالاً حراماً، ولا تدفع درهماً واحداً لمن واصل الليل والنهار في تأليفها، وأراق ماء عيونه على صفحاتها، ودفع عشرات الألوف ثمن مراجعها. وزهد بالمنصب الرفيع، والوزارة الكريمة[1]، وتفرغ تفرغاً كاملاً، وانقطع عن دنيا الناس، من أجل أن يكتب لهم، ولأجيالهم القادمة، تاريخ الإسلام، وتاريخ فتوحه، وتاريخ حضارته، وتاريخ قادته بأسلوب جديد ومتميِّز ومتخصِّص، مستثمراً علومه العسكرية التي تلقاها في أرقى الكليات والأكاديميات العسكرية.

كان الأولى بهذه الدور أن يعينوه على تفرغه وأداء رسالته وهم يعلمون بالتأكيد أنه يعيش على راتب[2] تقاعدي قليل، ويعول أسراً فقيرة كثيرة - كما صرح لي بذلك - وعددها ١٦ أسرة.

ووالله لقد سمعته يدعو على دور النشر هذه؛ يدعو عليهم بقلب محروق ونفس شاكية إلى ربها ظلم الأدعياء وعدوان اللصوص.

وشرفني يومها بتفويضي الكامل بنشر إنتاجه العلمي، وحمَّلني ما لديه من مخطوطات وكتب، يود تجديد نشرها، وأعطاني حق توقيع العقود مع دور

---

(١) أقول الوزارة الكريمة لأنها عرضت عليه بتكريم وإلحاح من محبيه وعارفي فضله. ولم يسبق له أن طلبها أو استشرفها في الوقت الذي تندق لها أعناق المنافقين والمستوزرين.

(٢) راتبه الشهري الآن ٥٠٠ ديناراً عراقياً أي ربع دولار فقط، وهو راتب أسرته بعد وفاته كما حكت لي زوجته عام ١٩٩٨م.

النشر في السعودية - حيث أُقيم في جدة منذ عام ١٤٠١هـ و ١٩٨٠م ولم يكن لي يومها خبرة ولا دراية مع دور النشر ولامعرفة بأساليبها، ولكن الراحل الكريم زودني بخطاب لشخصية مرموقة يمتلك دار نشر، وأشهد أن الرجل قد أحسن استقبالي، وتحمَّس لنشر كتب اللواء الركن محمود شيت خطاب - إذ كانت تربطهما علاقات وثيقة، ومحبة متبادلة، وتقدير - وسرعان ما وقعت العقود مع هذه الدار ولكن. . ظللت أغدو وأروح على هذه الدار أربع سنوات دون جدوى، وبعد هذا العناء الطويل قال لي مدير الدار - غفر الله له - نعتذر عن متابعة النشر، فنحن لا نملك المال اللازم، واللواء الخطاب يحتاج إلى دار نشر خاصة به ذات ميزانية ضخمة!! وهكذا استرددت المخطوطات بعد طول انتظار مرهق.

ثم وجهني الراحل الكريم، إلى دار نشر أخرى في الرياض، فذهبت إلى حيث وجهني، وقابلت صاحب دار النشر هذه، وحملت له المخطوطات، ولشد ما كانت دهشتي واستغرابي وألمي حين عرض عليَّ مبلغ خمسة آلاف ريال فقط، ويأخذ حق نشرها جميعاً!! فرفضت ورفض اللواء الخطاب هذا العرض الشحيح الذي يدل بالتأكيد كما يقول اللواء الخطاب - أنهم لا يعرفون قيمة هذه الكتب والمخطوطات ولا يقدرونها حق قدرها، وعرض أحد الأخوة الناشرين الصادقين أن ينشر كتاب (بين العقيدة والقيادة) ووقعت العقد معه، وأرسل الكتاب إلى مصر، ووعده بالسرعة في إنجازه، ثم أخبروه كذباً أنهم سيعرضون الكتاب في معرض القاهرة في شهر رمضان المبارك، ولكن جاء رمضان، وبعده رمضان . . . فلم نجد شيئاً ولم تصلنا نسخة، واتصلنا بهم هاتفياً، وأرسلنا مندوباً، لكننا لم نظفر منهم بشيء!! حسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم تبيَّنت السر وراء هذه المعوقات - لم أكن أعلمه من قبل حتى تكونت

لديَّ بعض الخبرة في شؤون النشر -. السر هو تخوف بعض دور النشر الضعيفة من طواغيت ومتسلطين في عالم نشر الكتاب الإسلامي وغيره، فما أسهل - على من فقد الرقابة لله والخوف من يوم الحساب - أن يسرق الكتاب، ويصوره ويبيعه بأبخس الأثمان، طالما أنه لا يدفع للمؤلف جهده، وحق عيونه، وحق سهره، وحق تفرغه، وحق مراجعه!!! ومن ثم فلا يكلفه الكتاب إلا قيمة الورق وأجر الآلة الناسخة، وكلفة التجليد، وبالنتيجة فإنه يحقق أرباحاً خيالية من كسب حرام ومال خبيث على حساب الناشر الضعيف الملتزم بعقد النشر، وعلى حساب المؤلف المجهد المسكين!!

ويزداد تخوف الناشرين الملتزمين الضعفاء من طواغيت النشر في سوق الكتاب ممن سبق أن وقعوا عقداً مع المؤلف لطبعة واحدة، إذ يزعم هؤلاء أنهم ملكوا الكتاب، وملكوا طباعته في الوقت الذي يريدون دون أن يستأذنوا المؤلف، ودون أن يلتزموا بأي حق مالي تجاهه، كما هي مشكلة اللواء الركن العلامة محمود شيت خطاب مع الذين تولوا له النشر أولاً - إلا من رحم الله وقليل ما هم -.

وفي مقابل هذه المعاناة والصدمات والمشاعر المحبطة أشهد أن إخوة كراماً من أصحاب دور النشر تعاقدوا معي - وبشكل صادق وإيجابي - في طباعة كتب الخطاب، ودفعوا النسبة[1] المقررة واللائقة بالعلامة اللواء الخطاب الذي قرّت عيناه بذلك، فشكر لهم، ودعى لهم . . .

ومن قبيل التحدث بنعمة الله وفضله، فقد أشرفتُ على نشر الكتب التالية من مؤلفات اللواء الخطاب وصححت بعضها، وهي:

---

(١) وهي نسبة ٢٠ في المئة، ولا ينال مثل هذه النسبة العالية إلا عدد قليل من المؤلفين ذوي الشهرة والصيت الذائع.

١ - الشورى العسكرية في عهد الرسالة - الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م صدر عن دار القبلة بجدة ، يقع في ١٥١ صفحة .

٢ - قادة النبي[١] - ﷺ - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م صدر عن دار القلم والدار الشامية - دمشق وصدرت له الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م، يقع في (٦٦٩) صفحة بإشراف الأستاذ محمد علي دولة .

٣ - سفراء النبي - ﷺ - جزءان - الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م - صدر عن دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع جدة، يقع الجزء الأول في (٩٠٢) صفحة ويقع الجزء الثاني في (٣٦٠) صفحة .

٤ - قادة فتح السند وأفغانستان - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م - وهو الجزء الخامس من سلسلة قادة الفتح الإسلامي صدر عن دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع - جدة، يقع في (٤٢٢) صفحة .

٥ - قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر - الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م - وهو الجزء الثامن من سلسلة قادة الفتح الإسلامي صدر عن دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع - جدة، يقع في (٥٢٤) صفحة .

٦ - قادة الفتح الإسلامي في أرمينيا - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م - وهو الجزء السادس من سلسلة قادة الفتح الإسلامي صدر عن دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع - جدة، يقع في (٥٠٤) صفحة[٢] .

٧ - بين العقيدة والقيادة - تقديم الإمام أبي زهرة - الطبعة الأولى[٣] -

---

(١) كان الأصل أن ينشر في جزئين كما أشار المؤلف في سيرته الذاتية ص٧، ولكن الأخ الناشر - حفظه الله - اختار أن ينشره في مجلد واحد.

(٢) هذه الكتب تطبع لأول مرة.

(٣) سبق أن طبع طبعتان في بيروت عام ١٩٧٢م وعام ١٩٨١م.

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م - يقع في (٦٠٨) صفحة صدر عن دار القلم (دمشق) والدار الشامية (بيروت).

٨ - قادة فتح الأندلس - جزءان - ويقع قرابة (١٠٠٠) صفحة، وهو الجزء التاسع من سلسلة قادة الفتح الإسلامي، هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء. ويطبع لأول مرة بإذن الله بإشراف الأستاذ محمد أديب كاتبة.

٩ - قاد فتح بلاد الروم - جزءان - يقع في قرابة (١٠٠٠) صفحة كذلك وهو الجزء السابع من سلسلة قادة الفتح الإسلامي، وهو معد للنشر، سيطبع لأول مرة إن شاء الله.

١٠- الصدِّيق القائد - رضي الله عنه - يقع في (٣٢٠) صفحة، وهو معد للنشر. سيطبع لأول مرة إن شاء الله.

١١- السفارات النبوية، وهو كتابه: (سفراء النبي - ﷺ -)، يقع في (٦٢٥) صفحة، وهو قيد النشر، وسيصدر بإذن الله تعالى قريباً عن المكتبة المكية في مكة المكرمة بإشراف الأستاذ غسان نويلاتي - كما وعد - والكتاب سبق أن أصدره المجمع العلمي العراقي عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ولطبعة واحدة لم يطبع بعدها أبداً.

وأجد واجباً عليَّ أن أشكر هؤلاء الإخوة الناشرين الذين أسهموا معي في خدمة هذا العالم الجليل، وأدخلوا على قلبه السعادة، وأقروا عيونه بنشر تراثه العلمي، ورؤية حصاد فكره وقلمه، وأعانوه على أداء رسالته تجاه دينه وأمته وحضارته، أجزل الله مثوبتهم، وتقبل منهم صالح عملهم.

وإنني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن الراحل الكريم وأسرته الكريمة لأتوجه بأعمق الشكر إلى كل من أسهم معي في إخراج هذه المخطوطات والكتب إلى عالم النور.

وبحكم الأمانة والمسؤولية التي حُمِّلتُها، أمانة التفويض[1] التي شُرِّفتُ بها في حياة اللواء الركن محمود شيت خطاب - بعد مماته من قبل ورثته وأهل بيته - ومسؤولية الدَيْن الثقيل تجاه أسرته الكريمة، أتطلع إلى دار نشر أو مجموعة دور نشر لتأخذ على عاتقها نشر تراث اللواء الركن محمود شيت خطاب كاملاً - كما كان الفقيد يطمح ويتمنى - في طباعة جديدة وأنيقة تليق بقدر هذا العالم الجليل، وتليق بإنتاجه. وستبقى الأمة العربية والإسلامية وأجيالها المتلاحقة بحاجة إلى قراءة هذه الصفحات المشرقة من عصرها الذهبي، وحضارتها الزاهرة، وتاريخها التليد، وعظمائها الأماجد . . . فهل من مجيب؟ وهل من رائد خيِّر يموِّل مثل هذا المشروع؟ بالتأكيد لن تعدم الأمة مثل هؤلاء الرجال. . . وإنا لمنتظرون.

(١٧) لفت نظري وأنا أقرأ سيرة حياته - كما كتبها بخط يده - أن اللواء الخطاب لم يتحدث عن الجانب السياسي في حياته، ولا عن الوزارات التي شغلها، ولا عن المناصب والمهمات التي أداها، ولا عن الملوك والرؤساء الذين قابلهم - وقد رأيت صوره معهم - ولا عن الشخصيات السياسية وكبار القوم الذين لقيهم[2] كل هذا لم يأت اللواء الخطاب على ذكره لا فيما كَتَب ولا فيما كتِب عنه، ولا تحدث عنه في مجالسه مع أن الكتابة في مثل هذه الأمور أو الحديث في مثل هذه الشؤون يمكن أن يكون موضع فخر ومباهاة عند بعض الأشخاص، أو يمكن أن يكون - إن أحسنا الظن - شريطاً لمذكرات وذكريات

---

(١) كان الفقيد رحمه الله - فوضني تفويضاً كاملاً في طباعة كتبه ومخطوطاته، وبالنيابة عنه بتوقيع العقود مع دور النشر، وبعد وفاته جددت زوجته وبناته هذا التفويض.

(٢) وأنا أجزم أنه كان للواء الخطاب كثير مما يمكن أن يقوله أو يكتبه في هذا الشأن بحكم مواقعه ومسؤلياته وعيشه في قلب الأحداث.

. . . وهذه - بلا شك - تفيد كمرجع من مراجع التاريخ الحديث.

ولكن الرجل لم يفعل هذا ولا ذاك، لم يكتب شيئاً في هذا الشأن!! وكأني به - رحمه الله - وبالزهد الذي عاش به، وبالعلم الذي تفرغ له، وبالرسالة التي شغل نفسه بها، كان يؤثر أن يعيش في الظل، بعيداً من أهل الرئاسة والجاه، وبعيداً عن موقع السلطة والنفوذ، وبعيداً عن أهل الثراء والمال، لذلك كنت تراه في ثوبه بسيطاً وفي مسكنه بسيطاً، وفي مجلسه بسيطاً[1] . . .

وفي رأيي وتحليلي المتواضع أن الرجل - طيب الله ثراه - كان يريد أن يقدم نفسه من خلال علمه، ومن خلال كتابه، ومن خلال رسالته في هذه الحياة التي أعطاها جهده وحياته، وأعطاها ليله ونهاره، وأعطاها عصارة فكره ونتاج علمه - أجزل الله مثوبته - هكذا إذا كانت النفوس كباراً، تترفع عن الفخر الزائف، والادعاء الفارغ، والمباهاة التافهة، والاعتزاز السخيف بالمناصب والأشخاص والهيئات!! كان - رحمه الله - يؤثر رضوان الله، وخدمة إسلامه، وإعزاز أمته، ولا يعتز إلا بمثل هذا.

طلبت ذات يوم من قائد عسكري فذ برتبة مشير، تولى رئاسة جمهورية قطر عربي شقيق، أن يكتب مقدمة لكتاب (بين العقيدة والقيادة) وقد أُعجِب بما قرأ منه - فأجابني - حفظه الله -: بكل سرور سأجيبك إلى طلبك، ولي الفخر والشرف أن يقترن اسمي باسم القائد العظيم والعلامة الجليل اللواء الركن محمود شيت خطاب على صفحات هذا الكتاب، فلما أخبرت اللواء الخطاب بذلك ظننت أنه سيفرح وسيقرني على اقتراحي، لكن فوجئت أنه اعتذر عن هذا الاقتراح، وطلب إليَّ إبلاغ فخامة الرئيس المشير[2] . . . شكره وتقديره

---

(١) لم يكن يملك سيارة ولا وسيلة نقل.

(٢) اتصل بي مشكوراً من بلده معتذراً عن عدم استطاعته كتابة المقدمة بسبب كثرة أسفاره ومهماته، وبسبب أنني كنت قد حددت له مدة معينة لضرورة صدور =

وتحياته.

وحكت لي زوجة اللواء الخطاب - حفظها الله - أن وفداً من علماء البلد وأعيانها رغبوا إليه أن يصحبهم لمقابلة مسئول في أمر عام - لكنهم لم يبلغوه أنها مقابلة مع رئيس بلد[١] - فذهب معهم ولكن في ثوب عادي الدشداشة على جسمه، والنعل في قدميه!.

كان رحمه الله عالماً زاهداً بسيطاً متواضعاً، مع أنه كان جبلاً في العلم والفضل والأخلاق. وكان يعتبر ما تولى من مناصب ابتلاء من الله - سبحانه - يقول: (وجاءت سنة (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م) فابتلاني الله بالعمل في السياسة مكرهاً لا بطلاً - كما يقول المثل العربي المشهور - فشمل اتصالي بالعاملين في السفارات العربية كافة، ولم يقتصر على الاتصال بالعاملين في السفارات العربية لدولة عربية واحدة، فلم أجد فرقاً ظاهراً بين زمرة العاملين في السفارات العربية من العرب، كلهم من غير الصفوة المختارة إلا من رحم الله، وقليل ما هم)[٢].

(١٨) لقي العلامة الكبير، والقائد المجاهد، والداعية العامل، والمؤرخ الأديب، اللواء الركن محمود شيت خطاب، لقي وجه ربه الجليل بتاريخ ٢٤ شعبان عام ١٤١٩هـ الموافق ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٨م في منزله الكائن في حي اليرموك ببغداد عاصمة الجمهورية العراقية.

وقد كان قسم الدراسات الإسلامية التابع لكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز في جدة، قد اتخذ توصية بترشيح اللواء الركن محمود شيت خطاب

=الكتاب الذي طال انتظاره، شكر الله له على كل حال.

(١) لأنهم لو أبلغوه فلن يذهب.

(٢) مقدمة كتاب سفراء النبي ﷺ - ص١٠.

لجائزة الملك فيصل التقديرية بتاريخ ٤ شعبان ١٤١٩هـ، وكذلك أصدرت جامعة الإيمان نفس التوصية، وكان المتوقع أن تصدر توصيات أخرى وعن جامعات أخرى في هذا الشأن ولكن سبق قدر الله، واختاره مولاه إلى جواره، وتوقف كل بحث في أمر الترشيح، وكان رحمه الله أحق من يكرم بهذه الجائزة.

ويشاء الله أن تتوالى محن الأمة الإسلامية بفقد علمائها العاملين ووفاة شيوخها الأبرار ورحيل قممها العلمية الشامخة، فبعد وفاة العلامة الخطاب بشهرين توفى مفتي المملكة العربية السعودية العلامة الشيخ عبدالعزيز بن باز حيث وافته المنية بتاريخ ٢٧ محرم عام ١٤٢٠هـ، وبعد خمسة أسابيع وبتاريخ ٤ ربيع الأول من نفس العام توفي العلامة الأديب القاضي الشيخ علي الطنطاوي. وبعد أسبوعين من هذا التاريخ توفى فقيه العصر وعالم الأمة الشيخ مصطفى الزرقا حيث وافته المنية بتاريخ ١٩ ربيع الأول عام ١٤٢٠هـ، وبعد هذا التاريخ بأسبوع كذلك توفى العالمان الجليلان الشيخ مناع القطان عميد قسم الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، والشيخ عطية سالم مدرس الحرم النبوي الشريف حيث لقيا وجه الله الجليل بتاريخ ٦ ربيع الآخر عام ١٤٢٠هـ.

وفي نفس المدة توفى الأديب الشاعر الداعية الشيخ محمد المجذوب.

وهكذا ... وفي شهور قليلة ... فجعت الأمة الإسلامية بوفاة هذه الكوكبة من العلماء والفقهاء والدعاة والأدباء والقادة من أعلام القرن العشرين. وفجيعة الأمة بالعلماء والمفكرين لا تعوّض - إلا أن يشاء الله -، خاصة هذا الزمان الذين قل فيه العلماء العاملون والدعاة المخلصون، وإنها لثلم في حياة الأمة لا تُرتَق إلى يوم القيامة، - كما أخبرنا الرسول الكريم ﷺ -. رحمهم الله رحمة واسعة، وأجزل مثوبتهم، وتقبلهم في عباده الصالحين،

ورزقهم صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وعوَّض عنهم أمة العرب والمسلمين، وأمد في عُمُر العلماء العاملين، والدعاة الصادقين، والقادة الناصحين، والمجاهدين الصادقين.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

جدة: ١٥/ ٦/ ١٤٢٠هـ

٢٥/ ٩/ ١٩٩٩م

ملاحظة: نشرت مجلة الحرس الوطني السعودية خلاصة عن هذه الترجمة في عددها: / ٢١١و٢١٢/ في شوال وذي القعدة عام / ١٤٢٠هـ/ الموافق يناير وفبراير عام / ٢٠٠٠م/ .

١. ميورقة

أكبر الجزر الأسبانية في البحر الأبيض المتوسط المعروفة باسم: جزر البليار. مساحتها (١٤٠٥) أميال مربعة. يتميز ساحلها الشمالي الغربي بشدة انحداره، ولكنه يصبح ساحلاً منخفضاً منحدراً على الجوانب الأخرى. تمتد في الجبهة الشمالية الغربية سلسلة جبال تسير موازية للساحل، ويصل أقصى ارتفاعها عند قمة (سيلو دى تور يلس) نحو (٥١٠٤) قدماً. تزدهر النباتات في أوديتها، ولاسيما وادي موسى ووادي سوير، كما توجد في الجزيرة مقالع للرخام، وتوجد فيها بعض المعادن مثل الرصاص والحديد والفحم. ويعمل السكان بالزراعة، وتشتهر الجزيرة بزراعة الكروم، كما تشتهر بصناعة الأقمشة الصوفية والكتانية، وتربى في الجزيرة دودة القز، وتصنع منتجاتها.

٢. منورقة

الجزيرة الثانية من حيث المساحة في مجموعة جزر البليار الأسبانية الواقعة في البحر الأبيض المتوسط، وتقع على مسافة سبعة وعشرين ميلاً في شمالي شرقي جزيرة ميورقة، مساحتها (٢٧١) ميلاً مربعاً، وساحلها مضرس بشدة ولاسيما في شمالي الجزيرة، تنتظم خريفة الأنهار والأدغال، مناخها لا يضاهي مناخ ميورقة في اعتداله، إذ تتعرض الجزيرة في الشتاء لرياح شمالية شديدة. تشمل زراعتها إنتاج محاصيل العلف والكروم والزيتون والكتان، كما تزرع فيها أشجار الفاكهة، وتربى الماشية والأغنام والماعز. ويستخرج الرخام الجيد من جبالها، ومعادنها تشمل الحديد والرصاص والنحاس.

وتقوم فيها صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والأيائف.

قادة

فتح الأندلس

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

رحمه الله

الأندلس وما جاورها
وجزر البحر الأبيض المتوسط
قبل الفتح الإسلاميّ وفي أيامه

الموقع والحدود

١ ـ الأندلس

أ ـ الموقع:

تقع شبه الجزيرة الإيبيرِيّة (الأندلس) في الجنوب الغربيّ من القارة الأوروبيّة، تفصلها عن جنوبيّ فرنسا جبال البُرْت (البُرْتات Pyrenees)، وتُعرف بالاسبانيّة (Pirineos)[١]، حيث تتّصل الأندلس بالأرض الفرنسية. ويفصلها من الجنوب عن إفريقيّة مضيق جبل طارق، الذي يبلغ عرضه من الشّرق إلى الغرب (١٣ـ٣٧كم)[٢].

موموتقع على المضيق بعض مدن المغرب الأقصى في الشمال الإفريقيّ، ويفصل المضيق بين الأندلس والمغرب الأقصى، ويصل هذا المضيق المحيط الأطلسيّ والبحر المتوسط.

وتقع سواحل الأندلس الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الأطلسيّ

---

(١) تسمى هذه الجبال أحياناً: البرانس، وهي تسمية خاطئة، لأنّ جبال البرانس تقع شمالي قرطبة، وتعرف أيضاً بجبال المعدن (Sierra de Almaden)، انظر: جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٥و١٢٩) والروض المعطار (١٤٢) ونفح الطيب (١/ ١٤٣) ودولة الإسلام في الأندلس (١/ ٥٣و٨٢) وتاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ـ حسين مؤنس(٢٦١و٤٨١)والتاريخ الأندلسي (٣٥).

(٢) الاستبصار في عجائب الأمصار ـ مجهول المؤلف (١٣٨).

عند خليج بَسْكاي (بَسْقَاية Biscay) الذي تقع عليه مدينة خيخون (Gijon). وتقع سواحلها الغربية على المحيط الأطلسي، الذي يُعرف عند بعض المؤلِّفين المسلمين: البحر الأخضر(١)، أو البحر المحيط(٢)، أو البحر المحيط الرُّومِيّ(٣)، أو البحر المظلم(٤)، أو بحر الظلمات(٥)، أو بحر الظلمة(٦)، أو أقيانس(٧).

وتقع شواطىء الأندلس الشرقيّة والجنوبيّة الشرقيّة على البحر الأبيض المتوسِّط، الذي يسمى أيضاً البحر الرّومي(٨)، أو البحر الشّامي(٩)، أو بحر تيران(١٠).

ب ـ مصطلح الأندلس ومدلوله:

أصل مصطلح الأندلس، مأخوذ من اسم قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرمانيّ، احتلّت شبه الجزيرة الإيبيريّة حوالي القرن الثالث

---

(١) الروض المعطار (٢٨) ونفح الطيب (١/ ٢٧٦) و (٣/ ١٨٩)، كأنّه يطلقه على خليج بسكاي.
(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٦و١٤٣و١٥٦) والروض المعطار (٢٦و٢٨و٥٥ و٥٦و٦٤و٦٧و٨٣) ومقدمة ابن خلدون (١/ ٤٢٧) وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (١٢٨و١٦٢و١٦٥) نص ابن الشباط، ونفح الطيب (١/ ١٣٧).
(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ ابن بسام الشنتريني (١/ ١٣).
(٤) الروض المعطار (٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٦٩).
(٥) الروض المعطار (٢٨).
(٦) تاريخ الأندلس (١٣٠) نص ابن الشباط، والروض المعطار (١٢٧).
(٧) تاريخ الأندلس (١٣٠) نص ابن الشباط، والروض المعطار (٢٨).
(٨) الروض المعطار (٢٨و٦٢و٨٣) ومقدمة ابن خلدون (١/ ٤٢٧و٤٦٤) ونفح الطيب (١/ ١٣٢).
(٩) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٦و١٤٣و١٥٦و١٧٩و١٨٠) والروض المعطار (٢و٢٦و١١٥و١٢٦و١٢٨) وتاريخ الأندلس (١٢٨) نص ابن الشباط، ونفح الطيب (١/ ١٣٥).
(١٠) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٨) ونفح الطيب (١/ ١٣١).

والرابع الميلاديين وحتى القرن الخامس الميلاديّ، وسميت باسمها: فاندلسيا (Vandalusia)، أي: بلاد الوندال، ثمّ نُطقت بالعربية: الأندلس.

أما مدلول هذا المصطلح، فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون أحياناً على كلّ شبه الجزيرة الإيبيريّة ـ أسبانيا والبرتغال اليوم ـ والتي يسمونها أيضاً: الجزيرة الإيبيريّة[1].

وحدود الأندلس أيام الخلافة الأندلسية، تشمل كلّ البرتغال تقريباً وأكثر إسبانيا الحالية، وكانت الأندلس تمتدّ جنوب الخط الوهميّ الذي يصل بين نهر دُوَيْرُهْ (Duero) في الغرب حتى مدينة بَرْشَلُونَة (Barcelona) في الشرق، مع ارتفاع إلى الأعلى في الوسط، ويفصل هذا الخط بين إسبانيا النصرانية في الشمال، وبين الأندلس الإسلامية في جنوبه[2].

وحين يُذكر مصطلح الأندلس، يقصد به أيضاً ـ زيادة على ما سبق ـ المنطقة الإسلامية التي شملها الإسلام، سلطاناً وسكّاناً، من شبه الجزيرة الإيبيرية، وعلى الأغلب في شمولها أيام الخلافة الأندلسية، أو شاملة لكلّ شبه الجزيرة كما ذكرنا قبل قليل.

وتُطلق اليوم كلمة: أَنْدَلُشِيَّا (Andalucia) بالإسبانيّة، على المنطقة الجنوبية من إسبانيا، وهو اصطلاح إداري، لا يُمثّل المعنى التاريخي المبيَّن لمصطلح الأندلس.

وبعض الأسماء الخاصة بالأمكنة والمدن في شبه الجزيرة الإيبيريّة ذات أصل أندلسيّ، منقول إلى الإسبانيّة، أو إنَّه إسبانيّ نُقل إلى العربيّة. وهناك عدد من الأسماء يتّسم بطابعه الأندلسيّ، وكلّ اسم في الإسبانيّة ـ حالياً ـ مسبوق بـ (أل) التّعريف، دليل على أندلسيّته أو تأثّره بالأندلسيّة.

وكانت ولا تزال تقوم في إسبانيا مدن وقواعد أندلسيّة، بعضها كبرى، تحتفظ بآثار العمران الأندلسيّة، مثل: قُرْطُبَة، وإشْبِيلِيَة، وغُرْناطة،

---

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا (٥٩) والروض المعطار (٤ـ٦و١٩) ونفح الطيب (١/ ١٣٣) ودولة الإسلام في الأندلس (١/ ٢٧و٥٠).

(٢) التاريخ الأندلسي (٣٧).

وطُلَيْطُلة، ومالَقَة، وغيرها[1].

٢ـ المدن

سنذكر المدن بالنسبة لورودها في: قادة فتح الأندلس والبحار، لا بالنسبة لأهميتها.

١ـ جزيرة طَرِيْف Tarifa:

جزيرة صغيرة في بحـر الزقاق(مضيق جبل طارق)، وهي جزيرة صغيرة محصّنة، يربطها بشبه جزيرة الأندلس حالياً جسر بحريّ.

ومدينة طريف، ميناء أندلسي، يقع في منطقة قادس، عند النقطة الجنوبيّة القصوى من شبه الجزيرة، تبعد عن جبل طارق (٢١) ميلاً.

وأطلق اسم القائد الفاتح طريف بن مالك على الجزيرة والمدينة[2].

٢ـ الجزيرة الخضراء Algeciras:

مدينة أمام سَبْتَة من برّ الأندلس الجنوبيّ، تقع في منطقة قادس، على بُعْد ستة أميال إلى الغرب من جبل طارق، وقد أعاد المسلمون تأسيسها سنة (٩٥هـ = ٧١٣م)، وظلّت الجزيرة الخضراء مدينة عربية حتى استولى عليها الفونس السادس حاكم قشتالة سنة (١٣٤٤م) بعد حصار دام عشرين شهراً، وشاركت في هذا الحصار جماعات صليبيّة جاءت من مختلف أنحاء أوروبا. وقد استخدم العرب البارود في هذا الحصار لأول مرّة في تاريخ الحروب الأوروبيّة. وهي مدينة طيّبة نزهة، توسّطت مدن الساحل، وأشرفت بسورها على البحر، ومرساها أحسن المراسي للجواز، وأرضها أرض زرع وضرع،

---

(١) التاريخ الأندلسي (٣٧ـ٣٨).

(٢) انظر تقويم البلدان (١٦٩و١٨٨)، وانظر دائرة المعارف البريطانية.

وبخارجها المياه الجارية والبساتين النّضيرة، ونهرها يعرف بوادي العسل، وهي من أجمع المدن لخير البر والبحر[١].

٣ـ طُلَيْطِلة Toledo:

وتلفظ أيضاً: طُلَيْطُلَة، وهي عاصمة الأندلس، تقع في شرقي مدينة وليد، على جبل عالٍ، وهي من أمنع البلاد وأحصنها، ولها نهر يمرّ بأكثرها. وهي مدينة قديمة جداً، ومنها إلى نهاية الأندلس شرقاً نحو نصف شهر، وكذلك إلى البحر المحيط بناحية شلب وهو نهاية الأندلس الغربية، وتحدق الأشجار بطليطلة من كلّ جهة، وفيها أشجار أنواع من الثمر، ونهر طليطلة ينحدر إليها من عند حصن هناك، يقال له: باجة، ويعرف نهر طليطلة به فيقال: نهر باجة[٢].

٣ـ قَرْطَاجَنَّة الجزيرة Cartagena:

مدينة أمام سبتة من برّ الأندلس الجنوبيّ، وهي مدينة طيّبة نزهة توسّطت مدن الساحل، وأشرفت بسورها على البحر، تعرف بقرطاجَنّة الخُلفاء، قريبة من آلش، من أعمال تدمير، وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بإفريقيّة[٣].

٤ـ بَنْبُلُوْنَة Pamplona:

مدينة أندلسيّة في غربيّ الأندلس، خلف جبل الشارة، وتعتبر من مدن الجزء الثالث من أجزاء الأندلس، كما تعتبر عاصمة بلاد نافار (Navarre)، وتقع نافار شرقي مملكة ليون، محاذية لجبال البُرْت التي تفصل بين أسبانيا وفرنسا، وسكانها من ....

---

(١) تقويم البلدان (١٧٢ـ١٧٣) ومعجم البلدان (٣/ ٩٩)، وانظر دائرة المعارف البريطانية.

(٢) تقويم البلدان (١٧٦ـ١٧٧) ومعجم البلدان (٦/ ٥٦ـ٥٧) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٨٦ ـ ٨٨) والحلل السندسية (١/ ٣٦٣ـ٤٧١).

(٣) معجم البلدان(٧/ ٥٣) والمشترك وضعاً(٣٤٢)وجغرافيةالأندلس وأوروبا(١٣٥)

البشكنس[١] (Basqiues).

٥ـ قُرْطُبَة Cordova:

تقع غربيّ النهر الكبير الذي عليه إشْبِيْلِيَة، وقرطبة شرقي إشبيلية، وهي في جنوبيّ طُلَيْطِلَة، وطليطلة عن قرطبة في الشمال والشرق على سبعة أيام، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع، وهي أعظم مدائن الأندلس. وهي مدينة حصينة بسور ضخم من الحجر، ولها سبعة أبواب، ومن مشاهير أعمال قرطبة كورة القصير وهو حصن في شرقي قرطبة على النهر، وكذلك من أشهر أعمال قرطبة حصن المدوّر، وهو المعقل العظيم المشهور، وكذلك حصن مراد، وهو في غربيّ قرطبة، ومن أعمال قرطبة كورة غافق وكورة إسْتِجّة. والقنطرة التي عند قرطبة وعلى نهرها، من أعظم آثار الأندلس وأعجبها[٢].

٦ـ شَقُنْدَة Secunda:

هي حي الرّبض (الضاحية) جنوبي قُرْطُبَة في الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير، وكان هذا الرّبض يُعرف باسم: شَقُنْدَة، معرّب عن اللّاتينيّ[٣].

٧ـ شَذُوْنَة Sidonia

مدينة بالأندلس، تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، وهي منحرفة عن موزور إلى الغرب مائلة إلى القبلة، تشتهر بأطيب العنبر العربي الوردي[٤].

---

(١) تقويم البلدان (١٨٠ـ١٨١) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٢و٧٩).

(٢) تقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢) ومعجم البلدان (٧/٥٣ـ٥٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٠٠ـ١٠٦) ونفح الطيب (١/ ٤٥٥ـ٥٢٣) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٥).

(٣) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٣٩).

(٤) معجم البلدان (٥/ ٢٤٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٥و١٢٧).

٨ ـ إِسْتِجَة Ecija :

اسم لكورة بالأندلس، متصلة بأعمال ريّة، بين القبلة والمغرب من قرطبة، وهي كورة قديمة واسعة الرّساتيق والأراضي، على نهر سَنْجل وهو نهر غرناطة، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ، وأعمالها متّصلة بأعمال قرطبة(١).

٩ـ قَادِس Cadiz :

جزيرة في غربي الأندلس، تقارب أعمال شَذُوْنَة، طولها اثنا عشر ميلاً، قريبة من البر، بينها وبين البرّ الأعظم خليج صغير قد حازها إلى البحر عن البر(٢).

١٠ـ مُرْسِيَة Murcia :

مدينة محدثة إسلاميّة، بُنيت في أيام الأُمويين الأندلسيين، ومرسية في شرقي الأندلس تشبه إشبيلية التي في غربي الأندلس، بكثرة المنازه والبساتين، وهي على الذراع الشّرقيّ الخارج من عين نهر إشبيلية، ومرسية من قواعد شرقيّ الأندلس، ولها عدة منتزهات منها: الرَّشَاقة، والزَّتقات، وجبل إيل، وهو جبل تحته البساتين وبسط تسرح فيه العيون. ومن أعمال مرسية: مُوْلة وهي في غربي مرسية، ومن أعمال مرسية مدينة أُوْرْيُولة، ومن أعمالها قرية الحِرِلّة وهي حسنة المنظر(٣).

١١ـ شَرِيش Xeres - Jerez :

مدينة كبيرة من كورة شَذُوْنَة، وهي قاعدة هذه الكورة، وأصبح المسلمون يسمونها: شَرَش(٤).

---

(١) معجم البلدان (١/ ٢٢٤) وانظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤).

(٢) معجم البلدان (٧/ ٤ـ٥).

(٣) تقويم البلدان (١٧٨ـ١٧٩) ومعجم البلدان (٨/ ٥٤ـ٢٥).

(٤) معجم البلدان (٥/ ٢٦٠).

١٢ـ المَدُوْر Almodovar :

اسم حصن حصين مشهور بالأندلس، يقع بالقرب من قُرطبة، لهم فيه عدّة وقائع مشهورة[١].

١٣ـ إِشْبِيْلِيَة Sevilla , Seville :

مدينة تقع على شرقي نهرها الأعظم وجنوبيه، وهي في غربيّ قرطبة، ومن قواعد المسلمين في الأندلس، ولها خمسة عشر باباً، وهي من غربيّ الأندلس وجنوبيّه، وبين إشبيلية وقرطبة أربعة أيام. وطول منطقة إشبيلية من الغرب عند مصب نهرها في البحر المحيط إلى الشرق إلى أعلى النهر حتى حدود منطقة قرطبة نحو خمسة مراحل، وعرضها من الجزيرة الخضراء وهي على ساحل الأندلس الجنوبي إلى منطقة بطليوس في الشمال نحو خمسة أيام، وهي مدينة قديمة، ومعنى اسمها: المدينة المنبسطة. وهي مدينة عظيمة كبيرة، قريبة من البحر، يطلّ عليها جبل الشرف، وهو جبل كثير الزيتون والفواكه، ويزرع في هذه المدينة القطن[٢].

١٤ـ مَالَقَة Malaga :

مدينة أندلسية عامرة من أعمال ريّة، سورها على البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، وتقع جنوبي قرطبة، وبينهما خمسة أيام، وتقع على بحر الزقاق جنوبيّ الأندلس، وهي كثيرة الفواكه وأهمها التين واللوز[٣].

---

(١) معجم البلدان (٧/ ٤١٧).

(٢) تقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥) ومعجم البلدان (١/ ٢٥٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٠٧ـ١١٦).

(٣) معجم البلدان (٧/ ٣٦٧) وتقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥) والروض المعطار (١٧٧) و جغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٨).

١٥ـ إِلْبِيْرَة Elvira:

اسم كورة كبيرة بالأندلس، واسم مدينة أيضاً، سمِّيت الكورة باسمها، متَصلة بأراضي كورة قَبْرَة بين القبلة والشرق من قرطبة، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار، وفيها عدّة مدن، منها: قَسْطَلَّة وغَرْنَاطَة وغيرهما. وفي أرضها معادن ذهب وفضّة وحديد ونحاس ومعدن حجر التوتيا، في حصن يقال له: شلوبينية، وفي جميع نواحيها يُعمل الكتان والحرير الفائق[١].

١٦ـ غَرْنَاطة Granada:

مدينة في نهاية من الحصانة، ومملكتها إلى الجنوب والشرق من قرطبة، وبينها وبين قرطبة نحو خمسة أيام، وهي في نهاية النزاهة، وتشبه دمشق وتفضّل عليها بأنّ مدينتها مشرفة على غوطتها، وهي مكشوفة من الشمال، وينصب أنهارها من جبل الثلج الذي هو من جنوبيها، وتنخرق فيها الأنهر، وعليها الأرحى داخل المدينة، ولها قلعة عالية شديدة الامتناع، ولها أشجار وثمار ومياه مسيرة يومين تقع تحت مرأى العين لا يحجبها شيء، واسم نهرها: نهر قَلُوْم، ويعرف الآن بنهر حدارة[٢].

١٧ـ تُدْمِيْر Tudmir:

كورة بالأندلس، تتّصل بأحواز كورة جَيَّان، وهي شرقيّ قرطبة، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن ورساتيق، وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للراكب القاصد، وتسير العساكر أربعة عشر يوماً[٣].

١٨ـ أُوْرْيُوْلَة Orihuela:

---

(١) انظر معجم البلدان (١/ ٣٢٢) و (٢/ ٣٣٠) و (٧/ ٨٨).
(٢) تقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥) ومعجم البلدان (٦/ ٢٨٠).
(٣) معجم البلدان (٢/ ٣٧١ـ٣٧٢).

مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تُدْمِيْر، بساتينها متّصلة ببساتين مُرْسية[1].

١٩ـ جَيَّان Jaen:

مدينة لها كورة واسعة بالأندلس، تتّصل بكورة إلْبِيْرَة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقيّ قُرطبة، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً، وهي كورة كبيرة تجمع قُرى كثيرة وبلداناً، وكورتها متّصلة بكورة تدمير وكورة طليطلة، وهي في نهاية المنعة[2].

٢٠ـ جِلِّيْقِيّة Galicia:

بلدة قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب، ومصب نهرها في المحيط[3].

٢١ـ أسْتُرْقَة Astorga:

من مدن جليقيّة قرب ساحل المحيط، وهي التي يسميها ياقوت: أسْتُوْرِيس (Asturies)، ويذكر أنّها حصن من أعمال وادي الحجارة، أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأُمويّ، عمّره في نحر العدو، ولا تزال أسوار استرقة ماثلة[4].

---

(١) معجم البلدان (١/ ٣٧٣).

(٢) تقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥) ومعجم البلدان (٣/ ١٨٥ـ١٨٦) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤).

(٣) معجم البلدان (٣/ ١٣١) وتقويم البلدان (١٨٤ـ١٨٥) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٧١ـ٧٣) و (٧٤ـ٧٩) و(٨٠ ـ ٨١).

(٤) معجم البلدان (١/ ٢٢٥) والحلل السندسية (٢/ ٥٨ـ٥٩) وقادة فتح المغرب (١/ ٢٦٨).

٢٢ـ طَلَبِيْرَة Talavera:

مدينة كبيرة بالأندلس، من أعمال طليطلة، وهي قديمة البناء، على نهر تاجُهْ، تقع غربي طليطلة[١].

٢٣ـ أَكْشُوْنُبَـة Ocsonoba:

مدينة بالأندلس، يتّصل عملها بعمل لشبونة، وهي غربيّ قرطبة، تقع جنوبيّ البرتغال حيث مدينة فارو (Faro) الحالية[٢].

٢٤ـ قَرْمُوْنَة Carmona:

كورة بالأندلس، يتّصل عملها بأعمال إشبيلية، غربي قرطبة، وشرقي إشبيلية، قديمة البنيان، بينها وبين إشبيلية سبعة فراسخ، وبينها وبين قرطبة اثنان وعشرون فرسخاً، وأكثر ما يقول الناس. قَرْمونة، وقد ذكرها ياقوت باسم: قَرْمُونِيَة[٣].

٢٥ـ رَعواق Alcala Guadaira:

وردت هذه المدينة في المصادر العربية بصيغ مختلفة: رعوان، زعواق، رَعْواق، ويبدو أنّ الصواب هو رَعْواق، وهي: قلعة وادي أيره، وهي في منطقة قَرْمُوْنة[٤].

٢٦ـ لَبْلَة: Niebla:

---

(١) معجم البلدان (٧/٥٣) وابن الأبار (٢/٢٥٧) والروض المعطار (١٢٧) وآثار البلاد (٥٤٥) وصفة المغرب والأندلس للإدريسي (١٨٧) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٨٩).

(٢) معجم البلدان (١/٣١٧)، وفيه وردت: أُكسبونية، وانظر الحلة السيراء (١/٦٢) و (٢/٢٠٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٥).

(٣) معجم البلدان (٧/٦٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤).

(٤) انظر فجر الأندلس (٩٢).

قصبة كورة بالأندلس كبيرة، يتصل عملها بعمل أَكْشُونُبَـة، وهي شرق من أكشونبة وغرب من قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام: أربعة وأربعون فرسخاً، وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلاً، وهي بريّة بحريّة، غزيرة الفضائل والثمر والزروع والشجر، ولأدمها فضل على غيره، ولها مدن، وتُعرف بلبلة الحمراء[1].

٢٧ـ بَاجَة Beja:

مدينة من أعمال الأندلس، تتّصل بنواحي ماردة، وهي ضمن اثنتي عشرة مدينة، قاعدتها ماردة[2].

٢٨ـ مَارِدَة Merida:

كورة واسعة من نواحي الأندلس، متّصلة بحوز فِرّيش بين الغرب والجوف، من أعمال قرطبة، إحدى القواعد التي تخيّرتها الملوك للسكنى من القياصرة والرُّوم، وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام، عالية البنيان، فيها آثار قديمة حسنة، تُقصد للفرجة والتّعجب، بينها وبين قرطبة ستة أيام، ولها حصون وقرى، وماردة قاعدة لاثنتي عشرة مدينة أندلسيّة[3].

٢٩ـ لَقَنْت Alicante:

مدينة من مدن تدمير التي صالح عليها عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر، وهي سبع مدن، وأساسها حصنان من أعمال ماردة: لقنت الكبرى، ولقنت الصغرى، وكل واحدة تنظر إلى . . . .

---

(١) معجم البلدان (٧/ ٣١٩) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤).

(٢) معجم البلدان (٢/ ٢٥ـ٢٧) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٣).

(٣) معجم البلدان (٧/ ٣٦٠) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٣).

صاحبتها[1].

٣٠ـ قَشْتَالَة Castile - Castilla

إقليم عظيم بالأندلس، قصبته طليطلة[2].

٣١ـ سَرَقُسْطَة Zaragoza:

مدينة أندلسية، واسمها تعريب للاسم الرومانيّ: قيصر أجستا (Seasar - Augusta) لأنّ أغسطس قيصر هو الذي أسّسها سنة (٢٣ق.م) على أطلال المدينة الإيبيرية القديمة التي كانت تعرف عن الايبيريين باسم: سلدوبا (Salduba)، وهي أطيب البلاد، تقع على نهر: (إبْرُهْ) الذي ينصبّ في البحر الأبيض المتوسط بساحل طُرطوشة[3].

٣٢ـ وَشْقَة Huesca:

بليدة بالأندلس، وتعدّ من الثغر الأعلى من ثغور الأندلس مع لارِدَة[4].

٣٣ـ لارِدَة Larida:

مدينة مشهورة بالأندلس من الثغور، وفي شرقيها جبل البرت الفاصل بين الأندلس وفرنسة، وهي من المدن القديمة[5].

٣٤ـ طَرَّكُوْنَة Tarragna:

---

(١) معجم البلدان (٧/ ٣٣٦) وافتتاح الأندلس (٩) وفجر الأندلس (٩٢و١١٥).
(٢) معجم البلدان (٧/ ٩٣).
(٣) معجم البلدان (٥/ ٧١) ونصوص عن الأندلس لابن الدلائي (٢١ـ٢٣).
(٤) معجم البلدان (٨/ ٤٢٣) ونصوص عن الأندلس (٢٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩٠).
(٥) معجم البلدان (٧/ ٣١٣) وتقويم البلدان (١٨٠ـ١٨١).

بلدة بالأندلس متّصلة بأعمال طَرْطوشة، وهي مدينة قديمة على شاطىء البحر، وهو بين طرطوشة وبَرْشَلُونَة، بينها وبين كلّ واحدة منهما سبعة عشر فرسخاً.

وطرّكونة موضع آخر بالأندلس، من أعمال لَبْلَة[1].

٣٥ـ بَرْشَلُوْنَة Barcalona:

مدينة أندلسية مشهورة، قريبة من طَرْطوشة[2].

٣٦ـ أمايـة Amaya:

احدى مدن الأندلس، وهي احدى مدن الجزء الثالث، التي من مدنها برشلونة وبَنْبُلُوْنَة[3]، في منطقة بلاد البرتغال حالياً.

٣٧ـ لِيُوْن Leon:

مدينة بالأندلس في شمالي سَمُوْرَة بانحراف إلى الشرق، وهي على نهر يصبّ في نهر سَمورة، وهي أجلّ مدن الجلالقة، ومن ليون إلى ساحل بحر الظلمات (المحيط) أربع مراحل غرباً، وهي من جِلِّيقِيَّة[4].

٣٨ـ بَلَنْسِيَة Valencia:

مدينة تقع على بحيرة، يصبّ فيها نهر يمرّ على شمالي بلنسية، وهي في شرقي الأندلس، وتقع في أحسن مكان، وقد حُفّت بالأنهار والجنان، فلا ترى إلاّ مياهاً تتفرّع، ولا تسمع إلا أطياراً تسجع، وهي على القرب من بحر الزقاق، وتقع شرقي مرسية وغربي طرطوشة. ومن مشاهير منازهها الرصافة،

---

(١) معجم البلدان (٦/ ٤٤).

(٢) تقويم البلدان (١٨٢ـ١٨٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩٦ـ٩٩).

(٣) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٢).

(٤) تقويم البلدان (١٨٤ـ١٨٥) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٧٥).

ومنية ابن عامر، ومن أعمالها مدينة شاطبة، وهي حصينة، وجوّها صقيل لا يُرى فيه ما يكدِّره، وبلنسية اسم كورة أيضاً[١].

٣٩ـ أُرْبُوْنَة Narbonna:

مدينة في شمال شرقي قرقشونة، تقع على الساحل الفرنسي الجنوبيّ[٢].

٤٠ـ قَرْقَشُوْنَة Carcassonne:

بلدة جنوبي فرنسة، قريبة من حدود إسبانيا الشمالية، تبعد عن قرطبة خمسة وعشرين يوماً[٣].

٤١ـ بلانـة Villena:

ووردت: بَلَنْتِلَة (Valentola) في مرجع آخر. وبلانة: إحدى مدن كورة تُدْمِيْر التي تتّصل بأحواز كورة جَيَّان، وهي شرقي قرطبة[٤]. أما بلنتلة فقرية قديمة كانت على مقربة من بليدة (Alcantarilla) الحالية على خمسة كيلو مترات من مرسية[٥]. وأرجِّح أنّها بلانة، لأنها داخلة ضمن المدن السبع التي صالح عليها عبد العزيز بن موسى تدمير بن غبدوش[٦]، وليس من المعقول أن يصالح تدمير على قرية، لكثرة القرى وانتشارها، وهي تابعة للمدن التي صُولح عليها.

---

(١) معجم البلدان (٢/ ٢٧٩) وتقويم البلدان (١٧٨ـ١٧٩) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٢و١٢٢).

(٢) تقويم البلدان (١٨٢ـ١٨٣).

(٣) معجم البلدان (٧/ ٥٦) وتاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤).

(٤) معجم البلدان (٢/ ٣٧١ـ٣٧٢).

(٥) فجر الأندلس (١١٥) نقلاً عن سافدرا.

(٦) انظر التفاصيل في: فجر الإسلام (١١٤ـ١١٥).

٤٢ـ مُوْلَة Mula:

إحدى مدن كورة تُدمير التي صالح عليها عبد العزيز بن موسى تدمير[١].

٤٣ـ بِسْقَرَة Bigastre:

بسقرة أو بسكرة، إحدى مدن كورة تدمير السبع التي جرى الصلح عليها[٢].

٤٤ـ إِلُـة Ello:

إحدى مدن كورة تدمير السبع التي جرى الصّلح عليها[٣].

٤٥ـ لُوْرَقَة Lorca:

مدينة بالأندلس، من أعمال تدمير، وهي إحدى المدن السبع التي جرى الصلح عليها[٤].

٤٦ـ يَابُرَة Evora:

بلد أندلسيّ، يقع في غربي الأندلس، في منطقة البرتغال الحالية[٥].

٤٧ـ شَنْتَرِيْن Sanlarein - Santaren:

مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة، في غربيّ الأندلس، ثم في غربيّ قرطبة، على نهر تاجة، قريب من الضبابة في البحر المحيط، وهي حصينة، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً، وبينها وبين باجة أربعة أيام[٦].

---

(١) معجم البلدان (٢/ ٣٧١ـ٣٧٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا(١٢٧و١٢٨و١٢٩).

(٢) معجم البلدان (٢/ ٣٧١ـ٣٧٢).

(٣) معجم البلدان (٢/ ٣٧١ـ٣٧٢).

(٤) معجم البلدان (٧/ ٣٤٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٧).

(٥) معجم البلدان (٨/ ٨٤٩) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٣).

(٦) معجم البلدان (٥/ ٣٠٠) وتقويم البلدان (١٧٢ـ١٧٣).

٤٨ـ قُلُمْرِيَّـة Coimlra :

مدينة في الأندلس[١]، تقع في غربيّ الأندلس، في البرتغال الحالية.

٤٩ـ أَشْتُورِش Auturias :

هي المنطقة الواقعة إلى أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الأندلسية، وهي القسم الثاني من أقسام جِلِّيقيّة الأربعة، سميت بهذا الاسم، وهو اسم وادٍ لأهلها يقال له: آشترو، منه شرب جميع بلادهم[٢].

٥٠ـ لشبونة Lisbon :

مدينة أندلسية، قاعدة مملكة على البحر المحيط، في غربي إشبيلية وشماليها، وهي مدينة قديمة تقع في غربيّ باجة، ومن أشبونة إلى البحر ثلاثون ميلاً، وهي كثيرة البساتين والفواكه والثمار[٣]. وهي عاصمة البرتغال في الوقت الحاضر.

٥١ـ بَطَلْيُوْس Badjoz :

مدينة كبيرة بالأندلس، من أعمال مارِدة على نهر آنة، غربيّ قرطبة، بينها وبين قُرطبة ستة أيام، وهي مدينة إسلامية محدثة، ومن أعمالها المشهورة مدينة يابرة[٤].

٥٢ـ مدينة وَلِيْد Valladolid :

هي من أحسن مدن الأندلس، ولها أكثر من ثلاثة أنهر، وهي في جنوبي

---

(١) معجم البلدان (٧/ ١٥١).

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٧١ـ٧٢).

(٣) معجم البلدان (١/ ٢٥٣) وتقويم البلدان (١٧٣ـ١٧٤).

(٤) معجم البلدان (١/ ٢١٧) وتقويم البلدان (١٧٣ـ١٧٤).

جبل الشارة الذي يقسم الأندلس بنصفين، وتقع غربيّ طليطلة[١].

٥٣ـ المَرِيَّة Almeria:

مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، وكانت هي وبَجّانة بابي الشرق، منها يركب التجار، وفيها تحمل مراكب التجار، وفيها مرفأ ومرسى للسّفن والمراكب، يضرب ماء البحر سورها، ويُعمل فيها الوشي والديباج فيجاد عمله. وهي مسوّرة على حافة بحر الزقاق، وأسوارها عالية، وقلعتها منيعة شامخة، وهواؤها معتدل[٢].

٥٤ـ وادي الحجارة=مدينة الفَرَج Guadalajara:

مدينة بالقرب من مدينة سالم، وهي في شرقي طليطلة، وفي شرقيها مدينة سالم، ويقال لنهرها: وادي الحجارة، ولها مدن بينها وبين طليطلة، وهي بين الجوف والشرق من قرطبة[٣].

٥٥ـ مدينة سالم Medinaceli:

مدينة بالأندلس، تتصل بأعمال بارُوْشَة، وهي قاعدة الثّغر الأوسط من شرقيّ الأندلس، وكانت من أعظم المدن وأشرفها، وأكثرها شجراً وماء، وكان طارق بن زياد لما افتتح الأندلس ألفاها خراباً، فعمرت بالإسلام، وهي مدينة جليلة[٤].

٥٦ـ دَانِيَة Dania:

مدينة بالأندلس، من أعمال بلنسية، في غربيّ بلنسية، على البحر، وهي

---

(١) تقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥).
(٢) معجم البلدان (٨/ ٤٢) وتقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥).
(٣) معجم البلدان (٧/ ٣٥٥) وتقويم البلدان (١٧٨ـ١٧٩).
(٤) معجم البلدان (٥/ ١١) وتقويم البلدان (١٧٨ـ١٧٩).

مدينة عظيمة القدر، كثيرة الخيرات، ومن أعمالها: يُكَتْران، وحصن بَيْران، ولها رساتيق واسعة، كثيرة التين واللّوز والعنب[1].

٥٧ـ تُطِيْلَة Tadela:

مدينة في الأندلس، في شرقي قرطبة، تتّصل بأعمال أشِقَة، تقع في جنوبي جبل الشَّارة، وهي من الثغور المقاربة لمدينة سالم ولسرقسطة، وأرضها طيبة للزرع، وهي محدثة، اختطّت في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، فهي قد بنيت في أيام بني مروان على الأندلس، وهي من مدن الجليلة بثغر الأندلس الشّرقيّ[2].

٥٨ـ طَرْطُوْشَة Tortosa:

مدينة بالأندلس، تتصل بكورة بلنسية، وهي شرقي بلنسية وقرطبة، قريبة من البحر، وتقع شرقي النهر الكبير الذي يمرّ على سرقسطةويصب في بحر الزقاق، على عشرين ميلاً من طرطوشة[3].

٥٩ـ شَنْت يَاقُب Santiago:

قلعة حصينة في الأندلس، في الشمال والغرب من مدينة ليون، وهي على البحر، وحولها أنهار تنزل من جبل في شرقيها، وهي من قلاع الجلالقة، وأصبحت مدينة جليلة[4].

٦٠ـ سَلْمَنْكَة Salmanca:

مدينة أندلسية، على شمالي نهر قُلُمْرِيَّة، وبينها وبين مدينة قلمرية قاعدة

---

(١) معجم البلدان (٤/ ٢٨) وتقويم البلدان (١٧٨ـ١٧٩).
(٢) معجم البلدان (٢/ ٣٩٢) وتقويم البلدان (١٨٠ـ١٨١).
(٣) معجم البلدان (٦/ ٤٢) وتقويم البلدان (١٨٠ـ١٨١).
(٤) معجم البلدان (٥/ ٣٠١) وتقويم البلدان (١٨٢ـ١٨٣).

غليسية مرحلتان، وقلمرية شرقي سلمنكة.

٦١ـ قُوْرِيَّة Coria:

مدينة في الأندلس، تقع جنوبي جبل الشارة، وهي من نواحي مارِدة، في نصف الطريق بين ماردو وسمُّورة[١].

٦٢ـ بَرْغَش Burgos:

وردت بإسم: برعش في معجم البلدان، وبرغش في تقويم البلدان، وأكثر المراجع ـ وخاصة المحدثة ـ تذكرها: برغش. تقع في غربي بنبلونة، وهي قاعدة قشتالة، ودار صناعة السلاح المعمول في تلك المنطقة، وهي في شمالي جبل إلبرت[٢].

٦٣ـ قَسْطَلُوْنَة Castallon:

وردت قَسْطِيْلِيَة في معجم البلدان، ووردت قستليون، ووردت كما في أعلاه في المراجع المحدثة، وهي مدينة أندلسية تقع شرقي برشلونة[٣].

٦٤ـ أُسْتُوْرِيْس Asturias:

حصن في الأندلس، من أعمال وادي الحجارة، أحدثه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأُمويّ، عمّره في نَحْر العدو[٤].

٦٥ـ أُبَّـدَة Ubeda:

---

(١) معجم البلدان (٧/ ١٨٢) وتقويم البلدان (١٨٤ـ١٨٥).

(٢) تقويم البلدان (١٨٤ـ١٨٥) وانظر معجم البلدان (٢/ ١٢٨).

(٣) معجم البلدان (٢/ ٨٨) وتقويم البلدان (١٨٤ـ١٨٥).

(٤) معجم البلدان (١/ ٢٢٥).

اسم مدينة بالأندلس، من كورة جيَّان، تعرف بأُبَّدة العرب، اختطّها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك، وتمّمها ابنه محمد بن عبد الرحمن(١).

٦٦ـ بَيَّاسَة Baeza:

مدينة كبيرة بالأندلس، معدودة في كورة جيَّان، بينها وبين أُبَّدَة فرسخان، وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب(٢).

٦٧ـ بَرْبُشْتَر Berbastro:

مدينة عظيمة في شرقي الأندلس، من أعمال بَرْبطانية، ولها حصون كثيرة، منها: حصن القصر، وحصن الباكة، وحصن قصر مينوقش، وغير ذلك(٣).

٦٨ـ بَرْبَطَانِيَة Boltania:

مدينة كبيرة في الأندلس، يتصل عملها بعمل لاردة، وكانت سَدّاً بين المسلمين والرُّوم، ولها مدن وحصون، وفي أهلها جلادة وممانعة للعدو، وهي في شرقي الأندلس. ويسميها صاحب نفح الطيب: كورة برطانية، بباء واحدة، لا ببائين، وهو الأقرب للأصل الإسباني، وهو يذكر بأنّها كورة، فيقول: كورة برطانية، وقد أطلق اسم المدينة على الكورة(٤).

٦٩ـ بُبَشْتَر Bobastro:

حصن منفرد بالامتناع، من أعمال ريّة بالأندلس، بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخاً، وربما أشبعوا الباء الثانية فنشأت ألفاً، فقالوا:

---

(١) معجم البلدان (١/ ٧٣).
(٢) معجم البلدان (٢/ ٣١٨).
(٣) معجم البلدان (٢/ ١٠٧).
(٤) معجم البلدان (٢/ ١٠٧ـ١٠٨) ونفح الطيب (١/ ١٣١و١٣٣و١٦٧و١٩٧و٣٣٧) و(٤/ ٤٤٩) والحلل السندسية (٢/ ١٨٤).

بباشتر[1].

٧٠ـ بِقَيْرَة Viguera :

مدينة في شرقي الأندلس، معدودة من أعمال تُطيلة، بينهما أحد عشر فرسخاً، وبقيرة أيضاً حصن من أعمال ريّة[2].

٧١ـ بَرْمِنَّش Bermndo :

إقليم من أعمال بطليوس من نواحي الأندلس[3].

٧٢ـ قَبْرَة Cabra :

كورة من أعمال الأندلس، تتّصل بأعمال قرطبة من قبليّها، وهي أرض زكيّة، تشتمل على نواحٍ كثيرة ورساتيق ومدن، وهي مخصوصة بكثرة الزيتون، وقصبتها : بَيَّانة[4].

٧٣ـ بَيَّانَة Bayanne :

قصبة كورة قَبْرَة، وهي كبيرة حصينة على ربوة، يكتنفها أشجار وأنهار، بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً[5].

٧٤ـ قَلَهُرَّة Calahorra :

مدينة من أعمال تُطيلة، شرقي الأندلس[6].

---

(١) معجم البلدان (٢/ ٥٤).
(٢) معجم البلدان (٢/ ٢٥٣).
(٣) معجم البلدان (٧/ ١٥٤).
(٤) معجم البلدان (٢/ ٢٦).
(٥) معجم البلدان (٢/ ٣١٩).
(٦) معجم البلدان (٧/ ١٥٣ـ١٥٤).

٧٥ـ قلعة أيوب Calatayud:

مدينة عظيمة، جليلة القدر بالأندلس بالثغر، ينسب إليها فيقال: ثغريّ، من أعمال سرقسطة، بقعتها كثيرة الأشجار والأنهار والمزارع، ولها عدة حصون، وبالقرب منها مدينة: لبلة[١].

٧٦ـ قلعة رَباح Calatrava:

مدينة بالأندلس، من أعمال طليطلة، تقع في غربي طليطلة، ولها عدة قرى ونواحٍ، ويسمونها: الأجزاء، أي الأقاليم، والجزء هو الإقليم في المصطلحات الإدارية الأندلسيّة[٢].

٧٧ـ جبل طارق Gibraltar:

ويُطلق عليه أيضاً اسـم: جبل الفتح، ولجبل طارق قصب السّبق بنسبته إلى طارق بن زياد، إذ كان أوّل ما حلّ به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح، وهو مقابل الجزيرة الخضراء، وقد تجوّن البحر هناك مستديراً حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء[٣].

٧٨ ـ المُنَكَّب Almunacar:

بلد على ساحل جزيرة الأندلس، من أعمال إلبيرة، بينه وبين غرناطة أربعون ميلاً[٤].

---

(١) معجم البلدان (٧/١٤٨ـ١٤٩).
(٢) معجم البلدان (٢/٢٢٠) و (٧/١٥٠).
(٣) نفح الطيب (١/١٥٩ـ١٦٠).
(٤) معجم البلدان (٩/١٨٤).

٧٩ـ شَوْذَر Jodar :

مدينة بين غرناطة وجيّان بالأندلس[١] .

٨٠ـ مَجْرِيْط (مدريد الآن) Magerit :

بلدة بالأندلس[٢] .

٨١ ـ مِيْر تُلَة Mertola :

حصن من أعمال باجة، وهو أحمى حصون الأندلس وأمنعها، من الأبنية القديمة، على نهر آنا[٣] .

٨٢ـ مُنْت شُوْن Monzon :

حصن من حصون لاردة بالأندلس قديم، بينه وبين لاردة عشرة فراسخ، وهو حصين جداً[٤] .

٨٣ ـ مُنْت لُوّن Mentileon :

حصن بالأندلس، من نواحي جَيّان[٥] .

٨٤ ـ تُرْجِيْلَة Trujillo :

مدينة بالأندلس من أعمال ماردة، بينها وبين قرطبة ستة أيام غرباً، وبينها وبين سمُّورة ستة أيام[٦] .

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٣٠٦).
(٢) معجم البلدان (٧/ ٣٨٨).
(٣) معجم البلدان (٨/ ٢٢٤).
(٤) معجم البلدان (٨/ ١٧١).
(٥) معجم البلدان (٨/ ١٧١).
(٦) معجم البلدان (٢/ ٣٧٦).

٨٥ ـ شَنْتَمَرِيَّة الشَّرق Santa Maria de Albarracin :

مدينة في الأندلس تقع قرب فروع نهر إبْرُه Ebro إلى الشرق من مدينة شَنْتَمَرِيّة Santaver شمال شرق مدريد[١].

٨٦ ـ شَنْتَمَرِيَّة الغرب Santa Maria de Algarve :

مدينة تقع جنوبي البرتغال، وهي حالياً مدينة فارو[٢] Faro.

٨٧ ـ شَنْتَبَرِيَّة Santaver :

مدينة أندلسية تقع غربي مدينة شَنْتَبَرِيَّة الشرق[٣].

٨٨ ـ طُولوز Toulouse :

ويسميها قسم من المؤلفين العرب: تولوز، وتولوشة، وطولوشة، وهي مدينة طولوز في جنوبي فرنسة[٤]. وتسميها قسم من المراجع العربية طَرَسُونَة؛ وطرسونة هذه من مدن تطيلة، ولا علاقة لها بطولوز[٥].

٨٩ ـ شَاطِبَة Xativa - Jativa :

مدينة في شرقي الأندلس، وشرقيّ قرطبة، وهي مدينة كبيرة قديمة، ويُعمل فيها الورق الجيّد، ويحمل منها إلى سائر بلاد

---

(١) الحلل السندسية (٢/ ١٥٨) وابن الأبار (٢/ ١٠٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا(٦٩)
(٢) الروض المعطار(١١٤)والآثار الأندلسية(٣١٤)وجغرافيةالأندلس وأوروبا(٦٩).
(٣) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٩).
(٤) تاريخ غزوات العرب للأمير شكيب أرسلان (١٣).
(٥) معجم البلدان (٦/ ٤١) والروض المعطار (١٢٣) والحلل السندسية (٢/ ١٧٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١١).

الأندلس[1].

٩٠ ـ طُرُّش Torrox :

ناحية بالأندلس، تشمل على ولاية وقرى[2].

٩١ـ بُرْذِيل (بوردو الآن) Beaurdeaux :

مدينة في جنوبي غربي فرنسة[3].

٩٢ـ الأرض الكبيرة:

اصطلاح جغرافي أندلسي، يطلق على الأرض فيما وراء جبال إلبُرْت، وقد يشمل المنطقة التي خلف هذه الجبال حتى القسطنطينية كلها أو بعضها[4].

٩٣ـ المنارة: برج هِرَقْل Torre de Hercules :

والمنـارة هي برج هِرَقْل الذي لا يزال قائماً حتى اليوم في مدينة

لاكرونيا La Coruna الواقعة على المحيط الأطلسي[5].

---

(١) معجم البلدان (٥/ ٢١٤).

(٢) معجم البلدان (٦/ ٤١).

(٣) الروض المعطار (٤١) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٧٩) والحلل السندسية (١/ ٥٦) ونفح الطيب (١/ ١٢٨).

(٤) طبقات الأمم (٦٣ـ٦٤) لصاعد الأندلسي، وأوضح المسالك (٣٨وجه و٤٦وجه) لسباهي زادة وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٧)، ولا يبدو من الصواب أنّ الكتاب المسلمين كانوا يستعملون اصطلاح: الأرض الكبيرة للإشارة إلى قَلّوْرِيَّة (Calabria) جنوبي إيطاليا، كما يقول في مواقف حاسمه (٩١) وكرد علي في الحضارة الإسلامية والعربية (١/ ٢٧٤).

(٥) جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٧).

٩٤ـ بَرْبَشْتَر Berbastro:

بربشتر من بلاد بَرْبطانِيَة الأندلسيّة، وحصن بربشتر على نهر إبْرُه، وبربشتر من أمّهات مدن الثَغر الفائقة في الحصانة البائنة في الامتناع، ولها حصون[١].

٩٥ـ أُقْلِيش Acles:

مدينة بالأندلس، من أعمال شَنْتَبَرِيّة، وقال الحميدي: بليدة من أعمال طليطلة[٢].

٩٦ـ قوْنْكَة Ceuenca:

مدينة بالأندلس، من أعمال شَنْتَبَرِيّة[٣]، وهي غير بعيدة عن طليطلة، وكان العرب قد عمروها[٤].

٩٧ـ البَسِيْطَة Albacete:

مدينة تقع في الجانب الشرقي من طليطلة، وهي كاسمها في بسيط من الأرض، وتنقسم إلى قسمين: المدينة القديمة، والمدينة الجديدة، والجديدة في أسفل القديمة[٥].

٩٨ـ شَنْتَجَالَة Chinchilla:

مدينة على مقربة من البسيطة، وهي معروفة جداً في أيام المسلمين، وموقعها على مسافة (٢٩٨) كيلو متراً من مجريط، ولها حصن مرتفع على

---

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا (٩٢ـ٩٥).
(٢) معجم البلدان (١/ ٣١٣) والحلل السندسية (٢/ ٤٥ـ٤٨).
(٣) معجم البلدان (٧/ ١٨٦).
(٤) الحلل السندسية (٢/ ٤٨).
(٥) الحلل السندسية (٢/ ٤٨).

رابية تعلو مائتي متر، وبجانب هذا الحصن كهوف كثيرة مسكونة، وهناك من يلفظها: شَنْتَجِيْل[1].

٩٩ـ ليون leon:

من المدن الشهيرة في الأندلس، ولها مقاطعة يقال لها: مقاطعة ليون. وهي من المدن القديمة، وكنيستها الجامعة من أبدع محدثات الأسلوب القوطي في البناء، وفيها آثار تدلّ على عظمتها السالفة[2].

١٠٠ـ طَلَمَنْكَة Salamanqua:

بلدة متوسطة في شمالي الأندلس، وكانت قاعدة ليون، وقد اختطّها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام[3].

١٠١ـ زَمُّوْرَة Zamora:

مدينة في الأندلس، تقع على مسافة ستين كيلوا متراً من طلمنكة، مبنيّة فوق صخرة عالية، يجري تحتها الوادي الجوفيّ، وكانت من قديم الزّمان قلعة منيعة[4].

١٠٢ـ كُوْرْنِيَّة Corigna:

مدينة أندلسية، وهي مركز لمقاطعة بهذا الاسم، واقعة على لسان من الأرض، بين جونين من البحر، أحدهما إلى الشرق اسمه: الباهية، والآخر إلى الغرب اسمه: اورزان. وكان للبلد حصون مهملة الآن، وهي مدينة

---

(١) الحلل السندسية (٢/ ٤٩).
(٢) الحلل السندسية (٢/ ٥١).
(٣) معجم البلدان (٦/ ٥٥) والحلل السندسية (٢/ ٥١ـ٥٤).
(٤) الحلل السندسية (٢/ ٥٥ـ٥٧).

قديمة، وكانت في أيام المسلمين تابعة لقرطبة[1].

١٠٣ـ الحُمَّة Alhoma :

على مسافة (٢١٩) كيلو متراً من مجريط (مدريد) إلى الشرق، وعلى مقربة من أريزة، توجد الحُمَّة، حَمّة أراغون، فيها مياه معدنية ساخنة، ومن ذلك اسمها: الحَمَّة[2].

١٠٤ـ أراغون Aragon :

مملكة إسبانية في شمالي الأندلس، على نهر إبْرُهْ، وهي مقاطعة سرقسطة، ومساحتها (١٧٤٢٤) كيلوا متراً مربعاً، ومقاطعة وشقة ومساحتها (١٥١٤٩) كيلو متراً مربعاً ومقاطعة تَرول[3].

١٠٥ـ نبارة (نافار) Navarre :

مملكة إسبانية في شماليّ الأندلس، على نهر إبْرُهْ، مجاورة لمملكة أراغون. وهذه المملكة القديمة، أصبحت مقاطعة إسبانية تحمل هذا الاسم في الوقت الحاضر، مساحتها (١٠٥٠٠) كيلو متر مربع[4].

١٠٦ـ تِرُوْل Teruel :

مدينة تقع على مسافة (١٣١) كيلو متراً من قلعة أيوب، وهي جنوبي قلعة أيوب، وهذه المدينة هي مركز جنوبي أراغون، وموقعها على وادي الأبيار، وفيها آثار أسوار من القرون الوسطى، وفيها قناة معلّقة، وهي إلى الشرق من مملكة بلنسية ....

---

(١) الحلل السندسية (٢/ ٥٩ـ٦١).

(٢) معجم البلدان (٢/ ٣٤٤) والحلل السندسية (٩٠ـ٩٣).

(٣) الحلل السندسية (٢/ ٦٨) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٥٧).

(٤) الحلل السندسية (٢/ ٦٨ـ٦٩).

القديمة[1].

١٠٧ ـ جَرِيْقَة Gerica:

بلدة على نهر المجر، بالقرب من مدينة تِرول[2].

وهذه المدن الأندلسية التي ذكرتها، هي التي يتردّد ذكرها في الفتوح، وفي المعارك التي جرت بين المسلمين والإسبانيين بعد ذلك، شرحتها بإيجاز، وأشرت إلى المصادر التي اقتبست منها تلك الشروح المبسّطة، التي تفيد المؤرِّخ في تتبّع حوادث الفتوح والمعارك. وقد تعمّدت أن تكون الشروح مختصرة مبسّطة، حتى أبتعد عن الإطالة، دون أن أحرم المؤرخ من تهيئة المعلومات الضرورية له، لفهم حوادث الفتوح والمعارك.

ومع ذلك فالمصادر البلدانية العربية وغير العربية، متيسِّرة جداً، لمن أراد التوسّع.

وقد أغفلت ذكر قسم من المدن الأندلسية، لأنّ ذكرها لا يرد في الفتوح والمعارك، فيما اطّلعت عليه، فإذا اطّلع غيري على أسماء مدن وردت في مصادر ومراجع قديمة أو حديثة لم أطّلع عليها، فبإمكانه استشارة مصادر البلدانيين العرب والمسلمين، حيث سيجد فيها ضالّته بإذن الله.

ومعذرة إن كنت قصرت فذلك ما استطعت أن أقدّمه، وفوق كلّ ذي علم عليم.

---

(١) الحلل السندسية (٢/ ١٠٠).
(٢) الحلل السندسية (٢/ ١٠٠).

٣ـ الثّغور الأندلسيّة

الثّغر، وجمعها ثغور: كلّ موضع قريب من أرض العدو يُسمّى ثَغْراً، كأنّه مأخوذ من الثُّغرة، وهي الفُرجة في الحائط[١].

والثّغر ما يلي دار الحرب، وموضع المخافة من فروج البلدان، والثّغر: الموضع الذي يكون حدّاً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفّار، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد[٢].

والثغور: أطراف البلاد التي يخشى عليها خطر الغزو برّاً أو بحراً، وأطلق العرب كلمة الثغور على المدن الحصينة، لا سيّما التي كانت تقع بالقرب من حدود الدولة الإسلامية المجاورة لبلاد الأعداء[٣].

واستعمل الأندلسيون اصطلاح الثغور، للدلالة على حدودهم المجاورة لإسبانيا المسيحيّة، فكانت في الأندلس ثلاثة ثغور:

أـ الثّغر الأعلى:

ويشمل سَرَقُسْطَة، عاصمة هذا الثغر، ولارِدَة وتُطِيْلَة ووَشْقَة وطُرْطُوْشَة وغيرها.

وكان هذا الثغر يواجه بَرْشَلُوْنَة ومملكة نافار، وتمثّله اليوم مملكة أراغون Aragon[٤].

ب ـ الثغر الأوسط:

---

(١) معجم البلدان (٣/ ١٦).

(٢) لسان العرب (٥/ ١٧١).

(٣) أحمد عطية ـ القاموس الإسلامي (١/ ٥٣٨) ـ القاهرة ـ ١٣٨٣هـ.

(٤) الآثار الأندلسية (٧٨) والحلل السندسية (١/ ٢٠٦) و (٢/ ١١٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩٤ـ٩٥).

وكان يواجه مملكتي ليون وقشتالة، وكانت عاصمته أوّل الأمر مدينة سالم، ثم أصبحت العاصمة مدينة طُلَيْطُلَة.

جـ ـ الثغر الأدنى:

ويشمل المنطقة الواقعة بين نهري دُويره وتَاجُهْ، ومن مدن هذا الثغر: قُوْرِيَة وقُلُمْرِيَّة وشَنْتَرِيْن ومارِدَة[1].

وقد كان رباط الثّغر أيام فتح الأندلس، يشمل أربونة وما حولها، باعتبارها أقصى ولاية في الأندلس المسلمة، مما يلي أرض الفرنج. فلما سقطت أربونة بيد النّصارى، ارتدّ ثغر الأندلس إلى ما وراء جبال البرنية، فأصبح الثغر يُطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً، وهذا هو: الثغر الأعلى، ويشمل المدن المحصّنة التي ذكرناها قبل قليل، وكان يقابل: أراغون من ولايات إسبانيا النصرانية الحديثة. كما سميت طليطلة وأعمالها بالثغر الأوسط، لمجاورتها لمملكة ليون (جِلِّيْقِيَّة) النصرانية[2].

وهكذا، كلّما تقدم المسلمون في فتوحهم، تقدّمت ثغورهم لتكون بتماس مباشر بالعدو الغازي، دفاعاً عن البلاد المفتوحة وسكّانها المسلمين. وكلما انحسر مدّ الفتوح وخسر المسلمون ثغورهم الأماميّة المتقدِّمة، تراجعت ثغورهم، فأصبحت المدن التي لم تكن ثغوراً بعد انحسار مدّ الفتوح ثغوراً جديدة، لتكون أيضاً بتماس مباشر بالعدو الغازي، حتى جاءت أيام خسر فيها المسلمون الأندلس، وأصبحت مدن السّاحل الإفريقي المواجهة للأندلس النصرانية، ثغوراً جديدة للدفاع عن المغرب وإفريقيّة.

وقد اهتم ولاة الأندلس وخلفاؤها بتحصين المدن وإنشاء القلاع وإقامة

---

(١) المقتبس (٦٨و٢١٨) ودولة الإسلام (١/٢٢٨و٣٣٥) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩٤-٩٥) و Levi - Provencal, Histoire de l, Espagne Musulmane, 1,P. 209, 111,PP.55-58

(٢) دولة الإسلام (١/٢٢٨).

الأسوار وإنشاء مدن جديدة محصّنة وبخاصة في شمالي الأندلس، كما ذكرنا في الحديث عن: المدن، شيئاً يدل على ذلك، وقد فتح المسلمون الأندلس بإرادة القتال في جهادهم الإسلامي، فكانوا يقاتلون بأخلاقهم المحاربة لا بالعَدد أو العُدَد، فلما تخلّوا عن إرادة القتال في الجهاد، وتنكروا لأخلاقهم المحاربة، وركنوا إلى الإنحلال والانحراف، خسروا كل شيء، ولم تُغن عنهم حصونهم شيئاً، وهذا هو الدرس البليغ الذي ينبغي أن نتعلمه من فتوح الأندلس، ومن جلاء المسلمين عنها.

٤ـ جبال الأندلس

شبه جزيرة الأندلس، عبارة عن هضبة، تخترقها شرقاً وغرباً سلاسل من الجبال، يوازي بعضها بعضاً، وتتخلّلها أودية ضيّقة، تنساب فيها الأنهار[١].

ومن جبالها المشهور بالعظم، جبل إلْبِيْرَة، وهو جبل الثلج، متّصل بالبحر الأبيض المتوسط من جهة الشرق، ومنتظم بجبل ريّه ولاصق بالجزيرة الخضراء مع البحر. ويذكر ساكنوه أنهم لا يزالون يرون الثلج نازلاً فيه شتاءً وصيفاً. وهذا الجبل يُرى من أكثر بلاد الأندلس، ويُرى من عَدْوَة البحر ببلاد البربر[٢]. وجبل الثلج هو جبال نيڤادا (Nevado) أو جبل شلير، وأصل هذه اللفظة هو سولوريوس (Solarius)[٣]، وهو يُطل على مدينة غَرْنَاطَة[٤]، وطول الجبل يومان، وعلوّه في غاية الارتفاع[٥]. وفي هذا الجبل أصناف الفواكه العجيبة، وفي قراه المتصلة به يكون أفضل الحرير والكَتّان الذي يَفْضل كتّان الفيوم[٦].

ومن جبالها جبل البُرْت ويسمى أيضاً: جبل البرتات أو البرنية (Pyrenees)، وهو الحدّ الفاصل بين إسبانيا وفرنسة، ومبتدؤه من بحر الأبيض المتوسط المجاور طُرْطُوْشَة، ومنتهاه إلى البحر الغربيّ بين الأَشْبُو

---

(١) اسمذار ـ الجغرافية العمومية (٢٨٩) ـ القاهرة ـ ١٣٢٧هـ.

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٤ـ٨٥) وانظر نفح الطيب (١/ ١٤٨).

(٣) الحلل السندسية (١/ ٣٦ـ٣٧) وكلمة (Solarius) اللاتينية تعني: المشمس، لانعكاس أشعة الشمس على ثلوجه. أما سيرا نيڤادا، فتعني: الجبال الثلجية، انظر الهامش (٣) من نفح الطيب (١/ ١٤٨).

(٤) نفح الطيب (١/ ١٧٧).

(٥) الحلل السندسية (١/ ١٢٩).

(٦) جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٥)، والفيوم: ولاية غربية بمصر بينها وبين الفسطاط أربعة أيام، انظر معجم البلدان (٦/ ٤١٤).

وجِلِّيْقِيَّة[1]، وطوله أربعون ميلاً[2].

وارتفاع جبل البرت يتدرج من المكان الذي يقال له: (رون Rhune) وعلوّه (٩٠٠) متر مقابل المحيط الأطلسيّ، إلى قمّة: (أنيتو Anto) وعلوّها نحو (٣٤,٤) أمتار، وهي أعلى قمة في الجبال المسماة بالجبال الملعونة (Maidits) وفي جميع السلسلة. وهناك قمم أقل ارتفاعاً مثل قمة: (آني Anie) التي علوّها (٢٥٠٤) أمتار، وقمة: (أوساو Ossau) وعلوّها (٢٨٨٥) متراً، وقمة: (بَلاطُس Balaitous) وعلوّها (٣١٤٦) متراً، وذروة: (الجبل الضائع Mont Perdin) وعلوّها (٣٣٥٢) متراً، وقمة: (بوزانس Posets) وعلوّها (٣٣٦٧) متراً.

أما المعابر في جبل البرت، فهي تعلو بحسب علوّ الجبال، وتكثر عقابها، ويمرّ السائر فيها بكثير من كثبان الثلوج، ومن المعابر معبر: (مركادو Marcadou) ارتفاعه (٢٥٥٦) متراً[3]، وفيه عدّة معابر أخرى.

وهناك جبل الشّرف، الذي يُطلّ على إشْبِيْلِيَة، وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه[4]، طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً، وعرضه من الشرق إلى الغرب إثنا عشر ميلاً، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت[5].

وهناك عدة جبال في الأندلس اقتصرنا على ذكر أهمها.

---

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٥)، ويسمى خطأ بجبال البرانس، إذ أنّ جبال البرانس (جبل المعدن Sierra de Almaden) تقع شمالي قرطبة.

(٢) الحلل السندسية (١/ ٢٦٧).

(٣) الحلل السندسية (٢/ ١٠٨-١١١).

(٤) معجم البلدان (١/ ٢٥٤).

(٥) الحلل السندسية (١/ ١٩٩).

٥ ـ الأنهار

أ ـ نهر إبْـرُهْ Ebro:

يقع هذا النهر في شمالي شرقي شبه الجزيرة الأندلسيّة، ويصبّ في البحر الأبيض المتوسط، عند مدينة طُرْطُوْشَة (Tortosa)[(١)]، وكان مملكة أراغون (Aragon) ونبارة (Navara) يرتويان من هذا النهر. ولهذا النهر منبعان: أحدهما يقال له: هيجار (Higar)، يتفجر من جبل يقال له: كورد (Cardel) عليه الثلج صيفاً وشتاءً، وتنحدر منه مياه إلى الوادي الجوفيّ، منحدرة إلى الغرب، ومن مياهه ما ينحدر إلى الشرق، وهي مياه هيجار التي تجري مسافة ستة عشر كيلو متراً، ثم تلتقي مع مياه إبره، التي تنبع من غربيّ مكان يقال له: رينوزه (Reinosa)، وهذا الوادي يخرج من بحيرات صغيرة. بين تلك الجبال المتفرعة من جبال البُرْت. ثم تمد إبرة عدّة أنهار، حتى يعدل ماؤه عندما يصل إلى ميراندة بعشرين ألف متر مكعب في الثانية. وعندما يصل إلى لوكروني بواحد وثلاثين ألف متر مكعب في الثانية، فإذا وصل تُطِيْلَة صار يصب (٤٥٢٠٠) متراً مكعباً في الثانية، وهو يسقى عند تطيلة جانباً من بسيط أراغون الذي لولاه لكان أشبه بصحراء إفريقية[(٢)]. كما يسقي مدينة سرقسطة[(٣)]، ومدينة ناجِرَة[(٤)]، وهي مدينة في شرقي الأندلس من أعمال تُطيلة[(٥)].

ب ـ الوادي الكبير Guadilquivir:

---

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا (٥٧).
(٢) الحلل السندسية (٢/ ٦٨) و (٢/ ١١٤).
(٣) الحلل السندسية (٢/ ١١٨) و (٢/ ١١٩) و (٢/ ١٢١).
(٤) الحلل السندسية (٢/ ١٧٧).
(٥) معجم البلدان (٨/ ٢٣٥).

ينبع نهر الوادي الكبير من الجبال الوسطى في الأندلس، وينصب بحذاء بَطَلْيَوْس (Badajoz) بقرب خليج قادس (Cadix)[١].

جـ ـ نهر تَاجُهْ Tago:

ينبع من جبال البرت، وينصب في المحيط الأطلسي، وتقع عليه مدينة طُلَيْطُلَة[٢]، ومدينة طَلَبِيْرَة[٣] ولشبونة[٤] (إشبونة Lisbonne أو Lisboa).

وهذا النهر يخرج من ناحية الجبال المتّصلة بالقلعة[٥] والفنت (البونت Alpuente). فينزل ماراً باتجاه الغرب إلى مدينة طليطلة، ثم إلى طلبيرة (Talevera df la Reina)، ثم إلى المخاضة، ثم إلى القنطرة (Alcantra)، ثم إلى قنيطرة محمود، ثم إلى مدينة شنترين (Santaren)، ثم إلى لشبونة، فيصب هناك في البحر[٦].

د ـ النهر الأبيض:

ينبع من جبال البرت[٧]، ويمر بمدينة مُرْسِيَة[٨]، ويمر هذا النهر بحصن أفرد (Ferez) ثم إلى حصن مُوْلَة (Mula) ثم إلى مرسية، ثم إلى المَدُوْر، إلى البحر[٩].

---

(١) الحلل السندسية (١/ ٢٨).
(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٧).
(٣) جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٩).
(٤) الحلل السندسية (١/ ٩٢).
(٥) المقصود بها: قلعة كبريال، وهي إلى الشمال الغربي من: الفنت التي يسميها الأسبان: البونت Alpuente، انظر الحلل السندسية (١/ ١٠٤).
(٦) الحلل السندسية (١/ ١١٧).
(٧) الحلل السندسية (١/ ١١٦).
(٨) الحلل السندسية (١/ ١١١) و (١/ ١١٤).
(٩) الحلل السندسية (١/ ١١٧).

و ـ المجمل:

وهناك عدّة أنهر، لا مجال للدخول في تفصيلاتها، ولكن لا بأس من ذكر أسمائها فقط، ومَن أراد التفصيل، يرجع إلى المصادر المعتمدة حولها.

من هذه الأنهر، نهر لارِدَة الذي فيه معدن الذهب[١]. ونهر أرلِنْسون (Arlencon) تراه أكثر السنة شحيحاً، ولكن له فيضانات مدهشة، ويسقي مدينة بُرْغُش[٢] (Burgos). ونهر أريسمة الذي يسقي مدينة شَغُوْبِيّة[٣] (Segovia)، وهي من مدن قشتالة. ونهر برباط، وهو الذي يمر بقرب الموضع المسمى اليوم: (Alola deLos Gazules)[٤]. ونهر بكة (Bacca)، وبكة بالقرب من الطرف الأغرّ[٥]. ونهر بسيورقة الذي تقع على ضفته اليمنى: بلد الوليد (Valladolid)، وهذه اللفظة عربية محرّفة من بلد الوالي، وهكذا سمّاها العرب، فأضاف إليها الإسبان حرف الدال، فصار الإنسان يتوهم أنها بلدة بناها رجل يقال له: الوليد، وهي اليوم مركز مقاطعة بهذا الاسم[٦]. ونهر بلون (Guadabellon) على بُعد ميل من مدينة جَيَّان، وهو نهر كبير، عليه أرحاء كثيرة جداً[٧]. ونهر بيداسوا (Bidassoa)، وهو الحدود بين إسبانيا وفرنسة من جهة الشمال الغربيّ، وهو يجري بين هنداي (Hendaye) وفونترابية (Fontarabie)، وهناك جزيرة اسمها: الحجل، في وسط هذا النهر، اتفقت فرنسة وإسبانيا من قديم الزمان على جعلها منطقة محايدة[٨]. ونهر الوادي الجوفي، أي نهر دورو (Douro)، وأوّل منابع هذا

---

(١) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٩).
(٢) الحلل السندسية (١/ ٣٣٤).
(٣) الحلل السندسية (١/ ٣٦٠ـ٣٦١).
(٤) الحلل السندسية (١/ ٨٢).
(٥) الحلل السندسية (١/ ٣٣٤).
(٦) الحلة السندسية (١/ ٣٣٨ـ٣٣٩).
(٧) الحلل السندسية (١/ ١٢٨).
(٨) الحلل السندسية (١/ ٣٢٨).

النهر مكان يقال له: أوربيون (Urbion) على علوّ (٢٢٥٥) متر عن سطح البحر، بين شارات دمندا (Demanda) وشارات سان لورانزو (Lorenzo) وشارات سيبوليرا (Cebollera)، وهي التي تنحدر منها مياه نهر إبره أيضاً. وأصل اسمه: دورو (Duera) مشتق من لفظة: دور (Dour)، ومعناها: الغزارة. والنهر الجوفي هذا يجري على ارتفاع سبعمائة متر فوق سطح البحر، فهو يسقي بسائط في غاية الاتِّساع، إلى أن يصل إلى بلد الوليد، التي -هي على يمينه- وفي أوّل مجراه، ينحدر إنحداراً خفيفاً حتى يصل إلى الحدود بين إسبانيا والبرتغال، فهو ينصب هناك بحرية شديدة، في مضايق تجعل منه نهراً هائلاً، ويصير مجراه في غاية العمق، وفي بعض الأماكن ترتفع ضفافه مائتي متر عن سطح المياه، وأحياناً تتقارب الضفتان تقارباً شديداً، وينحصر الماء انحصاراً عجيباً، وتتكوّن من هذا الوادي شلاّلات، لو استخدمت قوتها الكهربائية لجاءت بالخوارق. ولكن عندما يدخل في بلاد البرتغال ينبسط في الأراضين، ويعود هادئاً. وللوادي الجوفيّ أنهر تمدّه من اليمين ومن الشمال، منها: دوراتون (Duraton)، وسيغة (Cega)، وأداجة (Adaja)، وزابارتيال (Zapartiel)، وطورماس (Tormes)[1]. ونهر حَدَرُه (Darro) الذي يشقّ مدينة غرناطة إلى نصفين، وعلى جنوبيها وادي الثلج المسمى: شنيل (Xenil) ومبدأ من جبل شيلر وهو جبل الثلج. ونهر نرڤيون (Nervion) الذي تقع عليه بلدة بِلباو (Bilbao) قاعدة مقاطعة بسكاي[2]. ونهر شَقْر (Rio Jucar) الذي تقع عليه مدينة بَلَنْسِيَة في جنوبيّ الأندلس[3]، ونهر شَقْر[4] الذي فيه جزيرة شَقْر ويقع عليه حصن قلبيرة (Cullero)[5]. ونهر الملاّحة التي تقع عليه مرّية بلِّيش، ويسميها الإسبان (Torre del

---

(١) الحلل السندسية (١/ ٣١٨-٣١٩).

(٢) الحلل السندسية (١/ ٢٣١-٢٣٢).

(٣) الحلل السندسية (١/ ٣٠ و ١٠٩ و ١١٠ و ٣١٩).

(٤) الحلل السندسية (١/ ٣٠).

(٥) الحلل السندسية (١/ ١٠٩-١١٠).

Marre)، وهذا النهر يأتي من ناحية الشمال، فيمر بالحَمَّة، ويتصل بأحواز حصن صالحة (Zalia أوSaliha) وقد خُرِّب بعد جلاء العرب عن غرناطة، فيقع في هذا النهر جميع مياه صالحة، وتنزل إلى قرية الفشاط (Al-Fachat)، وتصب هناك في غربي حصن مرية بلِّش في البحر[١]. ونهر ملبال، وقلعة ملبال تقع على نهر ملبال، وهو نهر مدينة فرنجُلوش (Hornachuelos)، ويؤدي هذا النهر إلى حصن المدور إلى قرطبة[٢]. ونهر منديق (Mondego)، الذي تقع عليه مدينة قُلُمْرِيَّة، وهي في نهاية الحصانة، وجريه على غربيِّها، ويتّصل جري هذا النهر إلى البحر، وعلى مصبِّه حصن مُنْت مَيُور (Montemayor) ولها على النهر أرحاء[٣]. ونهر ميل الذي تقع عليه مدينة المُنَكّب (Almunecar) وهي مدينة حسنة متوسطة كثيرة مصايد السمك، وبها فواكه جمّة[٤]. ونهر مينو (Minho)، وهو ينحدر إلى المحيط الأطلسي وينصبّ فيه[٥]، ونهر شنقورينة المشتق من نهر شَقْر، ويصبّ في البحر الأبيض المتوسط[٦]. ونهر وادي يانَة (Guadiana) الذي يصب في المحيط الأطلسي، وهو نهر ماردة وبطليوس، وعليه حصن مارتُلة (Martola) المشهور بالمنعة والحصانة. ونهر يانَة نهر كبير، ويسمى نهر الغؤر، لأنه يكون في موضع يحمل السفن، ثم يغور تحت الأرض، حتى لايوجد منه قطرة، فسُمّي الغؤر لذلك، وينتهي جريه إلى حصن مارتلة، ويصبّ في قريب من جزيرة شلطيش. وهذا النهر يمر بقرية يانة (Ana) إلى قلعة رباح، ثم يسير منها إلى حصن أرَنْدَة (Aranda) ومنه إلى ماردة، ثم يمر بمدينة بَطَلْيَوْس،

---

(١) الحلل السندسية (١/ ١٢٣).
(٢) الحلل السندسية (١/ ١٣٥-١٣٦).
(٣) الحلل السندسية (١/ ٩١-٩٢).
(٤) الحلل السندسية (١/ ١٢٢)، ومدينة المنكب: بلد على ساحل جزيرة الأندلس، من أعمال إلبيرة، بينه وبين غرناطة أربعون ميلاً، أنظر معجم البلدان (٨/ ١٨٤).
(٥) الحلل السندسية (١/ ٢٨).
(٦) الحلل السندسية (١/ ٣٠).

فيصير منها إلى مقربة من شريشة (Xeres de Estramadura) وهي غير شريش البلدة المشهورة بقرب إشبيلية التي ينسب إليها الشريشيّ شارح مقامات الحريري، ثم يصير النهر إلى حصن ميرتُلة، فيصبّ بالبحر المظلم (وهو المحيط الأطلسي)، ويمرّ بالأصل في بدايته بقشتالة الجديدة[١]. ونهر شطوبر (Chetvubar) على اسم مدينة بهذا الاسم تقع عليه، وهو نهر كبير تصعد فيه السُّفن والمراكب السفرية كثيراً[٢]. ونهر آرغة (Araga)، الذي تقع عليه مدينة بَنْبلُوْنَة، وينبع من جبال البرت. ومن تلك الجبال ينبع نهر جِلِّق (Gallego) الذي يمرّ بأراضي سَرَقُسْطَة ويتّصل بنهر إِبْرُهْ[٣].

والخلاصة أن قسماً من المؤرخين قالوا: طول الأندلس ثلاثون يوماً، وعرضها تسعة أيام، ويشقّها أربعون نهراً كباراً، وبها من العيون والحمامات والمعادن لا يُحصى، وفيها ثمانون مدينة من القواعد الكبار، وأزيد من ثلاثمائة من المتوسِّطة، وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يُحصى كثرةً، حتى قيل: إنّ عدد القرى التي على نهر إشبيلية إثنا عشر ألف قرية، وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعاً في يومه إلاّ بالأندلس. ومن بركتها أنّ المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلاً[٤].

كما يقول ابن حوقل عن الأندلس: «... تغلب عليها المياه الجارية، والشجر والثمر، والرّخص والسعة في الأحوال..»[٥].

وكما يقول الرازي عنها: «... طيِّبة التربة، مخصبة القاعة، منبجسة العيون الثّرار، منفجرة بالأنهار الغزار..»[٦].

---

(١) الحلل السندسية (١/ ٢٨و٨٦و٨٨و٨٩و٩٩و٣١٩).
(٢) الحلل السندسية (١/ ٨٨).
(٣) الحلل السندسية (٢/ ١١٦)، ويقرأ نهر آرغة بنهر أرقا، أنظر الحلل السندسية (٢/ ١٣٤و١٧٤).
(٤) الحلل السندسية (١/ ٢٦٠)، وأنظر نفح الطيب (١/ ٢٠٨-٢٠٩).
(٥) صورة الأرض (١٠٤)، أنظر نفح الطيب (١/ ٢١١).
(٦) أنظر نفح الطيب (١/ ١٤٠).

إنّ الأندلس، لكثرة أنهارها وعيونها، كانت كثيرة الخيرات، خصبة كثيرة الزروع والأشجار، جيدة الفاكهة والثمار، تدرّ على الزرّاع أجود الحاصلات الزراعية، وعليهم وعلى السكان ما يحتاجون إليه مما تنبت الأرض.

السكان

من الأمثال المضروبة في أوروبة، أنَّ جبال البُرْت (البُرْتات) أو كما يطلق عليها قسم من العرب: جبال البرانس[1] (Pyrennes)، هي الحدّ الفاصل بين أوروبة وإفريقيّة. ويقولون: إذا تجاوزت معابر جبال البُرْت، فاعلم أنّك قد دخلت إفريقيّة[2].

والواقع أنّ هناك اختلافاً في الجغرافية الطبيعية بين الأندلس من جهة، وأوروبة من جهة ثانية، أما من ناحية السكان، قبل الفتح الإسلامي، فلا شكّ في أنّ أهل الأندلس أوربيون من ناحية سلالتهم، ولكن اختلاطهم بالبربر والأمم السامية الأخرى، قروناً طويلة، جعل منهم أمّة وسطاً بين الشرق والغرب، إذ يذهب كثير من المؤرخين الأجانب، إلى أنّ الإيبيريين الذين هم سكان إسبانيا الأولون، هم والبربر من أصل واحد. ويستدلّون على ذلك بالتشابه بين عادات الأمتين، من ذلك ما رواه سترابون من أنّ المرأة كان لها المقام الأول عندهم إلى زمن الرومانيين، وهذه العادة معروفة الآن عند الطوارق من البربر في صحراء إفريقيّة، كما أنّ السليتين جاءوا من أوروبة الوسطى فاختلطوا بالإيبيريين، كما أن قرطاجنّة أرسلت إلى إسبانيا مهاجرين كثيرين من إفريقيّة، وقبل قرطاجنّة كان الفينيقيون قد عمروها، وهكذا كان سكان إسبانيا عناصر غربية تأتي من شمال جبال البُرْت، وعناصر شرقيّة تأتيها

---

(١) تسمى هذه الجبال أحياناً: البرانس، والظاهر أنّها تسمية خاطئة، لأنّ جبال البرانس تقع شمالي قرطبة، وتعرف أيضاً بجبال المعدن (Sierra de Almaden)، أنظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٨٥) و (١٢٩) والروض المعطار (١٤٢) ونفح الطيب (١/ ١٤٣) ودولة الإسلام في الأندلس (١/ ٥٣و٨٢) وتاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس (٢٦١) والتاريخ الأندلسي (٣٥).

(٢) الحلل السندسية (١/ ٢٤).

من جنوبي مضيق جبل طارق[١]، وتختلط هذه العناصر بالسكان الأصليين.

ثم إنّه طرأ على إسبانيا جاليات يونانية ـ وبخاصة أيام الإسكندر المقدوني الذي كان له جهود في فتح مضيق الزقاق أو بحر المجاز أو مضيق جبل طارق[٢] ـ، وقد نزلت الجاليات اليونانية في أقسام إسبانيا الشرقيّة[٣]. وتلاها جاليات رومانية غلبت على جميعها، وفي أثناء ذلك دخلها عدد كبير من يهود.

وبعد أن دخلها السليتيون واللّاتينيون واليونان واختلطوا بسكّانها الإيبيريين، وجاء القرطاجنيون والفينيقيون ويهود من السلالات الآسيويّة، واختلطت هذه المجموعات البشرية ببعضها، جاءتها موجات بشرية أهمها الفندال والقوط الذين ملكوها وكانوا الطبقة السائدة فيها عندما فتحها المسلمون[٤].

واسم الأندلس مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصل جرماني، احتلت الأندلس حوالي القرن الثالث والرابع الميلاديين وحتى القرن الخامس الميلادي، فسميت باسمها: (Vandalusia) أي: بلاد الوندال[٥].

واحتل القوط الغربيون الأندلس في أوائل القرن الخامس الميلادي، وهؤلاء القوط الغربيون (Visigoths) هم الذين طردوا الوندال (Vandals) إحدى القبائل الجرمانية المتبربرة من الأندلس، فاستبدّ القوط بالحكم[٦].

والقوط الغربيون، قسم من القوط (Goths)، وجماعة رئيسة من الجرمان،

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٣٣).
(٢) نفح الطيب (١/ ١٤٥ـ١٤٦) و (١/ ١٣٥).
(٣) الحلل السندسية (١/ ٢٥).
(٤) الحلل السندسية (١/ ٢٦).
(٥) التاريخ الأندلسي (٣٧).
(٦) فجر الإسلام (٢) ودولة الإسلام في الأندلس (١/ ٢٧ـ٢٩) وأوروبا والعصور الوسطى ـ عاشور ـ (١/ ٨٨).

انفصلوا من القوط الشرقيين في أوائل القرن الرابع الميلادي، وقد توغلوا في شمالي إسبانيا، ثمّ وسّعوا ممتلكاتهم الإسبانية على حساب الوندال، وأخيراً أصبح تاريخ القوط الغربيين هو تاريخ إسبانيا، واعتنقوا الكاثوليكيّة واندمجوا بالإسبان، وكان آخر ملوكهم لُذَريق الذي هزمه طارق بن زياد[1].

وكان البَشْكُنْس (Basques) وهم أمّة عظيمة[2]، سكّان بلاد نافار(Navarra) التي كانت بَنْبُلُونَة (Pamplona) عاصمة لها. وتقع نافار شرقي مملكة ليون محاذية لجبال البُرْت التي تفصل بين إسبانيا وفرنسة. وهم أمّة مستقلّة بنفسها، وأصل اسم هذه الأمة هو الباسقو نغادوس (Vascongados)، ومنه اشتق اسمها الحالي: الباسك (Les Basques)، ومنهم من يتكلم الإسبانية أو الفرنسية، ولكن أكثرهم لا يتكلّمون بغير لغة البَشْكُنْس، وهم من أشدّ أمم الأرض استمساكاً بقوميتهم واحتفاظاً بخصوصيّتهم، يزعمون أنّهم أقدم أمّة في أوروبة، ولا نزاع في أنّهم بقايا الشعب الإيبيري القديم، والثمالة الخالصة المحضة التي لم تدخل عليها شائبة من ذلك الشعب الإيبيري القديم. وهم أشداء جبليون، موثقو الخَلْق، تغلب عليهم السُّمرة، إلاّ مَن كان منهم في أعالي الجبال، فَيَغلب عليهم اللّون الأشقر، شمُّ الأنوف، محدّدو الأذقان، شعورهم مائلة إلى السّواد، لهم زي خاص بهم لا يعرفون سواه، بقيت منه حتى اليوم طاقية من الصوف يقال لها البوانا (Laboina) لا يزالون يلبسونها على رءوسهم. وأما عاداتهم القديمة، فمنهم مَن تركها، ومنهم مَن لا يزال يعضّ عليها بالنواجذ حتى اليوم، فتجدهم يستعملون محاريثهم القديمة، وعجلات تجرّها البقر، وعليها نير مزخرف مغطى بجلد ضان، وعندهم نوع من الرقص في أعيادهم ومواسمهم يسمّونه أوريسكو[3]، يجرونه على صوت مزمار صغير يسمى: دولسينية[4]،

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة (١٤٠٧ـ١٤٠٨) وأنظر نفح الطيب (١/١٣٧ـ١٤٠).

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (٧٩).

(٣) أوريسكو: Aurrescu .

(٤) دولسينية: Dulsinya .

مع قرع الطبول.

والبشكنس من أشدّ أمم الأرض حباً بالحريّة وأنفة من قبول الضّيم، وكما كانوا يردّون غارات المسلمين من الجنوب، كانوا يردّون غارات الفرنج من الشمال، وكانت مواقع بلادهم الجبلية، تساعدهم على ردّ غارات تلك الأمم، فإنّ مساكنهم أكثرها في الجبال، تحيط بها الأوعار، والأرض كما يقال: تقاتل مع أهلها[١]. وهم الذين أوقعوا بجيش شارلمان عند سَرَقُسْطَة بعد أن عجز عن أخذها. ولم يخضع البشكنس لملوك ليون وملوك نَبَارة وملوك قشتالة، إلاّ على شرط احترام هذه الدول لعاداتهم وتقاليدهم. وكانت لهم امتيازات يقال لها: فُيُورس (Fueros)، ولم تزل امتيازاتهم هذه محفوظة[٢].

وعلى وجه الإجمال، فإنّ السلالة الآريّة هي الغالبة في القسم الشمالي الغربيّ من إسبانيا، لذلك فإنّ أجسامهم أقوى وعضلاتهم أصلب من سكّان وسط الأندلس وجنوبيها. ومن السلالة الآرية القشتاليون، الذين يعتبرون أنفسهم من سكّان البلاد الأصليين. ومثل القشتاليين في الحميّة أهل أراغون وأهل مقاطعة مُرْسِيَة. أما سكّان المقاطعات الجنوبية من الأندلس، فيغلب على أهلها الذكاء والجمال والسرور وحبّ الترف، لأنّهم مزيج من شعوب شتى[٣].

إنّ موقع إسبانيا الجغرافيّ، وخصوبة أرضها، وغزارة مياهها، وطيب جوّها، جعلها مطمح كثير من الأقوام جماعات وأفراداً، وملتقى كثير من الشّعوب الغزاة تارة والمهاجرين تارة أخرى، مما هيّأ لها أسباب امتزاج تلك الشعوب، وجعلها شعباً واحداً، يعيش في منطقة جغرافيّة واحدة، إذا اختلفت في جذورها، فهي لا تختلف في بنيتها الراهنة بعد امتزاجها وانصهارها في شعب واحد، هو الشعب الإسبانيّ، في بلاده إسبانيا.

---

(١) تساعد المدافع على الدفاع، وتعرقل هجوم المهاجم.

(٢) الحلل السندسية (١/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) عن جوسه - جغرافية إسبانيا والبرتغال، نقلاً من الحلل السندسية (١/ ٢٥-٢٦).

الموارد الاقتصادية

١ ـ المناخ العام:

قال أبو عُبَيْدة البكري: «الأندلس شاميّة في طيبها وهوائها، يمانيّة في اعتدالها واستوائها، هنديّة في عِطْرِها وذكائها، أهوازية في عظم جِبايتها، صينيّة في جواهر معادنها، عَدَنيّة في منافع سواحلها، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة»[١].

وقال لسان الدين بن الخطيب: «... خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرَّيْع وغَدَق السُّقيا، ولذاذة الأقوات، وفَرَاهَة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحّر العمران، وجودة اللِّباس، وشرف الآنية، وكثرة السِّلاح، وصحّة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونُبْل الأذهان، وفنون الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدّن والاعتمار، بما حُرِمَهُ الكثير من الأقطار مما سواها»[٢].

وقال أبو عامر السّالِميّ[٣]، في كتابه: «درر القلائد وغرر الفوائد»: «الأندلس من الإقليم الشّاميّ، وهو خير الأقاليم وأعدلها هواءً وتُراباً،

---

(١) أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) صاحب المسالك والممالك، أنظر ترجمته في: جغرافية الأندلس وأوروبا (٢٩ـ٤٧)، وأنظر هذا النص في الروض المعطار (٣) والمنتقى من فرحة الأنفس (٢٨١) ونفح الطيب (١/ ١٢٦).

(٢) نفح الطيب (١/ ١٢٥ـ١٢٦).

(٣) أبو عامر السالمي: محمد بن أحمد بن عامر، كان أديباً مؤرِّخاً حافظاً، صنّف في الحديث والآداب والتواريخ مصنّفات كثيرة مفيدة، وكتابه: درر القلائد وغرر الفوائد، في أخبار الأندلس وأمرائها وطبقات علمائها وشعرائها، وقف منه ابن عبد الملك على السفرين الأول والثاني، أنظر ترجمته في التكملة (٤٩٥) والذيل والتكملة الورقة (٣) من مخطوطة المتحف البريطاني، نقلاً من الفقرة (٢) من الصفحة (١٢٦) من كتاب نفح الطيب.

وأعذبها ماء، وأطيبها هواء وحيواناً ونباتاً، وهو أوسط الأقاليم، وخير الأمور أوسطها»[١].

وقال الرازي[٢]: «الأندلس بلد كريم البقعة، طيِّب التربة، خصب الخباب، مُنْبَجِس بالأنهار الغزار والعيون العِذاب، قليل الهوامّ ذات السُّموم، معتدل الهواء والجوّ النسيم، ربيعه وخريفه وَشْتَاه ومصيفه على قدر من الاعتدال، وسِطَةٍ من الحال، لا يتولّد في أحدها فَضْل يتولّد منه فيما يتلوه انتقاص، تتّصل فواكهه أكثر الأزمنة، وتَدوم متلاحقة غير مفقودة. أمّا السّواحل منه ونواحيه فيبادر بباكورة، وأمّا الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء، فيتأخّر بالكثير من ثمره، فمادة الخيرات بالبلد متمادية في كلّ الأحيان، وفواكهه على الجملة غير معدومة في كلّ أوان..»[٣]

ووصف المناخ من المؤلِّفين الأندلسيين القدامى، لا يقتصر على وصف المناخ حسب، بل يشمل المنتوجات الزراعية والحيوانية أيضاً، فهو من هذه الناحية مفيد للغاية في بحث الموارد الإقتصادية للأندلس، وعلى كلّ حال فالعلاقة وثيقة بين المناخ والموارد الإقتصادية للبلد الواحد كما هو معروف.

إنّ جو الأقاليم الوسطى من الأندلس، هدف لشدة القيظ في فصل الصّيف، وكثرة البرد في الشتاء، وذلك لبعدها عن المحيط الأطلسيّ، وقلة تأثيره فيها، وقلّما تنزل فيها الأمطار[٤]. ولكن الأقاليم الشمالية باردة، لأنّها جبلية، وتصلح أن تكون مصايف متميِّزة صيفاً لطيب هوائها وغزارة مياهها. أما الأقاليم الساحلية، فمناخها هو مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط اعتدالاً في هوائها وفصولها السنوية الأربعة، وهي مصايف جيدة لطيب جوِّها

---

(١) نفح الطيب (١/١٢٦).

(٢) أحمد بن محمد الرازي: من كبار المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين في ظل حكم بني أُميّة في الأندلس، وهو جدّ الرازي الذي يعتمده ابن حيّان في المقتبس، أنظر جذوة المقتبس (٩٧).

(٣) نفح الطيب (١/١٢٩ـ١٣٠).

(٤) الجغرافية العمومية (٢٨٩).

وكثرة فواكهها.

٢ـ الموارد الزراعية والحيوانية:

من خواص طُليطلة، أنّ حنطتها لا تتغيّر ولا تتسوّس على طول السنين، يتوارثها الخلف عن السّلف[١]، ومن الواضح أنّ هناك مبالغة في وصف استمرارية بقاء هذه الحنطة دون غيرها من أصناف الحنطةة، فالأندلسيون غالباً مغرقون في الثناء على الأندلس، وكلّ فتاة بأبيها معجبة، ولكن يبدو أنّ الأندلسيين أكثر إعجاباً ببلادهم من غيرهم.

ويزرع في الأندلس الشّعير والذرة والأرز والعدس والفول والبصل والفوم، والعنب والحمضيات والتين، والزبيب والتُّوت، والبنجر وأنواع الخضر، والتفاح والموز والبرقوق والكمثرى والمشمش والتين الشوكيّ والخوخ والرمان وقصب السكّر. وترعى دودة القزّ أوراق شجر التوت، كما يزرع الكتان.

ومعظم سكّان الأندلس، يعملون في الزراعة، ومهنة أكثرهم الفلاحة، وأشهر الزروع في الأندلس الكروم والفواكه، وتربّى قطعان الأغنام والمعز والأنعام كثيراً[٢]، وتكثر فيها الخيول والبغال والحمير، وتربّى الدواجن في المزارع بخاصة وفي البيوت أيضاً، وتستغل مياه الأنهر والبحار لصيد الأسماك.

وفيها من العطور النباتيّة أنواع، فيوجد في ناحية دَلاية[٣]، من إقليم البشـرة[٤]: عـود ....

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٤٣).

(٢) الجغرافية العمومية (٢٨٩)، وأنظر نفح الطيب (١/ ٢٠٠).

(٣) دلاية: Dalias، بلد قريب من المرية من سواحل بحر الأندلس، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٦٧).

(٤) البشرة: أو البشرات، أو البشارات (Alpujarras) هي منطقة جبال سيرانفادا أنظر الفقرة (١) من الصفحة (١٤١) من كتاب نفح الطيب.

الأَلَنْجُوْج[١]، وهو عود الطّيب، أو العود الهندي، أو النَّد، أو أَلُوَّة[٢]، وهو شجرة من فصيلة المازَرْيونيات وفصيلة الألَنْجوجيات، ، له عود راتينجيّ إذا حُرق سطعت له رائحة جميلة، وكثيراً مايخلطون عود هذا النبات بعود نبات آخر من فصيلة القرنيات[٣]، والأَلَنْجُوْج من كلمة يونانية أصلها سنسكريتي[٤]، ويعمل من هذه العود البخور الطيّب، لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطرَ رائحة، وقد سيق منه إلى خَيران الصقلبيّ[٥] صاحب المَرِيَّة، وأنّ أصل مَنْبَتِهِ كان بين أحجار هنالك، وبأكْشُونبة (Ocsonoba) جبل كثيراً ما يتضوّع ريحه، ريح العود الذّكيّ إذا أرسلت فيه النار. وببحر شَذُوْنَة يوجد العَنْبَر[٦] الطيِّب الغربيّ، وفي مُنْت ليُون (Mentileon) المَحْلَب. واسمه العلمي: (Cerasus Mahaleb)[٧]، وهو شجر من الفصيلة الوردية، وله عدّة أنواع.

ويوجد بالأندلس القُسْط الطيِّب (Aromate)[٨]، وهو عود يتبخّر به[٩]، كما يوجد السُّنْبُل الطيب، وهو جنس من النباتات العشبيّة المُعَمّرة، من الفصيلة الناردينيّة، أزهارها على شكل عناقيد أو سنابل بيضاء أو حمراء أو ورديّة، وجذورها غلاظ، تستعمل لأغراض

---

(١) هو Aquilaria، أنظر: معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الرياضية (٣٧).
(٢) المختص لابن سيد (١١/ ١٩٨).
(٣) اسم هذا النبات العلمي: Aloexyon agallochum، وقد أعانني على شرح العطريات الدكتور جابر الشكري.
(٤) معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الرياضيّة (٣٧).
(٥) خيران الصقلبي: من أوائل الفتيان الذين أعلنوا استقلالهم بعد انهيار الدولة الأموية بالأندلس على أثر الفتنة البربرية سنة ٣٩٩هـ، واتخذ المريّة مركزاً له، أنظر أعمال الأعلام (٢١٠ـ٢١٥).
(٦) العنبر: مادة صلبة، لا طعم لها ولا ريح إلاّ إذا سُحقت أو أحرقت، يقال: إنها روث حيوان بحري.
(٧) معجم الشهابي (١٢٣).
(٨) معجم الشهابي (٤٢).
(٩) الإفصاح (٢/ ١١١٥).

طبية[١]، وهو من النباتات الطيِّبة الرِّيح[٢].

والجَنْطيانة، تُحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق، وهو عُقار رفيع[٣]. والمُرّ[٤] الطيِّب بقلعة أيُّوب[٥]، وأطيب كهرباء الأرض[٦] بشَذونَة، درهم منها يَعْدِل دراهم من المجلوبة.

وأطيب القِرْمِز[٧]، قرمز الأندلس، وأكثر ما يكون بنواحي إشْبيلِيَة ولَبْلَة وشَذونَة وبَلَنْسِية، ومن الأندلس يُحمل إلى الآفاق[٨].

وزعفران طُليطلة هو الذي يعمّ البلاد، ويتجهّز به الرِّفاق إلى الآفاق،

---

(١) معجم الشهابي في المصطلحات الزراعيّة (٧٦٦)، واسم السنبل العلمي: (Valeriana) وهي مقتبسة من اليونانية.

(٢) الإفصاح (٢/ ١١٦٤).

(٣) الجنطيانة: سمي باسم ملك من ملوك اليونان، أنظر كتاب القانون في الطب (٢٨٣)، وهو صنف من أصناف النبات ينبت في الجبال، يفيد الكبد والطحال وينفع من عرق النسا، أنظر كتاب المعتمد في الأدوية (٧٥)، وجذوره مرّة غير قابضة، خافضة للحرارة، منبهة، منشطة للهضم، أجودها الأصفر، أنظر تذكرة أرمانيوس (٩٨). ولهذا النبات ذكر في معجم تاج العروس، فليرجع إليه من أراد.

(٤) المرّ: اسمه العلمي هو (Myrrha)، وهو أشجار كبيرة الحجم، كثيرة الأنواع، طيّبة الرائحة، وهي من الأشجار البابليّة، والاسم البابليّ: مُرّ، ورد في النصوص البابلية القديمة، واسمه الأجنبي كاسمه البابلي، الذي نقله الأوربيون عن عرب الأندلس، وأنظر ما جاء عنه في معجم الشهابي في المصطلحات الزراعيّة (٤٨٣).

(٥) قلعة أيوب (Caltayud): وهي بقرب مدينة سالم، بينها وبين دروقة عشرون ميلاً، وهي مدينة عظيمة جليلة القدر في الأندلس من أعمال سرقسطة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٤٨ـ١٤٩).

(٦) كهرباء الأرض: مادة صمغية، توجد عند سواحل البحر بالأندلس، والنوع الأندلسي منها أصغر وأصلب من المشرقيّ، وتدخل في تحضير بعض الأدوية، أنظر الفقرة (٩) من نفح الطيب (١/ ١٤١).

(٧) القرمز (Cochineale): وهو أنواع كثيرة الفراشات، وهي فراشات لها شهرة كبيرة في تاريخ الأصباغ، إذ تستخرج منها أصباغ كثيرة، تُعرف باسم: القرمزيّات، فيقال: لون قرمزي، وصبغ قرمزي، لونه أحمر قانٍ.

(٨) أنظر جغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٤ـ١٢٦) ونفح الطيب (١/ ١٤٠ـ١٤٢).

وكذلك الصبغ السمّاوي[1].

وفي بحر الأندلس، بجهة الغرب، يخرج العَنْبَر الجيّد المقدّم على أجناسه في الطيب والصبر على النار[2]، هذا بالإضافة إلى وجوده ببحر شَذُونَة -كما ذكرنا ذلك قبل قليل-.

والمقدَّم في الأفاده المفضّل في أنواع الإشنان، لا ينبت في شيءٍ من الأرض إلاّ بالهند والأندلس[3].

وبنواحي ال(منتلون) يكون البَرْبَارِيْس[4] العجيب[5]. ومن الواضح جداً، أنّ المؤلِّفين الأندلسيين بخاصة، ركَّزوا على المزروعات العطريّة والإنتاج العطريّ لبلادهم، مما يدل على اهتمامهم بالعطور أولاً، وهذا يشير إلى اهتمامهم بكماليّات الترف، ورغبتهم فيه، واتِّجاههم إليه، وهذا التّرف كان من عوامل خسارة الأندلس، فمن الصعب على المترف أن يقاتل كما يقاتل الرجال، لأنّه يحبّ الحياة ويخاف الموت.

٣ـ المعادن والأحجار الكريمة:

يكون حجر اللَّازَوَرْد[6] الجيد بناحية لَوْرَقَة من عمل تُدْمِيْر، وقد يوجد في

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٤٣).

(٢) نفح الطيب (١/ ١٤٠).

(٣) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٥ـ١٢٦)، والأشنان شجر من فصيلة الرّمراميّة، ينبت في الأرض الرملية، ويستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي.

(٤) البرباريس، ورد في آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني (٥٠٣): الانبرباريس، وهو اسم من أسماء هذا النبات، ومن أسمائه: أَمِيْر باريس، أمير ياريس، إلى غير ذلك، واسمه العلمي: (Berberis)، أنظر معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية (٦٨)، وفيه: أَمْبَرباريس، أَنْبَرباريس، وهو من الفصيلة البرباريسيّة، كثيرة التويجات، من ذوات الفلقتين، تزرع للزينة.

(٥) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٦).

(٦) اللّازورد: من الأحجار الكريمة، لونه أزرق سماويّ أو بنفسجي، يستعمل للزينة، وأجوده ما كان فيه خطط حمر ذهبيّة، واسمه (Lapislazuli , Lazuritte)

غيرها، وعلى مقربة من حصن لُوْرَقَة من عمل قُرطبة معدن البلّور[1]، وقد يوجد بجبل شميران، وهو شرقي يبره. والحجر البِجَادِيّ[2] يوجد بناحية مدينة أشبونة، في جبل هناك يتلألأ فيه ليلاً كالسراج. والياقوت الأحمر[3] موجود بناحية مُنْت ميور في كورة مالَقَة، إلاّ أنّه دقيق جداً لا يصلح للاستعمال لصغره. ويوجد حجر يشبه الياقوت الأحمر بناحية بَجَّانَة[4] بخندق يُعرف بقرية ناشرة أشكالاً مختلفة كأنّه مصبوغ، حسن اللّون صَبُور على النار. وحجر المغناطيس الجاذب للحديد، يوجد في كورة تُدْمِيْر. وحجر الشّاذنة[5] بجبال قرطبة كثير، ويُستعمل في دلك التذاهيب. وحجر اليهودي[6] في ناحية حصن البونت[7]، وهو أنفع شيءٍ للحصاة. وحجر المرقشيثا[8] الذهبيّة في جبال ....

---

(١) البِلَّوْر=البَلُّوْر: حجر أبيض شفاف، وهو (Rock Crystal).

(٢) البجادي والبيداجيّ: حجر كريم يشبه الياقوت، أحمر اللّون تعلوه بنفسجيّة، وهو البزادي أيضاً، وهو (Garnet).

(٣) الياقوت: حجر من الأحجار الكريمة، وهو أكثر المعادن صلابة بعد الماس، ويتركّب من أكسيد الألمنيوم، ولونه في الغالب شفاف مشرّب بالحمرة أو الزُّرقة أو الصُّفرة، ويستعمل للزينة، واحدته أو القطعة منه: ياقوتة، والجمع: يواقيت.

(٤) بجانة: مدينة كانت من أهم مدن أرش اليمن، أي الإقليم الذي نزل عليه بنو سراج القضاعيون، وكانوا يأخذون أرشه، وهي قريبة من المرية، بينهما ستة أميال. قال ابن سعيد: محدثة بنيت في عهد بني أميّة. وفي معجم البلدان: مدينة بالأندلس من أعمال كورة إلبيرة خربت، وقد انتقل أهلها إلى المِرية، أنظر معجم البلدان (٢/ ٦١).

(٥) الشاذنة: حجر يستعمل في مداواة العين وخشونة الأجفان، أنظر الفقرة (٦) من نفح الطيب (١/ ١٤٢)، والشاذنة أكسيد حديدي طبيعي، يعدّ أهمّ معدن للحديد، أنظر الصحاح في اللّغة والعلوم (١/ ٦٥٤)، ويبدو أن التذاهيب هي خشونة الأجفان مرضاً، يداوى بالشّاذنة.

(٦) أحجار اليهودي: أحجار صغيرة تحتوي على أملاح قلوية كالبوتاسيوم والصوديوم، ويسمى أيضاً حجر الدم، ويستعمل لتداوي الحصاة، أنظر إحياء التذكرة (٢٤٥) وعجائب المخلوقات للقزويني (٢٤٦).

(٧) حصن البونت Alpuent: شمالي بلنسية.

(٨) المرقشيثا (Mercassite): كان القدماء يطلقون على البُورِيطس أيضاً، وهو مثله =

أُبَّذَة[1] لا نظير لها في الدنيا، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها. والمنغنيسيا في الأندلس كثير، وكذلك حجر الطَّلْق[2]. ويوجد حجر اللُّؤلؤ بمدينة بَرْشلُونَة، إلاّ أنّه جامد اللَّون. ويوجد المرجان بساحل البَيْرَة من عمل المَرِية[3]، أقلّ ما لُقط منه في أقلّ من شهر نحو ثمانين ربعاً. ومعدن الذهب بنهر لارِدة يُجمع منه كثير، ويُجمع أيضاً من ساحل أشبونة. ومعادن الفضّة في الأندلس كثيرة في كورة تُدْمير وجبال حَمَّة بَجّانة[4]، وبإقليم كرتش من عمل قُرطبة معدن فضّة جليل. وبأكشونبة معدن القصدير لانظير له، يشبه الفضّة، وله معادن بناحية إفرنجة وليون، ومعدن الزئبق في جبل البرانس، ومن هناك يتجهّز به الآفاق. ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرة، ومعدن التُوتِيا الطبيّة بساحل إلْبِيْرَة بقرية تسمى: بَطِرْنَة[5]، وهي أزكى

= مركّب من كبزيتور الحديد، ولكنهما يختلفان شكلاً. ومعنى الكلمة الحجر الصلد. وفي مفردات الطب، أنّ منه أصنافاً، منها الذهبي والفضي والنحاسي والحديدي، وكل صنف يشبه ما نسب إليه، أنظر معجم متن اللغة (٥/ ٢٨٥) والصحاح في اللغة والعلوم (٢/ ٢٩١).

(١) أبذة (Ubeda) إلى الشمال الشرقي من بياسة بينهما سبعة أميال.

(٢) الطَّلْق (Talc): هي سليكات المنغنسيوم المائيّة، ويوجد في الطبيعة، ويُطحن على شكل مسحوق أبيض، يستخدم في تحضير المساحيق، أنظر الصحاح في اللغة والعلوم (٤/ ٤٧). وهي حجر برّاق، يتحلّل إذا دُقّ إلى طاقات صغار دقاق، ويشبه الشبّ اليماني، وإذا أُلقي في النار لم يحترق، لذلك كانوا يطلون به المواضع التي قد تُصيبها النار، لكي لا تحترق، أنظر الفقرة (١٠) من نفح الطيب (١/ ١٤٢).

(٣) أ ـ بيرة: بليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس، ولها مرسى ترسي فيه السفن ما بين مُرسية والمَرِية. أُنظر معجم البلدان (٢/ ٣٣٠).
ب ـ المرية (Almeria): مدينة بنيت أيام عبد الرحمن الناصر، وازدهرت في أيام المرابطين، واشتدّ فيها الرخاء، وتقع على الساحل الشرقي إلى الجنوب الشرقي من بجانة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٢ـ٤٣).

(٤) حمّة بجّانة: بشرق بجانة، على جبل شامخ فيه معادن غريبة، وفيه الحمة العجيبة الشأن، أُنظر الروض المعطار، نقلاً عن الفقرة (٢) من نفح الطيب (١/ ١٤٣). والحمّة لغة: العين الحارّة يُستشفى بها الأعلاّء والمرضى.

(٥) أ ـ التُوْتِيا = التُوْتِيَاء: حجر يكتحل به، وهو معرّب، أنظر الصحاح في اللغة والعلوم =

توتيا وأقواها في صبغ النحاس، وبجبال قرطبة توتيا وليست كالبطرنيّة. ومعدن الكحل المشبّه بالأصفهاني بناحية مدينة طُرْطُوْشَةَ(١)، يحمل منها إلى جميع البلاد. ومعادن الشّبوب(٢) والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تُحصى(٣).

وأعظم معدن للذهب بالأندلس في جهة شَنْت ياقُوه(٤) (شنت ياقوب) قاعدة الجلالقة(٥) على البحر المحيط. وفي جهة قُرْطُبَة الفضّة والزئبق. والنحاس في شمالي الأندلس كثير، والصُّفْر الذي يكاد يشبه الذهب، وغير ذلك من المعادن المتفرِّقة في أماكنها.

والعَيْن الـذي يخـرج منهـا . . . .

= (١٤٧/١)، وهي معدن صلب أبيض ضارب إلى الزرقة، يلين بالإحماء ويطرّق، وهو الزنك والخارصين، ويتخذ منه الكحل. ويستعمل لتغطية سطوح البيوت القليلة الانحدار، ويطلى به الحديد فيقيه الصدأ، وربما استعملوا بعض أملاحه سماداً وسيطاً، أنظر معجم متن اللّغة (١/ ٤١٣).

ب ـ إلبيرة (Elvira): كورة كبيرة من الأندلس، ومدينة متصلة بأراضي كورة قُبْرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وفيها عدّة مدن منها قسطيلية وغرناطة، أنظر معجم البلدان (١/ ٣٢٢ـ٣٢٣).

جـ ـ بطرنة: قرية من قرى بلنسية، أنظر المغرب (٢/ ٣٥٥).

(١) طرطوشة (Tortosa): مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية، وهي شرقي بلنسية وقرطبة، قريبة من البحر، أنظر معجم البلدان (٦/ ٤٢ـ٤٣).

(٢) الشّبوب: جمع شبّ، وهو معدن يشبه الملح والنوشادر، وهو كبريتات الأمونيا والبوتاس، وهو بلورات بيض طعمها قابض (Alun)، وأما الشب الأزرق فهو كبريتات النحاس، أنظر متن اللغة (٣/ ٢٦٤) والصحاح في اللغة والعلوم (١/ ٦٤١).

(٣) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٢٤ـ١٣٠) ونفح الطيب (١/ ١٤٠ـ١٤٣).

(٤) شنت ياقو = سنت ياقوه = سنت يعقوب (Santiago de Compostela): في أقصى الشمال الغربي من الأندلس، بمنطقة جليقية، وفيها كنيسة مقدّسة يحجّون إليها، وهي قلعة حصينة، أنظر معجم البلدان (٥/ ٣٠١).

(٥) الجلالقة: سكّان جِلِّيقِيّة التي تمتدّ من نهر دُويره (Duero) جنوباً حتى الساحل الشمالي لشبه جزيرة الأندلس، ومن الساحل الغربيّ لها حتى قَشْتالة (Castile=Castilla)، أنظر المادة (١) من جغرافية الأندلس وأوروبا (٧١).

الزاج[1] في لَبْلَة مشهورة، وهو كثير مفضّل في البلاد منسوب. وبجبل طليطلة جبل الطَّفْل[2] الذي يجهّز إلى البلاد، ويُفضّل على كل طَفْلٍ بالمشرق والمغرب.

وبالأندلس عدّة مَقاطع للرُّخام، وفي جبل قُرطُبة مقاطع الرُّخام الأبيض الناصع والخمريّ. وفي ناشِرة مقطع عجيب للعُمُد، وَبَباغة من مملكة غَرْناطة مقاطع للرُّخام كثيرة غريبة مُوَشّاة في حمرة وصفرة، وغير ذلك من المقاطع التي بالأندلس من الرخام الحالك المُجَزَّع[3].

وحصى المريّة: يُحمل إلى البلاد، فإنّه كالدرّ في رَوْنَقه، وله ألوان عجيبة، ومن عادتهم أن يَضَعوه في كيزان الماء.

وفي الأندلس، من الأمنان التي تنزل من السّماء، القِرْمِز الذي ينزل على شجر البَلُّوط، فيجمعه النّاس من الشَّعرا[4] ويصبغون به، فيخرج منه اللّون الأحمر الذي لا تفوقه حمرة[5].

وليست الأمنان التي تنزل من السّماء من الأحجار ولا من المعادن، كما أنّها ليست من الموارد الزراعيّة، وقد وضعها صاحب نفح الطيب في هذا المكان، فآثرنا أن نضعها حيث وضعها، خاصة وهي تمسّ الأصباغ، وقد كان لقسم من المعادن التي ذكرتها فائدة للأصباغ أيضاً، ولعلّ هذه الصِّلة هي التي حدت بصاحب نفح الطيب أن يضعها في هذا المكان.

---

(١) الزاج: ملح معروف، يقال له الملح اليماني، أنظر معجم متن اللغة (٣/ ٧٥). والزاج الأبيض: كبريتات الخرصين. والزاج الأزرق: كبريتات النحاس.

(٢) الطَّفْل (Shale): الطين يتصلّب على هيئة رقائق بتأثير ضغط مافوقه من الصخور، بحيث يسهل فصلها، وهي مادة إذا أضيف إليها الماء تكوّنت منها طينة تقبل التشكل، ومن مثلها تجعل الأواني الفخارية. وأساس تركيب الطفل هو سليكات الألمنيوم المائي، تختلط بها بعض الشوائب كالحديد وغيره، أنظر معجم الصحاح (٢/ ٤٣). وهو طين أصفر تصبغ به الثياب، وبائعه الطّفال، أنظر معجم متن اللغة (٣/ ٦١٧).

(٣) المجزّع: كلّ ما اجتمع فيه سواد وبياض.

(٤) الشَّعْرا=الشَّعْراء: الأرض أو الروضة الكثيرة الشجر.

(٥) نفح الطيب (١/ ٢٠٠_٢٠١).

وسألت أحد علماء الزراعة عن المنّ، فذكر لي أنّ نوعاً من الحشرات تفرزه على أوراق الأشجار، وعلى الصخور أيضاً، فمنه ما يُصنّع ويُؤكل، ومنه ما يُصَنّع ليكون من الأصباغ، فلا ينزل المنّ من السّماء، بل يفرز من بعض أنواع الحشرات، وتبقى الحقيقة في أنّ هذا المنّ الأندلسي صبغ قرمزي، ويبقى مكانه مع الأصباغ المعدنية التي ذكرناها.

إنّ الأندلس غنيّة بالأحجار والمعادن، وتعتبر من أغنى الأقطار في أحجارها ومعادنها.

٤ـ المصنوعات الأندلسيّة والتّصدير:

أ ـ اختصّت المريّة ومالَقَة ومُرْسِية بالوشي المذهّب الذي يتعجب من صنعه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً.

وفي تَنْتالة من عمل مُرْسِية تُعمل البُسُط التي يغالى في ثمنها بالمشرق. ويُصنع في غرناطة وبَسْطَة من ثياب اللباس المحرّرة، الصّنف الذي يُعرف بالمُلَبَّد[١] المختم بالألوان العجيبة.

ويُصنع في مُرْسِية من الأَسِرّة المرصّعة والحُصُر الفتّانة الصّنعة وآلات الصُّفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهّبة، وغير ذلك من آلات العروس والجنديّ ما يَبْهر العقل، ومنها تجهّز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقيّة وغيرها. ويُصنع بها وبالمريّة ومالقة الزجاج الغريب العجيب وفخّار مُزَجّج مذهّب. ويُصنع بالأندلس نوع من المفصّص المعروف في المشرق بالفُسَيْفِساء، ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزُّلَيْجِيّ[٢] يشبه

---

(١) الملبّد: التّلبيد (Milling) بالحمض (Acid)، إحدى عمليات تجهيز المنسوجات الصوفية، وفيه يعالج النّسيج في وسط حامضي فيلبّد، كعملية تلبيد القبّعات والطرابيش وبعض أنواع المنسوجات الصوفية كالجوخ، فيكون هذا النسيج مُكبَّداً، أنظر الصحاح في اللغة والعلوم (٢/ ٤٢٩ـ٤٣٠).

(٢) الزليجي: هو ما يسمى بالإسبانية: (Azoulejo) وهو نوع من الآجر مدهون بدهان ملوّن كالقاشاني، بالأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر، وما يركّب من هذه =

المفصّص، وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرّخام الملوّن الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم كالشَاذَرْوَان[1]، وما يجري مجراه.

ب ـ وأما آلات الحرب من التّراس والرِّماح والسّروج والألجم والدروع والمَغافِر[2]، فأكثر همم الأندلس كانت مصروفة إلى هذا الشأن. والسيوف البرذليّات مشهورة بالجودة، وبرذيل آخر بلاد الأندلس من جهة الشمال والمشرق. والفولاذ في إشبيلية إليه النهاية، وفي إشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره[3].

جـ ـ وتصدّر الثياب والبُسُط والأسرّة والحُصُر وآلات الصُّفر والحديد والأسلحة ومواد البناء الفنيّة إلى إفريقيّة أيضاً وإلى المشرق وأوروبا، وبخاصة العطور.

وقد كان التبادل التّجاري بين الأندلس وإفريقية نشيطاً جداً قبل الفتح، وكانت بواخر التّجار تجري بين الموانىء بنشاط كبير، وقد استعان المسلمون ببواخر التجار التي كانت تعمل بإشراف يُلْيَان للعبور من إفريقية إلى الأندلس، فنقلت سرية طَرِيْف بن مالك الاستطلاعية إلى الأندلس، كما نقلت قوات طارق بن زياد أيضاً، لكي تؤَمِّن قوات المسلمين مباغتةً كاملة لقوات القُوْط في الأندلس، باعتبار أنّ السفن التجارية تعبر باستمرار بين إفريقيّة والأندلس، ولا يلفت عبورها الأنظار، وسيرد تفصيل ذلك في سيرة طريف وطارق.

كما يوجد السَّمور[4] في البحر المحيط بالقرب من ساحل الأندلس،

= الألوان، وغالبه الأزرق الكحلي، وربّما اتخذ منه الوزارات بحيطان الدور، أنظر صبح الأعشى (٥/ ١٥٦) ومعجم متن اللغة (٣/ ٤٨).

(١) الشاذروان: صفّة حول البناء متّصلة به، كشاذروان الكعبة المشرفة. أو هو ما ترك من عرض أساس البناء خارجاً، ويسمى التأزير، أنظر معجم متن اللغة (٣/ ٢٩٤).

(٢) المغافر: جمع مِغْفَر، وهو زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يُلبس تحت القَلنسوة.

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٠١ـ٢٠٢).

(٤) السَّمُّور: دابة تشبه السِّنّور، تتخذ من جلودها الفراء الغالية الأثمان، أنظر معجم متن اللغة (٣/ ٢٠٧).

ويعمل من وَبَرِهِ الفِراء الرفيعة، كما يُجلب من جهة جزيرة بَرْطَانِيَة[1] إلى سَرْقُسْطَة وَيُصنّع بها، كما يُصَنّع بقُرطبة[2]، ويصدّر إلى فرنسة وأوروبا، لأنّ الفرو يباع في المناطق الباردة، ولا تحتاجه المناطق الحارّة. كما يصدّر إلى شمالي إفريقيّة والمشرق، لرغبة المترفين والأغنياء باقتناء ألبسة فراء السَّمور للتّباهي به.

والقَنْلِيَة[3] حيوان أدقّ من الأرنب، وأطيب في الطّعم، وأحسن وبراً، وكثيراً ما تلبس فراؤها، ويستعملها أهل الأندلس من المسلمين والنصارى، ولا توجد في بر البربر الإفريقي منها إلاّ ما جُلب منها إلى سَبْتَة فنشأ في جوانبها، وقد صُدِّرت إلى تُونس حاضرة إفريقية[4]، وإلى غيرها من الأصقاع الإفريقية.

وبِغال الأندلس فارهة. وخيلها ضخمة الأجسام، حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السِّلاح والعددِ في البرّ الجنوبي[5]، ويصدّر منها إلى أوروبة وإفريقية لكثرتها، وقد استفاد المسلمون الفاتحون منها أيام الفتح بالغنائم، حتى فاضت عن حاجتهم إليها، كما سيرد تفصيله في فتح طارق بن زياد.

ويمكن القول: إنّ الأندلس غنيّة بمواردها الزراعية والحيوانية والمعدنية، جعلت السكّان يعيشون برغد ورفاهيّة ونعمة، فإذا فاضت منتوجاتهم الزراعية والحيوانية والصناعية عن حاجة سكّانها، ووجدوا للفائض عن حاجتهم السُّوق المناسب، صدّروا تلك المنتوجات.

---

(١) جزيرة برطانية: هناك مدينة بربطانية (Boltania) في شرقي الأندلس، وهي كورة أيضاً، وهي ليست على المحيط الأطلسي. والمقصود هنا: الجزيرة البريطانيّة (إنكلترا+اسكتلندا+ويلز)، أنظر البيان المغرب (٢/ ١) ونفح الطيب (١/ ١٩٧) والروض المعطار(٣)، وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٨) الفقرة (١)

(٢) نفح الطيب (١/ ١/ ١٩٧).

(٣) القنلية: حيوان شبيه بالأرنب، ويسمى بالإيطالية: (Conglio) أنظر نفح الطيب (١/ ١٩٨) الفقرة (٤).

(٤) نفح الطيب (١/ ١٩٨).

(٥) نفح الطيب (١/ ١٩٩).

وقد كان موقف المسلمين الفاتحين أيام الفتح، من الناحية الإدارية، موقفاً متميِّزاً، بل كان موقفهم الإداري أفضل من موقف الفاتحين في الجهات الأخرى شرقاً وغرباً، ولا نعلم أنّ المسلمين الفاتحين في أيام الفتح، حَرموا من مادة من مواد القضايا الإداريّة، وبالعكس فإنَّهم كانوا في سعة ونعمة وخير، وقد حمل موسى بن نصير إلى دمشق معه مغانم لا تقدر بثمن، مما يدل على أنَّ الأندلس كانت بخيرٍ أيام الفتوح.

تاريخ الأندلس قبل الفتح الإسلامي
وفي أيامه الأولى

١ ـ في أوروبا وإفريقيّة

أ ـ البرابرة:

أطلق اليونان والرومان على جميع الشعوب سواهم اسم: البرابرة، ثمّ خُصّت به شعوب بدأت تنتشر في أوروبّة منذ القرن الثالث الميلادي، بعد أن كانت قد غادرت مواطنها الأصلية في أواسط آسية منذ فجر التاريخ على الأغلب، وكان موطنها الأصلي الهند والتركستان، وقد غادرت موطنها قبل الميلاد ببضعة قرون ووصلت إلى شمالي أوروبّة وإلى تخوم أوروبّة الشّرقيّة.

واستطاع اليونان والرومان أن يردّوا تلك الحشود البربريّة المتوحشة عن تخوم امبراطوريتيهم: الإمبراطورية الرومانية الشّرقيّة (البيزنطيّة) والامبراطورية الرومانية الغربية، زمناً طويلاً، ثم حاولوا بين تلك الحشود وبين اجتياز نهر الدانوب إلى شبه جزيرة البلقان، واجتياز نهر الراين إلى شبه جزيرة إيطالية وإلى فرنسة وما وراءها. ولكن لما بدأ الضّعف ينخر في جسم هاتين الإمبراطوريتين بالترف والتنازع وبالدّهر، منذ القرن الرابع الميلادي، جرؤت تلك الحشود على الدنوّ من حدود تلك الإمبراطوريتين، ومن اختراق تلك الحدود أيضاً.

ب ـ أجناسهم وممالكهم:

وكان البرابرة أجناساً، منهم الجرمان، أكثر تلك القبائل عَدداً وأعظمها أثراً في تاريخ أوروبّة في العصور الوسطى. ومن أشهر القبائل الجرمانية قبائل القوط الذين انحدروا منذ أواسط القرن الثاني للميلاد، من مساكنهم يومذاك

على شواطىء نهر الفستولا[١]، إلى سهول أوكرانية، شمال البحر الأسود. وهنا انقسم القوط إلى قسمين: قبائل عرفت بسكان الغابات، الذين عُرفوا فيما بعد باسم: القوط الغربيين. وقبائل عرفت بسكّان السهول الواسعة، وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم: القوط الشرقيين، وكان نهر الدنيستر يفصل بين مساكن الفريقين.

وكان مقام القوط الغربيين بين مصبّ نهر الدنيستر ومصبّ نهر الدانوب، على حدود البلقان مباشرة، سبباً لنشر الدين المسيحي بينهم، ولكن على يد الدُّعاة الأريوسيين، ولذلك تقبّل القوط الغربيون المذهب الأريوسي، وهذا المذهب الذي أوجده الأسقف الإسكندري أريوس في سنة (٣١٠م)، يجعل المسيح عليه السلام إنساناً كاملاً، وينفي عنه الألوهية، ويقول بأنّ الله خلقه من لاشيء، ولهذا أوصى النبي ﷺ برسالته النبوية إلى هِرَقل عظيم الرّوم بمعتنقي هذا المذهب خيراً، فقال في رسالته: «فإن تولّيتَ فعليك إثم الأريسيين . . . .»[٢].

جـ - وصولهم إلى أوروبّة:

وفي مطلع القرن الخامس الميلادي، كان عدد من القبائل الجرمانية قد انتشرت في غربي أوروبّة: في فرنسة وإسبانيا. فكانوا قد انحدروا من مساكنهم بين نهر الفستولا ونهر الأودر[٣] (Oder)، إلى المنطقة التي تعرف اليوم باسم: بافارية، جنوبي شرقي ألمانية. ثم إنهم جاءوا إلى إسبانيا، وفيها سكن الفاندال في منطقتين: في رقعة ضيّقة في شمالي إسبانيا، وفي رقعة واسعة في جنوبي إسبانيا. وكذلك كان السوابيون[٤]، وهم شعب جرماني

---

(١) الفستولا: نهر بولونية، تقوم عليه صوفيا عاصمة بلغاريا.

(٢) انظر التفاصيل عن الأريسيين في كتابنا: السفارات النبوية، ومقدمة كتابنا: سفراء النبي ﷺ.

(٣) الأودر نهر في شرقي ألمانية، يفصل اليوم بين شمالي ألمانية وشمالي بولونية.

(٤) السوابن أو الشوابن: قبائل جرمانية عرفت مساكنها منذ القرن الثالث الميلادي، في =

أيضاً، قد نزلوا في شمالي غربي إسبانيا، جنوب منازل الفاندال الشمالية.

د ـ القوط الغربيون في إيطاليا:

أما القوط الغربيون، فكانوا لا يزالون في شرقي أوروبة ينازعون أباطرة المشرق: الرّوم البيزنطيين، فقد هاجموا البلقان، وخاضوا ضد الرّوم معركة أدرنة سنة (٣٧٨م) وانتصروا عليهم، وكان القوط الغربيون يزدادون مع الأيام قوّة. وفي سنة (٣٩٥م) انقسمت الإمبراطورية الرومانيّة إلى قسمين: شرقياً وغربياً، وكان ذلك من علامات تطرّق الضعف إليها. وقدّم القوط الغربيون للرئاسة عليهم زعيماً منهم اسمه الأريك (٣٩٥م ـ ٤١٠م)، ثم أخذوا يبحثون عن أرض يستقرّون فيها لينشئوا عليها ملكاً لهم. وتغلّب القوط الغربيون على الرّوم في البلقان مراراً, ولكنهم كانوا يودون دائماً النزول في إيطاليا نفسها. وقطع الأريك بقومه الألب سنة (٤٠١م)، وسار إلى رومة، ولكنّ الرومان أقنعوه بالرجوع عنها، بعد أن خلعوا عليه لقب: قائد الجند, وعقدوا معه معاهدة. وانسحب الأريك من إيطاليا، ليعود إليها بعزم أشدّ في صيف سنة (٤٠٣م)، وليغزوها ويقضي على سلطانها. ولكن الأريك توفى في تلك السنة، فخلفه زعيم آخر اسمه: أدولف، كان صهر للأريك. ونزل أدولف بقومه جنوبي غربي فرنسة، وكان الحكم في القوط الغربيين لا يزال إلى ذلك الحين رئاسة بالعصبيّة، ولم يكونوا قد أسسوا لهم دولة بعد. وفي سنة (٤١٤م)، دخل القوط الغربيون إلى إسبانيا.

وتوفى أدولف في آخر سنة (٤١٥م)، فخلفه فاليا (٤١٥م ـ ٤١٩م)، وأسس للقوط الغربيين دولة جعل عاصمتها طولوز[1] (٤١٩م) في جنوبي

= جنوبي غربي ألمانية، بين نهر الراين ونهر النيكر (Necker) ونهر الدانوب (نهر الطونة).

(١) تولوز Toolovse: ويسميها قسم من المؤلفين: طَلّوزة، وتولوشة، وطولوشة، وهي مدينة طولوز في جنوبي فرنسة.

فرنسة. ولما رأت رومة أنّ القوط الغربيين قد قَوُوا كثيراً وأصبحوا لها مصدر قلق دائم، لم تجد بدّاً من مصانعتهم والرضا باستقلالهم، فأقرّتهم على النزول في جنوبي فرنسة، على أن يتخلّوا عن سائر الأراضي التي استولوا عليها.

هـ ـ في إسبانيا:

وكان على القوط الغربيين يومئذٍ، ملك قدير، هو ثيودوسيوس الأول (٤١٩م ـ ٤٥١م)، فحاسن السوابيين، واقتسم معهم السيطرة على إسبانيا، ثم سكت عن استيلائهم على منازل الفاندال الشمالية، بينما كان هو يتوسع في الجنوب، ويدفع الفاندال عن إسبانيا كلها.

و ـ الفاندال في إفريقية:

وفي أيام غونداريك بن غود (٤٠٦ ـ ٤٢٨م) ملك الفاندال، اشتد ضغط القوط الغربيون في إسبانيا على الفاندال. وأخذ الفاندال منذ ذلك الحين بمغادرة إسبانيا، فنزلوا أول ما نزلوا في الجزائر الشرقية (٤٢٣)، فلما توفي غونداريك خلفه أخوه غايسيريك أو غانسيريك (٤٢٨ـ٤٧٧م).

في هذه الأثناء، كان النزاع يعصف في الإمبراطورية الشرقية، كما كان الضعف قد أقعد الإمبراطورية الغربية: كان النزاع الديني بين الأريوسيين وبين الكنيسة الجامعة[1] على أشده في كل مكان، في شرقي أوربّة، وفي غربيها. وكان الوطنيون من أهل إفريقية ثائرين على الإمبراطورية الغربية، فتوقف ورود القمح الإفريقي إلى رومة وهُدِّدت روما بمجاعة، ثم إن الدفاع الروماني كان قد ضعف مع شيخوخة رومة. ويبدو فوق هذا كله، أن نزاعا نَشِبَ بين بونيفاسيوس الحاكم العسكري في إفريقية، وبين والنتينيان الثالث إمبراطور

(١) الكنيسة الجامعة: القائلون بأن المسيح هو الله بالذات، خصوم الأريوسيين.

روما (٤٢٥ـ٤٥٥م)، فيقال: إن بونيفاسيوس عمد إلى استدعاء غايسيريك للنزول في إفريقية، إغاظة لوالنتينيان.

وفي أيار (مايو) من سنة (٤٢٩م)، أبحر غايسيريك من جزيرة طريف[1] في نحو ثمانين ألفاً من قومه، فيهم نحو ألف وخمسمائة مقاتل. ويبدو أن بونيفاسيوس قاومهم في المغرب الأوسط، بجيش جمعه على عجل سنة (٤٣٠م)، استطاع غايستريك أن يستولى على الشاطىء الإفريقي بعد مقاومة. ومع أن الفاندال فقدوا عدداً كبيراً من قومهم في هذه المغامرة، إلاّ أنهم قلّصوا حكم الرومان عن إفريقية. ووجد الإمبراطور والنتينيان نفسه عاجزاً عن رد الفاندال، فعقد معاهدة (١١ شباط ـ فبراير ـ ٤٣٥م) أقرّهم فيها على النزول في المغرب، على أن يتطوّعوا في جيش الإمبراطورية.

واستقر الفاندال في المغرب، دون أن يتمكن الرومان من فرض نصوص معاهدتهم على الفاندال، للضعف الذي كانوا فيه، فهاجم غايسيريك قرطاجنة وفتحها (١٩ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ٤٣٩م) من غير أن يلقى مقاومة تذكر. وأعلن غايسيريك نفسه ملكاً في قرطاجنة، واتخذها عاصمة له. ثم إنه تشدّد في سياسته الدينية، فأبعد الكاثوليكيين من الأشراف ورجال الدين عن البلاد، واستعبد العامة من الكاثوليكيين ممن لم يرضوا مغادرة البلاد، أو لم يكونوا قادرين على مغادرتها. وكذلك صادر أموال الكاثوليكيين وأملاكهم، وأعطاها للأريوسيين.

وفي سنة (٤٤٠م)، هاجم غايسيريك جزيرتي سردينيا وصقلية، فبعث الروم البيزنطيون أسطولاً لاستنقاذهما منه. فلما وصل ذلك الأسطول إلى صقلية، اضطُرّ الروم إلى ردِّه، لأن الهون والفرس كانوا قد أخذوا يهاجمون تخوم الإمبراطورية، ثم اضطر والنتينيان الثالث إلى عقد معاهدة جديدة مع غايسيريك (٤٤٢م)، يعترف فيها بسيادة الفاندال الكاملة على الشاطىء

---

(١) Tarifar Traducta Julia

الإفريقي.

وعاد القوط الغربيون إلى محاسنة الفاندال والسوابيين، فقد أعطى ثيودوريك إحدى بناتـه إلى هاينريك بن غايسيريك (٤٤٢م)، كما أعطى بنتاً أخرى من بناته إلى ملك السوابيين، وذلك قبل موته بعامين فقط.

أما العداوة بين الفاندال والإمبراطورية الرومانية الغربية فكانت بازدياد، ففي سنة (٤٥٥م) اقتحم غايسيريك مدينة رومة وأباحها لجنده أربعة عشر يوماً. وفي العام التالي استولى على جزيرة سردينيا، ثم استولى على جزيرة صقلية في سنة (٤٦٩م).

ز ـ سقوط رومة:

وفي هذه الأثناء، كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب قد ضعفت، وتوالى على عرشها أباطرة ضعاف كسالى، فأخذ القادة الجرمان يعزلون منهم من شاءوا ويولون من شاءوا. وكان في الحرس الإمبراطوري المرابط في رافنا[١] قائد اسمه آدوفاكر[٢]. ورأى آدوفاكرحال الأباطرة والإمبراطورية، فخلع رومولوس أغوسطولوس آخر أباطرة الرومان، وأعلن نفسه ملكاً على إيطاليا سنة (٤٧٦م)، ثم كتب إلى زينون إمبراطور القسطنطينية يخبره بما فعل، ويقر بسلطته عليه، فلم يجد زينون بداً من إقرار آدوفاكر على عرش رومة كَرْهاً، وهكذا انقسمت أوروبة إلى قسمين: قسم شرقي هو الإمبراطورية البيزنطية، وقسم غربي نشأت فيه الدولة الجرمانية المختلفة التي كانت منها الدول الأوروبية الحديثة. فكانت سنة (٤٧٦م) تاريخاً لسقوط رومة ولانقراض الإمبراطورية الرومانية الغربية ولنهاية العصور القديمة وبدء العصور الوسطى.

ح ـ مقتل آدوفاكر:

---

(١) Ravenna

(٢) Odoacer وOdovrakar و Otacher

وحكم آدوفاكر مملكته بعد سقوط رومة بالعدل والحكم، ثم وسَّع رقعة ملكه لما استولى على دالماسية، على الساحل الغربي من شبه جزيرة البلقان. وهال ذلك الإمبراطور زينون، فدفع ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين إلى الهجرة بقومه من شبه جزيرة البلقان إلى إيطاليا، وعينه حاكماً عسكرياً عليها. وهكذا يكون زينون قد تخلص من القوط، وخلق لخصمه آدوفاكر منافساً قوياً، وذلك في سنة (٤٨٨م). وفي السنة التالية اشتبك آدوفاكر وثيودوريك في حرب، انهزم فيها آدوفاكر، فلجأ إلى مدينة رافنَّا وكانت حصينة جداً. وبعد حصار دام سنتين ونصف سنة، اضطر آدوفاكر إلى الاستسلام، فاستأمن من ثيودوريك، ولكن ثيودوريك غدر بآدوفاكر وذبحه بيده، في منتصف آذار ـ مارس ـ من سنة (٤٩٣م)، ثم تتبع أصحابه بالقتل واحداً واحداً.

ط ـ اضطراب أحوال الفاندال:

ولما توفى غايسيريك ملك الفاندال، في ٢٥كانون الثاني ـ يناير ـ من سنة (٤٧٧ م)، لعبت الفوضى في مملكته زماناً طويلاً. ويرجع السبب الأول في ذلك إلى أن البربر (الإيمازيغ) الذين لم يكونوا راضين عن حكم الرومان، لم يكونوا راضين عن حكم الفاندال. ففي أيام هيلديريك (٥٢٤ـ٥٣٠م)، وفي سنة (٥٢٥م) استطاع البربر أن يستعيدوا ساحل طنجة، وأن يحموا جنوبي المغرب الأوسط كله، وانهزم هيلديريك أمام البربر هزائم منكرة.

وأثارت هذه الهزائم نبلاء الفاندال، فخلعوا هيلديريك، وقدموا عليهم زعيماً اسمه: غيلمير -ويقال غلماروغيليمير-. فخلع غيلمير هيلديريك، وألقاه في السجن ثم ملَكَ مكانه. واستنجد هيلديريك بيوستنيانوس الأول (٥٢٧ـ٥٦٥م)، فإن هيلديريك كان مشايعاً للروم وعلى مذهبهم، بينما غيلمير كان أريوسيّاً. وأراد يوستنيانوس أن ينجد هيلديريك لأنه كان يطمع في استرداد المقاطعات التي كانت قد تساقطت من الإمبراطورية الرومانية في غربي أوروبة وشمالي إفريقية تحت سنابك البرابرة الجرمان. ولكن

الاضطراب الذي كان سائداً في الإمبراطورية الشرقية حال دون ذلك. ثم ساءت حال القُسطنطينية خاصة، ونشبت فيها فتنة سنة (٥٣٢م) من (١١ـ١٨كانون الثاني ـ يناير) سقط فيها ثلاثون ألف قتيل على الأقل، وقال بعضهم: بل خمسون ألفاً. ورأى يوستنيانوس أن الأمر قد خرج من يديه، وأن ملكه زائل لا مَحالة، فأراد أن يهرب من القسطنطينية ناجياً بنفسه، غير أن زوجته ثيودورا ثبّتته واستثارت نخوته، حتى عزم على التمكين لنفسه ولعرشه.

ولما هدأت الحال في القسطنطينية، عاد يوستنيانوس إلى التفكير بشمالي إفريقية وبهيلديريك وغيلمير، فأرسل حملة إلى شمالي إفريقية سنة (٥٣٣م) بقيادة أعظم قادته بليساريوس، فانهزم غيلمير، ثم استسلم (آذار ـ مارس ـ ٥٣٤م)، وقضى بذلك على مملكة الفاندال.

على أن القضاء على مملكة الفاندال في شمالي إفريقية، لم يرد شمالي إفريقية إلى الإمبراطورية الرومانية الغربية، ولا جعل شمالي إفريقية تستقر تحت سلطان الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ذلك لأن البربر استمروا في ثوراتهم على الروم. ومع أن الروم قد حاولوا إخضاع البربر في أوقات مختلفة، في (٥٣٨م، و٥٣٩ـ ٥٤٤م، و٥٤٦ـ ٥٤٨م)فإنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا على شمالي إفريقية سوى ظل خفيف من سلطانهم، وعلى عدد قليل من المراكز الساحلية فقط.

ي ـ القوط الغربيون في إسبانيا:

ولما وثب ثيودوريك الأكبر ملك القوط الشرقيين في إيطاليا على آدوفاكر وذبحه، أصهر إلى الفرنجة، فتزوج بنت ملكهم كلوفيس، وقيل: بل أخته. وقد غلّ هذا التقارب بين القوط الشرقيين وبين الفرنجة يد الرومان، ثم مكّن القوط الغربيين من التوسع في غربي أوروبة، إذ استطاعوا في مطلع القرن السادس للميلاد أن يحتلوا بقيادة زعيمهم الأريك الثاني (٤٨٤ـ٥٠٧م) معظم

إسبانيا. ولكن سرعان ما بدأ النزاع بين الفرنجة وبين القوط الغربيين، وأخذت مملكة القوط الغربيين تتسع في إسبانيا وتضيق في فرنسة، حتى تقلَّصت عن فرنسة كلها إلاّ رقعة صغيرة في ساحل البحر الأبيض. وحاول الفرنجة التقدم إلى إسبانيا، ولكن القوط الغربيين ردوهم. وفي سنة (٥٠٧م) نشبت معركة بين كلوفيس ملك الفرنجة والأريك الثاني ملك القوط الغربيين قرب مدينة بواتيه، سقط فيها الأريك الثاني صريعاً. واستولى الفرنجة على ما كان قد بقي للقوط الغربيين من الأرض في جنوبي فرنسة، واحتلوا عاصمتهم طولوز، فنقل القوط الغربيون عاصمتهم إلى طُليطلة.

وكان لا يزال للروم البيزنطيين سلطان خفيف على عدد من المدن الساحلية والداخلية في إسبانيا، فجعل القوط الغربيون ينتزعون منهم تلك المدن واحدة واحدة، كما ضمّوا إليهم (٥٨٥م) مملكة السوابيين، وهكذا تمَّ في أيام ليوفيجيلد (٥٦٨ـ٥٨٦م) توحيد المملكة القوطية.

ك ـ الفرنجة في فرنسة:

بدأت غزوات البرابرة لجنوبي فرنسة (الغال) في القرن الرابع للميلاد، فقد غزاها الفرنجة في القرن الخامس الميلادي.

وأقام مبروفيك مملكة الفرنجة في جنوبي فرنسة سنة (٤٤٨م)، ثم لما توفى (٤٥٨م) خلفه ابنه هلديريك. وجاء بعده ابنه كلوفيس[١]، فحكم واحداً وثلاثين عاماً (٤٨١ـ٥١١م). وقاتل كلوفيس الرومان، كما قاتل القبائل الجرمانية النازلة في جنوبي فرنسة، ثم وحّد فرنسة كلها وأسَّس فيها المملكة الفرنسية. واعتنق كلوفيس النصرانية، وتقبل المذهب الكاثوليكي من أول أمره، قيل بإغراء من امرأته قلوطلد[٢] أو كلوتيلد.

ولما مات كلوفيس تقاسم أبناؤه الإربعة مملكته، وأشهر أقسام المملكة

---

(١) يسميه العرب: قلوديه، انظر الروض المعطار(٢٧).
(٢) الروض المعطار (٢٧).

هي :

أولاً : نوستريه (المملكة الغربية)، وكانت تقع ما بين نهر اللّوار ومقاطعة بريتانية، وما بين بحر المانش ونهر الموز.

ثانياً : أوستراسية (المملكة الشرقية)، أو الجزء الشمالي الشرقي من فرنسة، وكانت عاصمته مدينة متز (قاعدة اللّورين).

وتنازع أولاد كلوفيس وأحفاده وتحاربوا، فقوي النبلاء في ممالكهم، ثم أصبح رؤساء النبلاء حجّاباً في بلاطات ملوك الفرنجة. ثم إن هؤلاء الحجّاب أخذوا يستبدون بالحكم شيئاً فشيئاً، إلى أن حجزوا على الملوك مرة واحدة، وأصبح الحكم لهم على الحقيقة، ولأولئك الملوك على المجاز.

ل ـ الهيطل (الهون) :

والهيطل (الهون) جموع آسيوية، تتصل بأسلاف المغول والأتراك في النسب البعيد، وهم قوم قصار أشدّاء عُتاة.

وفي أواسط القرن الرابع للميلاد، كان الهيطل فد استقروا على التخوم الشرقية من قارة أوروبة. ثم إنهم هزموا القوط الشرقيين وسائر القبائل الجرمانية في شرقي أوروبة، واندفعوا غرباً حتى استقروا على الدانوب وبَنَوْا إمبراطورية امتدت في القرن الخامس للميلاد من جبال القوقاس ونهر الدانوب إلى بحر البلطيق في الشمال.

وتمت قوة الهيطل في ايام زعيمهم أتيلا (٤٤٥ـ٤٥٣م) الذي قطع بهم نهر الراين وسقط على فرنسه. ولكن ميروفيك ملك الفرنجة تحالف مع القوط الغربيين وهزم الهون في معركة شالون التي تقع على نحو (١٥٠) كيلومتر من باريس جنوباً في شرق، وذلك في سنة (٤٥١م).

واستطاع الهون أن يصلوا إلى أسوار القسطنطينية سنة (٥٥٨م)، غير أن إمبراطوريتهم، إمبراطورية أتيلا تقطعت بعد موته

إرْبا[1].

م ـ الخلاصة:

هكذا كان الموقف العسكري والسياسي في أوروبة وإفريقية، مع لمحات من الموقف العسكري والسياسي في إسبانيا، سيرد تفصيلها وشيكاً.

ويمكن أن نتلمس بوضوح، أن المقاتلين كانوا أشدّاء في قتالهم، لهم خططهم التوسعية الظاهرة وطموحهم السياسي، وكانت لهم قيادات قادرة تتميز بقابلياتها على التخطيط السليم والشجاعة والإقدام. وكانت الشعوب المتصارعة تتألف من قبائل لها ضبط القبائل وطاعتها وانقيادها انقياداً أعمى ما دام يقودها إلى النصر، فإذا قادها إلى الهزيمة تخلّت عنه وانقادت لغيره، وهي تحارب بشجاعة وإقدام وضبط متين.

وكل تلك السمات من سمات القوة لا من سمات الضعف، على كل حال.

٢ـ في إسبانيا

أ ـ القوط الغربيون في أواخر أيامهم:

لما سقطت رومة سنة (٤٧٦م)، كان معنى ذلك زوال الإمبراطورية الرومانية الغربية من الوجود، وتحلّل جميع أتباعها المتبربرين (البرابرة) من الولاء لها. وبهذا استقل القوط الغربيون بإسبانيا، وأعلنوا أنفسهم ملوكاًغير تابعين لأحد، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو تسع سنوات (سنة ٤٦٧م)، وهو يُعد لذلك مؤسس دولة القوط الغربيين في إسبانيا.

---

(١) استعنت بكتاب الأستاذ الدكتور عمر فروخ ـ العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ـ (٢٥ـ٣٥) ـ ط١ـ بيروت ـ ١٣٧٨هـ.

ب ـ دولة القوط الغربيين في إسبانيا :

وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط، على أن يمد سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يبسطه على إسبانيا كلها، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمالي جبال البرت، وكان الرومان يعتبرون جنوبي فرنسة وشمالي إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربيِّها إقليماً واحداً، فحرص يوريك أن تضم دولته هذا الإقليم، فاستولى على لُشْدَانية (البرتغال) وقرر فيه سلطانه، ومدّ حدود مملكته إلى الجنوب، وأدخل فيها إقليم بيطي (الذي يعرف باسم بيتيكا) وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة وهي الركن الغربي لشبه الجزيرة الإسبانية، وتابع جهوده في شمالي جبال البرت، واستولى على آرل ومرسيليا. وبهذا أصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى، إلى إسبانيا الجنوبي، وحكم شعبين كبيرين هما: الغال الرومانيون (Gallo-romani) شمالي البرت، والإسبان الرومان (Hispano-romani) جنوبيّها، وكانا شعبين متحضرين، يشتغل معظمهما بالزراعة، ويزيدان على القوط الغربيين مرات عديدة، وكان معظم أهلها مسيحيين كاثوليك، يسيطر عليهم قساوسة خاضعون لسلطان رومة وأسقفها الكبير: البابا.

وكان القوط الغربيون مسيحيين أريوسيين، أي أنهم لا يعتقدون بألوهية المسيح، ولا يعترفون للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس، ولا يجعلون للعذراء مكاناً متميزاً في العقيدة، وكان لهم أسلوبهم الخاص في العبادة، فلم يلبث السكان الأصليون من غاليين (فرنجة) وإيبيريين (إسبان) أن نفروا من حكمهم. واجتهد القساوسة في تقوية شعور النفور هذا، لأن القوط كانوا ينكرون عليهم أي سلطان روحي على الناس. واشتد هذا النفور مع الأيام، بسبب ما كان ينزله القوط على القساوسة من اضطهاد، وظل مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزعاً، فلما نهض كلوفيس ملك الفرنجة وأخذ يمد سلطانه نحو الجنوب، سارع القساوسة لتأييده لأنه كان كاثوليكياً، وانضم إليه الغال الرومانيون، فاستطاع أن يزيح القوط إلى الجنوب ويجليهم عن طولوز

الذي ظلّوا يحكمونه أمداً طويلاً ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في شمالي بواتيه سنة (٥٠٧م) كما ذكرنا وأجلاهم عن جلّ ما كان في سيطرتهم من أرض جنوبي فرنسة، فلم يبق لهم إلا إقليم سبتمانية المتاخم لجبال البرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة.

وبهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إسبانيا، وأخذت علاقة إسبانيا مع بقية العالم الأوروبي الواقع إلى شمال جبال البرت تفتر. ولما وحّد القوط الغربيون شبه الجزيرة الإسبانية كلها تحت سلطانهم، أخذت إسبانيا تظهر كوحدة سياسية وجنسية للمرة الأولى في التاريخ. وذلك أمر له خطورته، لأن الإغريق لم يعرفوا منها إلاّ الغرب وبعض الجنوب، ولأن الرومان كانوا يقسمونها ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها. أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة الإسبانية كلها قطراً واحداً، واتخذوا لهم عاصمة تقع في وسط شبه الجزيرة، هي: طُليطلة. ولعلّ أظهر أثر لاستقرار القوط في طُليطلة، هو تحولهم إلى إسبان، في وقت قصير، لأن المقيم في طليطلة، تنقطع الصلات بينه وبين ما يلي البرت وما يلي بحر الزقاق، ويتأقلم ويصبح إسبانياً. أما المقيم في قرطبة، فتظل صلته بإفريقية وما يتصل بها من بلاد الشرق ، أوثق وأظهر من صلاته بجليقية ونواحي جبال البرت.

واستطاع القوط من عاصمتهم طليطلة، أن يستولوا على إسبانيا كلها، ولكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل إسبانيا من منازعات دينية، وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات. وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في عرش إسبانيا، فغزاها وأقام حفيداً له على عرشها، ولكن لم يلبث أحد قواد القوط الغربيين الأقوياء أن ثار بهذا الدخيل، وأعلن نفسه ملكاً على إسبانيا، بفضل معاونة حربية أمدّه بها جُستنيان إمبراطور بيزنطة في سنة (٥٥٤م)، وانضم إليه أهل البلاد من الإسبان الرومان الكاثوليك، واحتل المنطقة الواقعة بين نهر الوادي الكبير ونهر جُكَرْ (نهر شقر)، وانفصل هذا الإقليم عن طليطلة.

وكان آخر ملوك القوط الغربيين الأريوسيين هو: ليوفيجيلد (Liuvigild) - (٥٦٨-٥٨٦م)، وكان محارباً مقداماً ظل يحارب الكاثوليكيين طول حياته. وخلفه ابنه ريكاردو (Recaredo)، فاستبان أنه لا صلاح لدولة القوط في هذه البلاد، إلاّ إذا تخلّى ملوكها عن المذهب الأريوسي. وتخلى هذا الملك عن المذهب الأريوسي، وأعلنه في مجمع طليطلة الديني سنة (٥٨٧م): اعتنق

الكاثوليكية هو وأهل بيته، وتبعه الأمراء وكبار أهل المملكة، وبهذا أصبحت الكاثوليكية هي الديانة الرسمية في إسبانيا من ذلك الوقت. وهذا الحادث الخطير، سيظل مؤثراً في التاريخ الإسباني كله، فإن الكاثوليكية تأصلت في أهل البلاد مع الزمان، وزادها قوة ميل الإسبان التشدد في الأديان، والتعصب لكل ما يؤمنون به، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية، وكان لهذا أثر بعيد جداً في حياة الإسبان, وفي مجرى تاريخهم كله.

وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد، وتوثق الصلات بين إسبانيا والبابوية. وقد تفانى خلفاء ريكاريدو في الولاء للبابوية، تفانياً شجع البابوية على بسط نفوذهم الديني -بل السياسي- في البلاد، وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم، وأصبحت طليطلة أسقفية، يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه، وأيده الشعب الإسباني الروماني الذي لم يتخلّ عن الكاثوليكية بعد ذلك. ومن هنا نفهم السر، في أن نفوذ أسقف طليطلة لم يقلَّ في وقت من الأوقات في التاريخ الإسباني المسيحي عن نفوذ الملك، إن لم يزد عليه في كثير من الأحيان. وكان تحول القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطي والإسباني الروماني، فقد ظلاّ متباعدين ما اختلفت عقيدتاهما الدينيتان، فأما وقد اتفقا في العقيدة، فقد انفتح الباب أمام الامتزاج، ولكنه لم يتم إلاّعلى صورة مصغرة جداً، لأن القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم.

وكانت الملكية القوطية انتخابية، أي أن نفراً من كبار أهل المملكة

والأمراء، كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم، فكان هذا النظام مدعاة لإثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط، فلا غرابة في أن يكون تاريخ القوط في إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاغتيالات.

بيد أننا ينبغي أن نستثني من سلسلة ملوك القوط نفراً أجمع المؤرخون على أنهم كانوا قادرين صالحين، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر، مثل: ششبرت (Sisiberto) ـ (٦١٢ـ٦٢١م) الذي استولى على جميع أرجاء إسبانيا، وشنداسفنتو (Chindaswinto) ـ (٦٤٩ـ٦٧٢م) الذي ألغى التفرقة بين أفراد الشعب، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القديم الذي كان قد سنّه الملك ألاريك الثاني، والقانون القوطي الذي وضعه يوريك، مما قرر السلام بين أهل المملكة، وجنّبها مصاعب وخلافات شتى.

ولعل أكبر ملوك هؤلاء القوط هو وامبا (Wamba) ـ (٦٧٢ـ٦٨٠م)، فقد كان أميراً عظيم الهمة، استطاع أن يقرر سلطانه فيما بقي للقوط من الممتلكات شمالي جبال البرت: قضى على ثورة خطيرة دبرها هلدريك كونت نِيْمَهْ (نيم)، وأخمد ثورة أخرى دبرها باوْلُس أمير سبتمانية للانفصال بها، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً، فأحبه الناس والتفوا حوله، وبلغ من تعلق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من الخوارق، منها: أن وامبا وقف بين يدي الأسقف في الكنيسة لكي يلبس التاج، فبينما هو في هذا الموقف الرهيب، إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه، تطير فيه نحلة من ذهب[١]. ومن الواضح أن ذلك لم يحدث، ولكنه شائع في المصادر الأجنبية وبين القوط أيضاً.

وقد انتهى حكم وامبا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة، فقد احتال عليه أحد

---

(١) Saavedra, op. cit. apendice p. 117

حاسديه، ودسّ له مَن سقاه جرعة مخدِّرة لم تلبث بعد أن شربها أن غاب في سبات عميق. وحسبه الناس قد مات، وهيّئوه ليواروه التراب، فبينما هم في ذلك، إذ عاد إلى رشده. وبدلاً من أن ينهض لتأديب مَنْ ائتمروا به على هذا النحو الغريب، ترك العرش للطامعين، وترهب وقضى بقية حياته في الدير.

وعندما اعتلى غَيْطَشَة (وِتزا: Witizu) العرش في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة (٧٠٠م)، كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات التي كان كبار القوط يدبرونها، ولا نعرف حقيقة أمر هذا الملك، لأن النصوص الباقية عنه تعطينا صوراً متناقضة عن شخصه وأسلوبه في الحكم، والظاهر أن معظم النصوص الإسبانية تثني عليه، فقد حاول جهده أن يصلح الأمور، فعفى عمن كان والده أخيكا قد أساء إليهم، ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط، فكرهه هؤلاء وعوّلوا على القضاء عليه وعلى حكمه، فأخذوا يثورون عليه في نواحي المملكة، وأخذ يحاربهم ويحبط كل مؤامراتهم، فلما علت به السن، عجز عن أن ينهض لكل واثب به مدبر عليه، وتآمر عليه أهله، واستطاعت زوجته أن ترغمه على أن يعلن ابنه الصبي وَقِلَه (أخيلا Achila)، وأقامه حاكماً على الولايتين الناربورنية والطكونية. وكان هذا الإعلان، حافزاً للطامعين في العرش من كبار القوط إلى مضاعفة الجهد في التدبير على غيطشة، ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته، ليخلو لهم العرش، ويفعلون به ما يشاءون. ويبدو أنه لم يأل جهداً من جانبه في القضاء على كل محاولة يقومون بها، لأن النصوص تحدثنا أنه عاقب تيوفريدو دوق قرطبة بسمل عينيه، ونفى ثائراً آخر اسمه: بلايُه من البلاط[1].

ويبدو أيضاً أنه أساء الظن بيهود، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه، فقد اتهمهم غيطشة بالتدبير عليه، وبالتآمر مع مَن تسميهم النصوص الإسبانية: أهل ما وراء البحر (Los transmarinos)، ومعنى ذلك أنهم

---

(١) وانظر المراجع المعطاة. Saavedra. op. cit. p. 29.

اتصولوا بأعداء القوط في ما وراء البحر، أي خارج إسبانيا.

ولسنا بأي حال بحاجة إلى البحث عن أسباب هذا الاضطهاد، لأن الإسبان كانوا طوال تاريخهم من أقسى الناس على مخالفيهم في الدين، وعلى يهود بخاصة. ولكن يبدو أن غيطشة رجع عن سياسته في اضطهاد يهود في أخريات أيامه، فتحدث إلى كبار أهل الدولة فيما انتواه من العفو عن يهود، فأسخط رجال الكنيسة عليه، وأخذوا يغرون الناس به، حتى اشتد عليه سخط الناس، وتحدث أهل البلاد من الرومان الإسبان في الوثوب به أو معاونة أول ثائر عليه[١].

ومات غيطشة ميتة طبيعية في أواخر سنة (٧٠٨م) أو أوائل سنة (٧٠٩م)، وكانت مختلف الطوائف تنتظر موته. وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر الناس انقساماً وأشدهم ميلاً إلى الخلاف، ذلك لأن غيطشة ترك من بعده زوجاً طامعة في العرش، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أُبّه (Oppa)، وكان أسقفاً لإشبيلية، وثلاثة بنين هم: أخيلا (رُمله عند المقري وابن القوطية وصححه وقِلَهْ) وألمند (Olmundo) وأرطافازدُس أو أردبست (أرطباس، أرطبان)، وتضيف بعض الروايات شخصاً آخر هو سيسبرتو (ششبرت، سبري, سبرة في النصوص العربية) وتزعم أنه كان أخاً لغيطشة أو ابناً له.

ولم يرض نفر من كبار القوط بالخضوع لصبي مثل أخيلا، وتخوف كثير من مطامع الوصيّ رخشندش واستبداده، فامتنع مَن أقام منهم في طليطلة عن الطاعة، واستقل بالأطراف والنواحي منهم من كان مقيماً فيها، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين، وتعذر على الملكة وابنها المقام في طليطلة ففرّا منها. واستمرت هذه الفوضى نحو سنة ونصف السنة، واستطاع الوصي أن يجمع نفراًكبيراً من الأنصار، وتحبَّب إلى عامة أهل البلاد الرومان الإسبان من أهل المزارع والمدن، واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه. وبدا لخصومه أنه

---

(١) Saavedro. op. cit. p. 30.

مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قريب، فاجتمع منهم نفر وائتلفوا، واعتبروا أنفسهم: (مجلس شيوخ وكبراء) وأن له الحق في أن يقرر في شئون دولة القوط كما يرى، ثم اختاروا واحداً منهم اسمه: رودريك: (لُذَريق)، وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة، واستعدوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحدّة السيف.

وتجمع النصوص كلها، على أنّ هذه الجماعة التي بايعت لذريق، كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم، وأنهم أرادوا باجتماعهم هذا، إنقاذ دولة القوط وتقويم ما انهار من بنيانها، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه، من أنّ رخشندش أراد أن يستعين بالرومان الإسبان ليثبت أمر أخيلا، استطعنا أن نستنتج أن المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط، بل كان فيه لون من ثورة أهل البلاد على القوط، ورغبتهم في التخلص من كبرائهم ونبلائهم. ولعل هذا الاستنتاج، يتيح لنا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخي الإسبان ـ قدامى ومحدثين ـ نفيه وإنكاره، وهو أن دولة القوط، لم تكن في نظر أهل البلاد دولة قومية، بل ظلت في نظر غالبيتهم دولة أجانب، لقي الناس في ظلهم كثيراً من الأذى، وحاولوا التخلص منهم مرات كثيرة.

جـ ـ لُذَرِيق :

الخلاف شديد حول أصل لذريق، فمن قائل: إنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسلم، ومن قائل: إنه ينحدر من أصلاب ملكية، وأن جدّه الملك شِنداسفنتو، ومن قائل: إنه ابن تيودفريدو دوق قرطبة الذي كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بسمل عينيه. ومهما يكن من أمرٍ، فإن المراجع الإسبانية اللاتينية القديمة، تجمع على أنه كان رجلاً قادراً، وأنه كان قبل اعتلائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا، وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك في قرطبة عاصمة ولايته.

ولم يسِر لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً، بل تريَّث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رَخَشَندش ورجاله في موقعة حاسمة. وكان قد أعلن نفسع ملكاً في ربيع سنة (٧١٠م)، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة: جواداليتي (وادي لَكُّهْ) بسنة، وكان ذلك في السنة الخامسة من حكم الوليد بن عبدالملك بن مروان في دمشق، كما يقول: (النص اللاتيني المجهول المؤلف). ويذهب راوية آخر إلى أنه ذهب إلى بَطَلْيَوْس، دون أن يذكر لنا السبب في الذهاب إلى ذلك البلد البعيد. والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير، فيه جلّة قواد القوط ونبلائهم، وهزم رخَشَندش في واقعة حاسمة، قتل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه. أما أبناء غيطشة، فلم يجدوا مفرّاً من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب، ففروا إلى إفريقية، وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش، والقانون القوطي يقضي بمصادرة أملاك كل ثائر على العرش.

ويبدو أن لذريق، ظل يخشى طيلة أيام حكمه القصيرة، عودة أبناء غيطشة إلى البلاد، ومحاولة استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين، ومن ثم حرص على أن ينفر الناس منهم، بالمبالغة في تصوير أعمال أبيهم ومظالمه، وأعانه على ذلك القساوسة، لأن غيطشة كان لا يجيبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على يهود. فلا غرابة أن نجد عند معظم المؤرخين الإسبان اللاتين صوراً بغيضة جداً لهذا الملك وأولاده، وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء. وقد تصدى نفر من المؤرخين الإسبان المحدثين الدفاع عن غيطشة وأبنائه، بيد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأبنائه، والإصرار على تبرئة لذريق من كل عيب، وتصويره في صورة بطل وطني جاهد المسلمين من بلاده، وبذل كل ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم، كل هذا الجهد لا يمنعنا من تعرف شخص لذريق وأحوال عصره تعرفاً معقولاً، هو أقرب ما يكون إلى الصواب.

ومن الواضح، أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه، وأنه ظل حياته

متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين، لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم، بل كانوا في واقع الأمر جلّه الشعب الإسباني الروماني ويهود إسبانيا.

ومصداق ذلك، أن لذريق لم يكد الأمر يستقر له، حتى يرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطشة بكل شر، ويصورونه للناس بصورة جبَّار ظالم، أراد بالناس وبالكنيسة كل أذى، وأن لذريق لم ينهض إلاّ لإنقاذ الناس من شره وشر أولاده وكل مَن كان يلوذ بهم. وقد أجاب رجال الدين طلبه، فحفلت قرارات مجامعهم الدينية في عصر لذريق، بأسوأ الاتهامات لغيطشة وبنيه ويهود.

ومصداق ذلك أيضاً، أن لذريق قضى معظم أيام حكمه القصير، يحارب الثائرين عليه في كل ناحية، وأنه قام بحملات متتابعة على الباسك في الشمال، وطوائف من الثائرين في الشرق والجنوب.

وربما كان من دلائل سوء الحال في عهد لذريق، أنه كان في حاجة مستمرة ملحّة للمال، لأن البلاد كانت مضطربة في أيامه، لا يكاد يطيعه في نواحيها إلاّ إقليم صغير.

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال، هي التي دفعته إلى السطو على الذخائر الغالية، التي كان ملوك القوط قبله، قد كدّسوها في كنيستي سان بدرو وسان بابلو، فقد جرت عادة كل ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره، وكانت هذه الذخائر مكدّسة في حجرتين مغلقتين في الكنيستين، فلما اشتدت حاجة لذريق للمال، حدّثته نفسه بأخذ بعض هذه الذخائر، للانتفاع بها. وقد حذّره القس من أن يفعل ذلك، ولكنه لم يصغ، ومضى ففتح مستودع الذخائر. ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجوهر. فلم يجرؤ على أخذ شيء، لأن رهبة المكان منعته من أن ينفذ ما أراد. وتحدث الناس في ذلك وتناقلوه، حتى أصبح أسطورة في أفواه الناس، ورواها المسلمون على صورة لا تخلو من

طرافة[1].

وقد استطاع لذريق، أن يقضي على كل أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم، بعد أن استمر يوالي غزوهم أشهراً متتابعة، فاستتب له الأمر من ناحيتهم، وأوشك أن يستتب له الأمر في سائر البلاد.

د ـ أحوال إسبانيا تحت حكم القوط :

لم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسباني في العصر الروماني: ظلت الإرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسيطرة على الناس، وظل الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء في حال هي وسط بين الحرية والرق، وظلت بقية أهل البلاد رقيق أرض أو عبيداً يشْقَون في سبيل الأقلية الغنية المسيطرة. وقد ائتلف الأغنياء مع القوط، لكي يحتفظو بأملاكهم، واستقر نفر كبير من هؤلاء بالمزارع واشتغلوا بالزراعة، وإن بقيت أغلبيتهم تقيم في المدن في معسكرات تعيش على إتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن، حتى ساء أمرهم كثيراً.

ولم يكن القوط كثيرين، ولم يكن بهم ميل إلى المشاركة في صناعة أو زراعة، فظلوا غرباء عن البلاد في الغالب، ولم يخلِّفوا فيها من الآثار بما يمكن مقارنته بما خلفه الفرنجة في فرنسة مثلا.

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيب كبير من الطمأنينة والرخاء، لأن العصر كله كان عصر اضطراب وفوضى في أوروبة كلها لا في إسبانيا وحدها. وانهارت في نواحي غرب أوروبة قواعد المجتمع الروماني الثابت القديم، الذي كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الريف، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدون عنها

---

(١) نفح الطيب (١/٢٤٧ـ٢٤٨)، وقد أورد معظم مؤرخي المسلمين هذه الأسطورة، وانظر: Saavedia. op. cit. pp. 40-43

مالاً، وكان معظم الأرض تابعاً للدولة، فكانت تزرعه بوساطة الفلاحين الأحرار أو العبيد. فلما طال الزمن، واستمر كل فلاح يزرع نفس القطعة من الأرض سنة بعد سنة، نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكية. فلما أقبل البرابرة، واستولوا على أرض الدولة، آلت إليهم أملاكها، وبهذا تعرض حق هؤلاء الزرّاع الأحرار في أرضهم للضياع، وغصب البرابرة من الكثير منهم أرضه واستقروا فيها، وأجبروه على زراعتها، كأنه عبد لهم أو قنّ، ولجأ بعضهم إلى مالك غني مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين القادمين. وشاعت هذه الطريقة وعمت، ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة، هي طبقة المحميين (Buccellarii)، وكان القانون يعتبرهم أحراراً، ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم، جعلتهم في الواقع في مراتب التابعين والعبيد.

وأقام القوط في إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية، يؤيدها الأشراف وملاك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء. واستمروا يدبرون شئون البلاد بنفس النظام الروماني القديم: ظلت البلاد مقسَّمة إلى أقاليم ومدن، وكان يحكم كل إقليم دوق، وكل مدينة كونت، وكان كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفة صغيرة أو كبيرة من الموظفين، يقومون بما تحتاج إليه حكومة الناحية، في النواحي المالية والقضائية والحربية، وكان هؤلاء الموظفون طبقات، تختلف بحسب العمل الذي يقوم به كل منهم.

وكان الملك يحكم حكماً استبدادياً، أي منفرداً برأيه، يقضي في شئون البلاد كما يشاء. وكان له مجلس من النبلاء، يساعده في كل شيء، ولكن الملوك استبدوا بالأمر حتى لم يعد لهذا المجلس ظل من السلطان، فكان الملوك يصدرون القوانين وينفذونها، ويقضون في الأحكام بما يريدون. وكان المفروض أن ينتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء، ولكن العادة جرت أن يعتلي العرش أقواهم بحد . . . .

السيف[١].

هـ ـ مجلس طُلَيْطُلَة :

ولكن كان للدولة القوطية نظام طيِّب، له أثر حسن في سير الأمور في دولة القوط، هو نظام: (مجلس طليطلة) الذي كان يجتمع بين الحين والحين، للنظر في أمور الدولة الكبرى. وكان أصل هذا المجلس دينياً، إذ كان مجلساً من كبار القساوسة الكاثوليك، يعقدونه للنظر في أمر كنيستهم ورعاياها، فلما اعتنق ملوك القوط الكاثوليكية في عصر ريكاريدو، أصبح هذا المجلس رسمياً يدعو الملك بعقده، ويحضره كبار رجاله، وأصبح مع الزمن مجلساً سياسياً دينياً، يتناول المسائل جميعاً: دينية وغير دينية، ويصدر القوانين والأحكام في شتى القضايا، ثم اتسع سلطانه وتناول القضاء وأصبح بذلك محكمة عليا، وانتهى الأمر بأن انضم مجلس النبلاء إلى المجلس الديني وأصبحا مجلساً أعلى للدولة. وقد كان الملك أول الساعين في توحيد المجلسين، لأنهم أرادوا أن يزيدوا أحكامهم قوة ومهابة، بالتصديق عليها من هذه الهيئة التي تضم كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية وكبار أهل الدولة.

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن، فقد سنَّ أعضاؤها مع الزمن قانوناً شاملاً يضمن حريات الناس ويسوّى بينهم: قوطاً وإسبانيين، وهو المسمى: (Fuero Juzgo)[٢]، وكـان لتشـريعـاتـه

---

(١) Ballesteras. op. cit. p. 33-40.

(٢) عن اللاتينية Forum judicum (القانون القوطيّ) أي مجموعة القوانين القوطيّة، وقد تكون في مدى قرن، وقد بدأه يوريك، ثمّ أضاف إليه خلفه ألاريك الثاني مجموعة من القوانين الرومانية تسمى: (Breviarum) وهو مختصر للقوانين التي كانت تطبّق على الرومان، ويعزى إلى شنداسڤنتو الفضل في مزج المجموعتين معاً وتكوين مجموع متناسق منهما يطبّق على الناس أجمعين. وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعيّة عظيمة، ولو طبّقت على الناس، لكانت سيرة القوط في إسبانيا سيرة أخرى.

=

الإسلامي[١].

وطبيعي ألاّ يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الروماني

= أنظر Maurice Legendre Nouvelle Histoire d' Espagne.pp.73.sqq.
فجر الأندلس (٢٤) الفقرة (١).

الأخرى أثر طيّب في تهذيب نفوس القوط وتهيئتهم للعيش المستقرّ والائتلاف مع أهل البلاد، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيء المطلق بشئون الرعية.

و ـ المجتمع الإسباني أيام القوط :

والخلاف شديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسباني خلال هذا العصر القوطي، فمعظم الإسبان شديدو العصبية لهذا العصر، يذهبون إلى أن الناس كانوا يستمتعون فيه برخاء ظاهر في كل ناحية من نواحي الحياة، وأن الزراع والصناع كانوا في رفاهية، وأن موارد البلاد في ازدياد مستمر، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية. وهم إنما يبالغون هذه المبالغة لكي يؤكدوا أن النهضة التي حدثت في ظلال الإسلام بعد ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم، وإنما كانت البلاد سائرة في طريقها على أي حال.

أما حقيقة الحال، فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون، فلم يكن الحال بدرجة من السوء بهذا الشكل الذي يصوره دوزى في كتابه، ولكنه كان سيئاً على كل حال، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهية والرقي في عصور المسلمين. وذلك هو الرأي الذي يميل إليه المؤرخون المنصفون من الإسبان أنفسهم، بعد أن تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية الإسبانية، وأصبحت أوضح من أن يماري بها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطرباً كنظام المجتمع القوطي الإسباني قبل الفتح

Dozy. Musulmans d espagne, 1, pp. 258-259

القديم، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعي مقبول، قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقروا في أرضها ويقتبسوا نُظُمها، ولكن ذلك لا يمنع من أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الروماني المضمحل، وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة، توجهه توجيهاً جديداً.

وينبغي أن نقول أيضاً، إن القوط، كانوا أقل إنسانية ونظاماً من طوائف البرابرة الأخرى، التي استقرت في إسبانيا، حتى الفاندال أنفسهم، لأن الفاندال كانوا لا يبهظون البلاد التي ينزلون فيها، بتكاليف حكومية ضخمة، تريد أن تستقصي كل شيءٍ، وتتشبه بالرومان: كانوا يزيلون النظام القديم بمحاسنه ومساوئه، أما القوط فقد احتفظوا بمساويء هذا النظام، وأضافوا إليه مساوئهم، فعم ضررهم الجميع، من المزارع الصغير، والقنّ الفقير، إلى الغني صاحب الضياع، ولم يتدخل الفندال أو السوييف في مسائل الناس الدينية، أما القوط فتدخلوا واضطهدوا مخالفيهم كما رأينا، فعمَّ بلاؤهم الناس أجمعين(١).

ولم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس، ولم يحاول أحدهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد، وكان عدد العبيد كبيراً جداً، وكان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف، ويعاملونهم معاملة قاسية كأنهم بعض المتاع، وقد يئس هؤلاء المساكين من كل إنصاف من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين، وباتوا يترقبون الخلاص(٢).

ولم يكن أوساط الناس من أهل المدن والضياع وأحرار الزراع أحسن حالاً، لأن ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شيءٍ يعود بالخير على عامة الناس، ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفف عن الناس مظالم الحكام أو يجعلهم في مأمن من الظلم والعدوان، وقد كانوا هم أنفسهم

---

(١) Dozy. op. cit. 1, p. 258

(٢) Dozy. Musulmans D'Espagne,1,p.265.

أبعد الناس عن أي لون من هذا التفكير.

ويضاف إلى هذه المساوىء الاضطهاد الديني بألوانه: اضطهاد القوط للكاثوليك حين كانوا أريوسيين، ثم اضطهادهم لليهود على النحو الذي رأيناه في أيام لذريق، مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من حكم القوط، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا، لكي يسوِّغوا عسفهم بهم، والغالب أن رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرضين على هذا الاضطهاد، ولو أن يهود إسبانيا كانوا على اتصال مع يهود إفريقية ويهود أوروبة أيضاً، عداوة للقوط وللكاثوليك، ومحاولة لإلحاق الأذى بهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وحينما تقادم العهد بالقوط في إسبانيا، وتمتعوا بخيراتها الوفيرة، مالت بهم نفوسهم إلى الدعة، وجعلوا يكلون أمور الحرب إلى عبيدهم، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار في الجيش. ويبدو أن الحروب المتعددة بين ملوك القوط ونبلائهم هي التي حفّزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد في الجيش، لأن أعداد محاربي القوط القليلة توزعت بين الملوك والثائرين، وكانت كثرة العبيد في الجيش من أسباب ضعفه، لأنهم كانوا ساخطين على الدولة، ينتظرون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصيرها[١].

ز ـ الحالة الثقافية:

لابد من الإشارة إلى حال الثقافة بألوانها في البلاد قبل الفتح الإسلامي، فهذه هي الناحية الوحيدة التي سيجد فيها المسلمون أساساً طيباً يزيدون عليه. وقد كانت إسبانيا منذ فجر التاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفنٍ، وضع الفينيقيون أساس ذلك كله، وزاد عليه اليونان والرومان. ثم أقبلت المسيحية فأنعشته وسارت به خطوات إلى أمام. ولعل في هذا بعض ما يفسر لنا سرّاً من أسرار الازدهار الفكري السريع الذي حققه المسلمون في إسبانيا، على قلة

---

(١) Dozy. Musulmans D'Espagne,p.269.

اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين المسيحي والإسلامي.

لقد تأصلت المسيحية في إسبانيا بأسرع مما تأصلت في فرنسة مثلاً، فلم يكد القرن السادس الميلادي يهل، حتى كانت البلاد تفيض بالأديرة يقيم فيها الرهبان يدرسون ويتذاكرون، والكنائس يقوم بأمرها قسس معنيون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف.

وقد تركت أيام القوط في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي آثاراً في الدراسات الدينية المسيحية بخاصة الأخلاقية مقتبسة من الأفكار اليونانية والرومانية على الأكثر، والتاريخية التي تفسر التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً، والأدبية.

ولم يخلِّف القوط في الفنون إلاّ ثروة معمارية فقيرة جداً، وينسب بعض مؤرخي الفنون العقد المخمّس إلى القوط[١].

وخلاصة القول، إن إسبانيا القوطية، لم تكن شرّاً كلها، كما يذهب قسم من المؤرخين الفرنسيين والعرب، ولم تكن خيراً كلها، كما يزعم الإسبان، وإنما كانت جوانبها الإجتماعية ضعيفة جداً، بل تُعد امتداداً للعصر الروماني المضمحل. لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدّية لا تملك من الأسس الاجتماعية ما يعينها على تنظيم بلد واسع كإسبانيا، ومجتمع متشعب مختلف كمجتمعها الذي ضم أخلاطاً من كل صنف. وقد حاولوا أنيتخذوا مظاهر النظام السياسي الروماني فلم يوفقوا، لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه، ولم يصب الناس من وراء ذلك إلاّ شرّ بالغ.

وأما الناحية الفكرية، فكانت خيراً خالصاً، لأن الذين قاموا بها كانوا من الإسبان الأصليين بعد أن اعتنقوا المسيحية وتأثروا بها، فلا عجب أن يظهر من بينهم بعض العلماء، لأن البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر في عهود الرومان.

لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبة الغربية كلها في هذه الناحية[٢]، كما

---

(١) Ballesteros. op. cit. p. 91.

(٢) اعتمدنا هذه الدراسة بالدرجة الأولى، على: فجر الأندلس (٢-٣١)، فللمؤلف =

ستصبح إسبانيا الإسلامية المركز الأول للإشعاع الحضاري في أوروبة، كما اعترف بذلك المفكرون الأجانب كافة، فقد كانت إسبانيا المسلمة عاملاً من العوامل الأساسية ليقظة أوروبة، يوم كانت أوروبة في ظلام دامس، فكان فضل الإسلام على الحضارة الأوروبية فضلاً عظيماً.

يُلْيَان

١ ـ شخصيته :

كانت مدينة سَبْتَة وما يجاورها، تُحكم من قبل حاكم مسيحي يدعى: يُلْيَان (جوليان، يوليان، ولِيان، بليان، إليان، جليان) كانت له عدّة وقوّة، لم ير لها موسى بن نصير مثيلاً من قبل[١]، فقد هاجم موسى سبتة، ولكنه لم يتمكن من فتحها، فعقد الصلح مع يليان حاكم المدينة، وأقرّه في منصبه، مقابل اعتراف الأخير بالفتح الإسلامي[٢].

وقد شجع يليان موسى بن نصير وطارق بن زياد على فتح الأندلس، كما عاون المسلمين في الفتح، وكان له نشاط واضح قبل الفتح وفي أيامه، وسيرد ذكر تفاصيل نشاطه في سيرة قادة الفتح.

والاختلاف بين الباحثين في أمرين: الأول في شخصية يليان، والثاني في الأسباب التي حملته على تشجيع موسى وطارق على الفتح، ومعاونة الفاتحين لإنجاز الفتح.

والروايات متناقضة حول شخصية يليان، فيقال: إنه مسيحي من إفريقية[٣]، ويقال: إنه مسيحي من بربر غمارة[٤]، وقيل: إنه

= الفاضل شكري وتقديري.

(١) أخبار مجموعة(٤).

(٢) ابن خلدون (٦؛ ٤٣٧ـ٤٣٨) وأخبار مجموعة (٤) ونفح الطيب (١؛ ٢٣٠).

(٣) Chr. 754, p. 150, No. 40.

(٤) ابن خلدون(٦/ ٤٣٧ـ٤٣٨) والسلاوي(١/ ٦٥)وCodera , VII, pp. 45-94

رومي[١]، وقيل: إنه قوطي من أتباع ملك إسبانيا[٢].

وجاء المؤرخون الأجانب المحدثون، فحققوا شخصية يُلْيان، فأثبت قسم منهم وجوده فعلاً، بعد أن كان قسم منهم قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب[٣]. وجاء من بعد مَن أثبت وجوده، مؤرخ أثبت أصله والدور الذي قام به هو وأولاده[٤]، وقد ذهب هذا المؤرخ إلى أن يليان فارسي الأصل، وأنه من الأزارقة. وقد استنتج ذلك من أن يليان خلّف ولداً اسمه: بَلْكايِش، أسلم بعد الفتح، وحسن إسلامه، وبلكايش اسم من أسماء الفُرس الأزارقة.

أما المؤرخون العرب المسلمون، فتابعوا المؤرخين الأجانب على الأكثر، ولم يروا رأياً جديداً.

ويليان مسيحي بلا خلاف، وليس من بربر غمارة، وبقاؤه مدة طويلة في سبتة بين البربر، جعل بعض المؤرخين يتوهّم أنه من البربر، وهو ليس منهم، لأن مَن كان مسيطراً على شمال إفريقية في حينه لا يولّي على البربر بربرياً، خوفاً من انحيازه إلى قومه وتحيّزه لهم على الأجنبي، وقائمة حكام الروم على الشمال الإفريقي تثبت أن الحكام جميعاً بدون استثناء، لم يكونوا من البربر. أما الذين زعموا أن يليان قوطي، فلا سند لهم، لأننا نعلم بأن القوط

---

(١) الإحاطة (برواية ابن القوطية) ـ (١/ ١٠٠) وابن الكردبوس (٤٢) وابن الأثير (٤/ ١٠٦) والمراكشي (٦) والبيان المغرب (١/ ٢٦) والنويري (٢٢/ ١٤).

(٢) ابن عبد الحكم (٢٠٥) وأخبار مجموعة (٤) وفتح الأندلس (٢ـ٣) وابن الكردبوس (٤٢و٤٤) وابن الشباط (١٠٥) والبيان المغرب (١/ ٢٠٣) و (٢/ ٦ـ٧) والحميري (٧) ونفح الطيب (١/ ٢٥١).

(٣) Dozy.. Recherches -3ed.- 1, pp. 57 sq.

(٤) Saavedra, pp. 48. وهذه سلسلة سلالة يليان بعد الفتح بحسب ما تذكره الروايات الإسلامية: يليان - بلكايش، عبدالله، الحكم، سليمان، أيوب (توفي سنة ٣٢٦هـ)، سليمان (توفى سنة ٣٧٩هـ)، أحمد (توفي سنة ٣٨٨هـ). وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون بصدق الإسلام وسعة العلم، انظر فجر الأندلس (٥٣ـ٥٤) ـ الهامش.

الغربيين فقدوا معظم ممتلكاتهم في شمال إفريقية منذ أيام الملك (Theudis)[١] - (٥٣١ـ٥٤٨م)و ولقد كانت سَبْتَة بأيدي البيزنطيين منذ منتصف القرن السابع الميلادي، ولا توجد هناك أية إشارة إلى وقوع ما يخالف ذلك[٢]. ولهذا يمكن استنتاج أن يليان كان الحاكم البيزنطي العام لولاية موريطانيا الطنجيّة (Mouretania Tingtana) وهو إقليم كان في ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية، وأن يليان كان يقوم بواجبات الحاكم العام (Exarcus) لهذه الناحية من قبل الإمبراطور البيزنطي، وأنه بدأ ولايته في سن صغيرة[٣]، وأقام في هذه الناحية زماناً طويلاً. ولما كانت موريطانيا الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطة، ولما كانت أمور الدولة البيزنطية في ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكنها من الإشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة[٤]، ولما كانت تلك الدولة قد خسرت ولاياتها كافة في شمالي إفريقية بالفتح الإسلامي، ولم يبق غير ولاية سبتة وحدها، لا عون لها ولا سند، غير الدولة الإسبانية، فقد تحرر يليان من سلطان الدولة البيزنطية، وأصبح كالحاكم المستقل في هذه الناحية. وإذ انقطعت عنه الإمدادات من الدولة البيزنطية، فقد أخذ يوثِّق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر، حتى كسب ثقتها وودّها، وأصبح كالزعيم لها، حتى اختلط الأمر على بعض المؤرخين، فحسبوه من البربر. كما أخذ يوثق علاقاته بالإسبان ليحظى منهم بالإمدادات التي تعينه على الثبات أمام المسلمين الفاتحين. ولما وصل موسى بن نصير إلى إقليم طَنْجَة سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٩م) وحاصر مدينة طَنجة وفتحها[٥]، سار على رأس جيشه إلى

---

(١) CMH, vol,11, p.163. & Shaw, op. cit. p. 222

(٢) Livermore, pp. 191, 245.

(٣) ابن الأثير (١٠٦/٤).

(٤) فجر الأندلس (٥٤).

(٥) نفح الطيب (١: ٢١٥و ٢٣٤).

مدائن شط البحر، وعلى رأسها سَبْتَة، وعليها يليان، فقاتله موسى، ولكنه ألفاه في نَجْدة وقوّة وعُدَّة، فلم يُطِقْه، فرجع إلى طنجة، وأقام هناك بمن معه. وأخذ موسى بالغارات على منطقة سبتة، والتضييق عليهم، بالميرة والإمداد من إسبانيا من قِبَل ملكها غَيْطَشَة، فهم يذبّون عن سبتة ذبّاً شديداً، ويحمون بلادهم حماية تامة[1] فكانت علاقة يليان بغيطشة من أهم أسباب نجاحه في الدفاع عن منطقته وحمايتها. ولكن هذه العلاقة كانت علاقة مصلحة متبادلة: مصلحة يليان تَلَقى العون من غيطشة بعد أن حرم من عون القسطنطينية، ومصلحة غيطشة أن تصبح سبتة ومنطقتها الخط الدفاعي الأول عبر بحر الزقاق عن إسبانيا تجاه الفتح الإسلامي، وكسب هذه المنطقة لإسبانيا في الحاضر والمستقبل، وما كان تعاون يليان مع القوط الغربيين إلاّ مضطراً[2].

والمؤرخ الأجنبي الذي زعم أن يليان فارسي، لأنه خلّف ولداً اسمه: بَلْكايش، وهو اسم فارسي، فإن زعمه متهافت غير منطقي ولا معقول، فكثير من الفرس أسماؤهم عربية، وكثير من العرب أسماؤهم غير عربية، وكثير من أبناء المسيحيين أسماؤهم إسلامية، فلا يصبح الفارسي عربياً ولا العربي فارسياً ولا المسيحي مسلماً استناداً على اسمه أو اسم ولده، ولو زعم مثل هذا الزعم مؤرخ عربي أو مسلم، لاعتُبر زعمه فضيحة مدوِّية، ولسارت بأخبارها الركبان.

إن يليان مسيحي رومي، كان الحاكم البيزنطي العام على ولاية سبتة، ثم تعاون مع غيطشة حتى مات، فتعاون مع لذريق الذي خلف غيطشة، ثم تعاون مع موسى بن نصير وطارق بن زياد.

٢ـ يليان والمسلمون الفاتحون:

---

(١) نفح الطيب (١؛ ٢٣٤).

(٢) أخبار مجموعة (٤).

منعت مشاكل القوط الغربيين الداخلية بعد رحيل غيطشة سنة (٧٠٨م أو سنة ٧٠٩م) من الاستمرار في معاونة يليان[١]، فأصبح وحيداً أمام تيار الفتح الإسلامي الجارف، وأصبحت ولايته وحدها هدفاً للفتح، فلم يكن بإمكانه أن يثبت طويلاً.

لقد رأى يليان الولايات البيزنطية في الشمال الإفريقي تنهار واحدة بعد أخرى، أمام زحف المسلمين الفاتحين، وكان آخر تلك الولايات ولاية طنجة المجاورة لولايته والتي فتحها المسلمون، فلم يبق أمام يليان غير التعاون مع المسلمين الفاتحين، ليبقى في منصبه على ولاية سبتة، وإلاّ فإن المسلمين قادرون على فتح ولايته عَنْوَة كما فتحوا غيرها من الولايات، ولن يطول انتظار يليان ليرى مصير ولايته المتوقع الذي لا شك فيه.

إن حرمان يليان من عون ملك القوط ومعاونته، هو السبب غير المباشر لتقرّبه من المسلمين الفاتحين وتعاونه معهم ومعاونته لهم.

ولسنا نعرف شيئاً عن الأسس التي ارتكز عليها السلام بين يليان والمسلمين الفاتحين، وكل ما نعرفه أن طارق بن زياد حاول فتح سبتة كما حاول موسى قبله، فلم يستطع فتحها عَنْوَة، فاكتفى بالتودد إلى يليان ومجاملته، وفجأة سلّم يليان سبتة للمسلمين الفاتحين صلحاً، وشجعهم على فتح الأندلس، وعرض عليهم معاونته لهم وتعاونه معهم من أجل تحقيق الفتح.

والمصادر الإسلامية تذكر سبباً مباشراً لاستسلام يليان وتشجيعه على فتح الأندلس، وتعاونه مع المسلمين الفاتحين لتحقيق الفتح.

فقد ذكرت، أنه كان من سِيَر أكابر العجم بالأندلس وقوادهم، أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم، إلى بلاد الملك الأكبر بطُليطلة

---

(١) Dozy. p. 230 & Shaw. op. cit. 221-222; Livermere. pp. 245-246.
وعبدالعزيز سالم - تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس بيروت - ١٩٦٢- (٤٧).

ليصيروا في خدمته، ويتأدّبوا بأدبه، وينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا، أنكح بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم، وحمل صَدُقاتهم، وتولى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن. واتفق أن فعل ذلك يليان عامل لُذَريق على سبتة، وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس، وأهلها على النصرانية، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه. فلما صارت عند لذريق وقَعَت عينُه عليها فأعجبته وأحبها حباً شديداً، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضّها. واحتالت حتى أعلمت أباها بذلك، سرّاً بمكاتبة خفيّة، فأحفظه شأنها جداً، واشتدت حميته، وأقسم ليزيلنّ سلطانه، وليحفرنّ تحت قدميه، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس.

ثم إن يليان ركب بحر الزقاق من سبته، في أصعب الأوقات، في ينير[١] قلب الشتاء، فصار بالأندلس. وأقبل طُليطلة نحو الملك لذريق، فأنكرعليه مجيئه في مثل ذلك الوقت، وسأله عما لديه، ولِمَ جاء في مثل وقته؟ فذكر خيراً، واعتلّ بذكر زوجته، وشدّة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده، وتمنيها لقاءها قبل الموت، وإلحاحها عليه في إحضارها، وأنه أحبّ إسعافها، ورجا بلوغها أمنيتها منه، وسأل الملك إخراجها إليه، وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها، ففعل وأجاز الجارية، وتوثّق منها بالكتمان عليه، وأفضل على أبيها، فانقلب عنه. ولما ودّعه قال له لذريق: «إذا قدمتَ علينا، فاستفره لنا من الشُّذانقات[٢] التي لم تزل تُطرفنا بها، فإنها آثر جوارحنا لدينا»، فقال: «أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأُدخلنّ عليك شُـذانقات ما دخل عليك مثلها قط»، عرّض له بالذي أضمره، من السعي في إدخال رجال العرب عليه، وهو لا يَفْطِن.

ولم يتنهنه يليان، عندما استقر بسبته عملِه، أن تهيّأ للمسير نحو موسى بن

---

(١) ينير اسم الشهر (Enero): وهو شهر كانون الثاني (يناير)، أول شهر من أشهر السنة، ويكون في وسط فصل الشتاء.

(٢) الشذانقات: الصقور أو الشواهين، انظر معجم متن اللغة(٣/ ٢٩٤).

نصير الأمير، فمضى نحوه بإفريقية، وكلّمه في غزو الأندلس، ووصف له حسنها وفضلها، وما جمعت من أسباب المنافع، وأنواع المرافق، وطيب المزارع، وكثرة الثمار، وغزارة المياه وعذوبتها، وهَوَّن عليه مع ذلك حال رجالها، ووصفهم بضعف البأس وقِلّة الغناء، فشوّق موسى إلى ما هناك، وأخذ بالحزم إلى ما دعاه إليه يليان[١].

ولكن بعض المؤرخين المحدثين، وعلى رأسهم قسم من المستشرقين، يرون أن قصة ابنة يليان في بلاط طليطلة محض أسطورة، ليس لها أساس من الواقع، وقد شايعهم من المؤرخين العرب والمسلمين في هذا الرأي[٢]. ولعل هناك ما يسوِّغ التشكيك في هذه القصة من مؤرخي الأجانب والمستشرقين، والهدف من هذا التشكيك واضح ومعلوم ومفهوم، ولكن متابعة المؤلفين العرب المسلمين للأجانب في هذا التشكيك في هدفه غير واضح ولا معلوم. ومن المعروف أن مؤرخي الأجانب وبخاصة المستشرقين منهم، شككوا في وجود شخصية يليان أصلاً، وذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب ـ كما ذكرنا ذلك قبل قليل ـ فتابعهم في هذا التشكيك قسم من مؤرخي العرب والمسلمين تقليداً، وعلى غير هدى وبصيرة، حتى إذا حقق قسم من المؤرخين الغربيين شخصية يليان، وأثبتوا وجودها فعلاً بشكل قاطع جلي، عاد المقلِّدون من مؤرخي العرب والمسلمين إلى متابعة الغربيين من جديد، فكانوا في كلا الحالتين مقلدين، ينقلون آراء الأجانب بلا تدقيق ولا تمحيص.

وقصة ابنة يليان، هي الأخرى، تنتظر مَن يحقِّق وقوعها من المؤرخين

---

(١) نفح الطيب (١؛٢٥١ـ٢٥٣).

(٢) قارن: Saavedra. pp. 5R-59، وفجر الأندلس (٥٩ـ٦٠) ومحمود مكي ـ ملحمة آخر ملوك القوط ـ المجلة (٣٠ـ٣٥) ـ العدد (٧٤) ـ ٩٩١٣ومحمد عبدالله عنان ـ دولة الإسلام في الأندلس (١؛٣٥ـ٣٧) والفتح والاستقرار العربي والإسلامي في شمال إفريقية والأندلس (١٦٠).

الغربيين ومن المستشرقين، لتصبح حقيقة لا شك فيها بالنسبة لبعض مؤرخي العرب والمسلمين المحدثين ولا تبقى أسطورة من الأساطير.

ولا أرى أن مثل تلك القصة لا يمكن حدوثها في كل زمان ومكان، وبخاصة في تلك الأيام، في ذلك المحيط، الذي اتّسم بالانحراف، فأصبح قاعدةً في القوط بعكس الاستقامة التي أصبحت استثناءً فيهم. كما أن ردّ الفعل الذي أظهره يليان ليس مستغرباً من أب تجاه انتهاك عرض ابنته قسراً، كما أن ذكرها في حشد من المصادر المعتمدة يوثّق حدوثها ويؤيد وقوعها، ولا عبرة بالمصادر العربية القليلة التي لم تتطرق إليها اختصاراً أو لأسباب أخرى، إذ لو كان مؤلفوها لا يصدِّقونها لأبدوا رأيهم فيها، ولكنهم لم يفعلوا[1]. ومثل هذه القصة تكررت كثيراً في محيط الواقع، ولا تزال تتكرر حتى اليوم[2]، وأكثرنا نسمع أمثالها، فلماذا لا نكذِّبها، ونكذِّب قصة ابنة يليان، لأن مصادرها المعتمدة عربية إسلامية؟. ولست مع الذين يشككون في هذه القصة، وأراها السبب المباشر لتعاون يليان مع المسلمين، ولكنني لا أراها السبب الرئيس، بل السبب الرئيس هو أنه كان يتلقى من غيطشة الإمدادات عَدَداً وعُدَداً، مما سهل عليه الدفاع عن ولايته، فلما حرمه لذريق من تلك الإمدادات بسبب مشاكله الداخلية، استاء من هذا التوقف، وبدأ بالتعاون مع المسلمين على القوط، خاصة بعد ما شعر بقوة المسلمين المتنامية في المنطقة، وإقبال البربر على الدخول في دين الله أفواجا.

ولعل مما يعزِّز أن تغيّر وضع يليان: من الدفاع العنيد عن ولاية سبتة، إلى الاستسلام المفاجيء للمسلمين وتسليم سبتة لهم واندفاعه في معاونته للمسلمين وتعاونه معهم مادياً ومعنوياً على النظام القائم يومها في إسبانيا، هو هذا الأثر البالغ على نفسيته، بعد علمه بقصة ابنته مع لذريق، فنسي كل

---

(١) البلاذري (٢٣٠-٢٣١) برواية الواقدي، البيان المغرب (٢؛٦) برواية الواقدي و(٢/ ٤) برواية عريب بن سعد، وابن الشباط (١٠٥-١٠٦) برواية عريب بن سعد.

(٢) د. علي البارودي - حدث في رحلة الخريف(٦٥-٦٦) الإسكندرية - بلا تاريخ.

شيءٍ إلاّ الانتقام لابنته ممن أساء إليه في سمعته وشرفه بين الناس.

فتح الأندلس

١ـ الموقف العام :

أكمل عمرو بن العاص بمعاونة عُقبة بن نافع الفهري فتح لِيبْيَا كلها سنة اثنتين وعشرين الهجرية[١] (٦٤٢م). وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطّاب: «إنّا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقية (تونس) تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها، فعل»، فكتب إليه عمر ينهاه ويأمره بالوقوف عند هذا الحد، فعاد إلى مصر مكرَهاً بعد أن استخلف على ليبيا عُقْبة بن نافع الفِهْرِي، الذي صار إليه بعد ذلك فتح المغرب[٢].

وتولى عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح القرشي العامري[٣] مصر لعمرو بن العاص، ففتح إفريقية.

وخلفه معاوية بن حُدَيج السّكوني[٤]، فأكمل فتح إفريقية. وخلفه عقبة بن نافع[٥]، ففتح حتى المحيط الأطلسي، ولكن فتحه القريب من المحيط لم يكن فتحاً مستداماً، واستُشهد عقبة في ميادين الفتح.

وخلف أبو المهاجر دينار[٦] عقبة بن نافع، ففتح أبو المهاجر المغرب الأوسط (الجزائر).

وخلف زهير بن قيس البُلَوِي[٧] أبا المهاجر، فعزّز الفتح في إفريقية، وانتصر على البربر انتصاراً سَوقِياً، ولكنه استشهد في ميادين الفتح.

---

(١) ابن الأثير (٣/ ٢٥ـ٢٦) والعبر (١/ ٢٦).
(٢) البلاذري (٣١٦) واليعقوبي (٢/ ١٣٤).
(٣) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٥١ـ٧٤).
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٧٥ـ٨٩).
(٥) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٩٠ـ١٣٦).
(٦) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٣٧ـ١٤٩).
(٧) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٥٠ـ١٧٠).

وخلف حسّان بن النعمان الغسّاني[1] زهيراً ففتح قَرْطاجَنّة وفاس وانتصر على الروم في معركة سَوْقِيّة حاسمة.

وجاء موسى بن نصير[2] خلفاً لحسان، فأكمل فتح المغرب الأقصى، وفتح طنجة عَنْوَة، وفتح سبتة صلحاً.

وكان فتح طنجة سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٩م)، وفي هذه السنة مات غيطشة، وتولى مكانه لذريق على الأندلس، وكان على سبتة يُلْيَان الذي قاوم بنجاح موسى وردّه عن فتح سبتة بمعاونة غيطشة الذي كان يمده بكل ما يحتاج إليه للثبات أمام المسلمين الفاتحين. فلما مات غيطشة، لم تصل إلى يليان مِن خلفه الإمدادات، فلم يبق أمامه من خيار غير الاستسلام للمسلمين الفاتحين، فسلم سبتة صلحاً لطارق بن زياد وطنجة لموسى بن نصير.

وكان فتح الأندلس، نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب[3]، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي، واستقرار الفتح فيه بانتشار العرب والإسلام في ربوعه، وبوجود القوة الضارية بيد العرب المسلمين والبربر المسلمين الفاتحين على البر المغربي.

وبين الأندلس والبر المغربي الإفريقي -الذي فتحه المسلمون- بحر المجاز، عرضه ما بين طنجة والبر الأندلسي ثمانية عشر ميلاً، وهو عرضه أيضاً بين جزيرة طريف على البر الأندلسي وسبتة على البر المغربي الإفريقي، ويعرف هذا الموضع بالزقاق، وبحر المجاز هو الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي[4]، وهذا المجاز هو الذي يفصل بين المسلمين الفاتحين من جهة، وأهل الأندلس من جهة ثانية. ولكي يحمي

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٧٢-٢٢٠).
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١-٣٠٩).
(٣) المسالك والممالك للأصطخري (٣٣).
(٤) نفح الطيب (١/ ١٤٥-١٤٦).

المسلمون ما فتحوه في المغرب من أهل الأندلس والقوط الذين يحكمونها، كان لابد لهم من فتح الأندلس، لحماية البر الإفريقي في شمالي إفريقية، فقد رأينا طنجة وسبتة قبل فتحهما تحت حكم الأندلس، فقد كان يليان عامل لذريق على سبتة[١] : «ثم ساروا إلى مدائن على شط البحر، فيها عمال الصاحب الأندلس، قد غلبوا عليها، وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن سبتة، وعليها علج يسمى: يليان، قاتله موسى، فألفاه في نجدةٍ وقوة وعدّة فلم يُطِقْهُ، فرجع إلى مدينة طنجة، فأقام بمن معه، وأخذ بالغارات على ما حولهم والتضييق عليهم، والسفن تختلف إليهم بالميرة والإمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة، فهم يذبّون عن حريمهم ذباً شديدا، ويحمون بلادهم حماية تامة، إلى أن هلك غيطشة، فاضطرب حبل أهل الأندلس. .»[٢] هكذا كانت العلاقة وثيقة للغاية بين ولاية سبتة وطنجة وغيرهما مع مملكة القوط في الأندلس، وكان التعاون بين الطرفين وثيقاً، ومنذ أقدم العصور، إذا كان الحكم في الأندلس قوياً، سيطر على المدن الإفريقية المواجهة لساحل الأندلس، وإذا كان الحكم فيها ضعيفاً سيطر البر الإفريقي على الأندلس أو على جزء منها. والهدف هو حماية الأندلس بالسيطرة على مدن الساحل الإفريقي، لتكون الخط الدفاعي الأول عن البر الأندلسي، وحماية البر الإفريقي من حكام الأندلس، بفتح الأندلس، كما فعل السملمون الفاتحون، فلا بد من أن يكون أحد الطرفين مسيطراً على الطرف الثاني.

إن الهدف من فتح الأندلس، هو ترصين الفتح الإسلامي في شمالي إفريقية بعامة وفي ولايتي طنجة وسبتة بخاصة.

أما الهدف الثاني من الفتح، فهو نشر الإسلام في ربوعها وإعلاء كلمة الله فيها. إن الفاتحين حملوا إلى الناس الإسلام بالفتح، ولم يحملوا الناس بالفتح على الإسلام.

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٥١).
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٥٠).

وقد كان الروم قد اتخذوا من جزيرة صِقِلِّيَة قاعدة أمامية متقدمة لهم، ينطلقون منها للتعرض بالساحل الإفريقي المقابل لها، فأمر موسى بن نصير بالتأهب لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب بنفسه، فرغب الناس وتسارعوا، فلم يبق شريف ممن كان معه إلاّ وقد ركب الفلك وعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبدالله بن موسى، وأمّره على رجالها، وولاّه عليهم، ثم أمره أن يتوجه إلى صقلية. وإنما أراد موسى بما أراد من سيره في هذه الحملة أن يركب أهل الجلد والحماية والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة غزوة الأشراف[1]، وكان ذلك سنة خمس وثمانين الهجرية (٧٠٥م).

وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٧م)، أغزى موسى ابنه عبدالله جزيرة سَرْدَينيا[2] فغنم وعاد سالماً غانماً.

وكانت هاتان الغزوتان لحماية الساحل الإفريقي من غزو الروم من قواعدهم البحرية في هاتين الجزيرتين.

وبعد أن أنجز موسى بن نصير استعادة فتح المغرب الأوسط، وأكمل فتح المغرب الأقصى، وفتح طنجة، أصبحت السواحل المغربية المواجهة لبعض جزر البحر الأبيض المتوسط وللأندلس، معرضة لهجمات الروم، لغرض استعادة تلك المناطق المغربية الغنية إلى سيطرتهم من جديد، ومعرضة لهجمات من القوط الذين يحكمون الأندلس، لغرض إبعاد المسلمين الفاتحين عن بلادهم بطردهم من السواحل المغربية القريبة منهم، وحماية الأندلس من غزو المسلمين المتوقع لها، ومحاولة فتحها.

وكان من جزر البحر التي اتخذها الروم والقوط قواعد لهم متقدمة: جزيرتا مَيُورُقة ومَنُورَقة، وهما جزيرتان في البحر الأبيض المتوسط، بين صقلية وشبه جزيرة . . . .

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٠-٧١).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٦)، وانظر العبر (١/ ١٠٤) وشذرات الذهب (١/ ٩٨) والبداية والنهاية (٦/ ٧٧).

الأندلس[1].

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية(٧٠٩م) جهز موسى ابنه عبدالله فافتتح هاتين الجزيرتين[2]، وغنم ما لايحصى، وعاد سالماً[3].

والهدف الأول والأخير، من تعرض المسلمين بهذه الجزر، هو حماية الساحل الإفريقي من هجمات الروم والقوط، والهجوم أنجع وسائل الدفاع كما يقولون[4].

وعند ما ضعف المسلمون في شمال إفريقية، أصبحت تلك الجزر قواعد لأساطيل أعدائهم وحشود قواتهم للهجوم على المسلمين، وأسر نسائهم ورجالهم، وأخذهم إلى القسطنطينية وغيرها.

إن فتح الأندلس، هو الوسيلة الوحيدة لحماية البر الإفريقي المقابل لها، والذي كان المسلمون قد فتحوه، وصارعوا الأهوال من سنة اثنتين وعشرين الهجرية إلى سنة تسعين الهجرية، أي مدة ثمان وستين سنة، بذلوا خلالها كثيراً من الجهد والنفقات والشهداء، على رأسهم قائدان: عقبة بن نافع، وزهير بن قيس البلوي.

هكذا فتح المسلمون الفاتحون ما فتحوه، وهكذا حافظوا على ما فتحوه: بالتعرض والجهاد، وبفتح جديد يرصِّن الفتح القديم.

٢ـ فتح طَرِيْف :

أرسل موسى في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجرية (آب=

---

(١) النجوم الزاهرة(١/ ٢١٦)، وانظر العبر (١/ ١٠٤) وشذرات الذهب (١/ ٩٨) والبداية والنهاية (٩/ ٩٩).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ٢١٦)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/ ٣٠٥) وابن الأثير (٤/ ٥٤٠).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٥٤٠).

(٤) انظر تفاصيل هذه الفتوح، في سيرة: عبدالله بن موسى بن نصير, في كتاب: قادة فتح الأندلس والبحار.

أغسطس ـ أيلول= سبتمبر ٧١٠م) سرية استطلاعية إلى جنوبي الأندلس ففتح جزيرة طريف والجزيرة الخضراء، وعاد مع رجاله في رمضان أيضاً سالماً غانماً[١].

٣ـ فتح طارق بن زياد :

أنزل طارق بن زياد قواته في منطقة جبل طارق بوجبتين، فكوّن المسلمون في تلك المنطقة رأس جسر لقوات المسلمين. وأرسل طارق أحد قادته وهو: عبدالرحمن بن أبي عامر المعافري ففتح مدينة قرطاجنة الجزيرة، ومدينة الجزيرة الخضراء[٢]. وانتصر طارق على جيش لذريق في معركة وادي لَكُّهْ الحاسمة. وفتح طارق بعد هذه المعركة شَذُونَة والمَدُور وقَرْمونة وإشبيلية وإسْتَجَة، وأرسل مغيثاً الرومي ففتح قرطُبة، وأرسل سرايا ففتحت مالَقَة وإلبيرَة وغرناطة وكورة تُدْمِير وأُورْيُولة ومرسِيَة، ثم قصد هو طُليطلة ففتحها[٣].

٤ـ الفتح المشترك بين موسى وطارق :

أولاً: عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين الهجرية (حزيران ـ تموز ٧١٢م). ففتح موسى قبل لقائه بطارق شَذُونَة وقَرْمُونَة ورَعْواق وإشبيلية وماردَة ولَقَنْت وإسْتَجة. ومن الواضح أن هذه المدن كان قد فتحها لأول مرةطارق ابن زياد، فيبدو أنها قد انتفضت فأعاد موسى فتحها من جديد.

ثانياً: وبعد لقاء موسى بطارق، فتحا معاً بالتعاون بينهما: سَرْقُسطَة

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٥١١).

(٢) تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس (مخطوط) ص (٧٠) ـ علي بن عبدالرحمن ابن هذيل.

(٣) انظر تفاصيل هذه الفتوح في سيرة طارق بن زياد.

ووشْقَة ولارِدة وطَرمونَة وبرشلونة وجِلِّيقِية وقشتالة القديمة.

ثالثاً: وانقسم جيش المسلمين إلى قسمين: قسم بقيادة موسى، وقسم بقيادة طارق، ففتح طارق وحده أماية وأشرقة وليون، ثم عاد مع موسى إلى طليطلة في طريقهما إلى دمشق، حيث استدعاهما الخليفة.

٥ـ فتح موسى بن نصير :

أولاً: عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين الهجرية (حزيران ـ تموز = يونيو ـ يوليو ـ ٧١٢م)، ففتح موسى قبل لقاء طارق: شَذُونَة وقَرْمُونَة ورعْواق وإسْتَجَّة وإشبيليَة ومارِدَة ولَقَنت وطليطلة. ومن المعروف أن طارقاً سبق له فتح هذه المدن الأندلسية، فمن المحتمل أنها انتقضت، فأعاد موسى فتحها من جديد.

ثانياً: وبعد لقاء موسى بطارق، فتحا معاً بالتعاون بينهما سَرقسطة ووشْقَة ولارِدَة وطَرَّكونَة وبرشلونة وجِلِّيقِيّة وقشتالة القديمة.

ثالثاً: وافترق جيش المسلمين إلى قسمين: أحدهما بقيادة طارق، والآخر بقيادة موسى، ففتح موسى وحده: بلد الوليد وقلعة لُك وخيخون حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي، ثم عاد أدراجه إلى طليطلة مع طارق في طريقهما إلى دمشق، حيث استدعاهما الخليفة إلى دمشق.

٦ـ فتح مغيث الرومي :

بعد أن فتح طارق مدينة إسْتَجَّة بعث سرايا من جنده إلى عدة جهات، فبعث جيشاً بقيادة مغيث الرومي لفتح مدينة قرطبة، فاستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقة كبيرة.

٧ـ فتح عبدالعزيز بن موسى بن نصير :

وجه موسى بن نصير ابنيه عبدالعزيز وعبدالأعلى إلى جنوبي شرقي

الأندلس، وكان هذا بعد استعادة فتح إشبيلية، فاستطاع عبدالأعلى بالتعاون مع أخيه عبدالعزيز فتح مالَقَة وإلبيرة من جديد، ومن الواضح أن طارقاً سبق له فتحهما، فيبدو أنها انتقضتا، فاستعاد فتحهما عبدالعزيز وأخوه من جديد.

ثم توجه عبدالعزيز إلى المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد، فالتقى بالقرب من أُوريُولة بالدوق تُدمِير حاكم هذه المقاطعة، فصالحه على مدن المقاطعة كلها وهي: أُوريولة وبَلانَة ولَقَنت ومولَة وبِسْقَرَة ولُورقَة، فاستعاد المسلمون فتح مدن هذه المقاطعة صلحاً بموجب معاهدة[1].

وفي الوقت الذي كان موسى وطارق يقومان بالفتح في شمالي الأندلس، كان عبدالعزيز يقوم بفتح وسط البرتغال. فقد فتح يابُرَة وشَنْتَرين وقُلُمْرِيَّة، وقد فتح المدينتين الأخيرتين صلحاً.

٨ـ فتح عبدالأعلى بن موسى بن نصير :

وجه موسى بن نصير ولديه عبدالأعلى وعبدالعزيز إلى جنوبي شرقي الأندلس، وكان هذا بعد استعادة فتح إشبيلية، فاستطاع عبدالأعلى بالتعاون مع أخيه عبدالعزيز من فتح مالَقَة وإلْبَيرَة من جديد، ومن الواضح أن طارقاً سبق له فتح هاتين المدينتين لأول مرة، والظاهر أنها انتقضت، فاستعاد عبدالأعلى وعبدالعزيز فتحهما من جديد.

٩ـ فتح عبدالله بن موسى بن نصير :

في سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) وجه موسى بن نصير ابنه عبدالله لفتح جزيرتي مَيُورَقَة ومَنُورقَة، فاستطاع فتح هاتين الجزيرتين، وعاد إلى قواعدها في إفريقية سالماً غانماً[2].

---

(١) انظر نص المعاهدة في سيرة: عبدالعزيز بن موسى بن نصير في كتاب: قادة فتح الأندلس والبحار.

(٢) انظر التفاصيل في سيرة: عبدالله بن موسى بن نصير في كتاب: قادة الأندلس والبحار.

١٠ ـ فتح السمح بن مالك الخولاني :

فاتح شطر جنوبي فرنسة، وبخاصة مدينة أربونة .

عبرة الفتح

١ ـ التوقيت :

كان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، يفكر في إقفال المسلمين من الأندلس، إذ خشي تغلب العدو عليهم[(١)]، ولانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين[(٢)]، فقيل له : «إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقرّوا»، فعدل عن مشروعه، «وقالوا : وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار، إلاّ أن يستنقذهم الله برحمته»[(٣)]. ويبدو أن هذه الأمنية : «وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل»، سُجِّلت بعد حدوث ما حدث في الأندلس، أي بعد أن خسر المسلمون الأندلس، وخسروا كثيراً من أرواحهم وأملاكهم وكثيراً مما هو أغلى من الأرواح والأملاك.

لقد عبر طارق بن زياد إلى الأندلس فاتحاً في اليوم الخامس من شهر رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان ـ أبريل ـ ٧١١م)، واستقر حكم المسلمين في الأندلس ثمانية قرون، منذ فتحها بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير في تلك السنة، حتى سقوط غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة الهجرية (١٤٩٢م).

وقد مرت الأندلس، خلال تلك القرون بعدة عهود، تقلبت خلالها بين الضعف والقوة، وهذه العهود بإيجاز هي :

أ ـ عهد الفتح : الذي استمر نحو أربع سنين : ٩٢ـ٩٥هـ (٧١١ـ٧١٤م).

ب ـ عهد الولاة : من سنة ٩٥هـ ـ ١٣٨هـ (٧١٤ـ٧٥٥م)، ويعتبر قسم

---

(١) افتتاح الأندلس (١٢).

(٢) أخبار مجموعة (٢٣) ونفح الطيب (٢٤).

(٣) أخبار مجموعة (٢٣) ونفح الطيب (٣/ ١٥).

من المؤرخين عهد الفتح داخلاً في هذا العهد الذي ينتهي بقدوم عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م)، وقد حكم الأندلس في هذا العهد ـ الذي استمر نحو اثنتين وأربعين سنة ـ ١٩ والياً تقريباً، كانوا تابعين للخلافة في دمشق أو لولاية الشمال الإفريقي: (إفريقية والمغرب).

جـ ـ عهد الإمارة: من سنة ١٣٨هـ ـ ٣١٦هـ (٧٥٥ـ٩٢٩م)، ويبدأ من قدوم عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس، حتى إعلان الخلافة من قبل عبدالرحمن الناصر (الثالث) سنة ٣١٦هـ (٩٢٩م)، وقد أسس عبدالرحمن الداخل إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية، استمرت مائة وثمانٍ وسبعين سنة.

د ـ عهد الخلافة: من سنة ٣١٦هـ إلى سنة ٤٢٢هـ (٩٢٩ـ ١٠٠٩م)، ويبدأ منذ إعلان الخلافة حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) أو حتى الدولة العامرية في نهاية القرن الرابع الهجري (بداية القرن الحادي عشر الميلادي)، فكان عمر الخلافة نحو قرن من الزمان.

هـ ـ عهد الطوائف: من سنة ٤٠٠هـ ـ ٤٨٤هـ (١٠٠٩ـ ١٠٩١م)، وهو عهد دول أو ملوك الطوائف، التي سبقت أعوام الفوضى، وقد استمر هذا العهد نحو ثلاثة أرباع القرن، حتى دخول الأندلس سلطان المرابطين.

و ـ عهد المرابطين والموحِّدين: من سنة ٤٨٤هـ ـ ٦٣٣هـ (١٠٩١ـ١٢٣٥م) حيث دخلت الأندلس أولاً في دولة المرابطين التي تنتهي في حوالي ٥٤١هـ (١١٤٦م) أي أقل من نصف قرن وبعد مدة انضوت الأندلس لحكم الموحدين قرابة قرن من الزمان، ينتهي في حوالي سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م)، ويمكن اعتبارهما عهدين مستقلين[١].

ز ـ مملكة غرناطة: من سنة ٦٣٥هـ ـ ٨٩٧هـ (١٢٣٧ـ١٤٩٢م) حيث قامت دولة بني الأحمر واستمرت ما يزيد على قرنين ونصف القرن، حتى

---

(١) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ـ (٣٩ـ٤٠).

نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ويمثل سقوطها نهاية الحكم الإسلامي للأندلس وذهاب السلطان السياسي منها. وبقي ملايين من المسلمين، ولكنهم تحملوا عشرات السنوات الكثير من الاضطهاد وعمليات الإفناء التي أتت عليهم في النهاية قتلاً وتشريداً وإذابة، وكادت تأتي على كل ما خلفه المسلمون بأجناسهم من إنتاج حضاري رفيع شمل مختلف الميادين[1].

٢ـ أسباب النصر :

وكان تعداد جيش طارق بن زياد الذي عبر على رأسه من الشمال الإفريقي إلى الأندلس فاتحاً هو سبعة آلاف مجاهد، وكان تعداد جيشه في المعركة الحاسمة التي خاضها، فانتصر على القوط الغربيين، وقتل ملك إسبانيا القوطي لذريق، اثنى عشر ألف مجاهد، تكبّدوا في معركتهم الحاسمة ثلاثة آلاف شهيد[2]، أي ربع مجموع القوة الإسلامية الذين قدموا فاتحين.

واندفاع طارق بهذا العدد القليل من المجاهدين لفتح بلاد واسعة بالتغلب على دولة القوط القائمة لم يكن نزهة من النزهات الترفيهية التي تخلو من الأخطار والمعضلات الجسام، وانتصار طارق على القوط وفتح الأندلس ليس لأن القوط كانوا ضعفاء في جيشهم وقيادتهم، كما يحاول أن يزعم المستشرقون ويتابعهم عليها المستغربون، فالعكس هو الصحيح، لأن تقاليد القوط العسكرية وشجاعتهم معروفة حتى اليوم، كما أن لذريق ملك الأندلس كان من أبرز قادتهم وأكثرهم كفاية كما يقرر ذلك مؤرخو الأسبان المحدثون، حتى جعلوا منه بطلاً قومياً، كما أن ضعف أمة من الأمم لا يتيح الفرصة لغيرها أن تكون قوية متماسكة بدون مسوّغ، وما انتصر طارق ومن معه من المسلمين الفاتحين إلاّ لأنهم كانوا مجاهدين صادقين، قاتلوا قتال أهل العقيدة الراسخة

---

(١) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة(٤٠).

(٢) استفتاح الأندلس (٢٢٢) وأخبار مجموعة (٧) وتاريخ الأندلس (٤٧) ونفح الطيب (٢٥٨/١).

التي جعلت الجهاد فرضاً، وجعلت الشهيد حيّاً عند الله يرزق في الجنة في درجات رفيعة من درجاتها، كما أن طارق قائداً والمسلمين المجاهدين جنوداً، كانوا يشعرون أنهم ليسوا وحدهم في الميدان، بل هم في ضمان الإسلام ديناً، والمسلمين أمة، لا يمكن أن يتخلى عنهم المسلمون أبداً، فهم في ضمان المسلمين كافة وفي رعاية الله، لذلك كان إقدامهم فذاً عجيبا، وانتصاراتهم مذهلة مدهشة، بكل المقاييس العسكرية المعروفة.

هذا هو سبب انتصار طارق ورجاله: انتصروا بالإسلام والمسلمين، فما ينبغي أن ننكر هذا السبب في دراستنا، مجاملة لأعداد العرب والمسلمين، أو خشية من أحد، لأن الحق أحق أن يُتَّبع وأن يُدوّن وأن يُصرّح به وأن يُدافع عنه.

ومن المعلوم، أن الجيش الذي يقاتل في ساحة من ساحات العمليات، وهو يعلم علم اليقين، أن مصيره جماعات وأفراداً، لايهم ذوي قرباهم من المسلمين فحسب، بل يهم المسلمين كافة في أرجاء الوطن الإسلامي، من الخليفة المسئول الأول في المسلمين، إلى أصغر فرد من أفراد المسلمين، وأن مصيره لا يغيب عن أذهان المسلمين كافةً، كما لا يغيب عن أذهان أهليهم الأقربين، هذا الجيش الذي يقاتل بضمان المسلمين جميعاً، ليس كالجيش الذي يقاتل بدون ضمان ولا تضامن، فالأول يقاتل بمعنويات عالية جداً تتناسب مع ضمان المسلمين له وتضامنهم معه، والثاني يقاتل بمعنويات منهارة، لأن مصيره ليس موضع اهتمام أحد من المسئولين وغير المسئولين، كالشجرة بدون جذور، أو كالبناء بدون أُسُس، تنهار الشجرة، وينهار البناء اليوم أو غداً، ولا يقاوم العواصف والهزّات.

وكان للفتوحات الإسلامية بدون استثناء حافزان لا ثالث لهما: الأول هو الحافز الديني، المتمثل بالجهاد والدعوة إلى الله، فقد كانت الفتوحات فتوحات عقيدة. أما الحافز الثاني فهو حافز عسكري، وهو الدفاع عن البلاد المفتوحة، بفتح البلاد التي يكمن فيها أي خطر على مصير تلك البلاد، فكان

فتح الأندلس هو لحماية شمالي إفريقية من خطر يتهددها من الأندلس في الحاضر أو المستقبل، حتى لا تصبح قاعدة للعدو ينطلق منها لتهديد الشمال الإفريقي. وقد ثبتت سبتة أمام المسلمين بمعاونة من ملك الأندلس في حينه كما هو معروف[١].

أما مايردده المستشرقون ويصدقه المستغربون من أن: إسبانيا في السنوات الأخيرة التي سبقت الفتح العربي، عانت من الفوضى والارتباك في الدولة القوطية، نتيجة اغتصاب العرش من قبل لذريق، حيث واجه وضعاً داخلياً سيئاً للغاية، فقد كانت الدولة بحاجة ماسة إلى الأموال، للقضاء على الفتن وحركات التمرد المعادية، لا سيما في منطقة الباسك. لهذا فقد استولى لذريق على خزائن أسلافه في كنيستي سان بيدرو (San Pedro) وسان بابلو (San Pablo) في طليطلة، مما سبب استياء رجال الدين. ويمكن القول بشكل عام، إن إسبانيا، كانت تعاني من مشاكل سياسية واجتماعية كبيرة قُبيل مجيء العرب إليها، وإن جيشها لم يكن بحالة تسمح له بالوقوف أمام الجيش العربي الإسلامي[٢]، ومثل هذه التخرصات لا يصدقها أحد، لأن لذريق كان من أقوى قادة القوط وأقدرهم، وقد قضى على التخلف والانحلال باستيلائه على السلطة الضعيفة. كما أن ضعف دولة من الدول، لا تتيح الفرصة لغيرها من الدول أن تكون قوية وقادرة على الفتح. وما كان العرب ولا غيرهم من المسلمين كالبربر يطمعون بحماية أنفسهم من القوط قبل أن يصبح البربر مسلمين، فأصبحوا قوة قادرة بالإسلام وبروح الجهاد الذي بعثه الإسلام في نفوسهم. فإذا كان المستشرقون بروحهم الصليبية والصهيونية يهدفون إلى التقليل من شأن أثر الإسلام في الفتوح والنصر، لأسباب لا يجهلها أحد، فما

---

(١) سيرد تفصيل ذلك في سيرة طارق بن زياد، كما ورد في سيرة موسى بن نصير، انظر قادة فتح المغرب (١/ ٢٣٦).

(٢) E. Saavedra, Estudio Sobre la invasion. De las en Espana, Madrid, 1892, pp. 40-43.

ينبغي للعربي المسلم أن يردد مزاعم الصليبيين والصهاينة، لأنها مزاعم مغرضة أولاً وخاطئة ثانياً وغير واقعية ثالثاً، و لاتستقيم مع مناهج البحث العلمي رابعاً وأخيراً، والعربي المسلم أحرى بالدفاع عن أمته بالحق، ولا نريد من أحد أن يدافع عن أمته بغير الحق.

حضارة العرب والمسلمين في الأندلس

١ـ الجذور :

لاشك في أن كثيراً من الغربيين، يحملهم التعصب الأعمى على إخفاء محاسن حضارة العرب والمسلمين في الأندلس، ولاسيما الحضارة الكبرى التي أوقدوا مصابيحها لأول مرة في أوروبا. ولم يقتصروا على ذلك، بل أخذوا يختلقون سيئات وينسبونها إلى العرب سادتهم وأساتذتهم طوال ثمانية قرون. وسنلخص كتاب: (حضارة العرب في الأندلس) للعالم الشهير والمؤلف الكبير: جوزف ماك جب Joseph MacCabe الذي ألف (٢٥٠) كتاباً وألقى ألوفاً من المحاضرات، وسافر إلى شتى أنحاء العالم، وأتقن عشر لغات، حتى جعله الأمريكيون أكبر عالم في الدنيا، لأن المؤلف مسيحي وعالم، فلا يمكن أن يتهم بدينه ولا علمه.

ذكر المؤلف المنصف: أن القرون الطوال التي اتسمت بها هذه المدنية المحمدية من البرتغال غرباً إلى السند شرقاً، قد وصلت في القرن الرابع عشر عند العرب إلى المستوى الذي كانت قد وصلته الحضارة اليونانية والرومانية إن لم نقل إنها فاقتها. فقد ارتقى النوع البشري في إسبانيا خلال قرون عديدة إلى أعلى درجات الهناء والغبطة والسعادة والشغف العام بكسب العلوم والفنون، والإحسان إلى البؤساء، وترقية الفنون والتهذيب، ولعله إلى هذه الأيام، لم تطلع الشمس على أمة أسعد ولا أهنأ ولا أرغد عيشاً ولا أكثر رغبة في التمتع بالجمال والعلوم والأعمال المجيدة من عرب الأندلس. ولا مراء

في أن مؤرخينا ـ يقصد مؤرخي الغرب ـ لا يبسطون القول في هذا الفصل الذي هو أهم فصل في التاريخ لأسباب أربعة: أولها: إن حال إسبانيا وصقلية والشرق من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، هي نقيض لحال أوروبا النصرانية والقذرة إلى حد لا يتصور. والثاني: مع أن العرب، ابتدأ رقيهم من درجة متوحِّشة مثل القوط والفندال، فقد شجعهم بقايا مدنية اليونان والفرس على أن يشيدوا مدنية زاهية في أقل من قرنين، بينما سكان أوروبا تحت سلطان (البابوات) مضت عليهم سبعة قرون قبل أن يصلوا إلى درجة هي أدنى بكثير من مستوى العرب والمسلمين. والثالث: أن هؤلاء العرب الذين شيدوا هذه الحضارة الزاهرة، كانوا من المتسامحين في الدين، ولم يكونوا من المتعصبين. والرابع: أن حضارة أولئك العرب، كانت مقدمة للتجديد والتقدم الذي نحن فيه اليوم. إلاّ أنني أختصر القول هنا، فأقول: إن هذه الحضارة هدمها المتعصبون من نصارى إسبانيا في الأندلس، ثم يقول: لقد مضى ألف سنة إلا قليلاً، على الناس، بعد اندراس مدنية العرب في الأندلس، قبل أن يوجد كتاب يستحق إضاعة الوقت في قراءته، وبعبارة أخرى، كانت للعرب في زمان مجدهم كتب قيمة، فلما مضوا وأُحرق أكثر تصانيفهم، بقي للناس ألف سنة تقريباً، لا يجدون كتاباً يستحق أن يُقرأ، وقد قال ستوارت في كتابه: (تاريخ الآداب العربية): كان في الأندلس ألفا ألف مصنّف، ولم يصلنا من كتبهم إلاّ شيء قليل.

وقال المؤلف في كتابه: (الأخلاق): كان في المملكة الإسلامية طوائف عشرين ديناً منقسمين إلى مائة مذهب، وكلهم كانوا يعيشون بسلام وتسامح. والخراج القليل الذي كان يُفرض على غير المسلمين، كان في الحقيقة مدداً لبيت المال، ولم يكن يُقصد به التعالي عليهم وإهانتهم. والخلفاء كانوا يعلمون كيف كان النصارى يُعاملون المنحرفين من الدين في أوروبا، فحقّ لهم أن يفخروا بأنهم أفضل وأعدل ملوك الأرض.

وقال في الجزء نفسه بصدد البحث في تاريخ المسلمين بمصر: وبعد بضع

سنوات من فتح المسلمين للإسكندرية، ثار أهلها وشقّوا عصا الطاعة، فاضطر العرب إلى هدم جانب من تلك البلدة الجميلة، ولكن حتى مؤرخي النصارى الحاضرين، يعترفون بأنهم لم يقصدوا بذلك تخريباً وانتقاماً، وإنما ألجأهم إليه المحافظة على البلدة. أما الرواية القائلة بأن العرب وجدوا من بقايا خزانة الاسكندرية كتباً كثيرة، فأخذوا يوقدون بها أتاتين الحمامات مدة ستة أشهر، فالمؤرخون اليوم يرون ذلك حديث خرافة. ولم توجد هذه الرواية في كلام أي مؤرخ إلاّ بعد مضي ستة قرون من فتح مصر. وقد بحث بتلر (A.J. Butler) بحثاً دقيقاً في هذه المسألة، في كتابه: فتح العرب لمصر، وختم كلامه بأن هذه الرواية أسطورة حقيرة، وليس لها أساس تاريخي البتّة. وذكر ستانلي بول هذا الكلام نفسه في الجزء السادس من كتاب: تاريخ مصر، تأليف فليندرس بتري (Flinders Petrie): وليس هناك بيِّنة على أنه كانت بالأسكندرية خزانة كتب عمومية في ذلك الزمان، والظاهر أن النصارى كانوا قد أحرقوا جميع الكتب وأتلفوا ما بقي منها تدريجياً في مدة طويلة قبل ذلك بزمان.

وقال المؤلف ماك جب: لا أعتقد أن الرق كان من سيئات العرب، لأن عبيدهم كانوا من أسعد حظّاً من معظم سكان أوروبا. وإذا علمنا أن النصرانية لبثت ثمانية أو تسعة قرون تذمّ الرق، ثم باركت على استرقاق السود، فكيف تنتظر من العرب أن يبطلوا الرق في ثلث تلك المدة؟

وقال المؤلف: ولست الآن بصدد التحقيق في آداب العرب في النكاح، ولكني من حيث أنا مؤرخ في الأخلاق، أستنكر ما يقوله بعض مَن لم يحقق الأمر من عامة المؤلفين، فذكروا أن العرب كانت أخلاقهم في تلك الناحية فاسدة، وأنهم كانوا فاسدين هادمين لصلاح المجتمع، فإن الحقائق التاريخية تكذِّب هذا القول، وكل كتاب معتبر في الحضارة العربية، بل حتى الفصول القليلة من تاريخ القرون الوسطى المطبوع في كمبرج، تشهد أن العرب كانوا يعطون الحياة حقّها، وكانوا خير أمة أخرجت للناس، من أوّل التاريخ إلى

الآن. وإذ قد عرفت أخلاق العرب، واعتدالهم في أمور النكاح، فدونك لمحة تبين لك أخلاق رجال الكنيسة، فضلاً عن غيرهم من الأوروبيين في ذلك الزمان: إن عمل قوم لوط كان شائعاً في ذلك الزمان في جميع أنحاء أوروبة. وفي أواسط القرن الحادي عشر، رأى الكردينال بطرس داميان أن اللِّواط شائع بين القسيسين والرهبان في إيطاليا، وبلغ الأمر في أنه ألف كتاباً في ذلك وأرسله إلى البابا (ليو التاسع) والتمس منه أن يتدارك ذلك الأمر، ويأخذ في قطع ذرائعه وأسبابه، يستغيث به أن يعاقب كل راهب أو قسيس، يثبت عليه اللواط، بحلق رأسه والبصاق في وجهه وحبسه في غرفة مظلمة، ولما وصل كتابه إلى البابا، تقبله وأظهر الارتياح به، إلاّ أنه رأى ألاّ يبلغ العقاب بأولئك الفسّاق إلى الحد الذي أقترحه الكردينال المذكور، ولكن بما هو أخف وأليق بالرحمة والشفقة، فبقيت تلك الفاحشة جارية كما كانت، واسم كتاب داميان الذي أهداه إلى البابا: (عمورية) وهو اسم قرية قوم لوط. وفي كتاب داميان ما هو أدهى وأمرّ، مما يدل على تمام الهمجية، وهو الزنا بالمحارم، وأنه كان شائعاً هناك أيضاً.

قال المؤلف: لقد أطلقت لفظ: (العصور المظلمة) كسائر المؤلفين في كتابي هذا، على أكثر عصور الممالك النصرانية انحطاطاً على العموم، وخصوصاً القرن العاشر المسيحي. تنصّرت الممالك الأوروبية قبل ذلك بأربعة قرون أو بخمسة قرون أو ستة قرون تقريباً مضت من يوم تغلب (البابوات) والأساقفة على إدارة الملوك، وحملوهم على إبادة كل مصادر الإلهام يخالفهم أو يباريهم، فأغلقوا المدارس والمعابد، وقضوا على العلم والأدب، وإذا استثنينا بعض المواضع في أوروبة كالبندقية، إذ كان فيها بقية تافهة إصلاحية من علم اليونان تخفِّف من شرّهم وهمجيتهم، فإن أوروبا كلها كانت في ثباب وخراب اقتصادياً واجتماعياً وعقلياً. ومن ذلك الزمان أطلق الأساقفة والقسيسون والرهبان والراهبات الأعنّة في الدعارة والشهوات البهيمية، ولم يكونوا في ذلك الزمان يتسترون حتى بجلباب النفاق. ولو أن

غنياً من أصحاب الملايين من أهل هذا العصر كان في ذلك الزمان، لقدر أن يشتري مملكة بأسرها، وكان تسعة وتسعون بالمائة خدماً يعاملون بأقسى ما يعامل به العبيد، ولم يكن ولا واحد في المائة من الرجال، ولا واحدة بالألف من النساء، يقدر أن يقرأ، وكان الضعيف مضطهداً مقهوراً مسحوقاً تحت الأقدام مسحوقاً في الطين والدم، بل حتى القوي كان مهدداً بالأوبئة الوافدة والسيوف اللامعة على الدوام والنجوم ذوات الأذناب في السماء وجنود العفاريت الهائلة في الهواء.

كذلك إن أردت أن تعرف أفكار النصرانية الاجتماعية، فادرس القرن العاشر، فلا زخارف أقوال الواعظين، ولا كذب المعتذرين، ولا الإذعان السياسي من المؤرخين، يقدر أن يخفى عن ذوي الألباب عظيم تبعة الكنيسة، ولاسيما البابوية، في ذلك الزمان، الذي بلغ فيه الانحطاط إلى دركة لا نظير لها. وإنه لفصل من أشد فصول البشرية شقاءً وحزناًمن الفصول التي استشهدت فيها الإنسانية. لقد حطّم بول من ناحيـة وأوغسطين من ناحية أخرى مدنية الإنســان، فهل هذا هو الذي سـميناه ـ بعيدين عن اتِّباع الهوى ـ مدنية الله؟

لقد فازا في جميع بلاد أوروبا إلاّ زاوية واحدة، ألا وهي جزيرة إيبريا (الأندلس) التي نسميها اليوم إسبانيا والبرتغال، فقد أزيل الصليب من تلك الأرض في ابتداء القرن الثامن، وحكمها المسلمون. أجل قد بلغت رايات العرب المطرّزة المحمولة مع متن القرآن ظافرة تجتاح جبال (البرت) وتتألق في شمس جنوبي فرنسة، وصارت الممالك النصرانية مهددة، والمدرسون الأغمار ـ يقول المؤلف النصراني ـ في مدارسنا العالية، لا يزالون يقولون للأطفال الأغرار، ناقلين من مختصرات كتيبات التاريخ غير النزيهة، ويطنبون في مدح (شارل مارتل) الظافر حين لقي العرب في سهول فرنسة، وصدّهم عنها وحفظ العالم من المدنية.

إذ لا يوجد في الدنيا مدرس في جامعة أو مدرسة، يتجرأ أن يقول لتلاميذته

ما يعرفه كل مؤرخ، أن العرب أقاموا حضارة من أعظم الحضارات العالمية، وأن شارل مارتل وجنوده كانوا لصوصاً متوحشين برابرة، وأن عرب الأندلس لو نجحوا في فتح أوروبا، وأقاموا فيها قرنين، وأقاموا فيها مدنيتهم كما فعلوا بإسبانيا، لكنّا الآن متقدمين خمسة قرون أكثر مما نحن عليه اليوم، ولا يستطيع عادٌّ أن يعدّ مقدار الدماء والدموع والفاقة والعدوان التي سبَّبها ذلك الظفر المبين، الذي ناله شارل مارتل في سهول فرنسة الجنوبية. وربما تتعجب إذا قيل لك: إنه يجب أن يضم درس حضارة العرب في الأندلس إلى دروس الدين ونشوء الإنسان وارتقائه، وسينقضي عجبك سريعاً جداً متى علمت أنه يثمر لنا درسين حيويين مهمين الأول: إنه من الباطل، أن يقال في أي بقعة من بقاع أوروبا، إنها لم تقدر أن تعود إلى المدنية بسرعة، لأن الدول الرومانية قد سحقها الغزاة البرابرة من أهل الشمال تحت أقدامهم: والثاني، إن البعث الحقيقي للحضارة الأوروبية لا علاقة له بدين النصرانية، بل هو عدوّها المبين.

قبل سنوات وقفت على جسر قرطبة، وفكرت في ذلك المنظر المحزن للهيكل العظمي لقرطبة التي أصبحت قرية في سكانها البائسين وشوارعها الضيقة القذرة ونهرها القذر. سكانها أقل من مائة ألف نفس، في بيوت بالية وفقر شديد، بينما كانت قبل ألف سنة أعظم مدنية في الأرض، يقارب سكانها مليوناً من النفوس السعيدة المغتبطة، وكانت لهم ثروة يمكن أن تشتري بها الممالك الأوروبية النصرانية مراراً، مع أميال معمورة بقصور المرمر القيمة، تلمع بين الحدائق البهيجة، ممتدة أمام ذلك النهر. وكانت فيها العلوم والفنون التي جذبت الناس إليها من كل ناحية من نواحي الدنيا، حيث كان العلم والفن يقدران حق قدرهما.

كان الرومان قد مدَّنوا إسبانيا وبريطانيا وفرنسة وجنوبي ألمانيا وإيطاليا، أولئك الذين كانوا محرومين من الوحي، شهوانيين، فجّاراً، ماديين، جعلوا من أبنائها الأولين أمة مهذّبة أرقى ـ بلا حدود ـ من أيّ أمة من أهل الممالك

النصرانية بعد ألف سنة، وأنت إلى الآن تمشي في طرقهم المعبّدة وتعبر على قناطرهم في إسبانيا، وهذه المدنية الرومانية الإسبانية، قد سحقتها القبائل التيوتونية تحت أقدامها، مثلما سحقت فرنسة وأشد مما صنعت بإيطاليا، لقد زلزلها الفندال المتوحشون، وحكمها القوط الغربيون وسكنوها، وكما يقول سكوت (ميخائيل سكوت Michal Skot): «لم تترق أمة قط تحت حكم الرئاسة الدينية، وأن تقوى القسيسين الروحية، قد قضى عليها تعطشهم الشديد إلى التسلط والاستبداد في الحكم على البلاد وأهلها (الفصل الأول ص ٣٦٣)». وستانلي لين بول (Stanly Lane Poole) لم يجد بداً أن يعترف بمثل ذلك في كتابه: العرب في الأندلس (ص ٧٠) فقال: «لاشك في أن القوط كانوا متعبدين، إلاّ أنهم كانوا يرون أن عبادتهم تكفِّر ذنوبهم، وكانوا في الفسق مثل أشراف الرومان الذين سبقوهم. وحتى القسيسون الذين كان يعظون ويحضّون الناس على الأخوة المسيحية ـ حين صاروا أغنياء، وملكوا الضياع ـ اتبعوا السياسة المأثورة في الجور، فصاروا يعاملون عبيدهم وخدمهم أسوأ معاملة، كما كان يعمل أشراف الرومان قبلهم».

وهذه صورة إسبانيا في القرنين السابع والثامن. ولما استوطن القوط الغربيون إسبانيا في القرن الخامس، أظهروا على الفور، أن قوة التيوتونية البربرية إذا تزوجت بثقافة الرومان، تتولد منهما مدنية جديدة، وذلك يبطل الرواية المزعومة: أن النصرانية لأجل أن تمدِّن البرابرة يلزمها زمان طويل. والذي يبطل الشطر الثاني من تلك الرواية، وهي أن النصرانية كانت قوة ممدِّنة، هو أن القوط الغربيين وكنيستهم جميعاً سقطوا إلى حضيض الجهل والرذائل والجور كسائر بلاد أوروبا خلال قرنين.

والآن، دعنا ننظر من أين جاءت القوة الممدِّنة حقيقة. كانت بلاد العرب بكراً لم تُفتح ولم تمدّن قط، حتى أواخر القرن السابع، فجاء محمد عليه الصلاة والسلام، فأوقد نيران الحماسة الدينية في بلاد العرب بدينه الجديد، فبعث في العرب نشاطاً عجيباً، فانطلقوا يفتحون البلدان، ويدخلون الناس في

دينهم في أرجاء العالم. وفي وقت قصير جداً، استولوا على المدنيتين القديمتين الفارسية والمصرية، ولم يمض عليهم زمن طويل، حتى أنشأوا مدنية عربية إسلامية. وكما قال سكوت: «لم يكن بين الهمجية والجهالة الصحراوية وبين الاستقرار والثقافة العقلية في عواصم الأمويين والعباسيين إلاّ أقل من مائة سنة. وكان العرب في الخشونة وعدم التهذيب الثقافي مثل التيوتونيين، ولكنهم لما استولوا على المدنية القديمة صاروا متمدنين تماماً خلال قرن واحد. ولكن ينبغي لنا أولاً أن نعلم، كيف صار هؤلاء العرب المحمديون (موراً) ودخلوا أوروبا، بعد ما فتح العرب مصر، كانوا لا يزالون متعطشين إلى الفتح، فولّوا وجوههم تارة أخرى شطر الغرب، وواجه أبناء العرب الصحراء فلم ترعهم ولم يعبثوا بها، ولكن البحر أفزعهم، وقد سمعوا أن وراء الصحراء أرضاً خصبة زكية التربة، تونس والجزائر ومراكش، التي عمرها القرطاجيون والرومان وجعلوها غنية، ولذلك توجّه أحد القواد العظام في (٢٠٠٠٠) من الخيل والركاب سنة ٦٤٦م وتوغلوا في مجاهل الصحاري، فاجتازوا مسافة ألف ميل من الأرض على شاطيء إفريقية الشمالية، وفي نحو نصف قرن، حكم العرب الشاطيء الجنوبي للبحر الأبيض كله، وطمحوا بأبصارهم بنهمة وشره إلى أراضي الشاطيء الشمالي الغنية.

واستوطن بعضهم مع المور ـ البربر السود ـ كما يزعمون، والحق أن البربر بيض بياضاً قاتماً وليسوا سوداً. في الشاطيء المقابل لجبل طارق، ولا شك أنهم تزوجوا منهم، فلذلك صاروا يعرفون عند الأوروبيين بالمور ، والقلعة الحصينة التي كانت في الشاطيء الأوروبي حركت رغبتهم، وكانت بيد قائد يوناني يدعى يوليان، تحت حكم إمبراطور الرومان إسمياً. وفي سنة ٧٠٩م أو ٧١٠م صار يوليان حليفاً للمور. ويحكى أنه أرسل ابنته إلى قصر ملك القوط الغربيين فاعتدى الملك على عفافها، فاستشاط لها يوليان، وعزم على الانتقام، فدعا أمير العرب إلى العبور إلى الشاطيء الأوروبي وفتح إسبانيا، ووصف له الكنوز والأموال المدهشة التي في قصر ملك القوط وكنيستهم

وصفاً شائقا، وأوضح له أن بلاد إسبانيا في انحطاط فلا تحتاج فتحها إلاّ إلى قليل من الجنود والعتاد.

وفي سنة ٧١٠م بعد بعثة استطلاعية، جهّز العرب قائداً بربرياً ومعه (٧٠٠٠) جندي، ثم أمدَّه بخمسة آلاف فارس من البربر، وقبل انتهاء سنة ٧١١م، تم للعرب فتح شبه جزيرة إسبانيا، وانحصر بقية الجنود القوطيين والأشراف والقسيسين في بقعة جبلية صغيرة على خليج بسكاي، وصعد العرب على جبال البرات، وبنوا عليها سلسلة من القلاع ليحصنوا أنفسهم من سكان فرنسة، الذين كانوا في نظرهم غريبي الأطوار متوحشين، وبمرور الزمن، فتحوا جنوبي فرنسة. ولما وصلت أخبار هذه الفتوح وما فيها من الغنائم والأراضي الخصبة إلى الشرق، جذبت خلقاً كثيراً من العرب والبربر للالتحاق بإخوانهم في الغرب. وبعث الخليفة من دمشق والياً استعمله على بلاد الأندلس، ومعه أربعمائة من أشراف العرب، فتجدد في العرب التعطّش إلى الازدياد من الفتح. وفي وقت من الأوقات، كان في بلاد فرنسة مائة ألف جندي من العرب، يجوسون خلال ديارها ويدوِّخون أهلها. وفي ذلك الوقت كانوا قد بلغوا درجة عالية من التمدن والرقي. وقد رحّب أهل جنوبي فرنسة بهؤلاء الفاتحين، ورأوا فيهم رُوماً جُدداً بالنسبة إلى الفرنج والجرمانيين الشماليين المتوحشين. ولا حاجة للإطناب في إخفاق العرب وعدم تقدمهم في أوروبا، الذي يُسمَّى في أكثر المدارس الغربية انتصاراً للتمدن والنصرانية، وهذه تسمية خاطئة مائة في المائة. وبأي شيءٍ عاد إلى أوروبا من وبال، بل الأجدر بنا أن ننظر في الخطة التي سار العرب عليها في إسبانيا نفسها، حتى أوصلوها من الرقي إلى درجة جعلت بقية أوروبا بالنسبة إليها همجية متوحشة، ولكن قبل أن نتجاوز هذا المقام، ينبغي أن تعرف أن حضارة العرب وتهذيبهم تركا أثراً خالداً في أهل جنوبي فرنسة، فبقوا قروناً طويلاً متصلين بالعرب من الوجهة الثقافية. فثنايا جبال البرانس كانت أول مصدر من مصادر الإلهام لأوروبا البربرية. ولم يلبث أهل جنوبي فرنسة أن

صاروا في بلهنية العيش والرفاهية، وفشا فيهم الإلحاد والانحراف عن الدين، وليست حرارة الشمس فقط هي التي جعلت سكان أرض جنوبي فرنسة المثل الأعلى في جودة الغناء والطرب.

ونعود إلى الأندلس، فنقول: إن الخليفة في دمشق، هو الذي يولي الولاة والحكام في الأندلس، وكان هؤلاء الولاة من شعب قد سار شوطاً بعيداً في المدنية، وكانوا دوماً ينفذون أوامر الخليفة، فشكّلوا على الفور الدوائر المدنية والسياسية والنظام الزراعي. ولم يجد العرب إغراقاً فيما سمعوه من عظمة الكنوز الملكية والكنسية، فوجدوا في طليطلة قاعدة ملك القوط الغربيين مقداراً هائلاً من الذهب واللؤلؤ. على أنه من المحقق أنهم إلى ذلك الوقت لم يقعوا على الكنوز العظيمة التي كانت مخبّأة تحت الأرض، حيث دفنها القسيسون عند فرارهم. هذو وقد أخذ الفارون الأولون -ومنهم الأسقف- معهم كثير من الأموال المنقولة، ويروى أن جنود العرب، وجدوا طائفة من رجال الكنيسة فارين، ووجدوا عندهم كرسياً يوضع عليه الكتاب المقدس، وكان ذلك الكرسي من الذهب الصلب الخالص مرصعاً بالياقوت الزعفراني والياقوت الأحمر والزمرد واللؤلؤ يساوي نصف مليون دولار، مع أن النقود في ذلك الوقت كانت تساوي عشرة أضعاف ماتساويه اليوم.

لكن مدنية العرب في الأندلس التي بلغت أوج الرقي، إنما أُسست على الحالة الإقتصادية السليمة في تلك البلاد نفسها. ولايتسع المقام هنا لذكر تاريخ العرب، فكتاب (س. ب. سكوت) المرسوم: «تاريخ المملكة (الإمبراطورية) العربية في أوروبا ١٩٠٤م»، يخبرنا بما شاء من ذلك في دقة وانسجام مع ذكر الأدلة، ولكنه كبير في ثلاث مجلدات ضخام، فلم تزل الحاجة إلى تأليف كتاب مناسب في الحجم، واف في بيان عظمة العرب التاريخية، وكتاب (ستانلي لين بول)، المسمى: «العرب في إسبانيا ١٨٩٥» في سلسلة: (أخبار الأمم) تأليفٌ قوي الحجة جيد، ولكنه على طريقة المؤرخين في ذكر ملاحم الملوك ونوادرهم. وكتاب شارلوت نونج: «أخبار

النصارى والعرب في إسبانيا ـ ١٨٧٩»، هو أيضاً تأليفٌ نفيس بأسلوب عالٍ، يدلّنا على أن المرأة النصرانية حتى هي أيضاً تأثرت بما كان للعرب من مدنية وحضارة. وكتاب واشنطون رفنج الذي الذي أدى خدمة جليلة في استمالة الناس إلى هذا العنصر الحي في نشوء المدنية يُقرأ الآن، وهو معدود من أحسن المصادر الأدبية. وأما فنونهم وما بقي من مدنيتهم، فَكُتُبُ كالقْرت الموسومة: «آثار العرب في إسبانيا» وكتاب: «الحمراء»، وكتاب: «قرطبة»، وكتاب: «طليطلة»، وكتاب: «إشبيلية» وغيرها أفضل وأنفع ما كتب في ذلك. وكتاب دوزي: «الإسلام الإسباني»، نشر بالإنجليزية عام ١٩١٣م، ومع أنه من أوائل ما نشر من الكتب الحديثة، فلا تزال قيمته عند الناس عظيمة، وهو مع ذلك كتاب كبير، ولعل تأليف: لين بول (العرب في إسبانيا) وتأليف كالقرت: (آثار العرب) أسهل تناولاً وأكثر مناسبة، وأوصي بقراءتهما من يريد أكثر مما تسع هذه النبذة الصغيرة.

ولست بصدد ما يسمى: التاريخ، إذ حدثت في مدة من الزمن اضطرابات في الأمور، وكثر عزل الولاة وتبديلهم بغيرهم. واشتد فيها التحاسد والتنافس، وفسدت سيرة الخلافة في دمشق، فكثر تدخلها في أمور الولاة، فوقعت فتن عظيمة بين البربر والعرب الذين جنوا ثمرات الفتح، وكانت تقع غزوات بين قبائل العرب الذين جاءوا من مختلف البلدان، وآخر الأمر ظهر هناك شاب عربي من ذرية الخلفاء سنة (٧٥٦م)، فقبض على زمام الأمور، واتخذ قرطبة عاصمة له، وجعل نفسه أميراً وكان في الحقيقة ملكاً لمملكة العرب في إسبانيا، وهذا الأمير والأمراء الثلاثة الذين جاءوا من بعده، هم الذين أسسوا هذه المدنية التي نحن بصدد شرحها.

٢ـ العرب في أوج مجدهم:

عظمة غرناطة التي هي أشهر مدن العرب في الأندلس اليوم، يرجع عهدها إلى زمان متأخر جداً، وسنبحث الآن في مدنية العرب التي كانت في أواسط

القرن العاشر الميلادي، وكانت أوروبا في ذلك الزمان، قد بلغت الدرك الأسفل في الانحطاط. وكانت روما متلوّثة برجس الفساد، وكانت الجهود العظيمة التي بذلها شارلمان لإصلاح قسم كبير من القارة المذكورة قد خابت، وكانت فرنسة نهباً مقسماً لغارات قبائل الشمال، كما كانت إنكلترا كذلك تعاني من غارات الدانماركيين عليها، وكان القسيسون في كل بلد يعيثون فساداً، ولا يبالون مثقال ذرة بما نسميه: مدنية. أما إسبانيا، فكانت بخلاف ذلك، كانت مزدهرة بالعمران، وكانت حديقة تفوق الوصف في النتاج، وكان فيها تسعة من أمهات المدن، ثلاثة آلاف مدينة متوسطة، وعشرات الألوف من القرى. وكان على شاطيء نهر الوادي الكبير فقط إثنا عشر ألف قرية. ومع أن السير في ذلك الزمن لم يكن سريعاً، فقد قال المؤرخون: كان السائر في بلاد الأندلس لا يسير مسافة يوم، إلا ويمرّ على ثلاث مدن، وأما القرى فكانت لا تنقطع تقريباً، وكانت على أحسن حال من العمران، ومدينة قرطبة عاصمة ملكهم، كان عدد سكانها لا يقل عن مليون نسمة. وإشبيلية في وقت من الأوقات تحوي خمسمائة ألف نفس، ومدينة المرية خمسمائة ألف نفس أيضاً، وكان في غرناطة أربعمائة وخمسة وأربعون ألفاً، وفي مالقة ثلاثمائة ألف نفس، وفي بلنسية مائة وخمسة وعشرون، وفي طليطلة مائتا ألف.

ويقدر مجموع سكان الأندلس بثلاثين مليوناً، وزيادة السكان بهذا القدر العجيب، هي في حدّ ذاتها دليل على الدرجة العالية التي وصل القوم إليها من المدنيّة. وقد علم من الاستقراء، أن السكان إذا كانت صحتهم جيدة، وتدبير الصحة سائراً على أحسن حال، فإن عددهم يضاعف في ربع قرن. وهذا يدلّك على ما عمل العرب من الأعمال الجليلة، وتبين لك كيف أفسد الأسبانيون تلك الأعمال من بعد ونقضوها. وإذا علمت أن سكان إسبانيا في القرن العاشر بلغوا ثلاثين مليوناً، فيجب أن يبلغ اليوم مئآت الملايين، فاعلم أنه اليوم لا يزيد عن اثنين وعشرين مليوناً. فرقم ثلاثين مليوناً في القرن

العاشر، برهان ساطع على ما كان للعرب من العلم والحكمة. وخذ مثلاً انكلترا، فإن سكانها كانوا إذ ذاك مليونين أو ثلاثة. وكانت العناية بترقية الزراعة أساساً لعمران الأندلس.

والناس الذين لم يروا أسبانيا قط، يرون فيها رأياً مبهماً غامضاً، أغلبه مأخوذ من الروايات ورقوق الخَيَالة: أنها أرض خصب، خضرة نضيرة وازدهار دائم، وغناء وعشق لا ينتهيان. والأندلس، هي الناحية التي استوطنها العرب، إذ لم يهتموا كثيراً بالناحية الشمالية ـ لها صيت ذائع في ابتهاج القلوب وقرّة العيون والهوى العذري والورد وآلات الطرب، وهذه شهرة لا تستحقها. وأنا أحب الإسبانيين، فيمن أحبه من الأقوام الذين سحت في بلادهم، ولكن الطرب ليس من شمائلهم، وليست الأندلس أرض عشق وأزهار وغناء، وإسبانيا اليوم في بؤس وشقاء، مصابة بداء القسيسين، تحكم حكماً مرذولا، ترى في أرياضها في أكثر أيام السنة زربيّة محترقة رقيقة من النبات، والفلاحون المجهودون بكل مشقة يحصلون معيشة ضنكاً من الأرض، ومتى زالت منها الملكية والكنيسة واستبداد الجيش، يجدد فيها نظام السقي وتصير فردوساً مرة أخرى. أما اليوم، فهي محرومة من رأس المال والأعمال، ولا ريب أنها كانت فردوساً في القرن العاشر، حتى نتجت مثل ذلك النمو في السكان، وكان لأهلها ذكاء، فساعدوا به الطبيعة، وكانت الأنهار الصناعية والجداول، توزّع الماء وتروي الارض، حيث الفلاح الإسباني المسكين اليوم، يرى المطر ينزل في رءوس الجبال، وتسيل به الأودية، وتجري رأساً إلى البحر. والقيعان الواسعة العقيمة اليوم، كانت في زمن العرب حدائق غلباً، كانت تؤتي غلاّت ذهبية، وحتى سفوح الجبال، قد سَطِّحت وأُلحقت بالأرض الزراعية. وفي كثير من البقاع، كانت الأرض تعطي أربع غلاّت مختلفة في سنة واحدة. وكانت الأقوات كثيرة ورخيصة جداً، وأضاف العرب جميع الوسائل الشرقية إلى الوسائل الرومانية في إسبانيا، فكان الآس يفوح بريحه العطرية، مقرونة بريح الورد والأترج،

والنخل باسقات في سطورها، تواجه القبة الزرقاء، وكانت جنّات، جنّات لا يوجد مثلها اليوم إلاّ في قليل من البلدان، وعلى هذا الأساس، قام هناك نظام تجاري صناعي في غاية الإتقان. ولا أريد أن أذكر تفاصيل هذا الأمر، وإنما أريد أن أذكر بالسيوف الفولاذيّة التي تصنع في طليطلة، والأدوات الجلدية التي كانت تصنع في قرطبة التي كانت فيها أفضل الطرق في الدنيا، وكيف كان الأسطول التجاري المغربي يطوف البحار في طلب النوادر والتحف الرفاهية لمئات الألوف من الناس، وكان العرب رومانسيين جداً. فإنهم جلبوا العلماء والمهرة في الصناعة والنخّاسين وتجار الجواري الراقصات، وتجار الحرير، وتجار الجواهر من جميع أرجاء الأرض. ولم يكن الخراج مجحفاً، وكان في الغالب يتألف من عُشر الغلاّت وعُشر ما يخرج من المعادن ومكاسب الصناع والتجار. ولكن كان الدخل مدهشاً، وكان دخل خليفة ذلك الوقت وهو عبدالرحمن الثالث ـ على ما قيل أكثر من (٣٠,٠٠٠,٠٠٠) دولار سنوياً. ولا ننسى أن النقود كانت لها قيمة في ذلك الزمان، بحيث يمكن أن يُشترى بها أضعاف ما يُشترى بها الآن. وسنرى وصف هذه الثروة أوضح في الفصل التالي. وكانت الثروة متساوية عند الأعيان والتجار، وقد قرأنا أن وزير عبدالرحمن الثالث أهدى إلى ملكه هدية وهي ضيعة، غاباتها تحتوي على عشرين ألف شجرة، وستين جارية حسناء، ومائة من الجياد الصافنات، والبغال الفارهات، وثمانمائة لأْمَة[1] من أجود العتاد، وما يساوي مليون دولار من الذهب وغيره من النفائس. وقد قدَّر المؤلفون العرب الذين يختلفون عن جهلة أوروبا الرهبانيين جدّ الاختلاف هذه الهدية بـ (٥,٠٠٠,٠٠٠) دولار، وسنرى في الفصل الآتي أكثر مما رأينا، فهناك نرى من الترف الذي أوجدته تلك المدنية شيئاً يدهش العقول، وعلى ما كانت عليه ملوك العرب من البذخ والترف، فإنهم لم يهملوا المقاصد الخيرية والمصالح

---

(١) اللاّمة: أداة الحرب كلّها من رمحٍ وبيضة ومغفر وسيف ودرع. (ج): لأْمٌ ولُؤَم.

العامة، بل أنفقوا عليها من خزائنهم الواسعة إنفاقاً لم يفعل مثله من ملوك النصارى إلاّ قليل، وسأعقد فصلاً أذكر فيه أعمال ملوك العرب في العلم والأدب والفلسفة. هنا أشير إلى أن الملوك الذين أنشأوا مدنية الأندلس (من سنة ٧٥٦م إلى سنة ٩٦١م) كانوا رحماء كرماء ومحبين أوفياء للعلم وأهله، وكانوا أكثر الناس سخاء وجوداً في مناصرة الشريعة والتعليم، وهم أنفسهم في كثير من الأحيان لم يكونوا قاصرين في الأدب. فالخليفة الحكم الثاني الذي كان ملوك النصارى في زمانه لا يقدرون أن يكتبوا أسماءهم إلاّ قليل منهم كانت خزائن كتبه تحتوي على نصف مليون كتاب، ويروى أنه كان ملماً بما تضمنته. وكان الخلفاء ينفقون على كثير من المدارس من مالهم الخاص، وكان سخاؤهم بأموالهم الخاصة للمصالح العامة مثل سخائهم لها من بيت المال، وكانوا يرقبون الطرق المعبدة والجسور المتينة التي عملها الرومان بعناية تامة،فيصلحون ما فسد منها، فكان للبلاد نظام للمواصلات يليق بصناعتها وتجارتها. وعجلات السيارات الثقيلة اليوم، كانت تسير في طليطلة وقرطبة على الجسور العظيمة التي بناها الروم وجدّدها العرب، وجدّدوا القنوات وأنشئوا قنوات جديدة لضمانة الماء الكافي، لا للسقي فقط، بل لتوزيعه في المدن على البيوت. وكان للبريد سرب من الخيل السريعة تبرده في جميع الطرق المهمة في المملكة. ولأجل أن نقدّر هذه الأشياء حق قدرها، ينبغي أن نتذكر دائماً الاختلاف بين هذه البلاد وبقية أقطار أوروبا، فأمهات المدن الأوروبية لم توجد فيها قنوات لصرف المياه القذرة حتى بعد مضي ستمائة سنة من ذلك التاريخ، فكانت المياه المنتنة النجسة تجري في طول شوارع باريس ولندن غير المبلطة، أو تجتمع فيتكون منها حياض، حتى بعد ما عملت النهضة في أوروبا عملها قروناً طويلة. أما في مدن العرب، فكانت الشوارع مبلطة منوّرة، قد سوّيت فيها مجاري المياه أحسن تسوية في أواسط القرن العاشر. قال سكوت: بعض القنوات التي كانت تحت الشوارع لصرف المياه القذرة في بلنسية، تقدر أن تسع سيارة. وأصغر قناة منهن تقدر

أن تسع حماراً. وكانت الشوارع مجهّزة أحسن تجهيز بالشرطة، وهذا النظام الصحي السامي، كانت تعضده النظافة العامة التي يراها الأمريكيون في هذا العصر شيئاً واجباً. ولكنها كانت في ذلك الزمان في نظر الأوروبيين أعجوبة من أعاجيب الرقي التام، فكان في قرطبة وحدها تسعمائة حمام عام، وكانت الحمامات الخاصة كثيرة في كل مكان، أما في بقية بلاد أوروبا، فلم يكن فيها ولا حمام واحد. وكان أشراف أوروبا رؤساء الأقطاع منهمكين في الرذائل إلى حدّ يحجم الإنسان عن وصفه. ولم يكن لبس الكتّان النظيف معروفاً في أوروبا، حتى أخذت (مودة) لبس طراز الكتان من المسلمين، ولم تكن الزّرابي أيضاً تصنع هناك، وكان الحشيش يغطي أرض قصور الأمراء ومصطبات الخطابة في المدارس، وكان الناس والكلاب ينجسون المحلات إلى حد يعجز عنه الوصف. ولم يكن لأحد منهم منديل في جيبه. وفي ذلك الوقت، لم تكن الحدائق تخطر ببال أحد من أهل الممالك النصرانية، ولكن في إسبانيا العربية كان الناس في جميع الطبقات يبذلون الجهود والأموال في تجميل حدائقهم العطرة البهية. وكانت الفسقيات تترقرق مياهها صعداً في صحون الدور والقصور والأماكن العامة. ولا يزال في صحن الجامع الكبير في قرطبة حوضان جميلان من المرمر يزينان الصحن، حيث كان كل مصَلٍّ يتوضأ قبل أن يدخل المسجد، ووصفها سكوت في هذا الزمان (١/ ٦٧٥) فقال: «هذان الحوضان اللذان كانا من قبل متوضأ للمسلمين الغيورين من جميع الآفاق، والآن يمدان بالماء سكان قرطبة النصارى ذوي المناظر القذرة المنفرة والأخلاق الوحشية والجهل العظيم بمزايا الشعب الطاهر العاقل المهذب الذي تنتمي إليه هذه الذكريات الفاخرة من الفن والصناعة. هذان الحوضان يشهدان شهادة مرضية بأنّ لا دوام للمدنية العليا، وأنّ الأنسان يميل بطبعه إلى التقهقر والعودة إلى أحوال الهمجية. وتشهد به لسلطة القسيسين من المقدرة على فعل الشر، وأن سياستهم التي لن تجد لها تبديلاً، أُسست على قاعدة احتقار مواهب عبيدهم العقلية». وهذه العدد التي أعدّها الخلفاء

بفرط ذكائهم، ظهر أثرها في زيادة خارقة للعادة، على حين كانت جميع بلاد أوروبا لايتضاعف سكانها إلاّ بعد مضي أربعة أو خمسة قرون. ولم تنحصر عنايتهم الأبوية في حفظ الصحة والحياة فقط، فمع كثرة النفوس المفرطة، كانوا لا يرون أحداً يصاب بمصيبة إلاّ نفَّسوا عنه الكرب وواسوه، وهذا فيما لم يمكن اتقاؤه منها. وكان يساعدهم على اتقاء النكبات اتخاذهم نظاماً حسناً في استخدام البطالين في إصلاح الطرق، والأشغال العامة. وكان عبدالرحمن الثاني قد أعلن أن كل مَن يريد العمل يمنحه. ودوائر العدل التي خلفتها محاكم التفتيش وغرف التعذيب -كما أثبت المحققون- كانت منزهة عن كل ريبة أو فساد، وكانت المعارف والتعليم -كما سترى في فصل آخر- أحسن مما كانت في ممالك الرومان، ولم يكن يضاهيها إلاّ ما بلغه اليونان من المعارف العالية في أرقى أيامهم، والخلفاء أنفسهم شيَّدوا المارستانات ودور الأيتام، كما يفعل ملوك اليونان ـ ومنذ زال ملكهم زالت هذه المؤسسات من أوروبا ـ وكان الأعيان والتجار لا يألون جهداً في اقتفاء آثار الخلفاء في العمل بهدي القرآن في مثل هذه الخيرات. وكان الخلفاء أنفسهم يعودون المرضى ويبحثون من المكروبين لينفسوا كربهم.

والنساء اللّائي نزلن إلى دركة الخدم في بلاد أوروبا عملاً بما روته التوراة في قصة حواء من المحال، ولكراهية القسيسين السابقين للزواج وإيثارهم العزوبة، كنّ على خلاف ذلك عند العرب مكرمات مالكات حريتهنّ. وللكرم إن لم نقل البذخ والسرف اللذين حلاّ محل التقشف والتعصب في دمشق، انتقلا إلى الأندلس، فكانا كافيين لحفظ مركز المرأة والعشرة الخشنة التي يعاشر بها المسلمون المرأة كما هو مشهور عندنا، لم توجد في الأندلس إلاّ في أواخر أيامهم. والنساء في القصر الملكي بقرطبة، كنّ يساعدن الخلفاء في تدبير الأمور، وإن مالت طباعهن إلى غير ذلك، ولم يكن من الصعب عليهن الاتصال بالأدباء والشعراء وأصحاب الفنون الصناعية. وكان طلب العلم مباحاً لهن بكل حرية، وكثير منهن كان لهن ولع بالعلوم الرائجة في ذلك

الزمان من فلك وفلسفة وطب وغيرها. وكانت النساء يتبرقعن خارج بيوتهن، ولكنهنّ كنّ مكرمات و في منازلهن كنّ مشرفات ومحترمات.

ولا حاجة بي إلى أن أتكلم عن ظرف العرب وشهامتهم، لأنهم هم الذين طبعوا الشعب الإسباني طبعاً لا يُمحى أبداً على الاحترام الشخصي واللطف الذي لا يزال من خواصه المستميلة حتى في الصناع والفلاحين. وهناك مزيّة أخرى يمتاز بها العرب، وهي التسامح الديني، وفي أول الأمر كان هناك بلا شك شهداء ـ يعني مقتولين لمخالفتهم عن الدين ـ ولكن لا مناسبة بين تلك المذبحة التي عملها الإسبانيون أخيراً في ذرية العرب. وأما بعد استقرار المملكة العربية في الأندلس، فإذا استثنينا معاملتهم لطوائف الثوار من النصارى، كأهل طليطلة الذين كانوا دائماً ينتظرون الخلاص من ناحية الشمال، فقد كان أهل الأديان جميعاً يعاملون بالحسنى، وكانت على يهود والنصارى فريضة مالية قليلة تخصهم، وكانوا يتمتعون بحماية حقوقهم، فكثر عددهم، وعظم بذلك الخرج الذي يؤخذ منهم، فكان الخلفاء لا يشجعون على دعوتهم إلى الدين مخافة نقصان الجزية، ورخصوا لنصارى طليطلة في المحافظة على كنيستهم الكبرى. وأخيراً اشتريت منهم بثمن غالٍ جداً، ورخصوا لهم بأن يبنوا عدداً من الكنائس. وكانت لهم في طليطلة ست كنائس، وكانوا مستمسكين بالعلاقات الودية مع جيرانهم، حتى أثار فيهم القسيسون الضغينة الدينية. وأما ما يخص يهود الذين كانوا يتمتعون بعصرهم الذهبي حينئذٍ، وارتقوا إلى أعلى درجة في العلوم، ونالوا أعلى المناصب في دولة العرب، فأتكلم عليهم في فصل آخر، وهذه النبذة العامة في ذكر مدنية العرب، ستزداد وضوحاً وتفصيلاً عند الكلام على وصف حياة قرطبة وغرناطة. ولابد أن القارىء علم مما ذكرناه آنفاً تفوق المدنية التي يزعمون أنها وثنية تفوقاً خارقاً للعادة، ولابد أنه رأى أثرها في أوروبا المتوحشة، وهذا صحيح لا يمتري فيه أحد من المؤرخين. والمؤرخون لا يقابلون بين العرب والنصارى، لأنهم لو فعلوا ذلك لكانوا كالذي يقيس أهل بوستن ـ

مدينة في أمريكا ـ بقبائل الاسكيمو، وذلك عجب عجيب. قال ستانلي لين بول في شأن النصارى الذين كانوا قد استولوا على شمال إسبانيا في حينه: «كانت غزوات النصارى لعنة عظيمة على مَن يكون لهم فريسة. وكانوا خشنين جاهلين أميين لا يقدر على القراءة منهم إلاّ قليل جداً. ولم يكن لهم من الأخلاق إلاّ مثل ما لهم من المعارف ـ يعني لم يكن لهم منها شيء ـ وأما تعصبهم وقسوتهم، فهو ما يمكن أن تتوقعه من الهمج البرابرة».

ثم قابل بعد ذلك بين الممثلين لنظام الفروسية في القرون الوسطى ـ يعني أشراف إسبانيا ـ وبين العرب (ص ١٨٩)، فقال: «اتصف النصارى في شمالي إسبانيا بأقصى ما يمكن من مضادة أقرانهم العرب. جاء العرب تلك البلاد، وهم عشائر بدو جفاة، ثم رقّت طباعهم إلى أن صاروا شعباً عالي الكعب في التمدن، يستلذون الشعر واللّطائف الأدبية. وقد وقفوا جهودهم لخدمة العلم واستقراء مسائله، وفوق ذلك كله قد عزموا على التمتع بلذات الحياة إلى أقصى حد ممكن. وأذواقهم العقلية كانت لطيفة فوق العادة وظريفة، فالموسيقى والخطابة ودرس المسائل العلمية بتعطش لا مزيد عليه، يظهر أنها كانت طبيعة غريزية لهذا الشعب الزاهر. وكانت لهم سجيّة معرفة النقد والولع بالمجاز والاستعارات الجميلة وتقديرها على النحو الذي ننسبه اليوم إلى الأمة الفرنسية. أما نصارى الشمال فكانوا بضدّ ذلك على أقصى ما يتصور، فكانوا جفاة غير مهذبين. ولم تكن آداب نظام الفروسية التي أدخلها المصنِّفون في تاريخهم، لتخطر لهم ببال. وفقرهم الشديد جعلهم خدماً لكل مَن يريد استخدامهم، وكانوا يبيعون شجاعتهم لكل مَن يدفع لهم أغلى ثمن لها، فكانوا يحاربون لتحصيل القوت».

ثم أرانا ـ يعني سكوت ـ أن «سِد»[1]، الذي لا يزال حتى اليوم زينة لكتب

---

(١) Cid، يقال إنه ولد سنة ١٠٤٠ وطار صيته في الحرب التي وقعت بين أمير قشتالة شانسوورينس نقار وأبي عبد الله ملك غرناطة، وكان تارة مع النصارى وتارة مع المسلمين.

الأدب، وزهرة من أزهار الفروسية النصرانية، كان خائناً قاسياً غدّاراً ناقصاً للعهود لا إيمان له ولا ذمة، يبيع سيفه وعواطفه من كلا الفريقين: المسلمين والنصارى.

ومِس شارلوت ينج التي كانت لها الشجاعة الكافية أن تقول الحق في شأن العرب والنصارى منذ خمسين سنة، لم تجد ما تسلي به دينها إلاّ شيئاً واحداً وهو قولها: «قد بلغ الإسلام أعلى درجات الإلهام في زمان مدنيـة العرب في الأندلس، ولكنه انقرض بعد ذلك. وأما النصرانية فإن لها آمالاً في المستقبل غير محدودة».

وفي هذا خطأ مضاعف، فالإسلام هو الذي ألهم العرب مدنيتهم ولكنه لم يمت، والمدنية المستمرة التي جاءت في العصور الأخيرة ليست من النصرانية في شيء.

والحقيقة أن مدنيتنا الحاضرة لا علاقة لها بالنصرانية، ولكن المدنية التي دخلت أوروبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كانت لها صلة كبيرة بالعرب، أي أن مصدرها كان منهم، فالنور الذي أشرق في إسبانيا لم يكن بدّ من أن ينبثق إلى أوروبا، فالإسبانيون الذين استولوا بالتدريج على النصف الشمالي من إسبانيا، عندما أخلد العرب إلى أرض الترف والبذخ، وانحصروا في القسم الجنوبي ـ الأندلس ـ لم يبقوا جامدين لا شعور لهم بثقافة جيرانهم ـ يعني أنهم أخذوا يقتبسونها، وكان السيّاح أو المسافرون من النصارى الذين يزورون مدن العرب يعودون إلى أوطانهم فيقصّون من أخبار العرب وعلومهم وحضارتهم الجميلة ما يهزّ النفوس ويشوقها إلى تلك الحضارة الفذّة.

٣ـ مديْنة النور والحب:

مدريد (مجريط) التي كانت في القرون الوسطى قرية مظلمة، هي واقعة تقريباً في وسط إسبانيا، وفي شمالها بالضبط سلسلة جبال وادي الرملة المتدثِّرة بالثلوج، حتى حين مررت بها في الشهر السادس (جون = حزيران)،

وكان الجوّ حاراً. ولما انطفأت نار الغيرة وحبّ الفتح في قلوب العرب، تركوا هذه الناحية الشمالية ذات البرد القارس لبقايا المملكة النصرانية، فانضم إليهم الغوغاء المجازفون من فرنسة، وبمرور الزمن تألّفت منهم أمة صغيرة ذات بأس وضراوة على القتال. أما كيف قاتلت هذه الأمة الصغيرة إلى أن استولت على إسبانيا كلها واستردتها تارة أخرى، فهو حقيقة صفحة عظيمة في تاريخ العمليات العسكرية، ويحق للإسبانيين أن يفتخروا به من حيث هو استيلاء على الأرض، ومن سوء الحظ قد قضى هذا الاستيلاء على المدنية قضاءً مبرماً.

ولست بصدد ذكر العمليات العسكرية هنا، والذي أريد بيانه، أنه في سنة ١٠٨٥ استرد الإسبانيون أقصى مدينة في الشمال من أيدي العرب وهي طليطلة قاعدة ملك الإسبانيين القديمة. وهذه المدينة اليوم في حالة تدل على ما جناه الإسبانيون على المدنية في قضائهم على العرب. ولهذه المدينة موقع فريد لا تشاركها فيه مدينة أخرى، فهي مبنية على كوم من الصخور مرتفع عن الأرض، والنهر محيط بها من ثلاث جهات. وفي القرن العاشر كان يعيش في تلك المدينة (٢٠٠٠٠٠) نسمة في غبطة وسعادة. وسيوف طليطلة مشهورة عند كل مؤرخ وخبري، لأن قيونها كانوا أمهر القيون في العالم. وعند الكلام على قرطبة يمكن أن تجمع شيئاً من أخبار طليطلة المدينة العربية العظيمة. واليوم بعد مرور ثمانية قرون من استرداد طليطلة، ترى سكانها نحو (٣٠٠٠٠) ألفاً من الكسالى، يدبون دبيباً في شوارعها المهجورة الهامدة، ويعيشون على كرم الزائرين. ولما ركب الإسبانيون ودخلوها، يتقدمهم رئيس أساقفتهم، حين رفست المدنية تحت الأقدام وتلاشت، شيَّدوا فيها كنيسة فخمة فيما بعد، ولكن من جهة أخرى انحطت المدينة إلى حال أنها صارت قرية كبيرة، فكأنما بنيت الكنيسة لخراب المدينة. والجسر العظيم الذي على النهر متين جداً ومفيد كثيراً، فلذلك لم يقدروا على تدميره. وباب المدينة العجيب، باب الشمس، قد أبقوا عليه، فهو يظهر اليوم تذكاراً محزناً

لماضٍ مجيد، ينظر إلى الخراب، ويندب مجده البائد. وأما سائر المدينة القديمة العجيبة، فكأنها لم تغن بالأمس. ولو بحثت بجد واجتهاد عن بقايا تلك العظمة الغابرة، لو جدتها تلاشت وصارت كأمس الدابر. وتدور مبهوتاً في شارعها الرئيسي، وهو زقاق ضيّق حيث كان ربع مليون من النفوس يعيشون في نعيم. تطلب مكاناً طيباً تستريح فيه، فيكون خاتمة تطوافك أنك تجد نفسك في حجرة قذرة، تتغذى بين سائقي البغال والفلاحين. وانتحى مجد العرب نحو الجنوب إلى إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية، وكانت طليطلة لذلك المجد كالطليعة. وكان الجنوب الشامس وطناً طبيعياً للعرب. ومن العجب أن لا نجد إلاّ قليلاً ممن يعرفون أنّ قرطبة كانت تضاهي في عظمتهاومجدها بابل وروما وبغداد، هذا مع أن عهدها ليس ببعيد. ومنظر قرطبة اليوم منظر محزن. ولا أريد اليوم بهذا النوح والعويل الدائم أن أهيج أو أحاول أن أهيج سخط الناس على الدين الذي ألهم الإسبانيين أن يبيدوا هذه المدينة العظيمة. وأنا أشدّ تأسفاً وتحسّراً على خسارة النوع البشري منى على جناية أولئك الجناة. لو أن الممالك النصرانية عملت وترقت بالعمل الصالح الذي عمله اليونان في الشرق، والرومان في إيطاليا، وفرنسا وانكلترا في شمال إفريقية، ولعمل هؤلاء العرب في طليطلة وإشبيلية وغرناطة، كيف كنا نكون اليوم؟ لو عمّت أفكار قرطبة وعلومها وتهذيبها جميع أوروبا لبلغت أوج المدنيّة وتقدم العلم فيها تقدماً عظيماً في القرن الثالث عشر، ولكانت أمريكا وسائر بقاع الأرض قد اكتُشِفَت قبل تاريخ اكتشافها، واستعمرت بحكمة وإتقان أكثر وأسبق مما وقع لها، وكان النوع البشري اليوم متمتعاً بثروة ورفاهية ورقي وحرية وسمو فكر مثلما سيكون حوالي سنة ٢٥٠٠م.

فهل كانت قرطبة إلى هذا الحد عجيبة؟ نعم، كانت كذلك بالنسبة إلى القرن العاشر وبالنسبة إلى أي عصر آخر ما عدا زماننا هذا، وكان بإمكانها أن تعلِّمنا دروساً كثيرة من فنون المعيشة.

لم يبق من آثار قرطبة الوسطى إلاّ أثر واحد، وهو جامعها الذي لا يزال

حتى اليوم جميع أطفال قرطبة يسمونه مسجدا. ولولاه ما تجشَّم أحد عناء السفر لمشاهدة قرطبة ـ ولو كانت على بعد خمسة أميال منه ـ ولكن الناس من جميع أنحاء الدنيا يسافرون إليها ليشاهدوه. وهو أعظم معبد في الدنيا بعد كنيسة القديس بطرس، وهو آية لا نظير لها من الهندسة والبناء، وظاهر هذا المسجد لا يستولى على اللّب. ولم يكن العرب الذين كانوا يفضلون الإقامة داخل البيوت أكثر من خارجها يهتمون نسبياً بالمظاهر كثيراً، وأما في الداخل، فهناك العجائب. إذا دخلت الجامع من أي باب من أبوابه التسعة عشر، يخيل إليك أنك تائه في غابة من أشجار المرمر، ففيه ثمانية وستون سارية رقيقة من المرمر والرخام واليسب، وفيه غير ذلك ألف واثنتا عشرة سارية، وفيه تسعة عشر رواقاً، ينتهي كل منها بباب من الأبواب التسعة عشر. وله سقف خشبي منخفض نسبياً زخرف أحسن زخرفة بالأرجوان والذهب. وفي الأعياد الكبيرة توقد مائتان وثمانون ثريا من الفضة والنحاس، يحترق فيها الزيت المعطر، وتتلألأ فيها آلاف كثيرة من المصابيح، فتلقي أنوارها على ذلك المشهد: وأكبر ثريا منها كان محيطها ثمانية وثلاثون قدماً، يحمل ألفاً وأربعمائة وأربعاً وخمسين مصباحاً، ولها مرآة تعكس النور، فيزيد شعاعه تسعة أضعاف. وفيها (٦٠٠٠) طبق من الفضة، مسمرة بالذهب ومرصعة باللؤلؤ. وكان الجامع قد شُيِّد مع مضافاته في القرن الثامن والتاسع والعاشر. والمحراب الذي هو أقدس محل في مسجد العرب، كان فيه حنيتان، وكان أعظم زخرفاً من سائر المسجد. وآخر المحراب يشبه صدفة من رخام، وله مدخل يتلألأ كالذهب الخالص أو الديباج بفسيفسائه الجميلة. وأحيل القارىء على كتب زخرفة البناء أو كتب الاستدلال ليرى عجائب هذا الجامع العظيم. وكان بناؤوه من النصارى المنتمين إلى الكنيسة اليونانية، وكانت بينهم وبين العرب مودة، فجلبوهم لبنائه. وهو أثر لمدنية زاهرة لا يضاهيها اليوم شيء في الدنيا كلها. وكان عبدالرحمن الأول مؤسس هذه الدولة، قد جعل مدينة قرطبة على مثال مدينة دمشق التي قضى فيها أوائل

عمره. وهو الذي ابتدأ بناء الجامع، وأتمه الخلفاء الذين جاءوا بعده، وبلغت نفقاته على ما حدّث به مؤرخوا العرب (٣٠٠٠٠٠٠٠٠) دولار. وإنما كان هذا آخر عمله في حياته، وقد شيّد غير ذلك هو وخلفاؤه ورجال دولته قصوراً فخمة ومساجد كثيرة كانت تزيد المدينةكل سنة جلالة وبهاء. قدّر سكوت سكان قرطبة في أزهى أيامها بمليون، وآخرون قدّرهم بنصف مليون، ولكن مؤرخي العرب حدثونا بأنه كان فيها عشرة آلاف قصر، عشرة منها للملك، و (١١٣٠٠٠٠) دار و (٧٠٠) مسجد و (٩٠٠) حماماً عمومياً و (٤٣٠٠) سوق و (٥٠٠٠) طاحونة على شاطىء النهر، والآن بعد تقدمنا كله، فقرطبة بلدة منحطّة حقيرة، سكانها نحو مائة ألف، من ذوي المناظر الكريهة الأموات، وإن كانوا يعدّون من الأحياء.

وكان للمدينة القديمة شوارع مساحتها عشرة أميال، كلها مضاءة ومبلّطة تبليطاً حسناً، وإلى الآن لا نزال نطأ تبليط العرب في كثير منها، ومجاري مياهها كانت منظمة جيداً، ولا تزال مئات من الدور باقية، فيمكنك أن تتصور معيشة أهل البيت العربي: تدخل من باب حديدي ضخم جميل، ثم تمرّ في دهليز قصير مظلم، فتصل إلى صحن الدار، وهذا الصحن هو وسط البيت، فترى هناك أزهاراً ورياحين وبسطاً من الحرير والفسيفساء المتلألئة والنقوش العربية الجميلة، وتجد في كل صحن تقريباً فسقيّة من المرمر، كل ذلك يجعل المنزل مقاماً بهيجاً تحلو فيه السكنى ويطيب فيه العيش. وقد جلبوا الماء من أميال من نهر (سيرا)، ثم وزّعوه على المنازل في أنابيب من الآنك. وكانت النظافة عند المسلمين فرضاً مقدساً، حتى أن النصارى حين استولوا عليهم دمّروا الحمامات.

وعندنا وصف دقيق، لقصر بناه عبدالرحمن، على ثلاثة أميال من قرطبة. وإذا ذكرنا أن القياس ملكي، فسنعرف شيئاً من معيشة أهل قرطبة في القرن العاشر. بُني القصر لتكريم امرأة، وهي محظيته الزهراء، فجعل لها تمثالا جميلا من المرمر نصبه على باب القصر، وكان يشتغل في بناء هذا القصر

عشرة آلاف رجل وثلاثون ألف دابة، وبقوا يعملون فيه سنين، وينبغي لنا أن نفرض أن هذا القصر بهر مؤرخي العرب في ذلك الزمان، فلم يقدروا أن يرووا تفاصيله على الحقيقة، لأن وضعهم كان لا يُعتمد عليه تقريباً. فقد زعموا أن له تسعة عشر ألف سارية جُلبت من اليونان وإيطاليا وإفريقية وغيرها. والإيوان الأوسط كانت سواريه من المرمر والحجر الشفاف، وكانت رءوسها مرصّعة باللؤلؤ والياقوت، وكان جريدة سقفه من الذهب والفضة، وكانت جدرانه وقبّته من العقيق اليماني، وكان له ثمانية أبواب من الأبنوس والعاج مرصعة بالجواهر، وكان في القصر ثلاثمائة حمام فاخر مستجمع لشروط النِّعمة. وكانت الحدائق واسعة جداً، حتى الحيتان كانت في حياضها، وكانت كلها من (السّمك الذّهبي) كان قوتها اليومي اثنى عشر ألف رغيف من الخبز. وكان عدد الخدام الذكور (١٣٧٥٠) وعدد الإناث (٦٣١٤) وعدد الخصيان والوصفان (٣٣٥٠). وقد أخبرنا بما كان يستهلك ثمَّ من الطعام يومياً، بحيث لا تخفى علينا منه أوقيّة واحدة. وكان طعاماً فاخراً هنيئاً مريئا. وكان هناك غير من ذكرنا العساكر والموسيقيون والشعراء والراقصون ورجال الدولة والأدباء لغرض الشعر والاشتغال بالموسيقى، بل حتى المباحثات العلمية والفلسفية. كان لهما الاعتبار التام هناك، وكان الإعجاب بهما لا يقصر عن الإعجاب بقدّ جارية حسناء أو عينين كحلاوين لخريدة محظية بيضاء في غلالة حريرية سوداء من غواني الحريم. وكان عدد حرس الخليفة الخاص اثني عشر ألفاً من خيرة الجنود، يلبسون أفخر الحرير، ولهم مناطق مذهبة، وأجفان سيوفهم كذلك كانت مذهبة، ومقابضها مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة، وكان هذا القصر عاشر عشرة من القصور الملكية. وحوله كانت مساكن جميلة لخاصة الخليفة ورجال دولته المقربين وأرباب المناصب العالية. وكذلك كانت مدينة الزهراء مدينة تسبي الألباب، وتسحر العقول بجمالها، وإن سألت عن حالها اليوم، فهي في حالة لا تستطيع أن تشبع قليلاً من المعز. وكل شيء كان هناك ملكياً، والموسيقى

والمغنى الخاص لعبدالرحمن الثاني كان أديباً من أعاجيب الزمان؛ وكان مرتبه (٤٠٠٠٠) دينار من الذهب في كل سنة، وهو أكثر من مرتب رئيس الولايات المتحدة. وهذا النعيم الذي لم يمض عليه إلاّ أقل من خمسمائة سنة، لم يحفظ منه الإسبانيون مثقال ذرّة. وكان يصبّ في خزائن الملك كل سنة، نهر مفعم من الذهب، فيفيض منها على الأشراف والأمراء والأدباء والعلماء وكبار التجار وغيرهم. وكانت القصور الفخمة ممتدّة على شاطيء الوادي الكبير مسافة عشرة أميال، وكانت أسواقها أغنى أسواق الدنيا، فلم يسمع سامع بشيء من التوابل أو العطور أو المنسوجات الفاخرة أو الكتب الخطية النادرة أو البُسط والزّرابي البديعة أو آلات اللّهو في أي ناحية من أرجاء الدنيا، إلاّ وقد جلبت إلى تلك الأسواق. وحال أمريكا اليوم بالنسبة إلى الدنيا القديمة، هي حال الأندلس في ذلك الزمان بالنسبة إلى غيرها من البلاد، ولكن الأندلس كانت أعظم من وجهة المدنيّة. وكانت الحدائق العامة المعدّة للتنزه نزهة للأبصار، وستعلم شيئاً من ولوع العرب بالحدائق والجنّات، إذا رأيت الحديقة المعروفة بالقصر في إشبيلية، وكان العرب يتوخون الجمال في كل شعبة من شُعب المعيشة.

والعرب أنفسهم كانوا صنّاعاً ماهرين في الادوات المعدنية والجلدية، وأحسن المنسوجات الحريرية والكتانية. وكانوا يصنعون الفسيفساء العجيبة، وينقشون النقوش الجميلة على الأواني المنزلية. وكانت لهم مهارة عظيمةفي دهن الاواني الخزفية، وكانوا حاملي لواء زخرفة داخل البيوت والقصور وزينتها، وبلغوا في ذلك درجة عالية لم يعرفها أحد في الدنيا غيرهم، وكانت لهم معادن كافية من الرخام والمرمر، ومع ذلك كانوا يجلبون المرمر من اليونان وإيطاليا وإفريقية. وكانت سفنهم تجلب المقادير العظيمة من خشب السدر والعاج والأبنوس وأحسن التوابل والطيب الذي يمدهم به الشرق، وكانوا يجلبون من هناك الذهب والفضة والمجوهرات والمحار والحجر الشفّاف وحجر االلآزورد وجلود السلاحف وكل مادة معروفة من مواد الزينة.

وكانت خزائنهم المالية عظيمة بالنسبة إلى عصرهم، إلى حدّ أنهم كانوا يسيطرون على الدنيا كلّها من الوجهة المالية، وقد عرفوا كيف ينفقون أموالهم على فنون المعيشة، إلى حدّ لم يصل إليه إلاّ قليل من الأمم. وقصور الأشراف وأصحاب المناصب والأدباء، كانت تقارب في الفخامة والسعه قصور الخلفاء، وحتى منازل أرباب الحوانيت كان لها جمال ورفاهية محتها أعاصير النكبة التي أنزلها الإسبانيون بالأندلس. وعلاوة على ذلك، مئات من الحمامات المحشاة أطرافها بالمرمر والفسيفساء، والحدائق العامة البديعة التي كانت ممتدة على شاطيء الوادي الكبير، كانت نعمة ورفاهية للناس جميعاً من الخليفة إلى أدنى الطبقات. وفي كل أمر من تفاصيل معيشتهم، أبدَوْا سلامة ذوق لا يمكننا نحن أن نأتي بها. والعشرون ضاحية التي كانت حول المدينة، لم تكن أسماؤها: (بوت فيل Potts Ville) و (نيوتن Newton)، بل كانت أسماؤها هكذا: وادي الفردوس، والوادي الجميل، وحديقة العجائب، وهكذا. ولقد صدقوا، فإنها كانت كذلك، وكانت مبثوثة بينها المنازل البيض المشرفات، وحولها غابات الاترج والنخيل والسرو الواسعة وروضات الأزهار الفضَّة الباقية طول السنة، تجري من تحتها الأنهار والجداول فالبحيرات والعيون، والمخابيء، والمغارات، وصفوف الأشجار، وكل فكرة عند الفلاحين المتخصصين في الغرس والزراعة، وقد استعملت هناك مما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين. وإذا عبرت النهر على الجسر العجيب الذي يبلغ طوله (١٢٠٠) قدم وارتفاعه فوق الماء (٩٠) قدماً، تجد ضاحية حفّت بالحدائق البهيجة والروضات الجميلة، تسحر الألباب ببهائها، ولو لم يكن هناك سواها، لكانت المثل الأعلى في المدن.

وإذا انقضى العمل في كلّ يوم، كانت قرطبة ترى معترك ضحك وغناء وذنوب يفوح عطرها، ومباحثات عقلية دقيقة وموسيقى شجيّة بجميع الآلات التي كانت معروفة لذلك العهد. وكان العباد والزهاد في قرطبة كثيراً، لأنها كانت تحوي أعظم المعابد العلميّة والدينية وفطاحل العلماء في الدنيا، وقد

سنّ أحد الخلفاء ـ وكان ديِّناً ـ قانوناً يقضي ببناء مسجد في كل اثني عشر بيتاً، ونفذ قانونه، إلاّ أن الظرف واللّطف كان هو الغالب. وأكثر الناس كانوا يلتزمون بالعبادات الإسلامية التي ينص عليها الإسلام، ولكن لم يكونوا متعمقين في أصولها النسكية التقشفيّة. فلا دمشق ولا بغداد وحتى إنطاكية في أوج مجدها، لم تكن مركزاً للسرور مثل ما كانت قرطبة، في حين كانت أوروبا متدثرة بالخرافات الموحشة، ولم تكن في الدنيا قط بلاد أسعد ولا أجمل ولا أنعم عيشة من الأندلس في القرون الثلاثة: العاشر والحادي عشر والثاني عشر للميلاد.

وأعظم مزية يمكننا أن نمدح بها عرب الأندلس، هو أن نذكر أنّ شغفهم بالشهوات واستهتارهم باللّذات، كان متّحداً على نسبة سواء مع ولوعهم بالتمتع بالعلوم العقلية والمعارف الدقيقة المحقّقة التي كانت منتشرة بصورة أوسع مما كانت عليه في روما أو أثينا. ولم يكن في الدّنيا كلها، ولا هو كائن اليوم، بلد يكرم فيه العلماء والأدباء ويُكافَؤن بالجوائز مثل ما كان في الأندلس. ولم يكن في الدنيا بلد غير الأندلس، يحوي خزائن الكتب العجيبة والمدارس والكليّات العامرة، وجمعاً عظيماً من خيرة الكتّاب البلغاء، وذوقاً عاماً في المباحث العقلية مثل ما كان في الأندلس، والحلقات أو الدوائر الصغيرة من الرجال والنساء المهذبين الذين كانوا في إيطاليا يبحثون في الفنون والآداب في بدء النهضة، إنما كانت تقليداً ضئيلاً للعرب.

٤ـ علوم العرب وآدابهم:

هناك حقيقة محزنة ودليل يملأ النفس غمّاً وأسىً، يدلّ على أنّ الفكر البشري لا يزال ناقصاً وبعيداً عن الترقّي الحقيقي، وذلك أنّ الذين يعرفون كيف يعيشون في كلّ عصر قليل، وبعد مضي ملايين السنين على وجود الإنسان، وستة آلاف سنة على حدوث المدنيّة والشعور بالوجود، ونحن الآن نختصم في ما هو المثل الأعلى للمعيشة، وأكثر الناس لا يعرفون كيف

يستعملون نعمها استعمالاً موزوناً. وتبعة ذلك معظمها يعود إلى النصرانية، ولكن الطبقة العليا من اليونان والمثقفين والمفكرين وصلوا إلى قريب من المثل الأعلى. وعندهم أنّ الحكمة كلّ الحكمة أن نعرف كيف نعيش، ذلك إنما يكون بترقية الجسم والعقل والأخلاق بعناية سواء وحماسة سواء. لا يفضّل واحد من هذه الثلاثة على قسيميه بشيء، وحتى أثينا كانت فيها معركة مستمرة لا نهاية لها بين الفلاسفة الإشراقيين أتباع زينو، أعداء الاستهتار الّلد وخصومهم السايبراتيين أنصار الاستهتار بالشهوات وزعمائه، حتى أبو قراط نفسه لم يكن يعطي للجسم حقه خلافاً لما يعتقده فيه عامة الناس. ولا نقول: إنّ العرب وصلوا إلى درجة الكمال، لكن مثلهم الأعلى كان معقولاً وممتازاً، والنصارى الذين يطعنون فيهم ينقبون في تواريخهم الواسعة، وفي الأكثر في التواريخ الخسيسة التي ألّفها أعداؤهم الإسبانيون غير الموثوق بهم، حتى إذا ظفروا على سبيل الندور بشيءٍ من القسوة أو الخيانة أو الفجور، أخذوه فرحين. وأطالوا في شرحه، بقصد التّشفي والتّشنيع. وكلّ مدنية تشعّ على ثلاثين مليوناً من النفوس السعيدة المغتبطة، لابد أن يوجد فيها أمثال تلك الهفوات النادرة، ولكن إنما يستغلها ويتجاهل الأخلاق الحسنة التي كانت غالبة عليهم، المؤلفون المخادعون الذين يُضلّون مَن يقرأ كتبهم، بذكر أعمال استثنائية وقعت على سبيل الشذوذ والندور. لقد قرأت جميع التآليف التي أُلِّفت في سيرة العرب مستندة على ما كتبه المعاصرون لهم، فرأيت يقيناً لا ريب فيه، أن أخلاقهم كانت سامية. ومن فضائلهم أنّهم تجاهلوا الزهد والتقشف، وتمتعوا في حياتهم بجميع اللذات التي يقضي بها الاستعمال الحكيم للنساء والشعر والموسيقى. وأما غيرتهم على شرفهم وشهامتهم، فهناك ألف قول وألف عمل يجليها لك في أكبر التآليف التي أُلّفت في تاريخهم، وقد ظهرت آثارها في شهامتهم المعروفة في الحروب.

وليس ظهورها بأقلّ من ذلك في تسامحهم مع السكّان والزوّار من النصارى ما داموا مستقيمين في سلوكهم، وفي معاملتهم ليهود بمقتضى

الأخوة التامة، وكرمهم الذي هو كنار على عَلَم على المرضى واليتامى والأرامل والفقراء، وكانوا يلتزمون بأوامر القرآن الإنسانية في الإحسان إلى المرضى والمحتاجين. وقد التزموا بتلك الأوامر تديناً وكرماً أكثر من التزام النصارى بمواعظ عيسى في مجلس وعظه بالجبل. وإذا درست التواريخ حقّ دراستها، ترى أنما يتبجّح به النصارى من كونهم متمسكين بأعمال الخير والأخوّة التي جاء بها الوحي، تراه يتضاءل ويتلاشى أمام ما عمله العرب المسلمون من ذلك. كان عصر ملوك الرواقيين أتباع زينو في روما عصراً عظيماً في الخيرات والمبرّات، وكان عصر المسلمين في الأندلس عصراً عظيماً في الإحسان والبر وأعظم منهما عصرنا هذا الحالي. وأما نصيب النصارى من عمل الخير والإحسان إلى المحتاجين من النوع البشري في سجلات التاريخ في القرون التسعة عشر الأخيرة فضئيل ناقص إلى حد يجعله مسخرة للساخرين. والحاصل أن الطاعنين في العرب لا يستطيعون أن يغمزوهم إلاّ بالانهماك في الشهوات، ولكن ذلك العيب المزعوم، سيكون مزية فخر إذا علمنا أنّ العرب كانوا يزنون مطالب النفس والعقل كليهما بقسطاس مستقيم، وجيلنا الحاضر على ما ورثه من تجارب ستة آلاف سنة من سير حكامها وروايات أديانها، حتى اجتمع له في ذلك ما لم يجتمع لجيل قبله، منقسم إلى فريقين ـ ما عدا البؤساء الكومستوكيين[1] ـ: فريق يجدون في تهذيب النفس وترقية العلوم العقلية والفنون العالية، ويحتقرون الشهوات ويواجهونها بوجه عبوس. والفريق الثاني قوم ذوو دماء حارة، انهمكوا في الخمر والفسق، وأطلقوا لأنفسهم العنان، وأعطوها أقصى ما تريد من

---

(١) طائفة في أمريكا أسّسها أنتوني كومستوك (Anthony Comstok) (١٨٤٤ـ ١٩١٥)، وكان متقشفاً، وكان جندياً في الحرب الداخلية الأمريكية، وكان يريد أن يصلح أخلاق الجيش، ثم دخل في سلك الإنشاء وصار زعيماً للثورة على فساد الأخلاق، ولكنه كان جاهلاً، لأنه كان يعظم أمر الجزئيات ويهمل الكليات، ومن المعلوم أنه لم ينجح فيما حاوله.

شهواتها، حتى صاروا كالأنعام بل أهم أضلّ سبيلا. وكلا الفريقين معجب بنفسه، وكلّ حزب بما لديهم فرحون، وكلّ منهما يعيب الآخر ويرميه بالمثالب، وكلاهما في ضلال مبين.

ومن المزايا التي اختص بها العرب، أنّهم يرون أنّ السعادة وكمال النعمة إنما هي المعيشة التي كانت تكفل حفظ النفس والعقل في التهذيب على السواء. وكانت الدرجة العليا التي أدركوها في الشعر ناشئة عن ذلك الرقيّ الموزون. وكل الطبقات من أصحاب الحوانيت إلى الخلفاء كانوا ينشئون وينشدون الشعر. وكثيراً ما ترى جماعة من الرجال والنساء في ليالي الصيف في حديقة غنّاء، تعبق روائح رياحينها في ساحات البيوت الجميلة، جالسين يتباحثون في الأشعار، ويتنازعون بلطف في المساجلة في منتوجات أفكارهم. وكان ولعهم بالموسيقى ودرسهم لها يساوي شغفهم بالعلوم والآداب، وكانت الأندلس حقيقة في تلك الأيام أرض غِناء وغرام وأزهار ونوافح طيب.

ولكن هذا الشغف بالموسيقى كان مزدوجاً مع شوق أعظم منه إلى استقراء العلوم العقلية إلى حدّ كدنا نعجز عن فهمه. فأين يوجد في عالمنا شخص يداني زرياب القرطبي[1] الموسيقي الشهير الذي كان مرتبه (٤٠,٠٠٠) دينار ذهباً في كلّ سنة، وكان يعرف عشرة آلاف صوت من نغمات الغناء. وأنا لا أدري، هل ذلك فوق مقدرة المغنين في عصرنا أم لا؟؟ ولكن أعلم أنّ ما عندهم هو جزء مما كان عند زرياب، وكان عالماً بالعلوم العالية في ذلك الزمان، كالجغرافية والطب والفلسفة مثلما كان عالماً بالموسيقى، فاخترع عطوراً جديدة وأدهاناً لتجميل اللّون، وجلب الأغذية والعقاقير، ووضع طرازاً صحياً للملابس، وأصلح النظام السياسي، وأوجد في الناس تهذيباً

---

(١) أصله من بلاد فارس، سافر إلى العراق وتتلمذ على إسحٰق الموصلي، وقرّبه هارون الرشيد، ثم سافر إلى الأندلس، ودخل قصر عبد الرحمن الثاني، وتوفي بالأندلس في حدود سنة ٨٥٢هـ.

في الوجهة الاجتماعية، وكانت نوادره وحكمه تروى حكماً وأمثالاً في جميع بلاد الأندلس.

وأين يوجد حتى في هذا العصر الحديث، ملك مثل الحَكَم الثاني، الذي كان له شغف في العلوم، حتى إنّه كان له رجال يجمعون الكتب من جميع النواحي في إسبانيا وأوروبا، حتى صارت خزائنه الخاصة تحتوي على أقلّ تقدير (٤٠٠,٠٠٠) وبعض المؤلفين يقولون (٩٠٠,٠٠٠) كتاب خطّي، وقد أضافوا إلى الأشعار العربية والفارسية تراجم أشعار اليونانيين. وترجموا إلى العربية كتب أرسطو وأفلاطون وأقليدس وسائر كتب المتقدمين. وألّفوا كتباً كباراً تبهر العقول في الطب والجغرافية والفلسفة والفلك والكيمياء والتاريخ. ومؤرخو ذلك العصر يريدوننا أن نعتقد أنّ الحَكَم كان عالماً بمضامين الخمسمائة ألف كتاب التي كانت تشتمل عليها خزائنه. وكانت تآليفه محلّ الإعجاب في جميع العالم، ولم يكن مستبداً أرستوقراطياً من الوجهة العقلية، وأنشأ في قرطبة عشرات المدارس غير ما كان بها من قبل، وأمر أخاه (وزير المعارف) أن يسهّل على جميع الناس اكتساب العلوم. والمؤلفون الذين يتجاهلون الحَكَم الثاني ويخوضون فيما وقع من عبد الرحمن الأول من القسوة على سبيل الندور والقلّة ويفيضون في قسوة عبد الرحمن الثالث، يخدعون قرّاء كتبهم.

وهذه الغيرة على بث العلم كانت عامّة في ملوك العرب، ونظام التعليم عندهم يذكّر بما كان من ذلك في روما الوثنيّة، ويبشّر بنظام التعليم في هذا الزمان. وكان ذلك وادياً خصيباً في صحراء الجهل الكبرى التي امتدت من القرن الرابع إلى القرن التاسع عشر، لأنّ النصارى الإسبانيين أخربوا مدارس الأمة، كما فعل أسلافهم النصارى. وسكوت الذي هو أقوى برهاناً وأكثر تفصيلاً، أخبرنا مراراً أنّ المعارف كانت منتشرة في جميع الطبقات: «كان في كلّ قرية مدارس كافية لحاجة أهلها، وكان التعليم فيها قائماً على أفضل التسهيلات وأنفعها، كل الأطفال الذين قعد بهم العدم عن التعليم، كانت

الحكومة تعتني بهم وتؤسس لهم مدارس مجانية على نفقتها (الفصل الثالث ـ ص: ٤٩٧)».

وعلى هذا نقول: إنّه تعذّر أن يوجد فلاّح أندلسيّ لا يعرف القراءة والكتابة، في حين كان ملوك بقية أوروبا لا يقدرون أن يكتبوا أسماءهم في توقيعاتهم، وكذلك أشراف الروم من أعلى الطبقات لم يكونوا يقتدرون على القراءة والكتابة، وتسع وتسعون في كلّ مائة من أهل الممالك النصرانية كانوا أميين تماماً، وكانوا على غاية من الجهل لا يمكن تصورها، أضف إلى ذلك أنّ المعارف عند العرب كان معناه أوسع بكثير جداً مما كان في روما الملكيّة، وكان لهم من الغيرة على العلوم مثل ما كان لهم من الغيرة على الشعر.

وكانوا يعتنون بالتعليم العالي ويعضدونه أكثر من التعليم الابتدائي، فقد كان في قرطبة ثمانمائة مدرسة، وكان التلاميذ يأتون من أقاصي الأرض ليتعلّموا فيها، وكانت للفقراء منهم دور إقامة أعدّتها الحكومة مجاناً لهم، ولهم فيها أرزاق من بيت مال الدولة تقوم بحاجتهم من طعام وشراب ولباس، وكانوا يعطون زيادة على ذلك شيئاً من الدراهم معلوماً لكل واحد منهم، ولم يكن هناك اختصاص في التعليم إلاّ لمن يريد التخلّص من بعض التبعات. وقد قال اسكوت: «إنّ الجامعات والكليات الأندلسية كانت متسامحة ترحب باليهود والنصارى والمسلمين على حد سواء». وللعرب مثل سائر: «افترق العالم فريقين: فريق لهم علم بلا دين، وفريق لهم دين بلا علم»[١].

مَن ذا الذي لم يقرأ يوماً من الأيام، في مدرسة العمر العجيبة، تأسيس الجامعات الأولى الذي ألهمته النصرانية ـ بزعمهم ـ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر؟ وإنّي سائل والعجب آخذ مني كلّ مأخذ: كم واحداً ممن قرأ كتابي هذا، قرأ قط أنّ إسبانيا المحمديّة كانت قبل ذلك بثلاثة قرون، كانت

---

(١) يريد بذلك قول الشاعر:

أصبحت فيمن لـه ديـن بلا أدب	ومـن له أدب خالٍ من الديــن
بقيت فيهم غريب الشكل منفرداً	كبيت حسان في ديوان سحنون

متعطشة حرى ـ ولا حرارة المحموم للعلم ـ للعلم الحقيقي ـ لا لترهات مكاتب القرون الوسطى القشريّة، وكان العلم هناك بلا شك ـ عند العرب ـ مائة مرّة أكثر إنتشاراً، وكان هو الملهم الحقيقي لحركة المدارس والجامعات التي قامت في القرون الوسطى؟ فانظر كيف يكتب التاريخ إلى اليوم منيعاً فيه هوى الدين يعني النصراني.

ولم تكن حريّة الفكر في الأندلس، ألتي أقلّ ما يقال فيها إنّها كانت حالها أعلى وأجلّ بكثير منها في الممالك النصرانية، لم تكن هي وحدها تغذي حبّ العلوم والولوع به، بل كان يثيره إجلال العلماء الذي زال من الدنيا بزوال دولة الأندلس، ولم يرجع بعد إلى الدّنيا، ولم يكن الخلفاء يقتصرون على إكرام أكابر العلماء بالجوائز والصِلات العِظام من المال، بل كانوا يتخذونهم أصدقاء خاصة وأصفياء ويولّونهم أجلّ المناصب في الدولة والقصر. وكان لملوك العرب رأي صائب، ينبغي أن يكون قدوة لجميع المدنيات؛ وهو أنّ الرجال اللائقين بتدبير المملكة وإدارة شئونها ليس البلغاء في الأقوال أو المَكَرة ذوي الكيد والدسائس، بل رجال العلم الذين برهنوا على كفاياتهم بسمو أفكارهم وثقوب أذهانهم. ولم يكن العلماء في الأندلس يعيشون في المعامل المظلمة، ونظر الناس واعتبارهم منصرف إلى الأشراف والأجناد ورجال السياسة. بل كان العلماء من أكثر النّاس مالاً ونعمة، وكان النّاس لهم أشدّ حسداً، ولم يكونوا يحسدونهم على قصورهم الملكية وكثرة خدمهم وحشمهم، بل على علمهم. وهذا يدلنا على أنّ الأمّة كلها كانت محتفلة بالعلم والأدب عارفة قدرهما. ولم تكن النساء محرومات من المشاركة في ذلك، وتجد في تأليف سكوت كثيراً من فضليات الأديبات منهنّ. وترى أنّ النساء كن يساجلن الرجال في المحافل العامة، حيث كان الحائزون قصب السبق في النّظم والنثر ينالون جوائز عظيمة.

ولا ينبغي للإنسان أن يغلو ويتجاوز الوسط إلى الطرف الآخر، فيزعم أنّ العلم في الأندلس كان قاصراً على زخرف العقول والتطفّل الظريف، وأن

الماهر في نسج الألفاظ، كان أسعد الناس حظاً بعيش الترف والكسل! كلا، فإنّ نشاط العلماء في أعمالهم كان مدهشاً، فقد وصلت إلينا أمثلة رائعة من بدايات علومهم التي تفوق نهايات غيرهم. وجريدة أعمال المشهورين من علمائهم بلغت من العظمة إلى حد يكاد المرء ألاّ يصدِّقها، ولكن سكوت أخبرنا بأن كتّاب العرب ـ مع سعة خيالهم وإبداعهم في الوصف وتأنّقهم فيه ـ صادقون فيما يذكرونه من الحوادث.

وقد نسبوا إلى ابن الطفيل ألفاً ومائة كتاب في الفلسفة والتاريخ والطب، وأنّ ابن حزم ألّف أربعمائة وخمسين مجلداً في الفلسفة والقانون (الفقه)، وكانت لهم معلومات عدّة تزيد مجلدات إحداهن على خمسين مجلداً. وعدد المؤرخين منهم يزيد على ألف على ما قيل، فلّله كم ضاع من علم وأدب كان طعمة للنيران التي أوقدتها أيدي الرهبان حين: «طرد الإسبانيون الكفار من أوروبا»، كما يزعم المدرسون. وكان قسم من تلك الكتب في علم الكلام، فلا تستحق أن تعتبر هنا. وكان علماء المسلمين قد جاءوا الأندلس من كل رجا من أرجاء الدنيا. وأحياناً كان يتسرب إليها المتعصبون من أهل إفريقية، فيؤيدون السلفيين الجامدين، وينشأ غمام مظلم في سماء الوجهة العقلية الإسبانية بتافه قول من قال: «إنّ الضعف الوحيد الذي كان في أهل الأندلس إنما أتاهم من قبل دينهم». ومن الواضح أنّ أكثر علمائهم اختصاصاً بأمور الدين هم الفلاسفة، وإنّهم صرحوا جهرة بذم علم الجدل الكلامي حتى الإسلامي منه. وكانوا يعرفون جميع ضروب الفلسفة: هنديّة كانت أم يونانية، إلاّ أنّ أرسطو كان هو المعلّم الأكبر في نظرهم. ولما تكلم الشاعر الكاثوليكي دانتي في القرن الثالث عشر على الفلسفة لم يذكر ولا رجلاً واحداً نصرانياً، إلاّ ذكر بعده ابن سينا وابن رشد، وساوى بينهما وبين المعلم الأكبر في الشرف، حين سمَّى الجميع «آل بيت الفلسفة»، وذلك يدلنا على أنّ الفضل في النهضة الفكرية في أوروبا يرجع إلى العرب الذين أحيوا فلسفة اليونان بعد دروسها، قبل النهضة الأخيرة الأوروبية بأربعة قرون.

وكان أرسطو يكره الهراء الذي يسمى فلسفة إفلاطون في الإلاهيات وما وراء الطبيعة، وكان أرسطو أفضل من عرفت العرب من الحكماء المتقدمين، وأعظم تحقيقاً للمسائل العلمية. وإنه ليزيدنا إعجاباً بهذه الأمة - أمّة الشعراء وعشاق الجمال، أنهم قدّسوا أرسطو حتى كادوا يؤلهونه. وما بلغ عمر ابن سينا ستة عشر سنة، حتى صار من كبار العلماء، وصار وزيراً عظيماً وهو ابن ثلاثين. وأفيروس واسمه الحقيقي: ابن رشد، هو الذي ألّف الشرح الشهير لكتاب أرسطو. وذكره دانتي[1] في كتابه: الكوميديا الإلـٰهية، وهو الذي أثنى عليه حتى الراهب سافونارولا (Savonarolla) وقال فيه: «رجل كانت له عبقرية ربانية، وكان مكباً على الدرس ومنهمكاً فيه، حتّى إنّه لم يترك الدرس إلا ليلتين في حياته: ليلة عرسه، وليلة وفاة والده».

وكان ابن رشد، وهو من فلاسفة العرب، طبيب الأمير ورئيس قضاة قرطبة، وقد خدم فلاسفة العرب العلم والفلسفة سواء، وكان على ذلك المتخصصون في العلوم هم الذين خدموا العالم أعظم خدمة، ولا سيما الرياضيات والفلك والكيمياء والطب.

والفصول الطوال الثمانية والعشرون التي يحتوي عليها كتاب اسكوت ليست إلاّ إشارة مختصرة لأعمال العرب العظيمة، ولا ينصفهم بأعمالهم إلاّ مجلّد ضخم.

وكان علم الهيأة من أجلّ علومهم التي هذّبوها، وكان علماء الفلك في بغدادهم الوارثين لعلوم بابل والإسكندرية، وانتقل ذلك إلى الأندلس. وكانت بيوت العبادة - المساجد - تستعمل مراصد لمراقبة حركات الأجرام السماويّة، كما كان في بابل، فكانوا يرصدون النجوم على رؤوس المنائر. ولعل الكلدانيين علماء الفلك منهم، قد اكتشفوا كلّ ما يمكن اكتشافه بالعين المجردة، ولكن علماء الفلك من عرب الأندلس، كانت لهم آلات ذات دقّة

(١) أنظر لمحة من سيرته في الموسوعة العربية الميسّرة (٧٧٨).

وإحكام، مركّبة على رؤوس المنائر. ولم يكن عندهم (تلسكوب) طبعاً، وإن كانوا هم الذين وضعوا أساس علم النور والمرئيات، وروجر بيكن (Roger Bacon ١٢١٤ـ١٢٩٢) الفيلسوف العالم الإنكليزي، مدين لهم بأكثر مما يتصوّر المعجبون به من الكاثوليكيين. وكانت عندهم عشرة أنواع من الاسطرلاب، وعدّة آلات أخرى عدا ما عندهم من الكرات الأرضية والسماويّة، وقد اكتشفوا أنّ (الصّاعقة)، وتسمى في غير إسبانيا من بلاد أوروبا: (النجم الثاقب) كتلة كثيفة تدخل جوّ الأرض. ولهم رأي صائب في ارتفاع الهواء وقلّة كثافته. ووضعوا جداول لحركات النجوم، ووضعوا أوّل استنباط مدقّق لطول السنة، وأدركوا الشذوذ الواقع في مدار الأرض، ووضعوا رقوماً لتعاقب الاعتدالين.

والكيمياء الأولى لفظ عربيّ، وكذلك الجبر. وهناك ألفاظ أخرى عربية تذكرنا بما للمسلمين علينا من فضل في الوجهة العلمية. لقد استنبط العرب المسلمون قواعد الكيمياء. ولو أنّ مدنيتهم أُبقي عليها، واستمرّ تقدّم ثقافتهم، لكنا اليوم نعيش في عالم أعجب وأرقى مما نحن فيه. والعرب هم الذين اخترعوا البارود لا أهل الصين كما يتوهّم العامّة، ولست أعني أنّ اختراع البارود نعمة، وإنما ذكرته آيةً على خصب عقول العرب، وأنّه من ثمرات علومهم، وهم أوّل من صنع البندقيات، وصُنعت المدافع في غرناطة في القرن الثالث عشر. ولا شك أنّ الكيمياء القديمة هو الصورة الابتدائية للكيمياء الحديثة. ولقد كان فيها ضياع عظيم للأوقات في تتبع الأوهام، ولكن من الواضح أنّ العلم لا بدّ له أن يجتاز ذلك الطور قبل أن يصل إلى تحليل المركبات المادية وردِّها إلى عناصرها الأولى.

ولهم فضل عظيم في السبق إلى خدمة الطبيعيات لمهارتهم في الرياضيات، ورسموا جداول للثقل النوعيّ أو الجاذبية الأرضية. وقدّروا تخميناً دقّة الجاذبيّة الشعرية ـ نسبة إلى الشعرة لدقتها ـ وهم المخترعون الحقيقيون لبيت الإبرة ـ المسماة عند العامّة بالبوصلة ـ. وأمّا أهل الصين فإنّما

أوصلوا إلى العرب علم مناسبات الإبرة المغناطيسية، والعرب هم الذين ركّبوها في دائرتها، وأتحفوا الملاّح بهذه الآلة التي لا ثمن لها عنده. واخترعوا الساعة الكبيرة ذات (البندول) والعجلة. وأتقنوا الميزان، وهم الذين أبدلونا الرقوم العربية بالرقوم الروميّة الثقيلة المتعبة، وهم الذين استنبطوا قواعد علم النور والمرئيات التي هذّبها فيما بعد روجر بيكن، ووضعوا قواعد الكهرباء التي بنى عليها جربرت (Gerbert) مباحثه. وحتى علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) قد اشتغلوا في أساسه، ووقفوا على السنّة الكونيّة في التفتّت، ودرسوا طبيعة الصخور.

وأما علم المعادن، فقد خدمه حكماء العرب في القرن العاشر. قال الدكتور وود ورد (Woodward) في كتابه (تاريخ علم طبقات الأرض(History of Geology) : «ومن الّذين ألّفوا في صورة المعادن وتركيبها الطبيب ابن سينا، على حين كان العرب هم قادة العلوم في الغرب». وقال الأستاذ فوربز (Forbes) في كتابه: تاريخ علم الهيأة (History of Astronomy): «وابن رزفلة من أهل طليطلة أضاف تحسيناً عظيماً إلى الجداول الشمسية». وقال الأستاذ ميال (Miall) في كتابه: تاريخ علم الحياة (History of Biology) : «عند الكلام في العلوم على وجه عام، لقد تقدمت العلوم بسرعة تحت حكم الخلفاء». وقال السير ادوارد ثورب (Sir Edward Thorbe) في كتابه: تاريخ الكيمياء (History of Chemistrys) : «لقد تقدم علم الكيمياء الحديثة تقدماً معتبراً»، والحقيقة أنك لا تجد علماً من العلوم إلاّ والفضل الأكبر فيه للمسلمين من أهل المغرب وأهل الأندلس. وأعظم من ذلك كله أنّ لهم الفضل علينا في إحياء العلوم وبثّ روحها وعزمهم العظيم على أن يجدوا قواعد صحاحاً لسنن الطبيعة الحقيقية، وإن كانت منعت من التقدم بضعة قرون بسبب ضغط الكنيسة، ولكن لم يمكن محوها من ذهن الإنسان.

وسجية الإنسانية الكاملة التي كانت متمكنة من العرب المسلمين، حملتهم على أن يعنوا عناية خاصة بعلم الطب، وكان علم الكيمياء عندهم في أوّل

الأمر إنما هو علم إضافي لتكميل علم الطب، أي علم العقاقير. ووجد العرب المسلمون في هذه الوجهة أمامهم عقبة كئوداً بسبب المتعصبين في التصدي لتشريح أموات البشر، ولكن لا نشك في أن كبار مدرسي الطب العرب شرّحوا الحيوان، بل لا نستبعد أنهم شرحوا أجساد الأناسيّ خفية. وعلى كلّ حال فخدمة الأطباء العملية، كانت قد ارتفعت هناك إلى مستوى عالٍ، وكانت بقيّة أوروبا في الحضيض الأسفل. وكان أكثر العلماء كيفما كان علمهم ماهرين في الطب، ويروى أن دور الأطباء، حتى أكابر الأغنياء منهم، كانت مفتوحة في كلّ وقت للفقراء، وهم الذين أدخلوا كثيراً من العقاقير إلى أوروبا.

ولم يكونوا في خدمة التاريخ، أقلّ حماسة منهم في خدمة العلوم والفلسفة والشعر. وتقدم علم تخطيط البلدان (الجغرافية) عندهم تقدّماً أساسياً، لأن العرب كانوا ملاّحين شجعاناً حذّاقاً في الملاحة في وقتهم. فكانت رحلهم واسعة على قدر طموحهم وولعهم الشديد بحبّ الاستطلاع والتنقيب. وليس فضلهم في خدمة علم النبات بأقلّ مما سبق، لأنّ الخلفاء بعثوا العلماء لمراقبة الأعشاب والبقول عن كثب في جميع نواحي إسبانيا. وكانت حدائقهم فنيّة على مقتضى علم النبات تحتوي على طرائف الشرق والغرب. وكانت عندهم أيضاً طرائف أنواع الحيوان، لدرس علم الحيوان، ولهم ملاحظات وتنبيهات في التاريخ الطبيعي تختلف عن القصص الجاف الذي يرويه أهل البلدان الأخرى.

وهذه الأخبار ـ وإن كانت مختصرة جداً ـ فهي كافية في دلالة القارىء على أنّ العرب المسلمين هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدينة الجديدة في أهمّ نواحيها. والحق أقول: إنّ هلاك ثقافتهم الذي يبدىء ويعيد المقررون في تقريره ببلاغة، ويسمونه: «طرد الكفار»، قد أوقف رقيّ النوع البشري مدّة من الزمان. ومهما كان فلم يكن إطفاء أنوار علومهم كلّها، ولهم أوّلاً، ثم لليونانيين الأقدمين بواسطتهم، يرجع الفضل في إيجاد طلائع العلم من

النصارى كجربرت وروجر بيكن وألبرت الكبير (Albert The Great) ١١٩٣-١٢٨٠م، وكروسستت (Robert Grosseteste) ١١٧٥-١٢٥٣فهم الذين علّموهم.

فاقرأ مثلاً سيرة جربرت، تجده قد ولد في جنوبيّ فرنسة، وتعلّم في برشلونة ثمّ في جامعة قرطبة، فكلّ ذرّة من علمه المعتبر جاءت من العرب المسلمين. فتح جربرت مدرسة في ايطاليا، فقامت قيامة الرهبان وأثاروا الرعاع عليه، فأحرقوا مدرسته وكسروا أدواته وشتتوا شمل تلاميذه. والحكّام الماديون، لم يسعهم إلاّ أن يكرموا عالمهم النصراني الذي ليس لهم غيره، فبمساعدتهم صار أسقفاً، ومن مساخر التاريخ أنّه صار بعدُ بابا وسمّي: (سيلفستر الثاني) وكان ذلك في أسفل عصور البابويّة، وبعد أربع سنين مات، وهناك تهمة قويّة أنّه مات مسموماً، فلعنت الكنيسة ذكراه، ثم هي اليوم تفتخر به.

لكنّ روح علوم العرب المسلمين الحقيقية لم يمكن قتلها، فثقب نور مدنيتهم المشرقة ضباب الخرافة والجهل، ونتج شيءٌ من الحياء ومكارم الأخلاق، وحرّك رغبة أوروبا في العلوم العقلية. وفي القرن الحادي عشر (التالي لعصر قرطبة الذهبي) أخذت أوروبا تخرج من بربريتها، ومعظم أسبابه التقدم السياسيّ الذي نشأ عنه التقدم الاقتصادي، فصارت القرى مدناً، والمدن الصغيرة أمصاراً، والعامة أحرزوا قسطاً من العلم، والأشراف طمحوا إلى المعالي. ولما حصلت اليقظة الفكريّة في الممالك النصرانية، كان لزاماً أن تؤثر فيهم المدنية الأندلسية الزاهرة آثارها.

وليس هناك موضع، أسفت على ضيق المجال فيه طبقاً لبرنامجي، مثل ما أسفت عليه في هذا الكتاب، لأنّ تاريخ العرب المسلمين العلمي عظيم، وخدمتهم للنوع الإنسانيّ عظيمة جداً ومهمة. وقد غمط أكثر المؤرخين حقّهم، ولعبت أيدي المؤلفين المتعصبين لدينهم -يقصد النصارى- دوراً عظيماً، ومكروا مكراً كبّاراً في إخفاء فضلهم، فوجب عليّ أن أقف وقتي

أؤلِّف على الأقل ستة كتب على الأقل، مثل هذا في الإشادة بآثارهم.

ذلك ما قاله مؤلف نصراني هو العالم الشهير المصنف الكبير جوزف ماكاب (Josefh Maccab) الذي ولد سنة ١٨٦٧م وألّف (٢٥٠) كتاباً من أهم الكتب في الفكر الحديث، فيجلّه الأمريكيون حتى جعلوه أكبر عالم في الدنيا.

ولست أجهل أنّ المعلومات الواردة في كتابه متيسرة في المصادر الأندلسية، ولكنني آثرت أن أنقلها عن كاتب غير عربي ولا مسلم، حتى لا يتهم بالتحيّز والانحياز، وإنما الأعمال بالنيات، ولكل امرءٍ ما نوى.

الكارثة

ولما ضعف أمر العرب المسلمين في الأندلس، بسبب تفرّقهم واختلافهم وتنازعهم، غزاهم الإسبانيون، وأخرجوهم من الأندلس مدينة بعد مدينة. ولا أريد أن استصغر من شأن الغزاة الإسبان وأعمالهم، ولكن إذا حلّلناها نرى أنّها لا تشتمل على شيءٍ من الخوارق، إذ أُعلنت الحروب الصليبية ـ أي الغزوات الدينية ـ وكانت من الفظاعة والقسوة مثل الحروب الصليبية التي غزا فيها البابا أنسنت الثالث الألبجينيين[1]؛ فالصلبان التي يزيّن الأمراء والجنود صدورهم بها من الإنكليز والفرنسيين والقشتاليين، كانت هي الإذن في إطلاق العنان للنفوس الأمارة بالسوء في النهب والسلب والأعمال الوحشية[2].

---

(١) نسبة إلى (البجنس Albigens)، وكانوا خوارج على الدين المسيحي ومبتدعين فيه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكانت عقيدتهم مشبعة بالزهد والتقوى، ولكنهم كانوا يخالفون القسيسين، وينقمون عليهم ما كانوا يرتكبونه من الفساد، فاتّحد القسّيسون وفي مقدمتهم البابا، وعذّبوهم أشدّ العذاب، وكانت غاية هؤلاء القسيسين الاستيلاء على الماديات من متاع الحياة الدنيا لا غير، ونصبوا مجازر ذبحوا فيها خلقاً كثيراً وقتلوهم تقتيلاً فظيعاً. وكان الألبجينيون قد أخذوا بشيءٍ من المدنية، ولكن المذهب الكاثوليكي وقف عقبة كئوداً في طريقهم، وكان البابا أنسنت الثالث المغرور، قد أعلن الحرب الدينية عليهم، فظهرت حينئذٍ صفحة من أفجع صفحات التاريخ، وأبرزت العصبية نفسها في أفظع صورة وأحلكها، وقتلوا آلافاً من أولئك المساكين. ومن المعلوم أنّ الألبجينيين دافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت، ومع أنّ الكنيسة حشدت جميع قواها عليهم، فقد خسرت كثيراً من العَدَد والعُدَد، حتى كسرت شوكتهم وأحرقت منهم مائتين في يوم واحد، وأصبح تاريخهم أحلك صفحة في العصور المظلمة.
(جوزف ماك جب في كتابه: حضارة العرب في الأندلس ص: ٦٤).

(٢) يعني أنّه بمجرد حمل الصليب والتوجّه لغزو المخالفين، يحلّ للغازي كلّ شيء يريده =

تقدّم الصليبيون، وهم مزيج من كلّ جنس إلى قرطبة وإشبيلية في القرن الثالث عشر الميلادي، ومن ذلك العهد أخذت قرطبة التي كانت في علياء المجد، تتقلّص وتتضاءل حتى صارت قرطبة التاسع عشر الميلادي قرية حقيرة. ودمّر هؤلاء الصليبيون كلّ آية من آيات العرب المسلمين في الأندلس وإن دقّت، كما دمّروا ذكريات فنونهم، حتى سوَّوْا كلّ ذلك بالتراب. نعم، بقيت هناك منارة صغيرة ولكنّها فخيمة، تسمى: (جيرالدا)، لتخبر العالم ماذا خسره في الأندلس. وقد عمد أولئك الهمج إلى الآلات العلميّة فحطموها وجعلوها رميماً، لأنّهم كما قال سكوت: «كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً، أنّ تلك الآلات خطرة، ويظنّون أنّها آلات جهنّمية لأعمال السحر واستخدام العفاريت». وأخرجوا الكتب، وكانت لا تحصى كثرةً، وجعلوها أكواماً في الأزقّة، وأوقدوا فيها النيران. وأسلمت القصور المشيدة الجميلة والحدائق البهيجة لأيدي الخراب والضياع. ولما رأى الملك الإسباني أنّه ليس له قصر ملكيّ في المدينة التي كانت أكثر المدن مساكن عالية وقصوراً فخيمة، أفاق مِن سِنته، وبعث في طلب الصنّاع المتفننين والعَمَلة من العرب المسلمين، فبنوا له: «الكزر» القصر الذي نزوره اليوم، وحجارته مثل المقصورة المسماة «مقصورة السفراء»، تخبرنا أنّ العرب المسلمين كانوا يعرفون كيف يعيشون.

استراح الإسبانيون قرنين كاملين إلى جوار العرب المسلمين، وبقي الشعبان عائشين في سلم وأمان كالأخوين، وكان الإسبانيّ بطبعه يحبّ أن يعيش مع جيرانه في سلام، ويعظّم الشعب الذي كان يراه بالغاً ذروة العبقرية. ولكنّ القسيسين الذين بلغوا في العصبية الحضيض الأسفل، كانوا يضادون ذلك الميل، فما زالوا يفتلون للحكام في الذروة والغارب، ويحرضونهم على عدم التسامح في المدن النصرانية الجديدة مع القوم الذين كانوا هم بناتها وهم مزيّنوها، وأخيراً نجحوا في مطلبهم، وهو أنّ كلّ مسلم يوجد في بلدانهم

= فيمن يغزوهم، والصليب يشفع له وينقذه من آثامه وظلمه.

(جوزيف ماك جب في كتابه: حضارة العرب في الأندلس ص: ٦٥).

يُخَيّر بين أمرين: إما التّعميد والتنصر، وإمّا الجلاء[1]، فاختار العرب المسلمون الجلاء فراراً بدينهم وشعبهم، ليعيشوا في جوّ أمانٍ واطمئنان، فنشأت منهم مملكة في غرناطة عدد نفوسها ثلاثة ملايين نسمة، وكان ذلك في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو من مخازي الأمم النصرانية، فالبلاد التي نشاهدها اليوم في غاية الفقر والخراب، كانت هي فردوس أوروبة في أيام العرب المسلمين.

وقد جلب العرب المسلمون مياهاً كثيرة من الجبال وأعالي الأنهار، بسبب علمهم ونشاطهم اللذين ليس لهما نظير، فوصلت الفلاحة والغرس بذلك إلى أوج رقيهما. قال اسكوت: «لقد فاقت في علوّ قدرها وأهميتها في نتاجها العملية، جهود جميع الأمم المتقدمة والمتأخرة»، ومقابلة زراعة العرب المسلمين بما كانت عليه أوروبا من البؤس والعدم على وجه العموم، تجعل لها أعظم وقع في النفس. والنتيجة أنّ الأقوات كانت كثيرة ورخيصة في الأندلس، وكانت أنواعاً مختلفة، وصارت غرناطة مثل قرطبة غنيّة وجميلة جداً، وكانت جنّات الكرم والتوت الواسعة تؤتي أهلها أحسن الخمور وأجود الحرير. وكانت الفُرَض[2] التي وراء الجبال على المحيط، تمدّهم بجميع الطُّرف ومواد النعمة والرفاهية النادرة التي كانت توجد في قرطبة، وكانت الصناعات العربية الإسلامية أيضاً في أوج ارتقائها، وكانت هناك مقادير

---

(١) ويناسب هذا المقام، ما ورد في كتاب: (ماذر أمريكا=أمريكا الأم) للدكتور بوز الهندي، فيما نقله عن القسيس الأمريكي: (كيلكي Gilkey) من أكابر علماء أمريكا، وهذا معناه: «هل نحن الأمريكيين نصارى حقيقة، أم الشرقيون هم النّصارى حقاً؟ نرى أنّ الشرقيين يؤمنون بالمسيح ويتبعون أوامره، ويستنكفون عن اتباع مذاهب الغربيين، فيجب علينا معاشر الأمريكيين إما أن نثبت إدعاءاتنا، وإما نتركها نهائياً، لأننا نرى في الشرق أنّ الأجنبي يعامل بكل لطف واحترام، ويبذلون كلّ جهد في إسعافه بما يحتاج إليه. وكم منا يعامل الشرقيين كما ينبغي أن يعامل به البشر».
جوزف ماك جب ـ حضارة العرب في الأندلس ص: ٦٦».

(٢) تعرف عند العامة بالموانىء.

عظيمة من الجواهر تجعل فيها من الزينة والزخرفة ما لا يأتي عليه الوصف، وكان ذلك الزخرف في الأسلحة البديعة والحلل الفاخرة والأثاث النفيس.

ومن حسن الحظ، بقي قصر الحمراء الملكيّ ليرينا الجلالة والتأنّق والإبداع في فنون العرب المسلمين الأندلسيين، وحتى هذه الدرّة، أصابها ما أصابها على يد الإسبانيين، وكانت سائرة في طريق الخراب، لولا أنّ بقية أوروبا وأمريكا أجبروهم ش ضعلى أن يستبقوا شيئاً من الحياء. وحتى في هذا اليوم يجد فيها الإنسان لفظ: «أرض عبقر» حين يخرج من دهليزها المظلم إلى عرصة الأسود، فيرى سواري المرمر الدقيقة كأغصان البان، ويتملّى بالنظر إلى سطور الأساطين المستقيمة وسقوفها المصبوغة بالألوان الزاهية، إذا نظرت إليها خلتها زرابي أعجمية مرقّشة، أو رياض أزهار بهيجة، قد اشتبكت فيها أشجار الصناعة العجيبة. ولها طنوف مشرفة، قد أُفرغت في قوالب بديعة، يحار الواصف في وصفها. أمّا جدرانها ففيها من الترقيش العربيّ والتشجير والزخرف والأمثال والحِكَم المسطورة بأجمل شكل يذهل العقول ويروّع الناظرين. ولكن ينبغي لنا أن نتصورها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، حين كانت الثياب التي تُرى فيها كلّها من الحرير الخالص، وحين كانت جدرانها تتلألأ بالألوان اللازورديّةوالأرجوان والذهب، وحين كان الآس والأترج والورد، ومباخر الفضة يحترق فيها عود الطيب تفعم جوّها بالروائح الطيبة. وكانت على الجبل المجاور لها وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام التي لا تقل جمالاً وإبداعاً في الذوق عن الحمراء، إلاّ أنّها أقلّ تلألؤاً بالذهب والفضة والجواهر. قال سكوت: «ماذا عوّضنا الغازي الصليبي القشتالي الهمجي عن تلك القصور؟ وأيّ فائدة يجنيها النوع البشري من وراء تخريبها؟! فليجب عن هذا السؤال أولئك الذين يمجدون طرد (الكفار) من أوروبة» وكان الإسبان قد حشدوا جنداً عظيماً. أما العرب المسلمون فقد نقص عددهم من ثلاثين مليوناً إلى ثلاثة ملايين. ولم يكن ملك الإسبان

فرديناند[١] وملكتها إيزابيلا[٢] عديمي شهامة وعظمة كشهامة العرب المسلمين وعظمتهم فقط، بل لم يكن لهما شيء من المروءة العامة والحياء. أغار هذا الملك على أموال العرب المسلمين، فنهبها وتركهم يموتون جوعاً، وبذلك قهرهم وألجأهم إلى التسليم. حتى المسيحية الليدي تشارلتون بونج، رقّ قلبها لما أصاب العرب المسلمين، فقالت في ص: (١٩٠) من كتابها تذكر العهود والمواثيق التي أعطاها الإسبانيون للعرب المسلمين والشروط التي اشترطها العرب المسلمون عليهم ما نصّه: «تكون غرناطة حرماً آمناً لكلّ من يلتجىء إليها من المسلمين من جميع الأقطار، ويكون لأبي عبد الملك (الملك) ضيعة في أرض البشرّات (البوجارا)، وأنّ جميع السكان حتى الذين أسلموا من النصارى يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبيوتهم وسلاحهم

(١) فرديناند الخامس (Ferdinand) ملك قشتالة وليون (١٤٥٢ـ١٥١٦م) تزوج بابنة عمه ايزابيلا سنة ١٤٥٩م، وكانت ابنة الملك هنري الرابع، وإنما تزوج بها ليتخذ ذلك وسيلة إلى نيل الملك بلا مشقة. ولما مات الملك المذكور اجتهد فرديناند أن ينادي بنفسه ملكاً، ولكن ايزابيلا كانت داهية مكارة، فرأى فرديناند أنّه لا يتمكّن من إخضاعها، فاتفق معها على أن يتشاركا في الحكم، وكانت أخلاقه سيئة، يدل على ذلك أعماله الرذيلة التي ملأ بها حياته، وكان يفخر أنّه خدع لويس الثاني عشر ملك فرنسة اثنتي عشر مرة. كما نقض عهده الذي أعطاه إلى كريستوف كولومبوس. ومن المحقق أنّه كان كلما عقد معاهدة مع أي شخص كان يترك فيها ألفاظاً يمكنه أن يتّخذها وسيلة لنقض العهد. وكان يضطهد العلماء الذين لا يوافقونه، ويغتالهم، (أنظر جوزف ماك جب ـ حضارة العرب في الأندلس ص:٦٨).

(٢) إيزابيلا (Jsabella) ١٤١٥ـ١٥٠٤) ملكة قشتالة، استولت على الملك سنة ١٤٧٤م، داهية مكّارة متعصبة، بذلت جهدها في تجديد المحنة. وتعذيب المسلمين، وارتكبت خطايا كثيرة باسم الدين. وأما أحوالها الخاصة فلا تغبط عليها، لأنها كانت تفخر بأنها لم تغتسل في حياتها إلاّ مرتين: يوم ولادتها سنة ١٤١٥م، وليلة عرسها سنة ١٤٥٩م، وغُسِّلت حين ماتت سنة ١٥٠٤م، فتمت لها الغسلة الثالثة، والحقيقة أنها لم تغتسل بإرادتها إلاّ مرة واحدة، وهي في ليلة عرسها، لأنّ غسلها يوم ولادتها وغسلها يوم وفاتها ليس من عملها. أنظر جوزف ماك جب ـ حضارة العرب في الأندلس (٦٩).

وخيلهم، ولا يُسَلِّمون إلاّ أسلحتهم النارية، وأن يتمسكوا بشريعتهم وعاداتهم ولغتهم ولباسهم، وأن تكون مساجدهم مصونة من أيّ استعمال في غير عبادتهم. وأن دعاويهم تفصل على أيدي قضاتهم المحكمين من قِبَل الحكّام الإسبانيين، وأنّهم يؤدون لملك قشتالة من الخراج مثل ما كانوا يدفعونه لملوكهم لا غير، وأنهم يعفون من دفع الخراج مدة ثلاث سنين، ليستجمعوا ويستردوا ما فقدوا من أموالهم بسبب الحرب والحصار»[1].

ثم أخذت المؤلفة النصرانيّة المسكينة تتململ في سائر ما بقي من صفحات كتابها، من أجل غدر الملك والملكة الإسبانيين ونقض عهودهما التي أعطياها العرب المسلمين، إذ لم تشعر الملكة الناسكة بوجوب معاملة العرب المسلمين بمقتضى الشرف، بل لم تشعر إلاّ بشيءٍ واحد، وهو أنّه يجب أن تؤسس: «مملكة نصرانية»، كاد الناس يتميّزون من الغيظ كيف يتولّى عليهم حاكم محمّدي كافر! أخذ من المسلمين أحد مساجدهم، وجعل كنيسة: «وكان ذلك نقضاً للعهود» كما قالت المؤلفة النصرانية، ونفى المسلمين وعوملوا بأقسى معاملة بربريّة.

ولم ينجح القسيسون في تنصير العرب المسلمين، مع أنّهم أحرقوا مصاحفهم وكتبهم كلّها علانية، وجُعل أمر المسلمين من الوجهة الدينية إلى رئيس أساقفة طليطلة «المقدس» زيمنس. وباختصار فقد نقض كلّ سطر من سطور المعاهدة، وغدر الإسبانيون وأهانوا عهودهم، فهاجر قسم عظيم من المسلمين تاركين وراءهم كل ما يملكونه، ورحلوا إلى إفريقيّة، ولكنّ القسم الأعظم بقوا هناك ينافقون بإظهار النصرانية، ومَن لم يقبل النفاق منهم صاروا عبيداً للنصارى الغادرين. ثم جاءت المحنة: «محاكم التفتيش» فحرم عليهم كلّ شيءٍ من أمور دينهم، حتى الاغتسال في حماماتهم، ونهبت مئات من بيوتهم وطردوا من البلاد التي مدّنوها وعمروها، ولم يبق منهم هناك إلاّ

---

(١) أنظر التفاصيل في نفح الطيب (٢/ ٦١٥ـ٦١٦) وأنظر النص الإسباني في: نهاية الأندلس (٢٣٠ـ٢٣٩).

العجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فكانوا يسجدون للمسيح في الملأ، ويبصقون عليه في خلواتهم، لأن الكاثوليكيين لم يحسنوا معاملة المسلمين، ولم يكن لهم علم، فكانت أعمالهم وأقوالهم ناشئة عن الجهل المطبق، بعيدة عن التحقيق والعدل.

يقول ستانلي لين بول المؤرِّخ اليقظ، بينما كان زيمنس[1] رئيس محاكم المحنة في إسبانيا يصدر أوامره بمنع المسلمين من الاستحمام، واختيار صفة الوسخ التي يتصف بها مستعبدوهم[2]، كان نصف أهل أوروبة يرفضون

---

(١) زيمنس (Ximens) (١٤٣٧ـ١٥١٧م) كان رئيس الأساقفة، وفي أوائل أيامه وقعت عداوة بينه وبين المطران الكبير في طليطلة، فحبس مدة من أجل مكايده، ثمّ تعيّن قسيساً خاصاً لسماع اعترافات إيزابيلا، وكان يتظاهر بالزهد والتقشف والورع الكاذب، ولما استولى فرديناند وإيزابيلا على غرناطة، دَعَواه ليكون في خدمتهما هناك، وهو الذي أشار عليهما بالكيد للمسلمين والغدر بهم، ولم يقتصر على إتلاف جميع النسخ التي ظفر بها من القرآن، بل كان يتلف كلّ ما وصلت إليه يده من الكتب العلمية والأدبية، وهو الذي أمر بنصب محاكم المحنة (التفتيش) وتعذيب المسلمين تعذيباً كاد يحدث ثورة. وحينئذٍ ظهر بمظهره الحقيقي، فأخذ يعيش عيشة الملوك. حتى إنه لما مات فرديناند، قام زيمنس ونصب نفسه نائباً للملك شارل، لأنّه كان غائباً. وتمتع برئاسة الوزارة عشرين سنة، ثم عزل، فمات غماً من أجل عزله. وكان قاسي القلب، شديد الحقد لكل مَن يخالفه الرأي، ولو كان من أهل دينه. وكان رئيساً لمحاكم التفتيش، فقتل ألفين وخمسمائة شخص، وتحمّل إثم دمائهم في ذمته، ولا شك أنّ أعماله القاسية أحدثت ثورة، ولكنه قضى عليها بمكره. وكان لا يستنكف أن يكون قائداً للجيش بنفسه، متى اقتضت المصلحة ذلك، أنظر جوزف ماك جب ـ حضارة العرب في الأندلس ص: ٧٣.

(٢) نظافة البدن التي كان الأقدمون يعتنون بها كل الاعتناء، أُهملت كلّ الاهمال بعد انقراض دولة الروم، حتى أنّ أهل أوروبا لم يكونوا يغتسلون إلاّ في أحوال خاصة، وناهيك أنّهم كانوا يفرضون الغسل على مَن يريد الدخول في جماعة (تايتس) وهم أمراء الحروب الصليبية، ولذلك كانوا يسمونهم: فرسان الحمّام. وكان الملوك والملكات يقتدون برعاياهم في عدم النّظافة، حتى أنّ الملك العظيم لويس الرابع عشر لم يغتسل قط، بل كان يكتفي بالإدِّهان بالعطور، ولم تكن توجد حمّامات في قصور الأمراء والأغنياء، إلاّ في القرن التاسع عشر الميلادي، أنظر جوزف ماك جب =

دعاوى الفاتيكان، ويتخذونها سُخرياً، وكان العلماء يضعون العلم الحديث.

ذلك ما ذكره جوزف ماك جب في كتابه حضارة العرب في الأندلس، وما ذكره معروف التفصيل في المصادر العربية القديمة والحديثة، ولكنني آثرتُ أن أقتبس ما ذكره هذا المؤلِّف المسيحي وغيره من المؤلفين المسيحيين، لأنّهم مسيحيون يتحدّثون عن جرائم الإسبانيين المسيحيين في التخريب والتدمير واكتساح الحضارة والظلم والقتل والنهب والسلب والتنصير قسراً، خلافاً لما فعله العرب المسلمون بالإسبانيين النصارى أيام الفتح الإسلامي للأندلس، فما أكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، ولا ظلموا أحداً ولا خانوا عهداً، وتركوا أهل إسبانيا النصارى يمارسون عبادتهم بحرية في كنائسهم، وكان بإمكانهم في أيام الفتح ألاّ يتركوا إسبانياً واحداً يصر على التمسك بالمسيحيّة، ولكنهم لم يفعلوا، إذ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1].

وهذا هو الفرق العظيم بين المسلمين إذا حكموا وقدروا، وبين غيرهم إذ حكم وَقَدَر، كأنّ الشاعر حَيْصَ بَيْص أرادهم بقوله:

حَكَمْنَا فكانَ العفوُ مِنّا سَجِيَّةً   فلما حكمتم بالدم أبطحُ
فحسبكُم هذا التفاوت بينَنا   وكلّ إناء بالذي فيه يَنضح

وليس من الممكن اتّهام الأمريكي جوزف ماك جب بالافتراء على بني جنسه ودينه والانحياز للعرب المسلمين، لذلك آثرت اقتباس أقواله في هذه الدراسة.

وحريّ بي أن أنقل تلك العبارة الموجزة القويّة، التي يُجمل فيها الدكتور (لي)، وهو من أحدث الباحثين في هذا الموضوع، مأساة العرب المتنصرين، إذ يقول في مقدمة كتابه: «إنّ تاريخ الموريسكيين[2] لا يتضمّن فقط مأساة تثير

= ـ حضارة العرب في الأندلس ص: ٧٣.

(١) سورة البقرة ـ الآية: ٢٥٦

(٢) الموريسكيون Morisques: هم النصارى الذين تدينوا بدين الإسلام عن =

أبلغ عطف، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء التي اتّحدت لتنحدر بإسبانيا في خلال قرن، من عظمتها أيام شارل الخامس، إلى ذلّتها في عهد كارلوس الثاني»(١).

ويعلّق الناقد الغربيّ الحديث على موقف الإسبانيين من العرب المسلمين بقوله: «ولو نفِّذت هذه العهود (العهود التي قطعت لمسلمي غرناطة) بولاء، لتغيّر مستقبل إسبانيا كلّ التغيير، ولجمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس، ولغاض الإسلام مع الزمن(٢)، ولتفوّقت المملكة الإسبانية في فنون السلم والحرب، وتوطّدت قوّتها ورخاؤها. ولكنّ ذلك كان غريباً على روح العصر الذي انقضى، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلّة مروّعة، فاتّسعت الهوّة بين الأجناس على كرّ الزمن، حتى استعصى الموقف، وأدّى إلى علاجٍ كان من جرائه أن تحطّم رخاء إسبانيا»(٣).

وعلى نفسها جنت براقش، فقد كانت الأندلس بالمسلمين أستاذة الدول الأوروبية علماً وحضارةً وفكراً، وصناعة وزراعة وثراء، فأصبحت إسبانيا بدونهم في الدرك الأسفل من دول أوروبا علماً وحضارةً وفكراً، وصناعة وزراعة وثراء، وكانت الأندلس أقوى دولة أوروبية بالمسلمين، فأصبحت من

= رضي وطيب خاطر، بعد دخول المسلمين إلى الأندلس، فلمّا تغلّب المسيحيون على المسلمين وأرادوا إعادتهم إلى ملّتهم الأولى، فضّلوا الهجرة إلى بلاد الإسلام في المشرق والمغرب. أمّا كلمة: (مستعرب Mozarabe)، فكانت تطلق على المسيحيين الذين كانوا يعيشون تحت سلطة المسلمين، وكانوا مع ذلك يستعملون اللّغة العربية في جميع شئونهم العادية. أمّا كلمة: (مُدَجَّن Mudejar) فتطلق على المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت نفوذ المسيحيين، أنظر مقال: مع المورسكيين في بلاد الغربة ـ محمد محي الدين المشرقي، العدد ٢٤٩ من مجلة دعوة الحق المغربية. ص: ٣١ ١٤٠٥هـ

(١) نهاية الأندلس (٤) محمد عبد الله عنان ـ طَ ـ ١٣٧٨هـ ـ القاهرة.

(٢) Dr. Lea: The Moriscos, P. 22

(٣) في ذلك نظر، ولا أتفق مع رأي المؤلف في هذا.

بعدهم أضعف دولة أوروبية على الإطلاق، وقد خُيِّل للذين طردوا المسلمين وشردوهم وفتكوا بهم في الأندلس أنّهم أحرزوا على الإسلام نصراً حاسماً، ولكنّهم تيقّنوا بعد أن سبق السيف العَذَل، أنهم أحرزوا على أنفسهم لا على الإسلام نصراً حاسماً، وأنّهم خرّبوا بلادهم بأيديهم جهلاً وتعصباً وغروراً.

والدرس الذي ينبغي أن نتعلّمه من مأساة الفردوس المفقود، أنّ المسلمين انتصروا بعقيدتهم الراسخة ووحدتهم الصلبة؛ فلمّا تهاونوا بعقيدتهم، وتفرقوا شيعاً، خسروا بلادهم وخسروا أنفسهم وذلّوا.

ذلك ما ينبغي أن نتعلّمه من مأساة الفردوس المفقود، ولا ينبغي أنْ ننساه أبداً.

طارق بن زياد
فاتح شطر الأنْدلُس[١]

نسبه وأيامه الأولى

هو طارق بن زياد بن عبد الله بن رَفْهُو بن وَرْفَجُّوم بن بنزغاس بن وَلْهاص ابن يَطُّوفَت بن نَفْزاو[٢]، فهو بربريّ من نَفْزَة[٣]، وهو مولى لموسى بن نُصَيْر[٤] من سبي البربر[٥]، ويكون اسمه الكامل: طارق بن زياد النَّفْزاويّ البربريّ[٦] من إفْرِيقِيَّة[٧].

---

(١) أصل مصطلح الأندلس: مأخوذ من قبائل الوندال (Vandals) التي تعود إلى أصلٍ جرمانيّ، احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع وحتى الخامس الميلادي، وسميت باسمها (فاندلسيا Vandalusia) أي: بلاد الوندال، ثم نطقت بالعربية: (الأندلس). أما مدلول هذا المصطلح، فقد أطلقه المؤرخون والجغرافيون على كلّ شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال اليوم) والتي يسمونها أيضاً: (الجزيرة الأندلسية) ثم استعمل للدلالة على كلّ المناطق التي سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الإيبيرية، انظر: التاريخ الأندلسي (٣٧) وجغرافية الأندلس (٥٩) والروض المعطار (٤ـ٦و١٩) ونفح الطيب (١/ ١٣٣ـ١٣٥) ومعجم البلدان (١/ ٣٤٧ـ٣٥٠) والمسالك (٣٥) وتقويم البلدان (١٦٥ـ١٦٦).

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (٢/ ٥).

(٣) نفزة: هي نفزاوة، قبيلة من قبائل البربر الكبيرة. والبربر قسمان: البرانس والبتر، ونفزاوة قبيلة من قبائل البتر، انظر: محمد علي دبونس ـ تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٥) ـ القاهرة ـ ١٣٨٢ـ ط١، وانظر: جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ـ٥٠٣).

(٤) موسى بن نصير: انظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ـ٣٠٩).

(٥) انظر تفاصيل القبائل البربرية في: جمهرة أنساب العرب (٤٩٥ـ٥٠٣).

(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٤٦٤).

(٧) إفريقية: اسم بلاد واسعة، حدّها من طرابلس الغرب شرقاً إلى بجاية أو مليانة غرباً، =

وهذا هو الذي نعتمده لطارق بن زياد نسباً وموطناً، لأنه أقرب إلى العقل والمنطق، ومع ذلك لابد من ذكر الاختلاف في نسبه وموطنه، لتعليل أسباب هذا الاختلاف.

فقد ذكروا أنّه طارق بن عمرو[1]، لا طارق بن زياد، والمعروف في المصادر المعتمدة التاريخية والأندلسيّة، أنّه: طارق بن زياد، فهو الاسم المشهور به على أوسع نطاق، والمصادر التي ذكرته بأنّه: طارق بن عمرو قليلة جداً، لا تُعدّ شيئاً بالنسبة للمصادر المعتمدة التي ذكرته باسم: طارق بن زياد. كما أنّ المصادر القليلة التي ذكرته باسم: طارق بن عمرو، ذكرته بعد ذكر اسمه المعروف به والمشهور به وهو: طارق بن زياد، وكان ذكره باسمه الجديد بهذا التعبير: «وقيل: طارق بن عمرو»[2]، ولا يخفى أنّ مثل هذا التعبير بالنسبة للمؤلفين القدامى، يدلّ على عدم الثقة بصحّة المعلومات الواردة بعد تعبير: (قيل)، أو أنّها أقل أهمية من المعلومات الموثّقة الشّائعة.

وذكروا أنّ طارق بن زياد، كان فارسياً هَمَذانِيّاً-[3] نسبة إلى مدينة هَمَذان الفارسيّة - وهذا غير منطقي ولا معقول أيضاً، ولعلّ الذين نسبوا طارقاً إلى الفُرْس، استهدفوا قسماً من عَقِبِهِ الذين كانوا في الأندلس وأصبح لهم شأن يُذكر فيها، للحطّ من منزلتهم الاجتماعية، باعتبار تميّز العنصر العربي على عهد بني أُميّة على العناصر الأعجميّة، وبذلك استهدفوا بهذا الغمز قسماً من عِقِب طارق، ولم يستهدفوا طارقاً بالذات. كما يمكن أن يكون الذين نسبوا طارقاً إلى الفرس، بعد أن أصبح علماً من الأعلام البارزة قدراً وجلالاً، ليفخروا بنسبته إليهم، فكلّ أُمّة من الأمم تحاول أن تنسب إليها أصحاب

= انظر التفاصيل في معجم البلدان (١-٣٠٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (١٤٨)، وانظر نسبته إلى إفريقية في المغرب، نقلاً عن نفح الطيب (١/ ٢٣٠).

(١) بغية الملتمس (١٠) ونفح الطيب (١/ ٢٣٠) نقلاً عن ابن بشكوال.

(٢) بغية الملتمس (١٠).

(٣) أخبار مجموعة(٦) لمؤلف مجهول، ونفح الطيب(١/ ٢٥٤) نقلاً عن الرازي.

الصفحات الناصعة في التاريخ، لتفخر بهم بين الأمم. ومن الواضح أنّ نسبة طارق إلى الفُرس تمّت بعد وفاته، فهو لم يعرف هذا النسب في حياته، وما كان يمكن أن ينسب إليه وهو لا يزال على قيد الحياة.

وذكروا أنّه رجل من صَدِف[١]، وقيل: إنّه من موالي صَدِف، وليس بمولى موسى بن نُصَيْر[٢]، وكان بعض عقب طارق بالأندلس ينكرون ولاءه لموسى إنكاراً شديداً[٣].

وذكروا أنه طارق بن زياد اللّيْثِيّ[٤]، من بني لَيْث من قُضاعة[٥]، أي أنّه عربيّ من قُضَاعة.

ويقال: إنّ طارقاً مولى الوليد بن عبدالملك بن مروان[٦]، وقد تولّى الوليد الخلافة بعد وفاة أبيه عبدالملك بن مروان.

وطارق ليس من الصَّدِف ولا من بني لَيْث العرب، والذين نسبوه إلى بني الصَّدِف، أرادوا أنّه من مواليهم[٧]، كما أن الذين نسبوه إلى بني ليث قصدوا أنّه من مواليهم[٨] أيضاً، لأنهم يعلمون حق العلم أنّه بربريّ وليس عربياً. ومن المحتمل أنّ قسماً من عَقِبه في الأندلس، ادّعوا انتسابهم للعرب، في

---

(١) الصَّدِف: هم قبيلة الصَّدِف، من بني حَضْرَموت، وهو الصَّدِف بن أسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت الأكبر، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٦١) وكانوا في إشبيلية وهم بنو حضرموت، ويسمَّون: بنو خلدون الإشبيليون أنظر جمهرة أنساب العرب (٤٦٠) وانظر نسبة طارق إلى قبيلة صدف في: نفح الطيب(١/ ٢٥٤) نقلاً عن الرازي، و (١/ ٢٣٩).

(٢) أخبار مجموعة (٦).

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٥٤) نقلاً عن الرازي.

(٤) ابن خلدون (٤/ ١١٧) وانظر نفح الطيب (١/ ٢٣٢) وبنو ليث هم: بنو ليث ابن سُوْد بن أَسْلُم بن الحافي بن قضاعة، انظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣-٤٤٥).

(٥) انظر جمهرة أنساب العرب (٤٤٣-٤٤٤).

(٦) تهذيب ابن عساكر (٧/ ٤١).

(٧) أخبار مجموعة (٦).

(٨) الأعلام (٣/ ٣١٣).

وقت كان للعرب فيه مكان مرموق، فأقحم بعض المؤرخين عن قصد أو عن غير قصد هذا الادّعاء، الذي لا سند من الواقع ولا من التاريخ.

أما الادّعاء بأنّه مولى للوليد بن عبدالملك، فادّعاء لا أساس له من الصحة، إذ لو كان مولى للخليفة الوليد لولاّه القيادة، ولم يترك توليته للقائد موسى بن نُصَير. ولا نعلم أنّ طارقاً رحل إلى الشرق واتصل بالوليد، ولا نعلم أنّ الوليد قدم المغرب واتّصل بطارق، فلا صلة من ناحية الولاء بين طارق والخليفة الوليد من قريب ولا من بعيد، وليس من المستبعد أنّ بعض عَقِب طارق، أراد أن يرفع درجة ولاء جدّهم طارق، من رتبة مولى موسى بن نُصَيْر أحد ولاة الخليفة وأحد قادته، إلى رتبة مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك، وهي أرفع من رتبته الأولى على كلّ حال.

وكان من نتائج كلّ تلك الادّعاءات، إنكار بعض عَقِب طارق بالأندلس ولاءه لموسى إنكاراً شديداً.

ولو لم يكن طارق مولى لموسى بن نُصَيْر حقاً، لما أنكر (بعض) عَقِبه هذا الولاء، ولم ينكره (جميع) عقبه، ومن الواضح أنّ المُنكِرين ادّعوا انتسابهم للعرب تارة، والولاء للعرب تارة، والولاء للخليفة تارة أخرى، لأنّ هؤلاء المُنْكِرين لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا موالي للموالي، لأنّ موسى بن نُصَيْر مولى لعبدالعزيز بن مروان أخي الخليفة عبدالملك بن مروان، وطارق مولى لموسى نُصَيْر، فعَقِبه يكونون موالي للموالي، وهذا ما لم يستطيعوا تحمّله ولا تقبّله، وبخاصة بعد أن تبدّل حالهم غير الحال، وأصبحوا من ذوي المكانة في الأندلس.

نستطيع أن نستنتج، أنّ طارق بن زياد بربري من قبيلة نَفْزاوة إحدى قبائل البتر من البربر، وهو مولى لموسى بن نُصَير، الذي اكتشف كفاياته القياديّة والإدارية، فولاّه أولاً على طَنْجَة[1]، ثم ولاّه على قوّات فتح الأندلس، كما

---

(١) طنجة: مدينة قديمة على البحر الأبيض المتوسط، بينها وبين مدينة سبتة مسيرة يوم واحد، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (٦/ ٦٢) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم =

سيرد تفاصيل ذلك وشيكاً.

ولابدّ من أن يكون إسلام طارق وحسنُ إسلامه، أحدَ المزايا التي حملت مولاه موسى بن نُصَيْر على الثقة به والاعتماد عليه، فهو من أسرة اشتهرت بسبقها إلى اعتناق الإسلام، إذ أسلم والد طارق أيام عُقْبة بن نافع الفِهْريّ[1]، والتحق هو بعد وفاة والده بخدمة المسلمين، وكان إذ ذاك صغير السنّ، ولكنه كان يتمتّع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدِّين الإسلاميّ، جعله أشد المقرّبين إلى موسى بن نُصَيْر، ومن الطبقة الأولى من رجال البربر الذين اختصهم بسرِّه وثقته المطلقة، وأشركه مشاركة عملية في رفع راية الإسلام[2].

ويبدو أنّ جدّ طارق، وهو عبد الله، كان مسلماً، بدليل اسمه العربي الاسلاميّ، مما يدلّ على أنّ طارقاً ولد في بيت إسلامي وترعرع في هذا البيت وشبّ في مجتمع إسلاميّ، ولعلّ تدينه العميق لفت إليه الأنظار، بالإضافة إلى مزاياه وكفاياته الأخرى، وكان قربه من موسى بن نُصّيْر قد أتاح له الفرصة المناسبة لتولّي المناصب الإدارية والقيادية المناسبة، فنجح في الإدارة وفي الفتح معاً.

= البلدان (١٣٢).

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٩٠-١٣٦) وكتابنا: عقبة بن نافع.

(٢) الشيخ محمد أبو زيد طنطاوي -فتح العرب الأندلس- مجلّة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة (٤٣-٤٤) -العدد الثاني- السنة العاشرة - رمضان١٣٩٧هـ - مؤسسة مكة للطباعة والإعلام.

في فتح طنْجَة

بعد أن تمَّ لموسى بن نُصَيْر، إخضاع المغرب الأوسط[1] والمغرب الأقصى[2]، من صحراء دَرْعَة[3] إلى السُّوْس الأقصى[4] إلى بلاد المصامدة[5]، تطلّع موسى نحو طَنْجَة التي كانت تخضع للأمير الرُّومِي يُلْيَان (جوليان Julian) منذ أيام عُقْبَة بن نافع.

والمقصود بطنجة هنا، هو الولاية التي كانت تتّسع في القديم لمسيرة شهر، وليس المدينة فقط[6].

وقد خرج موسى بن نُصَيْر من ....

(١) المغرب الأوسط: من شرقي وهران إلى آخر حدود مملكة بجّاية انظر تقويم البلدان (١٢٢) وانظر التفاصيل عن المغرب في أحسن التقاسيم (٢١٥ـ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ـ٣٥٣) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٨٥ـ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ـ٨٨) وصفة المغرب (٢ـ٢٩) والمسالك والممالك للأصطخري (٣٣ـ٣٨) وهي جمهورية الجزائر في الوقت الحاضر، انظر تاريخ المغرب العربيّ (١٢).

(٢) المغرب الأقصى: من ساحل البحر المحيط غرباً إلى تلمسان شرقاً، ومن سبتة إلى مراكش ثمَّ إلى سجلماسة وما في سمتها شمالاً وجنوباً، انظر تقويم البلدان (١٢٢) والمصادر المنوّه عنها في المادة (١) أعلاه مباشرة، وهي المملكة المغربية في الوقت الحاضر، انظر تاريخ المغرب العربي (١٢).

(٣) درعة: مدينة بالمغرب بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/ ٥٣).

(٤) السّوس الأقصى: أقصى بلاد البربر على المحيط، والسوس الأقصى اسم مدينة أطلق اسمها على كورة السوس الأقصى، ذات المدن والقرى الكثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧٢) والمسالك والممالك (٣٤) والمشترك وضعاً (٢٥٩).

(٥) المصامدة: جمع مصمودة، وهي قبيلة مصمودة بن برنس، من قبائل البربر البرانس، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٠).

(٦) تاريخ المغرب العربي (٢١٢).

القيروان[1] لفتح طنجة، وجعل على مقدّمته مولاه طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة، وهي قصبة بلادهم وأُمّ مدائنهم؛[2] فلما دنا موسى من طنجة، بث السَّريا، فانتهت خيله إلى السّوس الأدنى[3]، فوطئهم وسباهم، وأدّوا إليه الطّاعة، وولّى عليهم والياً أحسن فيهم السِّير[4].

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها[5] ونزلها، وهو أوّل مَن نزلها واختط فيها للمسلمين[6]، فأسلم أهلها، وخطّ موسى قيرواناً للمسلمين[7].

وسار موسى إلى مدائن على شطّ البحر، فيها عُمّال لصاحب الأندلس، قد غلبوا عليها وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن مدينة سَبْتَة[8]، وعليها يُلْيَان (جوليان)، فقاتله موسى، فألفاه في نَجْدَةٍ وقوّة وعُدَّة، فلم يُطِقْهُ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه. وأخذ في الغارات على من حولهم والتّضييق عليهم، والسُّفن تختلف إليهم بالميرة والإمداد من الأندلس من قِبَل ملكها غَيْطَشَة، فهم يذبّون عن سبتة ذبّاً شديداً، ويحمون بلادهم حماية

---

(١) القيروان: مدينة كبيرة معروفة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ١٩٣ـ١٩٥) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ـ٣٤٨) والمسالك والممالك (٣٤) وتقويم البلدان (١٤٤ـ١٤٥) وآثار البلاد (٢٤٢).

(٢) نفح الطيب (١/ ٣١٥) و (١/ ٢٣٤).

(٣) السوس الأدنى: كورة كبيرة بالمغرب، مدينتها طنجة، والسوس مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها: قمونية، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين وبعده المحيط الأطلسي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧٢) والمشترك وضعاً (٢٥٩).

(٤) فتح مصر والمغرب (٢٧٦).

(٥) نفح الطيب (١/ ٢١٥) و (١/ ٢٣٤).

(٦) البلاذري (٢٣٢) وفتوح مصر والمغرب (٢٧٦).

(٧) نفح الطيب (١/ ٢٣٤).

(٨) سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، تقابل جزيرة الأندلس، على طرف الزقاق، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٦).

تامّة[1]. وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس[2]، مما ساعد على ثباتها بوجه المسلمين الفاتحين.

وكان بطنجة من البربر بطون البُتْرِ والبرانس ممن لم يكن دخل في الطّاعة[3]، فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط فيها مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان، ولكنّ مروان انصرف وخلّف على جيشه طارق بن زياد[4].

وبذلك تمّ فتح المغرب الأقصى، إلاّ إقليم سبتة، وانتشر الإسلام في أرجائه انتشاراً سريعاً وواسعاً، وكان ذلك سنة تسع وثمانين الهجرية(٧٠٩م).

وعاد موسى إلى القيروان، بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وترك معه تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعُدَّة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم، وخلّف موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب، ليعلِّموا البربر القرآن الكريم وفرائض الإسلام[5].

وفي الطريق إلى القيروان، فتح موسى مدينة مَجَّانة[6] على مسيرة خمسة أيام من القيروان[7]، على الحدود الجزائرية - التونسيّة الحالية[8]، وكانت مجّانة قلعة تحصّن أهلها من موسى حين عودته إلى القيروان[9]، فاستعاد

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٣٤).
(٢) معجم البلدان (٥/ ٢٦).
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٧٦) وانظر ما جاء عن ذلك مختصراً في كتاب: الإسلام والعرب (١٤٠).
(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٧٥).
(٥) نفح الطيب (٢٢٤).
(٦) مجّانة: بلد بأفريقية، بينها وبين القيروان خمس مراحل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٨٦).
(٧) معجم البلدان (٧/ ٣٨٦).
(٨) تاريخ المغرب العربي (٢١٤).
(٩) ابن الأثير (٤/ ٢٠٦).

موسى فتحها، لأنها سبق أن فتحها بِسْر بن أبي أرْطاة[1].

لقد افتح موسى بلاد المغرب، وغنم منها أموالاً لا تُعدّ ولا تُوصف، وله بها مقامات مشهورة هائلة[2]، وأسلم أهلِ المغرب على يديه، وبثّ فيهم الدين والقرآن[3]، فكان يأمر العرب أن يعلِّموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين[4]، فلم يبق في إفريقية مَنْ ينازعه[5]، غير منطقة سَبْتَة وعلى رأسها يُلْيَان (جوليان).

لقد لمع اسم طارق بن زياد، قائداً مرءوساً لموسى بن نُصَيْر، في مسيرة الجهاد الطويلة، التي بدأت من القيروان، واستمرت غرباً حتى تمّ لها فتح طنجة، وكان طارق على مقدَّمة موسى في هذا الفتح المبين، وتولية طارق قيادة المقدّمة، في مسير الاقتراب، وفي المناوشات التي تكلّلت لأوّل مرة بفتح طنجة، دليل على ثقة موسى الكبيرة بطارق، ودليل على كفاية طارق القياديّة.

وبعد أن عاد موسى إلى القيروان التي اتخذها مقرّاً له، خَلف طارقاً على طنجة، والياً على المدينة ومنطقتها الشاسعة المهمّة، وبخاصة في موقعها الحيويّ السَّوْقِيّ، الذي هو بتماس شديد مع يليان في سبتة والذي أثبت جدارته في الدفاع عن حوزة سبتة وما حولها، وقاوم المسلمين مقاومة عنيفة، فاستطاع أن يصدّهم عن فتح بلاده إلى حين. كما أن طارقاً في منطقة طنجة السَّوْقِيّة، هو بتماس شديد مع دولة الأندلس وحماتها الذين كانوا وراء نجاح يليان في دفاعه العنيف ونجاحه في دفاعه الذي تميّز بالحركة التعبويّة، وكل

---

(1) فتوح مصر والمغرب (٢٧٦) ومعجم البلدان (٧/ ٢٨٦) وانظر ترجمة بسر بن أبي أرطاة في: قادة فتح المغرب العربي (٢/ ١٣ـ٣٥).

(2) البداية والنهاية (٩/ ١٧١).

(3) البداية والنهاية (٩/ ١٧٢).

(4) البيان المغرب (١/ ٣٦).

(5) ابن الأثير (٤/ ٢٠٦).

ذلك دليل قاطع على ثقة موسى بطارق، الذي أصبح والياً على منطقة طنجة، وقائداً لحامية مدينتها بخاصة والمجاهدين من البربر بعامة، ومشرفاً على نشر الإسلام وتعليم القرآن وتعاليم الدين الحنيف، فأثبت أنّه أهل لتلك الثقة، وقادر على النهوض بواجباته الكثيرة بكفاية عالية وحماسة وإيمان واندفاع.

وقد أتاح الاتّصال المباشر لطارق بموسى بن نُصير، فرصة إظهار مواهبه الإدارية والقيادية، فولاّه موسى منصب الوالي على طنجة، ومنصب القائد على قوّاتها المسلحة. ولكن هذا الاتّصال المباشر لطارق بموسى باعتبار أنّ طارقاً هو مولى لموسى، ليس السبب لتولية طارق هذين المنصبين الرفيعين، في أخطر منطقة من مناطق الشمال الأفريقي بعد فتحه، إذ لا يمكن إسناد مثل تلك المناصب في أخطر الظروف والأحوال، إلاّ لمن يستحقها كفاية واقتداراً، وإلاّ كانت نتيجة تولية غير ذوي الكفاية والقدرة كارثة محققة أكيدة تصيب الفتح والفاتحين، وتؤدي إلى خسارة المنطقة بكاملها بالإضافة إلى خسائر بالأرواح والممتلكات وتحطّم المعنويات، وهذا ما لا يمكن أن يقع فيه قائد مجرِّب حصيف مثل موسى بن نُصَير، ومن المشكوك فيه أن يقع فيه قائد غير مجرِّب وغير حصيف أيضاً.

إنّ الاتصال المباشر لطارق بموسى، أتاح له الفرصة لإظهار كفاياته الإدارية والقيادية، وهذه الكفايات لا تصاله المباشر بالقائد العام لشمالي إفريقية، هي التي جعلت المناصب الإدارية تسعى إليه ولا يسعى إليها. وقد أتاحت المسيرة الطويلة في الجهاد لموسى، أن يكتشف عن كثب كفايات طارق، فولاّه الإدارة والقيادة عن اقتناع. وكان ذلك في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٩م)، وأبقى معه عدداً قليلاً من العرب، مهمّتهم نشر تعاليم الإسلام بين البربر(١).

---

(١) ابن حبيب (٢٢٢) وابن عبد الحكم (٢٠٤ـ٢٠٥) وذكر بلاد الأندلس (٨٣ـ٨٤) رقم ٨٥ج وابن الأثير (٤/ ٥٤٠) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠) والبيان المغرب (١/ ٤٢) والنويري (٢٢/ ٢٢) وابن خلدون (٤/ ٤٠٢) ونفح الطيب (١/ ٢٣٩) وانظر تاريخ =

وليس كالاتصال المباشر في ميدان الجهاد، في أحرج الظروف والأحوال، وفي مواجهة المعضلات الإدارية وإيجاد الحلول الناجعةلها، ما يظهر المرء على حقيقته في كفايته ومزاياه واقتداره، وهذا هو ما أبرز طارقاً إدارياً وقائداً.

= المغرب العربي (٢١٤) والفتح والاستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس (١٤٣).

جهاده في الأندلس

١ - مقدمات الفتح

أ - الأسباب:

كان فتح الأندلس نتيجة طبيعيّة لتمام فتح المغرب، لأنّ الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب[١]، ولأنّ الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلاميّ بعد إنجاز فتح المغرب الأفريقيّ، واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام في ربوعه، وبوجود القوّة الضّاربة بجانب العرب المسلمين والبربر المسلمين.

ولم تستعص على موسى بن نُصَيْر غير مدينة سَبْتَة (Gevta) لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطيّة عن طريق البحر، وكان يحكمها من قِبَل القُوط[٢] حاكم اسمه: جوليان، أو كما يسميه الأسبان (خوليان Julian) ويسميه العرب: يُلْيَان[٣]، !! إليان[٤]، أو يوليان[٥]. وقد اختلفت المصادر في شخصيّة يليان، فبعضها يذكر أنّه قُوطيّ، وبعضها يزعم أنّه روميّ، وبعضها ينسبه إلى بربر قبيلة غمارة[٦]. والواقع أنّ يليان كان حاكماً

---

(١) المسالك والممالك للأصطخري (٣٣).

(٢) يذكر صاحب أخبار مجموعة: أن موسى بن نُصَيْر سار إلى مداين تقع على شاطىء البحر، فيها عمّال صاحب الأندلس، على رأسها سبتة، انظر: أخبار مجموعة في فتح الأندلس (٤).

(٣) البيان المغرب (٢/ ٦).

(٤) صفة المغرب للبكري (١٠٤).

(٥) ابن الأثير (٤/ ٢١٣).

(٦) انظر تاريخ المسلمين في الأندلس (٤٧) وفجر الأندلس (٥٢-٥٣).

عاماً على إقليم موريطانيا الطنجية، وهي تابعة لموريطانيا القيصرية، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطيّة، فلما عجزت الدولة البيزنطيّة عن حمايتها، ولّت سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية[١]. وقد بدأ يليان ولايته لهذا الاقليم في سنّ مبكِّرة، وأنّه أقام مدّة طويلة في أرض المغرب، حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له، حتى أصبح يعدّ نفسه واحداً منهم، لذلك اختلط الأمر على الناس، فظنّوه بربرياً، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى بربر غمارة. أما علاقته بالدولة القوطية في إسبانيا، فمرجعه أنّه كان يتوجّه بطلب المعونة إلى هذه الدولة، لبعد مدينته عن بيزنطة، واضطراب أمور بيزنطة في تلك الأيام[٢].

وكان يليان حليفاً لملك إسبانيا غيطشة (Witiza) الذي تولّى عرش البلاد في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة (٧٠٠م) بعد وفاة أبيه إخيكا (Egica) وقد خُلع غيطشة عن العرش على أثر ثورة قام بها نفرٌ من أنصار لذريق[٣] (Rodrigo) وأثار اغتصاب لذريق للعرش الإسبانيّ نقمة أنصار غيطشة وأبنائه، فهبُّو على هذا المغتصب الذي انتزع الملك لنفسه من البيت المالك الشّرعيّ، وبدأت حركة استقلاليّة في أطراف البلاد، ظلّت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

وفرّ ابن غيطشة المدعو وقلة (Achila) الذي تولّى العرش بعد أبيه إلى إفريقية، وأقام عند يليان حاكم سبتة الذي كان لا يزال على ولائه للملك غيطشة وأولاده، بينما استبقى لذريق ولدي غيطشة الآخرين وهما: أرطباس

---

(١) ذكر الحميري أن يُليان هذا كان عامل لذريق على سبتة ـ انظر الحميري ـ صفة جزيرة الأندلس ـ نشره ليفي بروفنسال ـ القاهرة ـ ١٩٣٧م.

(٢) انظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٤٧ـ٤٨) وفجر الأندلس (٥٣ـ٥٤).

(٣) ورد اسمه في تاريخ الطبري (٥/ ٢٤٥): ادرينوق، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) لذريق. وفي ابن الأثير (٤/ ٢١٣) لذريق وفي ابن خلدون (٤/ ١١٧) لذريق وفي اليعقوبي (٣/ ٢٩) أدريق.

(Artavasdes) والمند (Almundo) إلى جواره، حتى يستوثق إخلاصهما له، ويقضي بذلك على الثورات المناهضة لحكومته والموالية لبيت غيطشة.

وساءت حال البلاد في عهد لذريق، إذ أرهق شعبه بالضرائب الفادحة، لحاجته إلى المال اللاّزم لمواجهة أعدائه. ويبدو أنّه اعتدى على ذخائر الكنائس القوطيّة ونفائسها التي كانت محفوظة في غرفتين مغلقتين في كنيستي (سان بدرو) و (سان بابلو) في طُلَيْطِلَة[١]، فنصحه القساوسة ورجال البلاط بعدم الإقدام على ذلك، فلم يُصغ لنصحهم، ومن هنا جاءت الأسطورة التي رواها مؤرخو العرب، وهي أسطورة بيت الحكمة[٢].

وقد حقق قسم من المؤرخين الغربيين شخصية يُلْيَان، وأثبتوا وجودها فعلاً، بعد أن كان قسم من العلماء الغربيين، قد ذهبوا إلى أنّه شخصية أُسطورية خلقها خيال العرب[٣].

وقد عرف المسلمون يليان أوّل مرّة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم

---

(١) طليطلة: مدينة كبيرة في الأندلس، على شاطىء نهر تاجه، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٥٦) وتقويم البلدان (١٧٦ـ١٧٧).

(٢) خلاصة هذه الأسطورة، أنّه كان في طليطلة دار ملك القوط، بيت مغلق يحرسه قوم من ثقات القوط. وكانت العادة أنّه إذا تولّى من القوط ملك زاد على البيت قفلاً، فلما تولّى لذريق عزم على فتح الباب والاطّلاع على ما بداخل هذا البيت، فأعظم ذلك أكابرهم، وتضرعوا إليه أن يكفّ عن ذلك، فأبى. وظنَّ أنّه بيت مال، ففضّ الأقفال عنه ودخله، فأصابه فارغاً لا شيء فيه، إلا المائدة التي كانت تُعرف بمائدة سليمان، وتابوت عليه قفل، فأمر بفتح التابوت، فألفاه فارغاً ليس فيه شيء غير شقّة مدرجة، قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم، متقلّدي السّيوف، متنكبي القسيّ، رافعي الرايات على الرّماح، وفي أعلاها كتابة بالعجمية، فقُرئت فإذا هي: إذا كُسرت هذه الأقفال من هذا البيت، وفُتح التّابوت، فظهر مافيه من هذه الصورة، فإنَّ الأُمّة المصوّرة قد تغلب على الأندلس وتملكها.

انظر التفاصيل حول هذه القصة في: تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (٣٢ـ٣٣) والبيان المغرب (٢/ ٤) ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/ ٢٣١ـ٢٣٢) و (١/ ٢٣٥).

(٣) انظر التفاصيل في فجر الأندلس (٥٢ـ٥٣).

طنجة سنة تسع وثمانين الهجريّة (٧٠٩م)، وكان ملك إسبانيا في ذلك الحين غيطشة، وكان الودّ معقوداً بينه وبين يليان[١]. فلما أراد المسلمون فتح سبتة، دافع عنها يليان دفاعاً شديداً واستطاع صدّ المسلمين عن فتحها، كما ذكرنا ذلك.

وكان موسى يتوق إلى افتتاح سبتة، وتطهير إفريقية من البقيّة الباقية من الأعداء. وبينما كان يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، جاءته رسالة من يليان، يعرض فيها تسليم معقله، ويدعوه إلى فتح إسبانيا. وتختلف الروايات في أمر هذا الاتصال، فيقال إنّ موسى ويليان اتّصلا بالمراسلة، وقيل إنّهما اتّصلا بالمقابلة الشخصية، وأنّ يليان استدعى موسى إلى سبتة، وهناك وقعت المفاوضة بينهما. وقيل أخيراً إنّهما اجتمعا في سفينة في البحر[٢]. وتقول روايات أخرى: بأنّ يليان سار إلى طارق بن زياد والي طنجة، وأخبره بأنّه مستعد للتعاون مع جيشه للحرب في إسبانيا أرض القوط[٣]. ولا تناقض بين تلك الروايات، كما يبدو ذلك لأول وهلة، فالذي حدث هو أن يليان فاوض موسى بن نصير أولاً لأنه القائد العام في إفريقية. فلما عاد إلى القيروان أكمل يليان مفاوضاته مع طارق بن زياد لأنه قائد المنطقة القريب منه والمسئول عن المنطقة والمخوّل من القائد العام موسى بن نصير لإكمال المفاوضات. وقد كان طارق رجلاً سياسياً بحق بعيد النظر، فصادق يليان ليستعين به على إخضاع مَن تحت سلطانه من البربر، وهم كثيرون[٤].

ومن الواضح أنّ السّلام الذي رفرفت راياته بين المسلمين ويليان سببه

(١) فجر الأندلس (٥٤).

(٢) راجع ابن الأثير (٤/ ٢١٣) والبيان المغرب (٢/ ٦) وانظر: أخبار مجموعة (٥) وفتح الأندلس (٣ـ٤)، والحميري (٧-٨)، ونفح الطيب (١/ ٢٥١-٢٥٣).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وتاريخ افتتاح الأندلس (٧ـ٨) والبيان المغرب (٢/ ٦ـ٧) وابن خلدون (٤/ ٢٠٣) ونفح الطيب (١/ ٢٣٢ـ٢٣٣).

(٤) فجر الأندلس (٥٤ـ٥٥).

المباشر: انقطاع المدد من إسبانيا بعد رحيل غيطشة وتولى لذريق، ذلك المدد الذي أعانه على الثبات أمام المسلمين الفاتحين. فلما انقطع المدد لانشغال لذريق عن يليان بالاضطرابات الداخلية، كما سيرد تفصيل ذلك، أصبح يليان ضعيفاً أمام المسلمين الفاتحين، وأصبح ثباته في سبته تجاه تفوّق المسلمين وانتشار الإسلام في البربر انتشاراً واسعاً صعباً للغاية، لذلك فاوض موسى وطارقاً، وقام السّلام بين يليان والمسلمين، وأصبح التعاون بين الجانبين ممكناً وقائماً.

وسبب إقدام يليان على عرض تعاونه في فتح الأندلس قائم على أساس أنّ لذريق اعتدى على شرف ابنة يليان، فحقد يليان على لذريق وأقسم على الانتقام منه[١].

ويرى أكثر المؤرخين العرب، أنّ السبب الرئيسي لفتح الأندلس، هو قصّة ابنة يليان التي اغتصبها الملك لذريق واعتدى على شرفها قسراً ولكن بعض المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم قسم من المستشرقين، يرون بأنّ قصّة ابنة يليان في بلاط طليطلة محض أسطورة ليس لها أساس من الواقع، وقد شايعهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين[٢]. وهناك ما يسوغ التشكيك في هذه القصة من مؤرخي الأجانب والمستشرقين، والهدف من هذا التشكيك واضح ومفهوم، ولكن متابعة المؤرخين العرب والمسلمين للأجانب في هذا

---

(١) مجمل القصة، أن يليان أرسل ابنته إلى بلاط لذريق لتتعلّم وتتثقف مع بنات الملك، وقد سحر جمالها الملك الذي حاول أن ينال منها، فقاومته ورفضت، فلجأ إلى العنف واغتصبها رغم إرادتها، أُنظر التفاصيل في أخبار مجموعة (٥) وابن الأثير (٤/ ٥٦٠ـ٥٦١) والنويري (٢٢/ ٢٥ـ٢٦) والحميري (٧) ونفح الطيب (١/ ٢٥١ـ٢٥٣).

(٢) قارن: Saavedro,PP . 58-59 وفجر الأندلس (٥٩ـ٦٠) ومحمود علي مكي ـ ملحمة آخر ملوك القوط ـ المجلة (٣٠ـ٣٥) العدد ٧٤ - ١٩٦٣ ومحمد عبد الله عنان ـ دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٣٥ـ٣٧) والفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٠).

التشكيك في هدفه غير واضح ولا مفهوم، ومن المعروف أنّ مؤرخي الأجانب شككوا في وجود شخصية يليان وذهبوا إلى أنّه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب - كما ذكرنا قبل قليل- فتابعهم في هذا التشكيك قسم من مؤرخي العرب والمسلمين تقليداً وعلى غير هدى وبصيرة. حتى إذا حقق قسم من المؤرخين الغربيين شخصية يليان، وأثبتوا وجودها فعلاً، عاد المقلدون إلى متابعة الغربيين من جديد، فكانوا في كلا الحالتين مقلِّدين ينقلون آراء الأجانب بلا تدقيق ولا تمحيص.

وقصة ابنة يليان تنتظر مَن يحقِّق وقوعها من المؤرخين الغربيين لتصبح حقيقة بالنسبة لبعض مؤرخي العرب والمسلمين المحدثين ولا تبقى أسطورة من الأساطير. ولا أرى أنّ تلك القصة لا يمكن حدوثها. وبخاصة في تلك الأيام التي اتّسمت بالانحراف الذي أصبح قاعدة في القوط، وبالاستقامة التي أصبحت استثناءاً فيهم، كما أنّ ردّ الفعل الذي أظهره يليان ليس مستغرباً من أب تجاه انتهاك عرض ابنته غصباً، كما أنّ ذكرها في المصادر المعتمدة يوثِّق حدوثها ويؤيِّد وقوعها، ولا عبرة بالمصادر التي لم تتطرق إليها اختصاراً أو لأسباب أخرى، إذ لو كانوا لا يصدقونها لأبدوا رأيهم حولها، ولكنهم لم يفعلوا[١]. ومثل هذه القصة تكرّرت قديماً في محيط الواقع ولا تزال تتكرر، وأكثرنا سمع أمثالها، فلماذا لا نكذِّبها؟ ونكذِّب قصة ابنة يليان لأن مصادرها المعتمدة عربية إسلامية؟!

ولست مع الذين يُشككون في هذه القصة، ولكنني لا أراها السبب الرئيسي لتعاون يليان مع المسلمين، بل السبب الرئيسي هو أنّه كان يتلقى الإمدادات عدداً وعُدداً من إسبانيا في عهد غيطشة[٢]، ولكن عندما جاء لذريق إلى العرش، وبسبب مشاكله الداخلية، توقف عن مساعدة يليان، فاستاء من هذا

---

(١) البلاذري (٢٣٠-٢٣١) برواية الواقدي، والبيان المغرب (٢/٦) برواية الواقدي و(٢/٤)برواية عريب بن سعد، وابن الشباط(١٠٥-١٠٦)برواية عريب بن سعد.

(٢) أخبار مجموعة (٤).

التوقّف، وبدأ بالتعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد على القوط في إسبانيا، خاصة بعد ما شعر بقوّة المسلمين المتنامية في المنطقة، وإقبال البربر على الدخول في دين الله أفواجاً.

ويمكن أن نلخِّص أسباب فتح الأندلس بثلاثة أسباب رئيسية:

الأول: نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله في الأرض. إنّ الفاتحين حملوا الإسلام إلى الناس بالفتح، ولم يحملوا الناس بالفتح على الإسلام.

والثاني: ترصين الفتح الإسلامي في شمالي إفريقية بعامة، وفي منطقتي طنجة وسبتة بخاصة، وذلك بفتح الأندلس، فكما كانت منطقتا طنجة وسبتة تعتبران الخط الدفاعي الأمامي عن الأندلس، فان الأندلس تعتبر الخط الدفاعي الأمامي للدفاع عن منطقتي طنجة وسبتة. وقدرأينا كيف قاومت سبتة المسلمين الفاتحين مقاومة عنيفة، وثبتت تجاه محاولاتهم المتكرِّرة لفتحها، بفضل الإمدادات التي كانت تردها بحراً من القوط في إسبانيا، فلما تخلى القوط عن تزويدها بالإمدادت، صالحت المسلمين أو استسلمت لهم على أصحّ تعبير، لأنها عجزت عن مقاومتهم.

إنّ وجود قوّات معادية قويّة في الأندلس، خطر على الفاتحين وعلى مصير الفتح، وبخاصة في منطقتي طنجة وسبتة، لذلك بادر المسلمون بالتعرّض بالقوط في الأندلس، وفتح هذه البلاد، والهجوم هو أجدى وسيلة للدفاع.

والثالث: هو معاونة يليان للمسلمين وتعاونه معهم في الفتح، وتشجيعهم عليه، وحثِّهم على إنجازه، فقد سهّل يليان على المسلمين الفتح بدون شك، ولكنّهم كانوا يُقْدِمون عليه حتى ولو لم يتعاون معهم يليان ولم يعاونهم، لأن ذلك كان قدرهم في تلك الأيام.

ب - الاستطلاع:

بدأ موسى بن نُصير استشارته للخلافة في دمشق، وكان الخليفة حينذاك هو الوليد بن عبدالملك بن مروان (٨٦هـ - ٩٦هـ) قبل اتصالاته بيليان، أو قبل

اتصالات يليان بموسى. وقد تردّدت الخلافة بادىء الأمر بالموافقة على القيام بمثل هذه العملية الكبيرة، وخوفاً على المسلمين من ركوب البحر، ومن مصاعب القتال بحراً وبرّاً، وهي تعلم أنّ خبرة العرب المسلمين في فنون القتال البحري قليلة جداً ، وربما يدور في خلدها وصف عمرو بن العاص للبحر في رسالته إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه التي جاء فيها: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلاّ السماء والماء. إن ركد خرق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول. يزداد فيه اليقين قِلَّةً، والشكّ كثرة. هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. . . ».

ولكن موسى بن نُصير، أقنع الخليفة الوليد بن عبدالملك بالأمر، فتمّ الإتفاق على أن يسبق الفتح اختبار مواقع الإنزال بالسرايا الاستطلاعية.

وأرسل موسى في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠م) سرية استطلاعية إلى جنوبي الأندلس، مكوّنة من خمسمائة مجاهد، منهم مئة فارس والباقي مشاة، بقيادة طريف بن مالك الملقّب بأبي زُرْعة، وهو مسلم من البربر[١].

وعبر هذا الجيش الزُّقاق، والزُّقاق اسم يطلق أحياناً على المضيق بين الأندلس وشمالي إفريقية[٢]، من سبتة بسفن يُليان أو غيره، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما (Isla de las Palomas) في الجانب الأسباني، وعُرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد. جزيرة طَريف[٣] (Tarifa) ومن ذلك الموقع، الذي اتخذه طريف قاعدة أمامية متقدِّمة لعلمياته الحربية، قام طريف وسريته

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٦٠، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٥٣) والروض المعطار (٨و١٢٧) والبيان المغرب (٢/ ٥) وانظر التاريخ الأندلسي (٤٥).

(٢) التاريخ الأندلسي (١٣٠) نصّ ابن الشباط، والروض المعطار (٨٣و١٢٧) ومقدمة ابن خلدون (١/ ٤٢٧).

(٣) دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٢٠) وفجر الأندلس (٦٧) وانظر الفتح والاستقرار العربي والإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٢).

الاستطلاعيّة القتالية، بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل الجنوبي الأندلسي بإرشاد يليان، وخفّت قوّة من أنصار يليان وأبناءغيطشة لعون المسلمين، كما قامت تلك القوّة بحراسة موقع إنزال المسلمين في أرض الأندلس، للاستفادة منه في مرحلة العودة من غارتهم إلى قاعدتهم الرئيسية على البر الأفريقي في منطقة طنجة. وكانت نتيجة الغارات الاستطلاعية التي قادها طريف، أنّ المسلمين غنموا مغانم كثيرة وسبياً عديداً، وقوبلوا بالإكرام والترحيب، وشهدوا كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها، وعادوا في أمنٍ وسلام، وقصّ قائدهم على موسى نتائج رحلته، فاستبشر بالفتح، وجدّ في أهبة الفتح، كما تشجّع موسى وأخذ يستعدّ لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح المستدام(١).

لقد كانت مهمة سرية طريف، مهمة استطلاعية، هدفها الحصول على المعلومات عن طبيعة الأرض، والسكان وأساليب قتالهم ودرجة ضراوتهم، وتفاصيل قيادتهم، ومبلغ الثقة المتبادلة بين القيادة والسكان ومبلغ حرص القيادة والسكّان على الدفاع عن أرضهم، وكان لقيام طريف بعدة غارات في المنطقة دون أن يلاقي أيّة مقاومة(٢) نتيجة مهمّة واحدة، هي عدم حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم، وهي نتيجة على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لخطط الفتح وبالنسبة للمسلمين الفاتحين.

ولكن مهمّة سرية طريف الاستطلاعية، لم تقتصر على هذه الناحية فحسب، بل تتعدّاها إلى استطلاع حقيقة نوايا يليان ومن يشايعه تجاه السُّلطة القائمة في الأندلس والمتمثلة بالملك لذريق، وحقيقة نواياه ومَنْ يشايعه تجاه المسلمين الفاتحين، وقد أثبتت مهمة سرية طريف الإستطلاعية، أنّ يليان

---

(١) Saavedra. op. pp. 64.

(٢) أخبار مجموعة (٦) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٥) وذكر بلاد الأندلس (٨٤) وابن الأثير (٤/ ٥٦١) والبيان المغرب (٢/ ٥) والنويري (٢٢/ ٢٦) ونفح الطيب (١/ ١٦٠) و (١/ ٢٥٣_٢٥٤).

ومَن يشايعه يحقدون على لذريق ولا يتأخرون عن التشبث بكل وسيلة ممكنة للقضاء عليه، وأنهم من أجل التنفيس عن حقدهم عمليّاً، يضعون كل طاقاتهم المادية والمعنوية للتعاون مع المسلمين في ميدان القتال ومعاونتهم. وكان التأكد من تلك النوايا، ضرورياً لاستكمال الإعداد للفتح، وقد تأكد لموسى وطارق، أنّ يليان ومَن يشايعه صادقون في معاونتهم وتعاونهم مع المسلمين الفاتحين، وأن عرضهم التعاون والمعاونة ليس خدعة، بل حقيقة لا غبار عليها.

وقد وصفت المصادر العربية هذه العملية، فذكرت أنّ موسى بن نُصير كتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك بالذي دعاه إليه يُليان من أمر الأندلس، ويستأذنه في اقتحامها، فكتب إليه الوليد: أن خضها بالسرايا، حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال. وراجعه، أنه ليس ببحر زخّار، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه. فكتب إليه: وإن كان، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه. فبعث موسى عند ذاك رجلاً من مواليه اسمه طريف، يُكنى أبازُرعة، في أربعمائة رجل معه مائة فرس، سار بهم في أربعة مراكب، فنزل في جزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء، التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم، ويقال لها اليوم: جزيرة طريف، لنزوله بها[1]. وهذا هو مثال لحرص المسئولين يومئذ، قادةً وخلفاء، على أرواح المسلمين، وقد أدّى طريف ومَن معه واجبهم الاستطلاعي المزدوج على أتم ما يرام.

* * *

(١) نفح الطيب (١/٢٥٣) والبيان المغرب (٢/٦) ووفيات الأعيان لابن خلكان (٥/٣٢٠) وانظر التاريخ الأندلسي (٤٦).

٢ - الفتح

أ - الخطّة العامّة:

جهّز موسى بن نُصَيْر جيشاً تعداده سبعة آلاف جندي من البربر، ليس فيهم من العرب المسلمين إلاّ القليل[١]، وينتمي البربر في هذا الجيش إلى قبيلة مصْمُودة وغيرها من القبائل البربرية مثل جرادة، ومطغرة، ومكناسة، ومَدْيُونَة[٢]، وضم الجيش سبعمائة مقاتل من السودان[٣]، ويمكن أن يكون هؤلاء السودان من المتطوّعة الذين اعتنقوا الإسلام، فكان لهم دور كبير في مساعدة طارق في الفتح، لأن قتالهم كان قتال المجاهدين الصادقين لا قتال المجنّدين المرتزقة الذين جُلبوا إلى ميدان القتال قسراً.

وعبر طارق بجيشه البحر تباعاً من سبتة في سفن يليان التجارية[٤]، وكان عبوره من سبتة بسبب رغبة طارق في إيجاد مكان ملائم للإنزال على الشاطئ الإسباني في منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة، ولكنّ طارقاً تخلّى عن الإنزال في هذا المكان عندما وجد جماعة من القوط حاولت منع إنزال قواته، فأبحر منه ليلاً إلى مكانٍ وعرٍ من الشاطئ. وقد حاول تسهيل عملية الإنزال

---

(١) الروض المعطار (٩) ونفح الطيب (١/ ٢٣١و٢٣٩و٢٥٤) والبيان المغرب (٢/ ٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠).

(٢) ومصمودة من البرانس، وجراوة من زناتة التي هي من البتر، ومطغرة من البتر أيضاً، ومكناسة من البتر أيضاً، وكذلك مديونة، انظر ما جاء حول مشاركة هذه القبائل البربرية في جيش طارق الفاتح في: عبيد الله بن صالح (تحقيق بروفنسال) ص: ٢٢٤ وعبيد الله بن صالح (المخطوط) ص: ٢٨ وابن خلدون (٦/ ٢٣٩ و٢٥٦ و٢٦٥ و٤٦٢) وانظر الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٢).

(٣) ذكر بلاد الأندلس (٨٤) رقم ٨٥ج وفتح الأندلس (٨٥).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٦) وقارن Gayangos. vol.1. pp.519-520

(الابرار) باستخدام المجاذيف والبراذع الخاصة بالخيول، التي ألقيت على الصخور لتلافي خطرها، وبهذه الطريقة تمكن طارق من الإنزال المفاجىء من غير أن يراه أحد من العدو على الشاطى[١].

وقد نُفِّذت عملية الإنزال في الليل، واستغرق الإنزال أكثر من ليلة واحدة، بسبب قلة المراكب، التي كانت دائبة على نقل الرجال بين الشاطئين، إلى أن تمّ إنزال جيش طارق بسلام على أرض إسبانيا. ويقول بعض المؤرخين، إنّ طارقاً كان آخر مَن عبر إلى إسبانيا[٢]، ويقول آخرون: إنّه أبحر في اللّيل مع أوّل جماعة، وإنه أخفى نفسه في الجبل حتى الليلة التالية، حيث أرسل المراكب مرة أخرى لتعود ببقية رجاله[٣]، وعلى ذلك فيكون طارق قاد فعلاً المجموعة الأولى من قوّاته إلى الشاطى الإسباني، ولكن ما إن هبطت هذه المجموعة بسلام، حتى عاد بالمراكب إلى سبتة، لكي يشرف على نقل بقية رجاله بنفسه، ومن ثمّ أبحر مع المجموعة الأخيرة من الرجال.

وتمّ الإنزال على صخرة تسمى: جبل كالبي (Mons Calpe) التي اتخذت اسم طارق منذ ذلك اليوم، فأصبحت تسمى بجبل طارق، وجرى الإنزال يوم الاثنين الخامس من شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين الهجرية[٤] (٢٧ نيسان - أبريل سنة ٧١١م).

وهكذا يكون القائد الحق، يُشرف على إنزال الوجبة الأولى، لأن إنزالها يكون من أخطر الوجبات، ولأنها تكوِّن رأس الجسر للقوات التي يجري إنزالها بالتعاقب، فيشرف القائد على إنزال سائر الوجبات، حتى يكون مع وجبة الإنزال الأخيرة، ليطمئن أن قواته أكملت عبورها، وجرى إنزالها في المكان المناسب، ويتأكد من عدم تخلّف فرد من أفراد قواته عن العبور لسبب

---

(١) ابن الكردبوس (٤٦) وانظر البيان المغرب (٢/ ٩).
(٢) البيان المغرب (٢/ ٦) ونفح الطيب (١/ ٢٥٤).
(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٠٥-٢٠٦).
(٤) نفح الطيب (١/ ١١٩) والبيان المغرب (٢/ ٦).

من الأسباب.

ولكن، لماذا استعان طارق بسفن يليان التجارية؟

«كان يليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولايشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنّون أنّ المراكب تختلف بالتجار»[(١)]، وهذا يدلّ على أنّ طارقاً استعان بسفن يليان التجارية، لأنه أراد أن يحيط عملية الإنزال بالسرية التامة، وذلك باستعماله مراكب تجارية لا تعود للمسلمين، لا لأن المسلمين لا يمتلكون السُّفن الكافية.

ومن الواضح، أن المسلمين حينذاك، كانوا يمتلكون سفنهم الخاصة بهم، فقد كان اهتمام المسلمين بصناعة السفن مبكّراً، إذ أدركوا حاجتهم إليها، فأقاموا عدّة دور لصناعة السفن، مثل دار الصناعة في تونس التي أقامها حسَّان بن النعمان الغسَّاني[(٢)]، بل إنّ معركة بحرية كاملة خاضها المسلمون على شواطىء تونس سنة ثلاث وثلاثين الهجرية أو أربع وثلاثين الهجرية، هي معركة ذات السواري، استخدموا فيها أسطولهم المكون من مائتي سفينة[(٣)].

وكان قد مضى على فتح الشمال الأفريقي عقود من السنين قبل فتح الأندلس، وكانت شواطئه الطويلة الممتدة على البحر الأبيض المتوسط (بحر الرّوم) والأطلسي، تجعل المسلمين بحاجة إلى السفن، وهو أمر لا يتم بالإعارة والاستئجار. وقد سبق للمسلمين نشاط بحري حربي انطلق من شمالي إفريقية، ففي سنة ست وأربعين الهجرية، وجّه معاوية بن خُدَيج[(٤)] والي إفريقية أسطولاً عدّته مئتا سفينة لفتح جزيرة

---

(١) البيان المغرب (٢/٦).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/١٧٦-٢٢٠) وانظر كتاب: وصف إفريقية للبكري (٣٨-٣٩) حول إنشاء دار الصناعة في تونس، وانظر كذلك: المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس لابن أبي دينار (١٥و٣٥).

(٣) أُنظر: الاستيعاب (٣/٩١٩) والعبر (١/٣٤) وانظر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضيّ (١/٣١١).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/٩٠-١٣٦).

صِقِلّية[1]. وفي سنة ست وثمانين الهجرية، وجه موسى بن نُصير حملة على صِقِلّيّة محمولة على مراكب صُنعت في تونس[2].

وكل ذلك يؤكد أن للمسلمين دور صناعتهم، ولكن استعانة طارق في عبور قوّاته بسفن يليان، كان لتأمين مباغتة القوط الكاملة، لا عن حاجة للسفن، وبعد انكشاف حركة إنزال المسلمين الأولى، نُقل المدد إلى طارق بالسفن الإسلامية: «وكان موسى منذ وجّه طارق لوجهه، قد أخذ في عمل السفن، حتى صار عنده منها عدّة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً»[3].

وجرى تجمع جيش طارق بعد إكمال إنزاله في الطرف الإسباني، على جبل صخري، عُرف فيما بعد باسم جبل طارق[4] (Gibraltar) كما عرف به المضيق باسم مضيق جبل طارق، وبكلّ اللغات، وهذا ذكرى لطارق وعملية إنزال جيشه، وتخليداً لبطولته.

ومنذ بدأ إنزال جيش طارق على الساحل الأندلسي، بدأ رجال طارق بتحصين موضع الإنـزال، الذي أصبح منطقـة التجمع لجيشه في جبل طارق، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات[5]، «فلما حصلوا في الجبل، بنوا سوراً على أنفسهم يسمى سور العرب . . . إلخ»[6] فشكك بعض المؤرخين الغربيين وتابعهم في هذا التشكيك بعض المؤرخين العرب والمسلمين تقليداً، فقالوا من جملة ما قالوا: «ومن غير المحتمل، أن يكون طارق قد حصّن منطقة جيشه في جبل طارق، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات، لأن هدفه الأول لم

---

(١) البيان المغرب (١/ ١٦ـ١٧).
(٢) البيان المغرب (١/ ٤٢).
(٣) نفح الطيب (١/ ٢٥٧).
(٤) نفح الطيب (١/ ١٤٥ـ١٤٦ و١٥٩ـ١٦٠).
(٥) ذكر بلاد الأندلس (٨٤ـ٨٥) والبيان المغرب (٢/ ٩) وابن خلدون (٤/ ٢٤٥) ونفح الطيب (١/ ٢٣٢).
(٦) البيان المغرب (٢/ ٩).

يكن البقاء على الصخرة، بل فتح المناطق المجاورة للجزيرة الخضراء، والسيطرة على الجانب الإسباني من المضيق، لحماية تجهيزاته ومواصلاتها في شمال إفريقية»، وهذا هو مجمل ما جاء في تشكيكهم أو اعتراضهم على ما ورد في المصادر العربية المعتمدة حول التحصين.

ومن الواضح، أن المؤرخين الغربيين الذين اعترضوا على ما سجلته المصادر العربية، حول تحصين منطقة تجمع جيش طارق في جبل طارق، وشايعهم على اعتراضهم قسم من المؤرخين العرب والمسلمين، لم يفهموا المعنى الدقيق للتحصين الذي سجلته المصادر العربية المعتمدة، فحفر الخنادق في المواضع الممكن حفرها هو تحصين، فإذا كانت الأرض صخرية كما هو الحال في منطقة جبل طارق، فإن التحصين يتم بإقامة جدار من الصخور المتيسرة والأحجار، يحتمي وراءه المقاتلون من سهام العدو المصوبة نحوهم ليلاً أو نهاراً، وإقامة الجدار للحماية بالصخور والأحجار هو تحصين أيضاً، وهو ما قصدته المصادر العربية المعتمدة، لا إقامة الحصون المشيدة، كما فهمها بعض المؤرخين الغربيين ومَنْ شايعهم من المؤرخين العرب والمسلمين. والمدنيّون الذين لم ينتسبوا للسلك العسكري في يوم من الأيام، معذورون في سوء فهمهم لتعبير: التحصين[(١)]، كما ينبغي.

إن من واجب كل مقاتل، أن يحصن موقعه، حتى ولو بقي فيه ساعة من نهار أو ليل، ومن واجب القائد ورجاله ألاّ يغفلوا عن تحصين مواقعهم، استعداداً لأسوأ الاحتمالات، وذلك للدفاع تجاه تعرّض معادٍ محتمل، فهذا

---

(١) في الكليات العسكرية يتلقى الطلاب درساً مهماً هو درس: التحصين، يتدرّبون فيه على حفر أنواع الخنادق، في الأماكن الممكن حفرها، وإقامة المنعات من الحجارة والصخور وزرع الربايا في المناطق الجبلية، ثم يعملون في التمارين التعبوية على تحصين مواقعهم بالخنادق أو الصخور والحجارة فور الوصول إليها حتى ولو كان بقاؤهم فيها مدة قليلة جداً، وعملهم في الحفر وإقامة المنعات والربايا الصخرية يسمى: التحصين، وهو من أوّل واجباتهم بعد وصولهم إلى أي موقع من المواقع. وفي اللغة حَصُنَ المكانُ: مَنُعَ.

هو دأب القائد الجيّد والمقاتلين اَلجيّدين.

وهكذا أصبح لجيش طارق رأس جسر على برّ الأندلس، ومنطقة تجمع في جبل طارق، أصبحت بعد تحصينها قاعدة أمامية متقدمة، يستند عليها ذلك الجيش، في انطلاقه نحو أهدافه لفتح الأندلس، تحقيقاً لخطة الفتح المرسومة.

ب - المناوشات التمهيدية:

لم يكد طارق يكمل تحصين تجمع جنده في جبل طارق، حتى أصبحت تلك المنطقة قاعدة أمامية متقدمة أمِينَة للمسلمين، صالحة للانطلاق منها للفتح. وحين فرغ من تحصين قاعدته الأمامية المتقدمة، أرسل أحد قادته المرءوسين، وهو عبدالرحمن بن أبي عامر المعافِري على رأس فرقة مختارة من رجاله، سارت بحذاه الساحل شمالاً بغرب، فاستولت على مدينة من مدن الأندلس اسمها: قَرْطاجَنَّة الجزيرة[1] (قرطاية Carteya Torre de Cartagena)، ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء[2] (Algeciras) في مقابل جبل طارق، وهناك وقعت مناوشات مع قوات القوط، انتصر فيها المسلمون. ويذكر صاحب تحفة الأنفس، أنّ قتالاً جرى عند أو قرب جبل طارق، «فاقتتلوا ثلاثة أيام، وكان على القوط تُدْمير، استخلفه لذريق ملك القوط، وكان قد كتب إلى لذريق ليعلمه بأن قوماً لا يُدرى أهم من

---

(١) قرطاجنة الجزيرة: مدينة بالأندلس، تُعرف بقرطاجنة الخلفاء، قريبة من آلشن، من أعمال تدمير، وكانت عملت على مثال قرطاجنة التي بإفريقيّة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٥٣) والمشترك وضعاً (٣٤٢) وانظر ما جاء حول هذا الفتح في البيان المغرب (٢/ ٣).

(٢) الجزيرة الخضراء: مدينة أمام سبتة من برّ الأندلس الجنوبي، وهي مدينة طيبة نزهة توسطت مدن الساحل، وأشرفت بسورها على البحر، ومرساها أحسن المراسي للجواز، وأرضها أرض زرع وضرع، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة، أُنظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٧٣ـ١٧٤).

أهل الأرض أم من أهل السماء، قد وطئوا إلى بلادنا، وقد لقيتهم، فلتنهض إليّ بنفسك»[١]. وتُدمير هو تيودومير القوطي، عامل لذريق على تلك المنطقة من الأندلس وقائدها، وكانت بإمرته قوّات محلية تابعة لعامل لذريق وبقيادته، فكان الاصطدام الأول بين المسلمين وقوات القوط، اصطداماً على نطاق الجيش المحلي أو القوات المحلية لمنطقة جنوبي الأندلس، ولم يكن اصطداماً على نطاق القوة الضاربة للملك القوطي. وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كله بيد المسلمين، فعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند، حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم متوقع، وأمن المسلمون من أن يعبر عدوّ إلى مواقعهم عند جبل طارق، فيهدد تلك المواقع وطريق مواصلاتهم التي تربطهم بقواعدهم في إفريقية[٢].

وسارع لذريق بإرسال ما تيسَّر له من قوات خفيفة بقيادة ابن أخيه بنج[٣] (Banj) وهو (بالإسبانية Sancho أو Bancho) ولكن طارقاً قضى على تلك القوات، ولم ينج من جندها إلاّ واحد اسمه: بِلْياسن (Williesindo - Beliasin) أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى الشمال عند بَنْبُلُونَة[٤]، وأخبره نزول المسلمين البلاد، فسارع لذريق نحو الجنوب، حتى دخل قُرْطُبَة[٥]، ثمّ أخذ يستعد للحركة جنوباً للقاء المسلمين[٦]. ومن الواضح أنّ بلياسن حمل إلى

---

(١) تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس (مخطوطة) من (٧٠) علي عبد الرحمن ابن هذيل.

(٢) Saavedra, pp. 65.

(٣) البيان المغرب (٢/ ١٠).

(٤) بنبلونة: مدينة أندلسية في غربي الأندلس، خلف جبل الشارة، انظر تقويم البلدان (١٨٠-١٨١).

(٥) قرطبة: مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها، كانت عاصمة لملكها وقصبتها، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٧/ ٥٢) وتقويم البلدان (١٧٤-١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢).

(٦) نفح الطيب (١/ ١٤٩).

لذريق أخبار إبادة قوات ابن أخيه بنج الخفيفة، وأن الذي حمل إليه أخبار إنزال العرب في الأندلس هو (تدمير).

وأقصد بالقوات الخفيفة، القوات التي تتحرك بسرعة على ظهور الخيل، ومن المحتمل أنّ تلك القوات جُمِّعت من القوات القوطية المحلية، وقد أصبحت خيولهم غنائم للمسلمين[1].

والذي يبدو، أنّ قرارلذريق السريع، بعد علمه بإنزال المسلمين في جبل طارق، وفتحهم جنوبي إسبانيا بالكامل تقريباً، وتوقعه أن ينطلقوا شمالاً لاستكمال الفتح، هو أنه أمر ابن أخيه بنج، أن يلتقي بالمسلمين على عجل، ويحاول إيقاف تقدمهم في الأندلس أولاً، وإجلاءهم عن الساحل الذي فتحوه، ليعودوا من حيث أتوا إلى قواعدهم الأمامية في سبتة وطنجة. ولتحقيق النصر على المسلمين، عمد بنج إلى حشد قواته المحلية الخفيفة من الخيالة، وأسرع نحو الجنوب لمواجهة المسلمين الفاتحين، دون أن يعرف أنّ المسلمين كانوا في مواضع حصينة لا يسهل التغلب عليها، وفي معنويات عالية تساعدهم على التغلب بسهولة وسرعة على عدوِّهم، ولهم قيادة واعية تحسب لكل شيءٍ حسابه وتضع الحلول المناسبة لما قد يصادفها من معضلات، ولهم جنود من المجاهدين الذين يتوخّون إحدى الحُسنيين: النصر أو الشهادة، ولديهم مخابرات نشطة ترصد لهم تحركات العدو وسكناته، وتجعلهم يجاهدون وهم في النور لا في الظلام.

وكان نتيجة المعركة التصادفية التي خاضها بنج على رأس قواته المرتجلة، نكبة قاصمة للظهر عليه وعلى قواته، فلم ينج منهم إلاّ واحد نجا بأعجوبة، ليحمل أنباء الكارثة التي حلّت ببنج وقواته إلى الملك لذريق.

والسبب في عدم إرسال لذريق قوات كافية من القوات التي بإمرته، هو بُعد تلك القوات عن مسرح العمليات، حيث كانت في أقصى الشمال، ومسرح

---

(١) الرازي ـ نشر سافيدرا (١٤٦ـ١٥٠) والبيان المغرب (٢/٨).

العمليات في أقصى الجنوب، وتَنَقُّل القوات من الشمال إلى الجنوب يحتاج إلى وقت طويل، يؤدي إلى ترصين مواضع المسلمين وتقويتها، في وقت يكون فيه القوط بحاجة ماسة إلى السرعة، للتغلب على المسلمين الفاتحين قبل أن يرسِّخوا أقدامهم في الأندلس، لذلك كان قرار لذريق السريع، هو تكليف ابن أخيه بقيادة قوات خفيفة، للتغلب على الفاتحين بسرعة قبل فوات الأوان، فأخطأ لذريق في إصداره مثل هذا القرار السريع، لأنه لم يكن على علم يقيني بأن المسلمين جاءوا إلى الأندلس فاتحين ليبقوا فيها، ولم يأتوا إليها بغارة للمغانم ثم يرحلوا عنها. كما أخطأ بنج بعدم اطلاعه على واقع المسلمين الفاتحين مادياً ومعنوياً، وبعدم كفاية قواته عَدّداً وعُدَداً للنهوض بواجبها كما ينبغي، في تحقيق النصر على المسلمين الفاتحين.

وقد كان لمرحلة: المناوشات، من مراحل فتح الأندلس، نتائج عظيمة على الطرفين المتحاربين: المسلمين والقوط.

فقد ارتفعت معنويات المسلمين، نتيجة لانتصاراتهم على القوط، ولقيادتهم الواعية القادرة. كما أصبح للمسلمين قاعدة متقدمة أمامية محصّنة ومحروسة، يمكن الاعتماد عليها والانطلاق منها للفتح. كما ازدادت معلومات المسلمين الفاتحين عن قيادة القوط وقواتهم، وطبيعة بلادهم، ونقاط ضعفهم وقوتهم، فاستغلوا هذه المعلومات المفيدة للغاية في الجهاد. وهذه النتائج الثلاث مجتمعة، أدّت إلى إصرار المسلمين قيادة وجنوداً على استكمال الفتح، حتى يشمل الأندلس بحدودها الطبيعية المعروفة، ويتعداها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أما بالنسبة للقوط، فقد انهارت معنوياتهم، نتيجة لهزائمهم المتوالية أمام المسلمين، ولقيادتهم الضعيفة العاجزة، ولخسارة جزء من بلادهم لعجزهم عن حمايتها والدفاع عنها. كما ارتبكت المعلومات عن المسلمين لدى القوط، فمنهم من يظن أنّ الفاتحين سيرحلون عن بلاد الأندلس، ومنهم من يظن أنهم جاءوا ليبقوا لا ليرحلوا، ومنهم وهم الأكثرية من اختلطت عليهم

الأمور، فشُغل بالجدل عن الاستعداد للقتال وعن مباشرة القتال.

وكان لهذه النتائج على الطرفين، تأثير حاسم في الفتح، كما سنجد ذلك في مراحل الفتوح المقبلة.

٣ـ معركة وادي بَرْباط[١] أو وادي لَكّة[٢]

المعركة الحاسمة في فتح الأندلس

أ ـ الموقف العام:

أولاً: موقف القُوْط:

كان لذريق عند معرفته بالنكبة التي حلّت بقوات ابن أخيه بنج، مشغولاً بالقضاء على اضطرابات خطيرة في مقاطعة الباسك[٣] في منطقة جبال البرانس[٤] التي تفصل بين الأندلس وفرنسا، يحارب بعض الخوارج عليه في الولايات الشمالية للأندلس، وهذا ما تنصّ عليه المصادر العربية المعتمدة، وهو ما أرجِّحه لأنه منطقي معقول. أو أن لذريق كان يصدّ هجوماً فرنسياً على نافار (Navarre) كما يزعم بعض المستشرقين[٥]، إذ لو كان هذا الزّعم حقاً، لما استطاع لذريق الانسحاب من تلك الجهة بيسر وسرعة، وهي مهددة باعتداء خارجي لا يقل خطراً عن المسلمين، إن لم يكن أكثر خطراً منهم، بموجب التفكير السائد على الملك وحاشيته وقادته حينذاك، إذ كانوا يعتقدون أن المسلمين يقومون بغارة من أجل الغنائم، بينما الفرنسيون يهدفون أن يحتلوا بلادهم إذا انتصروا عليهم، فليس من المعقول ترك الجبهة لهم،

---

(١) وادي برباط: وادٍ بالأندلس من أعمال مدينة شذونة، أُنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٠٣).

(٢) وادي لكة: اسمه في البيان المغرب (٢/ ١٠): وادي الطين، وفي فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ورد إسمه: وادي أم حكيم، وهو وادي برباط.

(٣) ابن حبيب (٢٢٢) وأخبار مجموعة (٧) وفتح الأندلس (٦) وابن الأثير (٤/ ٥٦٢) والنويري (٢٢/ ٢٧) ونفح الطيب (١/ ٢٣١و٢٥٥) والإمامة والسياسة (٢/ ٧٤ـ٧٥).

(٤) البرانِس: جبال تفصل إسبانيا عن فرنسا، انظر التفاصيل في: الموسوعة العربية الميسرة (٣٣٩).

(٥) Saavedra. pp. 64-65.

خالية من المقاومة، يسرحون فيها ويمرحون كما يشاءون.

وكان لذريق ملكاً شجاعاً وافر المقدرة والحزم، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والسّخط[(١)].

وعلى كل حال، عند ما وصلت أنباء طارق إلى لذريق، ترك في الحال ما كان يجابهه في الشمال من مشاكل، وزحف نحو الجنوب، مرسلاً الرسل إلى أتباعه ليوافوه في قُرطبة[(٢)]، وقد كتب من هناك إلى أفراد أسرة غيطشة (Witiza) وإلى القوط الآخرين لينضموا إليه في قتال العدو المشترك. وخشية من دخول قرطبة، عسكر أبناء غيطشة وأتباعهم عبر نهر شقندة (Secunda)[(٣)].

وتمت المصالحة بين لذريق وأبناء غيطشة، فعهد لذريق بقيادة ميمنة جيشه إلى شيشبرت (Sisbert) والميسرة إلى أبة (Oppa) وهذان الاثنان كما يقول مؤلف كتاب: أخبار مجموعة، هما من أبناء غيطشة[(٤)]، ويقال أيضاً بأنهما أبناء أخيكا (Egica) وليس لغيطشة[(٥)]، وهذا هو الصواب، لأن ابني غيطشة اللذين بقيا في الأندلس - كما ذكرنا - هما أرطباس (Artavasdcs) والمند (Almundo)، وأسماء أبناء غيطشة معروفة لدينا، وليس بينهم أسماء مَن توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق، وإذا ما كانوا في سنّ لا يسمح لهما أن يتوليا الحكم في سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠م)، فإنه من غير

---

(١) Cardonn:ibid. pp. 62

(٢) فتح الأندلس (٦) وابن الشباط (١٠٦) برواية عريب، وابن الكردبوس (٤٧) والحميري (٩) ونفح الطيب (١/ ٢٥٦).

(٣) ابن القوطية (٣) والحميري (١٠٤) ونفح الطيب (١/ ٢٥٦ـ٢٥٧)، وشقندة هي حيّ الربض جنوبي قرطبةفي الضفة الأخرىمن الوادي الكبير(Guadalquivir) وكان هذا الربض يُعرف بإسم: شقندة (Secunda) مُعَرَّب عن اللاتيني، انظر كتاب: جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك للبكري ـ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (١٣٩) بيروت ـ ١٣٨٧هـ ـ ط١.

(٤) أخبار مجموعة (٨)، وقارن فتح الأندلس (٦).

(٥) ابن القوطية (٢ـ٣)، وقارن فجر الأندلس (٣٧) و Livermor.pp.291

المحتمل أن يكون لذريق قد عهد إليهما بالقيادة في سنة اثنين وتسعين الهجرية (٧١١م). فلا يبقى إلاّ أن يكون اللذان توليا الميمنة والميسرة في جيش لذريق، هما ابنا أخيكا، وغيطشة هو ابن أخيكا، فيكون قائدا الميمنة والميسرة أخوي غيطشة لا ابنيه، ويكونان عمي أبناء غيطشة، ويكون لذريق قد استعان بأفراد من العائلة المالكة السابقة في قياداته، لتوحيد الجبهة الداخلية، وإذابة الخلافات المحلية، وحشد جهود القوط كافةً لحرب المسلمين. وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر الداهم بالاتحاد، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ومَن يلوذ بهم، واجتمع يومئذ للقوط جيش تقدره بعض الروايات بمائة ألف مقاتل[١]، وأقل تقدير له أربعون ألفاً[٢]، ولا يمكن معرفة تعداده اليوم بالضبط، فهو على كلّ حال بين هذين التعدادين، أي نحو سبعين ألفاً، كما جرى تقديره في بعض المصادر العربية المعتمدة[٣]. ويبدو أنّ الجيش القوطي كان يشعر بقوّته، وكان متأكداً من إمكان تغلّبه على المسلمين، إلى درجة أنهم أعدّوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين، كما يذكر ابن الكردبوس: «فلما انتهى خبره إلى لذريق، خرج إلى لقائه في مائة ألف فارس، ومعهم العَجَل تحمل الأموال والكِسا، وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات، وعليه قُبّة مكلّلة بالدرّ والياقوت، وعلى جسمه حلّة لؤلؤ قد نظمت بخيوط الإبريسم، ومعه أعداد دواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى، إذ لم يَشُكّ في أخذهم»[٤].

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٢١٤) ونفح الطيب (١/ ١٢٠)، ويقدِّره في مكان آخر بسبعين ألفاً، أنظر نفح الطيب (١/ ٢٣٣)، ويأخذ جيبون بهذه الرواية، فيقدِّر جيش القوط بتسعين ألفاً أو مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون)، ولكنَّ ابن خلدون يقدِّره بأربعين ألفاً فقط، أنظر ابن خلدون (٤/ ١١٧).

(٢) ابن خلدون (٤/ ١١٧) ونفح الطيب (١/ ٢٣٣).

(٣) نفح الطيب (١/ ١١٢).

(٤) تاريخ الأندلس (٤٧) وانظر الإمامة والسياسة (٢/ ٧٤).

ومن الواضح، أنه يمكن أن نستنتج من هذا الوصف لقوات القوط، أن لذريق وهو القائد العام كان مترفاً جداً، ولا يمكن أن يقاتل المترَف كما يقاتل الرجال، لأنه يحرص على ترفه أكثر مما يحرص على الموت. كما أن الجيش القوطي كان على حالة إدارية متميِّزة، يحمل الأموال والكساء، وتحمله الخيول، ولا تنقصه مادة إدارية تؤثر في نشاطه القتالي. كما يمكن استنتاج أن القوط قد أعجبتهم أنفسهم، فضمنوا لهم النصر على المسلمين، والإعجاب بالنفس قبل نشوب القتال، لا يؤدي إلى خيرٍ أبداً. ويبدو أن إعداد الحبال للأسرى قبل المعركة، كان محاولة من لذريق لرفع معنويات القوط، مما يدل على أنّ معنوياتهم قبل الإشتباك لم تكن عالية، ولا نصر لقوات لا تتحلى بالمعنويات العالية.

ثانياً. موقف المسلمين:

لما علم طارق بأخبار حشود القوط الكثيفة لقتال المسلمين، كتب إلى موسى بن نصير يستنجده، فارسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف مقاتل، بقيادة طريف بن مالك[1]، حملتهم سفن صنعها المسلمون، ولعل يُلْيَان قدّم التسهيلات لعبور هذا المدد إلى الأندلس، فأصبح تعداد الجيش الإسلامي في الأندلس اثني عشر ألف مقاتل، جلّهم من البربر المسلمين[2]. وفي ذلك يقول صاحب أخبار مجموعة: إنّ طارقاً، «كتب إلى موسى يستمده ويخبره أن قد فتح الله الجزيرة واستولوا عليها وعلى البحيرة، وأنه قد زحف إلى ملك الأندلس بما لا طاقة له به. وكان موسى مذ وجّه طارقاً أخذ في عمل السفن، حتى صارت معه سفن كثيرة، فحمل إليه خمسة آلاف، فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشر ألفاً»[3].

---

(١) العبر (٤/ ٢٥٤) ونفح الطيب (١/ ٢٣٣).
(٢) نفح الطيب (١/ ١/ ٢٣١و٢٣٩).
(٣) أخبار مجموعة (٧).

ويبدو أن نيّة طارق، كانت السير مباشرة إلى قرطبة عاصمة بِيْطِي[(١)] (بيتِس) (Baetis) لأنه تقدّم بحذاء الساحل حتى أدرك جزيرة طريف، ومن ثَمَّ اتجه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع، ومرّ بين جبلي (سيليا دل بابا) و (سييرا دل رِتين)، واقترب من بحيرة الخندق (لاخاندا) الواسعة التي تحصر بينها وبين (سييرا دل رتين) سهلاً متسعاً بعض الاتساع حصيناً، لأنّ البحيرة تحميه من ناحية والجبل من ناحية أخرى، واستمر حتى أدرك نُهير البرباط الذي يخترق بحيرة الخندق (لاخاندا)، وكانت بهذا الموضع في تلك الأيام بليدة صغيرة زالت الآن، يسمّيها العرب: بكّة، ولهذا سمّوا هذا النُّهير: وادي بِكّة، وحرّفه بعضهم إلى لِكَّة أو وادي لِكَّه، ونقله الإسبان خطأ، فسمّوه: وادي لِيتَه[(٢)].

وهنا عرف طارق من عيونه المنتشرة في كل مكان، أن لذريق سائر إليه بجنده، وأنه وصل إلى قُرطبة واستقر فيها قليلاً لاستكمال حشد جيشه، ثم تقدم جنوبيها، وأقام معسكره عند شَذُوْنَة[(٣)] (Sidonia) واستعدّ لقبول المعركة في سهل البرباط، على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحالية[(٤)].

وفي هذا الموضع الذي وصل إليه طارق، وصل المدد الذي تعداده خمسة آلاف مقاتل إلى طارق، وهو المدد الذي بعث به موسى بن نُصير إلى الأندلس. فقويت بالمدد نفس طارق ونفوس من معه. والغالب أن قسماً كبيراً من المدد كان من الفرسان، لأن المصادر تحدّثنا أنّ قوّة طارق الأولى

---

(١) بيطي: هو الاسم القديم لنهر الوادي الكبير (Guadalquivir)، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٥٨).

(٢) أقرب ما قيل، إن وادي لكه، تحريف للفظ (Lago - Lacus) أي البحيرة، والمقصود هنا بحيرة الخندق، أُنظر التفاصيل في: فجر الأندلس (٧١) الهامش (١).

(٣) شذونة: مدينة بالأندلس، تتصل نواحيها بنواحي موزور، أُنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٤٤). وفي ابن خلدون (٤/ ١١٧)، أنّ الجيشين التقوا بفحص شريش، والصحيح أنّها وقعت في فحص شذونة، لأنّ شريش بعيدة عن ميدان المعركة.

(٤) فجر الأندلس (٧١-٧٢).

كانت كلها من الرّجالة، في حين سنرى للمسلمين قوّة من الخيالة في المعركة الحاسمة[1].

ويبدو أن تقدم المسلمين الموفق في الأندلس إلى هذه اللحظة، قد أنعش الآمال في أنفس أعداء لذريق، فانضم منهم إلى المسلمين نفر كبير أعانوهم بالقوة والرأي[2]. وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه، فبدأت نفوسهم تحدّثهم لانتهاز الفرصة للانقلاب عليه في حالة اشتباكه بالمسلمين، ويقال: إنّ شيشبرت وأبّه أخوي غيطشة، كانا على رأس هذا الفريق الذي عزم على الخيانة، وإنهما انتظرا اللحظة المواتية ليتخليا عن لذريق، ويتركاه يلقى جزاءه على ما فعل بغيطشة[3].

ويبدو أن لذريق كان يشعر بما يدور حوله، وكان يدرك أن نفراً من جنده يدبر له الخيانة، فأحب قبل أن يلقى المسلمين، أن يتعرّف على ما لديهم من القوّة، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً شديداً، فولّت هاربة، وأنبأت لذريق بحال المسلمين وما هم عليه من الحمية والتشوق للقتال، فكاد يسقط في يديه[4].

ولابد من التوقف قليلاً، لمناقشة التحاق القوط النصارى بالجيش الاسلامي، قبل المعركة الحاسمة، ومعاونتهم للمسلمين وتعاونهم معهم في

---

(١) يذهب ساقدرا ـ اعتماداً على المصادر المسيحية ـ إلى أن عدد جيش طارق بلغ قبل المعركة الحاسمة خمسة وعشرين ألفاً، بسبب من انضمّ إليهم من النصارى من أنصار غيطشة وأعداء لذريق من أهل البلاد، أي أنّ من انضم إليه من النصارى يبلغ ثلاثة عشر ألفاً، وهذا مستبعد. بيد أنّ هذا لا يمنعنا من القول بأنّ بضعة آلاف من النصارى انضموا إلى المسلمين، أنظر فجر الأندلس (٧٢) الهامش (١).

(٢) البيان المغرب (٢/ ١١) ونفح الطيب (١/ ١٦٢)، ويفهم مما ورد في نفح الطيب، أنّ الذي دبّر الخيانة لم يكن أبناء غيطشة وأخواه فقط، وإنما نفر عظيم من القوط كانوا غضاباً على لذريق.

(٣) افتتاح الأندلس (٣) والبيان المغرب (٢/ ٨) ونفح الطيب (١/ ١٦٣) وأخبار مجموعة (٦).

(٤) نفح الطيب (١/ ١٦٣).

تلك المعركة، على جيش لذريق من القوط النصارى، في مثل ذلك الموقف الحرج الخطير للغاية، في بلاد هي بلاد القوط النصارى وليست بلاد الجيش الاسلامي، بحجة عداوتهم للذريق، هذا الالتحاق القوطي بالمسلمين يمكن تصديقه بحجّة أن الملتحقين هم أعداء لذريق، وعدو عدوِّك صديقك كما يقول المثل العربي المشهور، ولكن ليس من المعقول أنّ طارقاً أشركهم في القتال.

ومن الواضح، أنه يمكن أن نستنتج من هذا العرض لموقف المسلمين، أن طارقاً كان كأحد رجاله مأكلاً ومشركاً وسكناً، فلم يكن مترفاً، بل كانت حياته أقرب إلى التقشف منها إلى الترف. وكان حذراً كل الحذر يقظاً كل اليقظة، يعرف عن عدوه حركاته وسكناته، ولا تخفى عليه من أمره خافية. وكان يعدّ لكل أمرٍ عدّته ولكل معضلة حلّها، لا ينام ولا يُنيم. وكان المسلمون في حالة إدارية أقل بكثير من الجيش القوطي، ولكنهم اعتادوا على الحياة القاسية ولم يعرفوا الترف والرخاء، فكانت حالتهم الإدارية غير المتميّزة ليست مشكلة بالنسبة إليهم. ولم يكن المسلمون قد أعجبتهم كثرتهم، فهم يعلمون أن عدوهم متفوق عليهم عَدَداً وعُدَداً، ولكنهم متفوقون على عدوهم بقيادتهم ومعنوياتهم العالية. ولم يهتم المسلمون بالمظاهر الخارجية والدعاية، كما اهتم القوط بهما، فلم يعدوا الحبال لربط الأسرى، ولم يتباهوا بالمظاهر الخلابة، بل كانوا في نفسية متواضعة لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار.

لقد كان تعداد جيش طارق اثني عشر ألفاً[١] من المجاهدين الصادقين، وانضم إليهم يليان في قوة صغيرة من صحبه وأتباعه[٢]، وهؤلاء هم الذين شهدوا المعركة الحاسمة مع المسلمين على القوط. أما أعداء لذريق الذين انضموا إلى المسلمين قُبيل تلك المعركة نكاية بلذريق، فمن الصعب تصديق أن المسلمين أشركوهم بالمعركة الحاسمة معهم على لذريق، لاحتمال وجود

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٣١و٢٣٩) وأخبار مجموعة (٧).
(٢) دولة الإسلام في الأندلس (٤٢).

مندسين وعملاء بينهم، يُظهرون غير ما يُبطنون، فلا يمكن الاعتماد على مثل هؤلاء في الحرب، إذ قد ينقلبون على المسلمين في وقت من الأوقات الخطرة في الحرب، أو يثبطون عزائم المسلمين المجاهدين، أو يهربون فيسري الهرب بالعدوى بين المقاتلين، أو ينقلون أسرار المسلمين إلى أعدائهم، ومثل هذه الاحتمالات قائمة بالنسبة للقوط النصارى غير المجربين من المسلمين، ولم يحظوا بالثقة الكاملة بهم. ومن المحتمل أنّ المسلمين استقبلوا أعداء لذريق في مواضع آمنة، واكتفوا بتحييدهم بالنسبة للذريق، ونقلوهم إلى الخلف بعيداً عن الجبهة، انتظاراً لنتيجة المعركة المتوقعة، وهم بعيدون عن أخطار الحرب، آمنون على أنفسهم وعلى أموالهم وأملاكهم، وحسب المسلمين منهم أنهم لم يحاربوا في صفوف لذريق، ولم ينصروه في ميادين القتال، وكان حيادهم نصراً لا ريب فيه للمسلمين.

٤ - خطبة طارق وحرق السُّفن

أ - الخطبة:

أولاً . الرّفض:

كان ممن احتار في أمر خطبة طارق المشهورة، الأمير شكيب ارسلان رحمه الله، فقال: «تلك الخطبة الطنّانة، التي لو حاول مثلها قِسّ بن ساعدة أو سَحْبان وائل، لم يأت بأفصح ولا بأبلغ منها، ولقد كنتُ أُفكِّر مليّاً في أمر هذه الخطبة وأقول في نفسي .. هذا لغز من ألغاز التاريخ، لا ينحل معناه بالسهولة . . .»، وحقيقة هذا اللّغز، لدى أمير البيان، أنّ طارقاً بربري، والخطبة تُعد من روائع الخطب العربية، ولم يستطع التوفيق بين هذين الأمرين المناقضين، وقد حاول ولكنه لم يسترح لمحاولاته، وأخيراً زال عندما جزم الاستاذ عبد الله كنّون بأنّ هذه الخطبة من جملة انطباع البربر بالطابع العربي

البحث[1].

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة لطارق الاستاذ عبد الله عنان، فيقول: «على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فإن معظم المؤرخين المسلمين، ولا سيما المتقدمين منهم، لا يُشير إليها، ولم يذكرها ابن عبدالحكم ولا البلاذري، وهم من أقدم رواة الفتوحات الإسلامية؛ ولم تُشر إليها المصادر الأندلسية الأولى، ولم يُشر إليها ابن خلدون، ونقلها المقري عن مؤرِّخ لم يذكر اسمه، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين. وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان، ولكن في لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها، ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق، وهو بربري لم يكن عريقاً في الإسلام والعروبة. والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين، صاغها على لسان طارق، مع مراعاة ظروف المكان والزمان»[2].

كما يرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق الدكتور أحمد هيكل، ويبني شكّه على: أن طارقاً بربري حديث عهد بالاسلام والعربية، لأنه لم يرتبط بموسى بن نُصير إلاّ عندما ولى هذا الأخير قيادة المغرب سنة تسع وثمانين الهجرية، وبين هذا التاريخ وتاريخ الفتح في سنة اثنتين وتسعين الهجرية مدّة وجيزة، يُستبعد معها أن يجيد طارق العربية، بحيث تسمح له بإلقاء الخطب ونظم الشعر.

كما أن المصادر الأولى، عربية وأندلسية، قد سكتت عن هذه الخطبة، ولم تُشر إليها، ولا تنص عليها سوى المصادر المتأخرة كثيراً عن الفتح، مثل نفح الطيب.

---

(١) دكتور عبد السلام الهراس ـ دعوة الحق ـ العدد الخامس ـ السنة الحادية عشرة ١٣٨٨هـ ـ ص: ١٢٦، وانظر: النبوغ المغربي (١/ ٢٢-٢٣).

(٢) دولة الإسلام في الأندلس (٤٧).

ثمّ إن أسلوب الخطبة، بما فيه من الصنعة والزُّخرف، لا ينتسب إلى عصر طارق الأدبي، وإنما إلى عصر متأخر جداً، عن القرن الأول. ولذلك يرى أن هذه الخطبة هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسي وربما إلى ما بعد ذلك.

كما أن ورود هذه العبارة في الخطبة: «وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عربانا»، مما يزيد من حظ الشك ويقوي الارتياب، لأن الجنود لم يكونوا عربا، بل كانوا برابرة.

واعتماداً على هذه الأدلة الأربعة، يخلص الدكتور أحمد هيكل، إلى حكم؛ يرجِّح فيه أن تكون الخطبة وضعت على لسان طارق من بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن الفتح، والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسي، وربما العصر المملوكي.

ويرى بعد ذلك، أن طارقاً قد يكون خطب جنوده، وقد يكون قد تغنى انتصاراته مفاخراً مباهياً، ولكن المعقول أن يكون فعل ذلك بلغته البربرية، التي كان يجيدها، والذي كان جنوده يفهمونها[1].

ويرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق، الدكتور عبدالرحمن علي الحجي، ويبني شكّه على: أن تعرض القليل جداً من مؤرخينا الأندلسيين المتأخرين - دون المتقدمين - للخطبة، قد يشير إلى عدم شيوعها وعدم معرفة المؤرخين لها، وهو أمر يمحو أو يقلل الثقة بواقعيتها. كما لم تذكر المصادر الأندلسية، لا سيما المبكرة منها، هذه الخطبة. ولم تكن الخطبة بما فيها من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول الهجري)، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة. والمعاني التي تناولتها الخطبة لا تتلاءم والروح الإسلامي العالية، التي توفرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم في الاستشهاد من أجل ذلك.......

---

(١) انظر كتاب: الأدب الأندلسي (٨٠ـ٨٣) نقلاً عن مقال مجلة دعوة الحق ـ العدد الخامس (١٢٦ـ١٢٧).

ويلاحظ في الخطبة عديد من الأخطاء، ويلاحظ بها التناقض في المعاني، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تأريخية، كاستعمال: (اليونان) التي ربما جاء ذكرها للسّجع، فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا في هذه المناسبة القوط أو الرّوم(١)، وكذلك: العلوج والعجم، أو المشركين والكفار(٢)، وليس لدينا نص يحتوي على مثل هذا الاستعمال. ثم: «وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين. . .»(٣)، فالذي انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد.

وكان المتوقع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداث ومعاني إسلامية أخرى، تناسب المقام، كالمعهود(٤). ثم إن طارقاً وأكثر الجيش كانوا من البربر، مما يجعل من المناسب أن يخاطبهم بلغتهم، إذ من المتوقع ألّا تكون لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوى عالٍ(٥). كما أن وضوح تنافي الجُمل الأخيرة من الخطبة: «ولم يعوزكم بطل عاقل»، «واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله . . .»، وأسلوب الفتح وحقيقته وأهدافه، فضلاً عن مجانبتها لخططه العسكرية ودقتها التنظيمية ومطالبها الفنية، دليل أن طارقاً لم يقل هذه الخطبة.

ويرى بعد ذلك، أن كل ما تقدم، لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده، يحثهم على الجهاد(٦).

ويرتاب الدكتور أحمد بسّام السّاعي في نسبة هذه الخطبة إلى طارق بن

---

(١) انظر: نفح الطيب (١/ ٢٦٤و٢٦٩) والإحاطة (١/ ١٠٠).
(٢) انظر: نفح الطيب (١/ ٢٥٩و٢٦١و٢٧٠و٢٧١) والبيان المغرب (١/ ١٤).
(٣) ابن خلكان (٥/ ٣٢١-٣٢٢) ونفح الطيب (١/ ٢٤٠).
(٤) انظر: تحفة الأنفس (٢٩-٣٣).
(٥) انظر: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٧٨).
(٦) التاريخ الأندلسي (٥٨-٦١).

زياد، فيرى: أن أسلوبها ليس أسلوب ذلك العصر - سنة اثنتين وتسعين الهجرية - أي أواخر القرن الأول الهجري، فالسّجع الذي انتظم كثيراً في عباراتها، والذي كان يتتالى على مدى خمس جُمل أحياناً، لم يعرفه العرب في أساليب تلك المدة الزمنية. ثم إن طارق بن زياد، كان أول عهده بالإسلام والعربية عام تسع وثمانين للهجرة، وهو العام الذي استولى فيه موسى بن نصير على المغرب، فاستولى الإسلام على قلوب أهلها، واستولت لغته العربية على ألسنتهم، فهل يُعقل أن يكون قد اكتسب في هذه السنوات الثلاثة اللسان العربي الفصيح والملكة البلاغية الرفيعة التي تؤهله لإلقاء مثل هذه الخطبة التي احتلت تلك المكانة الرفيعة بين خطب فصحاء العرب؟ أما العربان الذي ذكرهم طارق في خطبته: (وقد انتخبكم الوليد من الأبطال عربانا)، فلم يكونوا في حقيقة الأمر، وتبعاً للمصادر التأريخية الموثقة، عربانا، بل كان معظم أفراد الجيش الذي جهز منه طارق حملته من برابرةالمغرب. وإذاً، فلا بد من الوقوف وقفة شك كبير أمام هذا التنافر بين الواقع التاريخي بجوانبه المتعددة، وواقع الخطبة التي بين أيدينا.

ومما يزيد هذا الشك رسوخاً، تلك الحقيقة التاريخية التي عُرفت عن الجيوش الإسلامية عامة - ولاسيما في تلك القرون الولى من حملات الإسلام - وهي أن هذه الجيوش لم تكن تغزو للغزو والغنائم التي ينالها الغزاة عامة، بل كانت تغزو في سبيل فكرة وعقيدة.

ثم يقول: «. . . ومع ذلك، فنحن لا نملك أن نجزم بأنها ليست لطارق بن زياد حقاً»[1].

وكان بطرس البستاني، قد شكك في نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فهو يرى أن طارقاً كان فارسي الأصل متعرِّب لا بربري، حديث العهد بالعربية والإسلام، وأنّه كان حسن الكلام، فما هو تأثير خطبته في جيش من البرابرة

---

(١) مجلة العربي الكويتية ـ العدد ٢٩٣ ـ نيسان (أبريل) ١٩٨٣م ـ (٩٦ـ٩٧).

يجهل العربية في مجموعه، ولم يزل على طفولته في الدين الجديد، تعني فئة قليلة من العرب بتعليمه القرآن وفرائض الإسلام كما يتعلمها كل شعب غريب إذا أسلم وكان يجهل العربية. ولا يبعد أن يكون فيه من البرابرة الذين لم يتركوا دينهم القديم، وإنما هم مرتزقة حاربوا مع المسلمين رغبة في الغزو والغنيمة.....

ومما يحمل على الشك في خطبة طارق قوله لجيشه: «وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك من الأبطال عربانا»، فجمعُ العربان ليس من اللغة الفصحى، ولا يصح أن ينطق به خطيب في صدر الإسلام. ثم كيف يجعلهم عرباً وهم ... من البرابرة، ليس فيهم إلاّ ثلاثمائة من العرب؟ فلا يعقل أن يتوجه بخطبته إلى الفئة القليلة دون السواد الأعظم، والبرابرة أحوج من العرب المسلمين إلى التحضيض والإغراء.

ثم يقول: «فالخطبة كما يتبين لنا مصنوعة ....، فما ينبغي الركون إليها ولو أثبتها بعض المؤرخين»[1].

تلك هي موجز أمثلة من آراء الرافضين من العرب المسلمين وغير المسلمين أيضاً، ذكرناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وهي في نقاطها الجوهرية تضرب على وتر واحد، تكاد تتفق في المعاني وتختلف في الألفاظ.

ثانياً. القبول:

تصدى الأستاذ عبد الله كنّون مفنِّداً بعض أدلة الرافضين، ومجمل ما ذكره: إنّ طارقاً البربري، نشأ في حصن العروبة والإسلام، فأبوه هو الذي أسلم بدليل أسمه: (زياد) ولا شك أنه كان من مسلمة الفتح المغربي الأول، وانتقل إلى المشرق حيث نشأ ولده في كنف موسى بن نُصير. ولا غرابة في نبوغ طارق البربري في العربية، فقد نبغ فيها أمثاله كعِكْرِمة البربري وسلمان

(١) بطرس البستاني ـ معارك العرب (١/ ٥٥ـ٥٦) ـ بيروت ـ ١٩٤٤م ـ ط١.

الفارسي. وليس في الخطبة من الصنعة البيانية ما يمنع نسبتها لطارق، لأن بلاغتها في معانيها، والمعاني ليست وقفاً على عربي ولا عجمي.

ثم يضيف: نعم قد تكون الخطبة تعرّضت لبعض التصرف بالزيادة أو النقصان من الرواة، غير أن هذا لايسوّغ نفي أصل الخطبة، وليس بحجة للتشكيك في نصّها الكامل[1].

ويردّ الدكتور عبدالسلام الهرّاس على الدكتور أحمد هيكل فيذكر: أنه لا يشاطر الدكتور هيكل في حكمه الذي بناه على حيثيات لا يعتمد البعض منها إلاّ على افتراضات، والبعض الآخر يعتمد على أساس النص الوارد في: نفح الطيب. فكون طارق مثلاً حديث عهد بالإسلام، لم يتصل بموسى بن نصير إلاّ عند تولية هذا قيادة المغرب سنة تسع وثمانين الهجرية - أمر لا يمكن التسليم به، لأن طارقاً ابن لمسلم وهو زياد، وحفيد لمسلم وهو عبد الله، حسبما ذكره ابن عذاري في نسبه، فله على الأقل أبوان في الإسلام، وهكذا لم يعد هذا القائد البربري حديث عهد بالإسلام، ولم تعد المدّة التي قضاها في الإسلام لا تتعدى ثلاث سنوات. ومالنا لا نفترض - وهو أقرب إلى المعقول ـ أن أباه ـ وجدّه هو الذي كان في المشرق ـ فنشأ الابن والحفيد في بيئة عربية صرف، أتاحت له حذق لغتها والنبوغ فيها، والفوز بثقة بلاط دمشق ليتولى مكانة مرموقة في الدولة الأموية، مما أهّله لقيادة جيش الفتح. ثم إنّ أحداً من القدماء لم يقل بأن طارقاً خطب بالبربرية، أو نفى الخطبة بالعربية. أما كونها لم ترد إلاّ في المصادر المتأخرة كثيراً، كنفح الطيب، فليس الأمر كذلك، إذ وردت في مصادر أقدم بكثير من عصر المقري، فقد أوردها ابن خلّكان وهو من القرن السابع الهجري، ووردت في تحفة الأنفس لابن هذيل وهو من القرن الثامن الهجري، وأهم من هذا أن صاحب الإمامة والسياسة قد أثبتهاوهو من رجال القرن الثالث الهجري، كما وردت قطعة منها في كل

---

(١) النبوغ المغربي (١/ ٢٢ـ٢٣) نقلاً عن مجلة: دعوة الحق - العدد الخامس (١٢٧).

من: (ريحانة الألباب) للمواعيني (توفي٥٧٠هـ=١١٦٨م)، وكتاب: (استفتاح الأندلس)، لعبدالملك بن حبيب[١].

وقد أضاف الشيخ عبد الله كنّون إلى المصادر الخمسة التي ذكرت خطبة طارق في صفحاتها والتي ذكرها الدكتور عبدالسلام الهرّاس مصدراً جديداً، فذكر أنه يضيف إلى هذه المصادر مصدراً آخر لا يقل عن: ابن خلكان، تثبتاً وتحرِّياً وثقة، وهو من أهل القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين؛ الإمام أبوبكر الطرطوشي، صاحب كتاب: (سراج الملوك). وقد ذكر خطبة طارق غير شاعر بأدنى شك في صحة نسبتها إليه، وأورد طرفاً منها في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها[٢].

وأضاف الأستاذ عبدالعزيز الساوري مصدراً سابعاً إلى المصادر المذكورة، هو كتاب: صلة السِّمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى في الفخر المحمّدي، للمؤرخ التونسي محمد بن على بن محمد الشباط المصري التوزري، الذي عاش في القرن السابع الهجري، وتُوفي بمدينة توزر سنة إحدى وثمانين وستمائة الهجرية (١٢٨٢م). فقد ذكر هذا العالم الحجة خطبة طارق مسلِّماً غير شاعر بأدنى شك في صحة نسبتها إليه[٣].

وأستطيع أن أذكر، بعض ما يمكن أن يعتبر رداً عملياً على الرافضين نسبة خطبة طارق إليه، فمن الواضح أن طارقاً لم يتصل بموسى بن نُصير سنة تسع وثمانين الهجرية، بل لابد أن يكون اتصاله به قبل ذلك، فأبو طارق وجدّه

---

(١) مجلة دعوة الحق ـ العدد الخامس (١٢٧ـ١٢٨).

(٢) سراج الملك (١٥٤) ـ الطبعة الأزهرية ـ القاهرة، انظر مجلة: دعوة الحق ـ العدد السادس والسابع ـ السنة الحادية عشرة ـ صفر ١٣٥٥هـ ـ ص: ١١١

(٣) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ـ نصان جديدان ـ ص: ١٥٤-١٥٥ تحقيق د. أحمد مختار العبادي ـ معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد ـ ١٩٧١م، نقلاً عن مجلة: دعوة الحق-العدد(٢٢٥)ص: (١٠٠ـ١٠١).

مسلمان، وقد عاش في بيئة إسلامية، ومثل هذه البيئة لها صلة مباشرة قوية بالعربية الفصحى تكلّماً وتعلّماً. وحتى في هذه الأيام، في القرن الخامس عشر الهجري لا نجد بيئة إسلامية شرقاً وغرباً، إلاّ فيها مَنْ يُتقن العربية الفصحى، فإذا أضفنا أن والد طارق وجده مسلمان، في أيام الفتوح والاتصال المباشر بين الأقوام والأمم، تحت ظل الإسلام، فلا نستبعد أن والد طارق وجده انتقلا إلى بلاد العرب، وكان معهما طارق، فأتقن العربية الفصحى. وحتى لو لم ينتقل إلى المشرق، فإن إسلامه يشجعه على قراءة القرآن وتفهم الحديث وأقوال الدعاة العرب المسلمين، فكثير ممن نراهم في الهند وباكستان والاتحاد السوفياتي مثلاً، ممن يتقنون العربية الفصحى، لم ينتقلوا إلى البلاد العربية، بل تعلموا العربية الفصحى في عقر دارهم. وأذكر أنني كنت في زيارة رسمية للباكستان سنة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م)، فصلّيت الجمعة في مسجد كراجي الكبير، وكان خطيب الجامع يخطب بالعربية الفصحى، ولم يخطب بالأوردية اللغة المحلية، فقيل للخطيب: (لماذا لا تخطب بلغة قومك؟)، فقال: (لا أخطب بغير لغة القرآن ولغة النبي صلى الله عليه وسلم)، فما يدرينا أن طارقاً خطب بالعربية الفصحى في مثل ذلك الموقف العصيب، الذي يكون فيه المرء أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وهو يوقن بأن النصر من عند الله، فهو بهذه النية يخطب بهذه اللغة تبركاً وتقرباً إلى الله ورسوله.

وقد عملت في الجندية ردحاً طويلاً من الزمن، وخطبت الضباط والجنود في الوحدات الصغرى والوحدات الكبرى بالتدريج، حسب تقدمي رتبةً ومنصباً. وكثيراً ما كانت الوحدة التي أقودها مؤلفة من غير العرب، كالأكراد مثلاً، فكنت أُلقي خطابي بالعربي، وأضع مع مَن لا يفهم العربية مَن يترجم لهم كلامي نصّاً وروحاً، وهذا ما فعله طارق حين خطب بالعربية الفصحى في رجاله البربر، فلم ينس أن يجعل بينهم مَن ينقل إليهم كلماته، وليس ذلك صعباً بل هو سهل ميسور.

وكانت الحماسة للإسلام في البربر عظيمة جداً، وأكبر دليل على ذلك إنجازهم الرائع في الفتوح واستقتالهم في ميدان القتال، والاستقتال عادة يكون من أجل العقيدة. والحماسة العربية الفصحى متساوقة مع الحماسة للإسلام، لأن العربية الفصحى لغة الدين الحنيف، فلا يستغرب إقبال البربر على تعلم العربية الفصحى بحرص واندفاع، ليتفهموا القرآن وتعاليم الدين، وطالما رأينا مسلمين من غير العرب، يفهمون العربية ولا يحسنون الكلام بها، ومن الممكن أن يكون مسلموا البربر يومئذ كذلك.

ولا أدري إلى متى يبقى المؤرخون العرب والمسلمون، يثقون بما يقوله الأجانب أكثر من ثقتهم بما يقوله أبناء أُمتهم ودينهم؟

وفي دراستي لطارق بن زياد وفتح الأندلس، وهي هذه الدراسة التي تقرأ في هذا البحث، اكتشفت أن قسماً من مؤرخي الأجانب ادّعوا أنّ يليان شخصية أسطورية لا وجود لها في الواقع، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب والمسلمين. وأخيراً جاء مَنْ يثبت، أن يليان شخصية حقيقية لا مجال للشك ولا للتشكيك فيها، فتابعهم في ذلك بعض مؤرخي العرب أيضاً، ورجع مَنْ بقي منهم على قيد الحياة عن متابعتهم الأولى!!!

ويزعم بعض مؤرخي الغرب من الأجانب، أن قصة اعتداء لذريق، على عفاف ابنة يليان وأثر ذلك في يليان من ناحية التعاون مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد في فتح الأندلس، قصة أسطورية لا نصيب لها في الواقع، فتابعهم في ذلك كثير من مؤرخي العرب والمسلمين، مع أن القصة لا يُستغرب حدوثها قديماً وحديثاً، ولا أدري كيف يصدِّق مؤرخو العرب والمسلمين تشكيك المؤرخين الأجانب، ويكذِّبون المصادر العربية الإسلامية المعتمدة دون مسوِّغ منطقي معقول!!

بل لا أدري كيف يتابع قسم من مؤرخي العرب والمسلمين، ويقتبسون مزاعم قسم من المؤرخين الأجانب، وبخاصة ممن ثبت انحرافهم وتحريفهم، وثبتت عداوتهم العربية لغةً والإسلام ديناً، ولا يتابعون

المؤرخين العرب والمسلمين، فيقتبسون حقائقهم الثابتة، وبخاصة ممن ثبتت استقامتهم وعدلهم، وثبت إخلاصهم للعربية لغةً والإسلام ديناً!!

والمؤرخون العرب والمسلمون حقاً، يرصدون مؤتمرات: إعادة كتابة التاريخ، لقسم من البلاد العربية، فلا يُدعى إلى تلك المؤتمرات غير المستشرقين المنحرفين المحرِّفين المعروفين بعداوتهم للعربية لغةً والإسلام ديناً، وغير المستغربين المقلِّدين للمستشرقين، من مؤرخي العرب والمسلمين الذين لا صلة لهم بالعربية لغةً والإسلام ديناً، وصلتهم بالمستشرقين المنحرفين المحرِّفين صلة عضوية أنستهم مؤرخي العرب والمسلمين القُدامى والمحدثين.

والتقيت أحدهم في المجمع العلمي العراقي، فسمعته يُباهي بإصدار مؤتمرهم مجلدات في التاريخ، فقلت له: (لقد أضفتم مجلدات جديدة إلى مجلدات كايتاني، فاتقوا الله في العرب والمسلمين يا أبناء العرب والمسلمين).

ومن المذهل حقاً، أن نجد من يشايع المنحرفين من المستشرقين في انحرافهم من مؤرخي العرب والمسلمين، ومن يوافقهم منهم على تحريفهم، يفخرون بالانحراف والتحريف، ما دام قادماً من الأجنبي، وكأن ذلك علامة من علامات التحرر وسِمة من سِمات الانطلاق، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

إنني مع الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق، على الذين يرفضون نسبتها إليه، أو يشكون في نسبتها إليه، أو يشككون في نسبتها إليه، لأن الأدلة مع من ينسبون هذه الخطبة لطارق، على الذين يرفضونها. كما أعلم منزلة الذين ينسبون هذه الخطبة لطارق صدقاً واستقامة وعلماً وتثبّتاً، فما ينبغي رفض ما يقولون دون مسوّغ، وبخاصة إذا علمنا أن الذين شكوا في تلك الخطبة أو شكلوا بها ابتداءاً من المؤرخين الأجانب، ثم سرى شكهم وتشكيكهم إلى مؤرخي العرب والمسلمين بحسن نيّة أو بسوء نيّة، فما ينبغي أن نصدّق كل

مستورد من الخارج، وإلاّ خسرنا كل شيء دون أن نربح شيئاً.

إن الاستعمار الفكري من أخطر أنواع الإستعمار، ولم نفعل شيئاً إذا لم نطهِّر عقولنا ونفوسنا معاً منه إلى الأبد.

ثالثاً. في المصادر والمراجع:

(أ) في المصادر:

(١)

نص ابن حبيب
عبدالملك بن حبيب الألبيري (ت ٢٣٨هـ)
في كتابه استفتاح الأندلس

روى بعض أصول الخطبة المعروفة حالياً، فقال: (فلما بلغ طارقاً دنوُّه منه، قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم حضّ الناس على الجهاد، ورغّبهم في الشّهادة، ثم قال:

«أيها الناس، أين المفر؟ والبحر من ورائكم، والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بنفسي، لا أقصر حتى أخالطه أو أقتل دونه»[١].

(٢)

نص ابن قُتَيبة (ت ٢٧٦هـ)
في كتابه
الإمامة والسياسة[٢]

فلما بلغ طارقاً دنوُّه (أي لذريق) منهم، قام في أصحابه، فحمد الله، ثم حضّ الناس على الجهاد، ورغّبهم في الشّهادة، وبسط لهم في آمالهم، ثم

---

(١) مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (٥/ ٢٢٢) (القسم الفرنجي) نقلاً عن كتاب: التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن على الحجي (٥٩).

(٢) هناك من يرى أنّ هذا الكتاب ليس لابن قتيبة ولكنه منسوب إليه.

قال:

«أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أماكم، فليس ثمّ والله إلاّ الصدق والصبر، فإنهما لا يُغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضرّ معهما قِلَّة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة. أيها الناس، ما فعلت من شيءٍ فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثمّ كونوا كهيئة رجل واحد في القتال. ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيّبه حتى أُخالطه أو أقتل دونه[1]، فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدّبر لعدوِّكم، فتبدّدوا بين قتيل وأسير. وإياكم أن ترضوا بالدنيّة، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهنة والذلّة، وما قد أُجِّل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءون بالخسران المبين، وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين. وها أنا ذا حامل حتى أغشاه، فاحملوا بحملتي»[2]، فحمل وحملوا.

(٣)
نص أبي بكر الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ)
في كتابه
سراج الملوك

ذكر هذا للعالم الحجة خطبة طارق، مسلِّماً لها، غير شاعر بأدنى شك في صحة نسبتها إليه. وأورد طرفاً منها، وذلك في الباب الحادي والستين من كتابه المذكور، الذي عقده لذكر الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها[3].

---

(١) في الأصل: (وأقتل)، وهو تصحيف.

(٢) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٤) ـ القاهرة ـ ١٣٧٧هـ ـ ط٢

(٣) الأُستاذ عبد الله كنون ـ مجلة دعوة الحق ـ العدد السادس والسابع ـ صفر ١٣٨٨هـ =

وهذا هو نص الخطبة في هذا الكتاب.

ولما عبر طارق مولى موسى بن نُصير إلى بلاد الأندلس ليفتحها، وموسى إذ ذاك بإفريقية، خرجوا في الجزيرة الخضراء، وتحصنوا في الجبل الذي يسمى اليوم: (جبل طارق)، وهم في ألفٍ وتسعمائة رجل، فطمعت الرّوم فيهم. فاقتتلوا ثلاثة أيام، وكان على الرّوم تدمير، استخلفه لذريق ملك الرّوم، وكان قد كتب إلى لذريق يُعلمه: أنّ قوماً لا ندري أم من الأرض أم من السّماء قد وصلوا إلى بلادنا، وقد لقيتهم، فانهض إليّ بنفسك. فأتاه لذريق في تسعين ألف عنان، فلقيهم طارق وعلى خيله مُغِيث الرُّمي مولى للوليد بن عبدالملك، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال. فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام فحضّهم على الصبر، ورغّبهم في الشهادة، وبسط آمالهم، ثمّ قال:

«أين المفر، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، فليس إلاّ الصبر منكم والنصر من ربكم. وأنا فاعل شيئاً، فافعلوا كفعلي، فوالله لأقصدنّ طاغيتهم، فإمّا أن أقتله، وإما أن أُقتل دونه..»[1].

= ص: ١١١

(١) سراج الملك (١٥٩) المطبعة الأزهرية بالقاهرة، نقلاً عن مجلة دعوة الحق ـ العددان السادس والسابع ص: ١١١

(٤)

نص أبي محمد بن إبراهيم (ابن خيرة) المراعيني الأشبيلي (ت ٥٦٤هـ) في كتابه ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب[١]

ولما أجاز طارق البحر، وعظ أصحابه وأمرهم[٢] وقال: إنكم بين عدوين: بين أهل الكفر، وبين البحر، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً. وأحرق سفن الجواز ...[٣] فلما أشرف على جمعهم، قال لأصحابه:

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين. وإنني مصمِّم بنفسي نحو طاغيتهم، حتى يحكم الله بيني وبينه، وقد فرض الله الواحد منكم للعشرة، فاحملوا كما أمركم الله ينصركم: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[٤]، وحمل المسلمون يكبرون الله ...»[٥]، وبعد هذا يقول: (قال عبدالملك بن حبيب: دخل الأندلس من التابعين زهاء عشرين رجلاً).

---

(١) مخطوط بالخزانة الملكية (الرباط) وتوجد منه نسختان: الأولى رقمها: ١٤٠٦ ورقة ١٣٧، والثانية رقمها: ٢٦٤٧ من ٣٨١ ورقة وهو لأبي محمد بن إبراهيم المراعيني.

(٢) في الأصل: ودمرهم، وهو تحريف ولعلّ الصواب ما أثبتناه.

(٣) هذا ما بعث به الدكتور عبد الهادي التازي مشكوراً.

(٤) الآية الكريمة من سورة آل عمران (٣/ ١٦٠).

(٥) ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب للمراعيني، ليس به ترقيم الصفحات، مخطوط الخزانة الملكية المغربية رقم (٢٦٤٧) نقلاً عن بحث: طارق بن زياد وخطبته للدكتور عبد السلام الهراسي، مستخرج من دراسات عربية وإسلامية ـ القاهرة ـ ١٤٠٣هـ وقد أرسل الدكتور بحثه إليّ مشكوراً.

وقد بذلت غاية الجهد للحصول على نص خطبة طارق كما هي مسجلة في ريحان الألباب الخطي، واتصلت بالسفير المغربي ببغداد، وكتبت عدة رسائل للمسئولين في المغرب، دون جدوى عدا استجابة الدكتور عبدالهادي التازي مشكوراً. وأخيراً بعد انتظار استمر أكثر من سنة أسعفني الأخ الدكتور عبدالسلام الهراس بدراسته عن خطبة طارق، فتسلمت هذه الدراسة، بعد أن فُقدت النسخة الأولى التي بعث بها إليّ بالبريد أو حجبت عني عمداً، والله أعلم، فانتفعت بهذه الدراسة كثيراً، وكان المفروض أن أحظى بنص كتاب المراعيني من المغرب إشاعة للعلم ومعاونة العلماء للباحثين، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.

(٥)

نص ابن خلكّان (ت ٦٨١هـ)

في كتابه

وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

فلما نزل طارق من الجبل بالجيش الذي معه، كتب تُدْمِير إلى لذريق الملك، أنه قد وقع بأرضنا قوم لا ندري من السماء هم أم من الأرض، فلما بلغ ذلك لذريق، رجع عن مقصده في سبعين ألف فارس، ومعه العَجَل يحمل الأموال والمتاع، وهو على سريْره بين دابتين عليه قبّة مكلّلة بالدّر والياقوت والزبرجد. فلما بلغ طارقاً دنوُّه، قام من أصحابه، فحمد الله سبحانه وتعالى، وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ حثّ المسلمين على الجهاد، ورغّبهم في الشهادة، ثمّ قال:

« أيها الناس، أين المفر، والبحر من ورائكم والعدو أمامكم؟ فليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مآدب اللِّئام. وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزر لكم غير سيوفكم، ولا قوت لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم. وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية[1]، فقد ألقت به إليكم مدينته المحصّنة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم بأنفسكم للموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنَجْوة، ولا حملتكم على خطّة أرخص

(١) في طبعة بولاق (٢/ ١٧٧ـ١٧٨): هذه الطاغية، وكذلك في النسخة (ب) من هذا الكتاب.

مُبتاع فيها النفوس إلاّ وأنا أبداً فيها بنفسي. واعلموا أنّكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذَ طويلا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظّكم فيه بأوفر من حظّي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدّر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك من الأبطال عربانا[1]، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم لمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظّه معكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى ولّيُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الَهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون»[2].

---

(١) وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة، عزبان: جمع عزب، وسنعلّق على ذلك في المتن بعد تسجيل نصوص الخطبة.

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٤٠٤ـ٤٠٥) تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٣٦٧هـ ـ ط١

(٦)

نصّ ابن الشباط (ت ٦٨١هـ)

محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزري

في كتابه صلة السّمط وسمة المرط في شرح سمط الهدى

في الفخر المحمّديّ

ذكر هذا العالم الحجة خطبة طارق، مسلّماً لها غير شاعر بأدنى شكّ في صحّة نسبتها إليه، وأوردها في النصّ الذي عقده لذكر فتح الأندلس في كتابه المذكور.

إلاّ أنه يجب أن أشير مسبقاً، إلى أن هناك اختلافاً يسيراً ما بين نصّ هذا العالم ونصّ ابن قُتَيْبَة في: الإمامة والسياسة، وهو اختلاف بسيط لا يخرج عن دائرة اللغة. وهذا هو النصّ:

(. . . . . . . ولما بلغ طارقاً دنوُّه منهم، قام في أصحابه خطيباً[1]، فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه، ثمّ حضّ الناس على الجهاد ورغّبهم في الشهادة، وبسط من آمالهم، ثم قال:

(أيها الناس، إلى أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من[2] أمامكم، وليس والله إلاّ الصدق والصبر، فإنهما لا يُغلبان، وهما جندان منصوران، لا تضرّ معهما قِلّة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة. أيها الناس، ما فعلت من شيءٍ فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، وكونوا كهيئة رجلٍ واحد في القتال. ألا وإني عامدٌ إلى طاغيتهم لا أتهيّبه، حتى أخالطه أو أُقتل دونه، فإن قُتلتُ فلا تهنوا ولا تنازعوا

---

(١) خطيباً: ساقطة في كتاب الإمامة.

(٢) من: ساقطة في كتاب الإمامة.

فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتُولّوا الدّبر عدوّكم، فتبدّدوا بين قتيل وأسير، وإياكم أن ترضوا بالدنيّة، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والرحمة من الذلّة والمهنة، وما قد أجّل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا والله معيذكم، تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسملين. وها أنذا حامل حتى أغشاه، فاحملوا لحملتي)، ثم حمل وحملوا، فلما غشيهم اقتتلوا قتالاً شديداً، فقُتل الطاغية، وهُزم قومه[1].

(٧)
نصّ ابن هُذَيْل (ت ٧٦٣هـ)
علي بن عبدالرحمن بن هُذَيْل
في كتابه
تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس
نقلاً عن كتاب: محمد عبد الله عِنَان[2] - دولة الإسلام في الأندلس

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللّئام. وقد استقبلكم عدوّكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته وفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوِّكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن

---

(١) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان (١٥٤ـ١٥٥) تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ـ معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ١٩٧١م.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس (١/٤٦ـ٤٧) ولم يشر الأستاذ عنان إلى المصدر عند إيراده نصّ الخطبة، بل عقب على الخطبة بقوله: «ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق...»، وليس لدي نسخة من كتاب تحفة الأنفس لأقارن بين النّصين.

أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها النفوس، أبدأ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظّكم فيه بأوفى من حظّي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدّر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطِعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولّي إنجازكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. أيها الناس، ما فعلت من شيءٍ فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه أو أقتل دونه، فإن قُتلتُ فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولّوا الدبر لعدوّكم فتبددوا بين قتيل وأسير. وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلّة، وما قد أحلّ لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومعيذكم تبوءوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غداً بين مَن عرفكم من المسلمين، وها أنا حامل حتى أغشاه، فاحملوا بحملتي»[1].

---

(١) تحفة الأنفس، نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٤٦ـ٤٧).

(٨)

نصّ المقَّرِي (ت ١٠٤١هـ)

أحمد بن محمد المقّري التِلمِساني

في كتابه

نفح الطيب

من غُصن الأندلس الرّطيب

فلما بلغ طارقاً دنوُّه، قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثّ المسلمين على الجهاد، ورغّبهم، ثم قال:

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللِّئام. وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات إلاّ ما تستخلصونه من أيدي عدوّكم، وإن امتدّت الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوّضت القلوب من رُعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإنّ انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أُحذّركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خُطة أرخص متاع فيها النفوس (إلاّ وأنا)[١] أبدأ بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعم بالأرفهِ الألذِّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه

---

(١) زيادة عن ابن خلكان.

بأوفى من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات في الدّر والمرجان، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين من المؤمنين عُربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً و أختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليَكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكونِ مَغْنَمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً لكم في الدارين، واعلموا أني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند مُلْتَقى الجمعين حامل على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكتُ بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعْوزكم بطلٌ عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذلُون»[١].

تلك هي ثمانية مصادر معتمدة، سجلت خطبة طارق، ونسبتها إليه، دون أن تشك في نسبتها أو تشكك في نسبتها إلى طارق، وليس كما ادعى قسم من المستشرقين والمستغربين، أن المقّري في: نفح الطيب، هو وحده الذي سجلها: «أقدم مصدر للخطبة، فيما نعلم، كتاب المقّري المتوفي سنة (١٠٤١هـ)، أي بعد أكثر من تسعة قرون من تاريخ الخطبة، وهو زمن أخطر من أن يُستهان به»[٢]، إذ تبين لنا أن الذين سجلوها فعلوا ذلك قبل صاحب نفح الطيب بأكثر من تسعمائة سنة ابتداء من سنة (٢٣٨هـ) كما ورد في هذه الدراسة.

---

(١) نفح الطيب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (١/ ٢٢٥-٢٢٦) -القاهرة- ١٣٦٧هـ، وتحقيق الدكتور إحسان عباس (١/ ٢٤١-٢٤٢)، بيروت - ١٣٨٨هـ

(٢) د. أحمد بسام الساعي -خطبة طارق بن زياد هل قالها حقاً؟ (٩٧) -مجلة العربي الكويتية- العدد: ٢٩٣ جمادى الآخرة ١٤٠٣هـ - نيسان (أبريل) ١٩٨٣م.

ولا أدّعي أنّني استطعت تسجيل المصادر المعتمدة كافة التي سجلت الخطبة، فهذا ما أتمنى أن يفعله غيري من الباحثين بإذن الله، وقد اعتمدت في تسجيل نصوص الخطبة على باحثين سبقوني، وقد أشرت إلى أسمائهم وأسماء مؤلفاتهم ومقالاتهم ليعود الفضل إلى أصحاب الفضل، وسأعود إلى ذكرهم في الحديث عن المراجع الحديثة التي نسبت الخطبة إلى طارق ودافعت عن هذه النسبة إلى طارق.

وقبل أن أختتم الحديث عن الخطبة في المصادر، أريد أن أركِّز على نقطتين:

وردت كلمة: (عربانا) في نص: ابن خلكان، ونص ابن الشباط، ونص المقّري، وقد وردت في بعض النسخ بالزاي المعجمة (عُزْبان: جمع عَزَب)، وعلى هذا الوجه ينتفي الشك الذي أثاروه، فقالوا: (لم يكونوا عربانا، بل كانوا برابرة). وحتى لو بقيت كما هي، فلا تدل على النسب العربي بقدر دلالتها على الفخر بهذا النسب، الذي قصده طارق، بنسبه هؤلاء البربر إلى العرب رفعاً لمعنوياتهم وأقدارهم، باعتبار أن العرب يومئذ هم الدعاة والحماة والخلفاء والقادة والمجاهدون والفاتحون، وكل إنسان يحب أن ينتسب إليهم، ليحظى بهذه المكانة الرفيعة.

ومن المدهش حقاً، أن البربر - على الرغم من محاولات الاستعمار الحديث - لا يؤلمهم أن يقال عنهم: إنهم عرب، بل يؤلمهم أن يقال عنهم: إنهم ليسوا عرباً.[١]

وهناك أدلة كثيرة على أن العرب والبربر من أرومة واحدة، يلتقون بأنسابهم وأحسابهم بالعرب الأقدمين، وبأمهم الرءوم: جزيرة العرب.[٢]

وأساليب البلاغة العربية كثيرة، فإذا قال قائد لرجاله: أنتم أسود، تقوية لمعنوياتهم، وحثاً لهم على الثبات، فقد لا يفهم غير العربي مثل هذا التعبير،

---

(١) عقبة بن نافع الفهري (٣٥) بيروت، ١٣٩٢هـ.

(٢) انظر التفاصيل في: عقبة بن نافع (٢٣-٥٣).

لأنه لا يفهم العربية، أما ألاّ يفهم العربي مثل هذا التعبير، فالأمر مختلف جداً. وكذلك بالنسبة لتعبير: (عربانا) التي وردت في خطبة طارق، فإذا عجز غير العربي عن فهم هذا التعبير كما ينبغي، وفهمه بمعناه اللّفظي لا بمعناه المجازي، فله ما يسوّغ هذا العجز عن الفهم، أما العربي، فلا مسوّغ له بمتابعة من لم يفهم، وهو الذي يجب أن يفهم.

ومع ذلك، فإن الذين لم يفهموا هذا التعبير أو فهموه، قد بالغوا كثيراً في استنتاج أن الخطبة ليست لطارق، استناداً على كلمة: (عربانا)، فليس من السهل ردّ الحقائق بالظنون.

وإذا كان فتح المسلمين، لبلد من بلاد النصارى، كبلاد الأندلس مثلاً، وبقاؤهم فيه قروناً طويلة - كما هو معروف- حافزاً للمستشرقين من غير المسلمين على تصيُّد ما يستطيعون، به الشك والتشكيك في تاريخ الفتح الأندلسي وتاريخ المسلمين في الأندلس، فما الحافز للمسلمين في تقليد الشاكّين والمشكِّكين؟؟

ومن غير المعقول أن نطبّق الأفكار الشائعة في هذا القرن حول التفرقة بين الأقوام، على القرن الهجري الأول، الذي ساد فيه الإخاء الإسلامي، وأصبح التفاضل بين الأفراد بالتقوى لا بالنسب فلا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى، فما أراد طارق بتعبير: (عربانا) نسباً، بل أراد غير ذلك، وعلى الباحث دراسته كما كان لا كما يريده أن يكون، ليستخلص الواقع ويبتعد عن الخيال.

تلك هي النقطة الأولى.

أما النقطة الثانية، فهي أن أسس خطاب طارق واحدة في النصوص الثمانيةالتي سجلتها المصادر المعتمدة الثمانية، ولكنّها تختلف في بعض الكلمات وبعض التعابير بما لا يمسّ بأسس معاني الخطاب، كما تختلف في حجم الخطاب طولاً وقصراً، والظاهر أن قسماً من المؤلفين سجّلوه حرفياً دون أن يختصروا منه شيئا، وقسماً منهم سجّلوا أبرز ما ورد في الخطاب من

جُمل، وحذفوا ما بقي منه، وبخاصة الجمل ذات المعاني العامة الشائعة التي يكثر ترديدها في الخطب والمواعظ وغيرها، أي أنهم أبقوا من الخطاب ما ورد فيه من معانٍ خاصة يتميّز بها عن الخطب الأخرى، وحذفوا ما ورد فيه من معان عامة تتكرر في الخطب وفي المواعظ وعلى ألسنة الناس.

إن النصوص المسجلة للخطبة مختصرة ومطوّلة، تتفق بالمعاني الخاصة التي يتميّز بها خطاب طارق عن سائر الخطب، ولكنها تختلف في المباني إيجازاً وتفصيلاً، والمعاني أهم من المباني، واتفاق المصادر على المعاني، دليل جديد على أنها لطارق لا لغيره من الناس.

(أ). في المراجع:

لا يمكن ذكر جميع المصادر التي أيّدت نسبة خطبة طارق إليه، فهي كثيرة جداً، فلا بأس من ذكر قسم منها، وبخاصة التي اطلعت عليها وذكرتها في هذا البحث.

فقد جزم الأستاذ عبدالله كنون من جملة انطباع البربر بالطابع العربي البحت، وأيّد نسبة الخطبة إلى طارق، في كتابه: النبوغ المغربي.[1]

كما أيّد الدكتور عبدالسلام الهرّاس نسبة الخطبة إلى طارق، في مقالين اطلعت عليهما[2]، كما نشر بحثاً في القاهرة لم أطلع عليه، وحماسة الهراس وغيرته مما يُحمد عليه.

كما نشر الأستاذ عبدالعزيز الساوري مقالاً، أيّد فيه نسبة الخطبة إلى طارق، وأضاف مصدراً جديداً سجل الخطبة هو كتاب: صلة السمط لابن الشباط[3].

كما نشر الشيخ محمد أبوزيد طنطاوي بحثاً عنوانه: فتح العرب للأندلس،

---

(١) النبوغ المغربي (١/ ٢٢ـ٢٣).

(٢) دعوة الحق ـ العدد الخامس ـ السنة الحادية عشرة، والعدد (٢٢٨).

(٣) . دعوة الحق ـ العدد: ٢٢٥ ص: ١٠٠ـ١٠١

أيّد فيه نسبة الخطبة إلى طارق بن زياد[١].

تلك أمثلة على مَن أيّد نسبة خطبة طارق إليه، إما بتدوينها في سير أحداث الفتح، أو في مناقشة الرافضين الاعتراف بنسبة تلك الخطبة إلى طارق، وهي عبارة عن البحوث التي اطلعت عليها، ومن المؤكد أن الدراسات والبحوث التي لم أطلع عليها، أكثر بكثير من البحوث والدرسات التي اطلعت عليها، ومن المفيد أن يتم الاطلاع عليها والتنويه بها.

ويمكن أن نتبين، أن رفض الخطبة ارتفع مده في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري والنصف الأول من القرن العشرين الميلادي، حتى تكاثر الرافضون وأصبح الرفض أمراً مسلّماً به في الدراسات الأندلسية، وانقسم الرافضون إلى قسمين: قسم يصرح برفضه، وقسم يغفل الخطبة إغفالاً كاملاً، فلا يذكرها في دراسته ولايشير إليها، كأن رفضها حقيقة لا غبار عليها، يخجل الباحث من الاعتراض على الرفض، أو من التطرّق إلى الخطبة من قريب أو بعيد.

وللتاريخ أذكر، أن أول من رفض الرّفض وردّ عليه، هو الأستاذ عبدالله كنون، في كتابه: النبوغ المغربي، ثم توالت الردود في نماذج تطرقنا إلى ما اطّلعنا عليه، واستفدنا منه في هذه الدراسة.

واليوم أصبح هناك مَن لا يخجل من رفض الرفض والرد عليه، بل أصبح هناك مَن يخجل من السكوت عن رفض الرفض والنهوض بأعبائه، فالساكت عن الحق شيطان أخرس.

وظهرت الدراسات التي تؤكد نسبة خطبة طارق إليه، داحضة حجج الرافضين، وهذه الدراسات هي أول الغيث ثمّ ينهمر بإذن الله، فلا يقتصر على خطبة طارق، بل يشمل كل ما شك فيه المؤلفون الأجانب وعلى رأسهم المستشرقون وشككوا فيه بدون حق ولأسباب بعيدة عن المنهج العلمي قريبة

---

(١) مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ـ العدد الثاني ـ السنة العاشرة ـ رمضان ١٣٩٧هـ ـ آب وأيلول (أغسطس ـ سبتمبر) ١٩٧٧م (٤٣-٦٧) ـ مكة١٣٩٧هـ.

من التعصب الديني على الإسلام والمسلمين، وعلى الواقع والتاريخ.

(ب) حرق السُّفن:

ذكر الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي: (نزهة المشتاق)، عند الكلام على جغرافية الأندلس، أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس[1]، وقد نقلت بعض المصادر والمراجع المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسي فيما يرجّح، وفيما عدا ذلك فإن جميع المصادر العربية والإسلامية، تمرّ عليها بالصمت المطلق.[2]

وقد يقال، إن في خطاب طارق ما يؤيّد صحّة هذه الرواية، فطارق يستهلّه بقوله: (أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر)، وفي ذلك ما يمكن أن يفسّر أن الجيش الاسلامي الفاتح، قد جُرِّد من السفن التي حملته من سبتة إلى الأندلس. وتفسير أقوال طارق هذه، هو أن السفن ليست ملكاً للفاتحين ولا تحت تصرفهم في جميع الأوقات، وأنها عادت إلى صاحبها يُليان، ولم تبق على الساحل الأندلسي، جاهزة لتأمين انسحاب الفاتحين من الأندلس إلى الساحل الأفريقي.

إن يليان هو الذي قدم السفن لنقل الفاتحين إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك. وهو الذي قدّم السفن إلى الفاتحين بقيادة طارق، وهي ليست ملكاً للمسلمين ليُقدم طارق على حرقها، بل هي ملك صاحبها يليان، فإذا التحقت به بعد إنجاز واجبها في حمل الفاتحين إلى البر الأندلسي، وبعد إكمال إنزال الفاتحين من تلك السفن إلى البر الأندلسي، فلاتبقى سفن على الساحل الأندلسي يركن إليها المسلمون في

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (١٧٨) ـ طبع رومة.
(٢) دولة الإسلام في الأندلس (٤٨).

انسحابهم من الأندلس إلى الساحل الأفريقي، كما لا يبقى مسوِّغ لإحراق تلك السفن.

كما أن طارقاً ومن معه من مجاهدين، جاءوا إلى الأندلس، للجهاد من أجل عقيدة، وكانوا مستعدين للشهادة من أجل عقيدتهم، فلا مسوِّغ لإحراق السفن من أجل وضعهم وجهاً لوجه أمام الدّفاع عن أرواحهم، فما كانوا بحاجة إلى من يضعهم هذا الموضع الحرج، لأن أرواحهم لم تكن في حال من الأحوال أغلى عليهم من عقيدتهم، وما أنجزوه قبل عبورهم إلى الأندلس وبعد عبورهم إليها خير دليل على استقتالهم من أجل قلوبهم لا من أجل جيوبهم، ومن أجل عقيدتهم لا من أجل أرواحهم.

والواقع أن الإقدام على حرق سفن العبور، يصعب تصديقه ويصعب مجرد التصور أن طارقاً يمكن أن يفعله، فإذا كانت تلك السفن لُيليان، كما هو معروف، فليس من حق طارق إحراقها، وإذا كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكرياً سليماً، إذ يخالف مبدأ الاقتصاد بالقوة، أحد مبادىء الحرب المهمة، ولا يتفق مع المنطق والعقل.

لذلك لم تُشر المصادر الأندلسية العربية الأولى، إلى قصة إحراق السفن، والمصادر التي ذكرت تلك القصة نقلتها عن الشريف الإدريسي وكذلك المراجع[(١)]، ومنها المصادر والمراجع النصرانية، وبخاصة المصادر الإسبانية والمراجع، وقد تأثر بتلك القصة قسم من قادة الأسبان، فقلّدوا تلك القصة عملياً في قسم من عملياتهم العسكرية[(٢)].

---

(١) صفة الأندلس (من نزهة المشتاق) للإدريسي (١٧٧) وتاريخ الأندلس (٤٦) والروض المعطار (٧٥) ونفح الطيب (١/ ٢٥٨) والحلل السندسية (١/ ٨٢)، وانظر: دولة الإسلام في الأندلس (٤٨ـ٤٩).

(٢) يقدم لنا تاريخ إسبانيا الحديث مثلاً للمحتلّ الذي حرق سفنه التي عبر عليها جيشه، لكي يقطع على جنده كلّ تفكير في الانسحاب والرّجعة. فقد أحرق القائد المكتشف الإسباني هرناندو كورتيث الذي احتلّ المكسيك سفنه، حينما أشرف على شواطىء المكسيك مستكشفاً فاتحاً في سنة ١٥١٩م، تلك السّفن التي حملت جيشه من أسبانيا =

وعلى كل حال، فقصة إحراق طارق للسفن لا سبيل إلى تصديقها، لأنها تناقض حماسة المجاهدين يومئذ الذين لا يحتاجون إلى حوافز جديدة للاستقتال، ولأن السفن لم تكن ملكاً للمسلمين بل ملكاً لغيرهم، ولأن هذه القصة دوّنت لأول مرة في القرن الخامس الهجري، أي بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون صُنِّفت خلالها كثير من المصادر الأندلسية المعتمدة، دون أن تشير إلى هذه القصة أو تتطرق إلى ذكرها، كما لم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى قبل رواية الإدريسي لها.

٥ - سير المعركة الحاسمة

معركة وادي بَرْباط أو وادي لَكُّهْ

أ - قوّات الطرفين:

أولاً: المسلمون:

اثنا عشر ألفاً[١]، انضم إليهم يليان في قوة صغيرة من أصحابه وأتباعه[٢].

ولا يزال مدى مشاركة يليان في فتح الأندلس موضع اختلاف بين المؤرخين، وهناك أدلّة تشير إلى أن مهمّته كانت مساعدة الفاتحين وإعطاء توجيهات عامة لهم في أثناء العبور، وكان أيضاً عيناً لهم على الأعداء[٣]. ولكن بعد هزيمة القوط، ترك يليان الجزيرة الخضراء إلى إسْتِجَة[٤] (Ecija) وقرر أن يبدي مساعدة أكبر لطارق، بتزويد الفاتحين بأدلّاء من رجاله، لإنجاز افتتاح

= إلى المكسيك. ومن المعقول أن يكون هذا القائد الإسباني قد تأثرّ في عمله بالعمل الذي ينسب إلى طارق بن زياد فاتح الأندلس، أنظر دولة الإسلام في الأندلس (٤٩) في الهامش (١).

(١) نفح الطيب (١/ ٢٣٩).

(٢) دولة الإسلام في الأندلس (٤٢).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٠٦) والرازي (٩٨-٩٩) وأخبار مجموعة (٧) وابن الأثير (٤/ ٥٦٢) والنويري (٢٢/ ٢٧).

(٤) إستجة: إسم كورة بالأندلس متّصلة بأعمال (رية) بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٢٤).

الأندلس[1].

وأرى أن يليان لم يرسل جنوده ليقاتلوا، إذ لا يستعين المسلمون بغير المسلمين في القتال، وإنما كانت معاونة يليان وتعاونه للمسلمين في إبداء الرأي والمشورة، وتقديم الأدلاّء، وتأمين العيون لنقل الأخبار من القوط إلى المسلمين، والمعاونة في القضايا الإدارية كتقديم السفن للعبور، أما مباشرة القتال في ساحة القتال، فقد اقتصر على المسلمين حسب - وما يقال عن يليان ورجاله، يقال عن أعداء لذريق من القوط النصارى الذين التحقوا بالمسلمين قبل بدأ القتال في المعركة الحاسمة، فلم يباشروا القتال مع المسلمين أيضاً، للمحاذير التي ذكرناها.

ثانياً. القوط:

اجتمع يومئذ للقوط جيش تعداده مائة ألف مقاتل[2]، وأقل تقدير له أربعون ألفاً[3]، ولا يمكن معرفة تعداد جيش القوط اليوم بالضبط، فهو على كل حال بين هذين التعدادين، أي نحو سبعين ألفاً، كما جرى تقديره في بعض المصادر العربية المعتمدة[4].

على الميمنة ششبرت ابن أخيكا، وعلى الميسرة أبة بن أخيكا، وعلى القلب لذريق، وهو القائد العام والملك.

وقد اعتصم القوط في ساعة الخطر بالاتحاد، فاستطاع لذريق أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم

---

(١) الإحاطة (١/ ١٠٠) وأخبار مجموعة (١٠٦) والبيان المغرب (٢/ ٩) ونفح الطيب (١/ ٢٦٠).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٢١٤) ونفح الطيب (١/ ١٢٠)، ويقدِّره في مكان آخر بسبعين ألفاً، أنظر نفح الطيب (١/ ٢٣٣)، ويأخذ جيبون بهذه الرواية، فيقدِّره بتسعين ألفاً أو مائة ألف (الفصل الحادي والخمسون).

(٣) ابن خلدون (٤/ ١١٧) ونفح الطيب (١/ ٢٣٣).

(٤) نفح الطيب (١/ ١١٢).

ومَن يلوذ بهم، كما استعان بأفراد العائلة المالكة السابقة في قياداته، لتوحيد الجبهة الداخلية، وإذابة الخلافات المحلية، وحشد جهود القوط كافة وطاقاتهم المادية والمعنوية لحرب المسلمين.

ب - التوقيت:

تلاقى المسلمون والقوط يوم الأحد لليلتين بَقِيَتا من شهر رمضان، واتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَوْن من شهر شوال بعد تتمة ثمانية أيام[١]، أي كان لقاء الجيشين المتحاربين في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز (يوليو) سنة ٧١١م) واستمر ثمانية أيام فقط إلى اليوم الخامس من شوال سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٢٦ تموز (يوليو) ٧١١م).

أي أنها بدأت وانتهت خلال ثمانية أيام فقط (٢٨ رمضان - ٥ شوال ٩٢هـ[٢] = ١٩-٢٦ تموز ٧١١م)[٣].

ج - ميدان القتال:

كان ميدان القتال في كورة شَذُوْنة (Sidonia) جنوب غربي إسبانيا[٤] في سهل (الحدود) الفرنتيرة (Frontera) جنوب بحيرة الخندق (Janda) ونهر بَرْباط (Barbate) المتصلة به. وقد تُعرف أحياناً معركة وادي برباط في الرواية الإسلامية بمعركة وادي بكة أو لَكُّهْ (Gudalete,)[٥] لعله مأخوذ من (Lago) وهو

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٥٩) وتاريخ الأندلس (١٣٥).

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً، أن المعركة كانت في ذلك التاريخ، ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول: إنها كانت في السابع من ربيع الأول سنة ٩٢هـ، انظر نفح الطيب عن ابن حيان (١/ ١١٦)، ولعله ينفرد بهذا الخلاف، أنظر دولة الإسلام في الأندلس (٤٤).

(٣) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٨).

(٤) تاريخ الأندلس (١٣٥-١٣٦) نص ابن الشباط، ونفح الطيب (١/ ٢٥٨).

(٥) الروض المعطار (١٦٩-١٩٣) ونفح الطيب (١/ ٢٤٩و٢٥٨) ودولة الإسلام في الأندلس (١/ ٤٢-٤٤).

البحيرة، أي: بحيرة الخندق[1]، فأصبحت البحيرة علماً على المكان[2]. أما وادي لَكُّهْ (Guadalete) المعروف في الجغرافية الإسبانية الحديثة، فيقع إلى الشمال منه، ويصب في خليج مدينة قادس[3] (Cadiz) ويصب نهر برباط في المحيط الأطلسي عند طَرَف الأغَر (Trafalgar)[4].

وغير بعيد أن يكون اسم وادي لَكُّهْ في الرواية الإسلامية، لم يُقصد به وادي بَرْباط - ولو أحياناً- بل قُصد به اصلاً وادي لَكّهْ (Guadalete) كما هو معروف اليوم، الذي يصب في المحيط عند قادس، ويقترب أحد فروعه من ميدان المعركة الواسع أو كان شاملاً له، وجَعْل هذا الوادي: وادي لَكُّهْ ضمن شَذُوْنَة (Sidonia)[5] التي كانت مدينتها شَذُونة ميداناً لمعركة البرباط: (وبها كانت الهزيمة على لذريق)[6]، يزيل اللّبس. وعلى ذلك فلا وجود لاشتباه أو خلط أو تغليب في تسمية الرواية الإسلامية لوادي لَكُّهْ، وعندها تنصرف التسميات المتعلقة بهذه المعركة إلى مسمياتها الأصلية[7].

وهناك دراسات حديثة عديدة بشأن: ميدان القتال، الذي حدثت فيه المعركة الحاسمة بين لذريق وطارق، فيرى أحد المستشرقين حدوث معركتين: الأولى وقعت قرب مدينة شَذونة، بين جبل رتين (Serra del Retin) وبحيرة الخندق (Lago de la Janda) وحديث الثانية عندما هرب لذريق نحو

---

(١) فرحة الأنفس -ابن غالب- مجلة معهد المخطوطات العربية (١/ ١/ ٢٩٤) والحلة السيراء لابن الآبار (٢/ ٣٣٣) وأخبار مجموعة (٧)
و Levi - Provencal و Hisoire de l'Espagne Musulmane, 1,21

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٥٧-٢٥٨) قارن نصوص عن الأندلس ابن العذري (١١٨و١١٩).

(٣) قادس: جزيرة في غربي الأندلس، تقارب أعمال شذونة، طولها اثنا عشر ميلاً قريبة من البر، بينها وبين البر خليج صغير، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٤-٥).

(٤) التاريخ الأندلسي (٥٦).

(٥) تاريخ الأندلس (١٣٤) نص ابن الشباط.

(٦) تاريخ الأندلس (١٣٥).

(٧) التاريخ الأندلسي (٥٦-٥٧).

الشمال، وحارب المسلمين قرب (Segayuela)[١]، ويتفق معه مستشرق آخر[٢]، بينما يعارض مستشرق ثالث ما ذهب إليه هذان المستشرقان[٣]، ويؤيده مستشرق رابع الذي يتفق مع المؤرخين العرب على أنه كانت هناك معركة واحدة كبيرة فقط بين المسلمين والقوط، وهي التي حدثت قرب ضفاف نهر وادي لَكُّهْ في كورة شَذونَة، وأن لذريق هزم وقتل قرب هذا النهر[٤].

وقد ذهب بعض المؤرخين المستشرقين، بعيداً في تحديدهم لميدان القتال، فيفترض أحدهم أن المعركة حدثت قرب نهر (Sangonera) الذي يسمى أيضاً بوادي الطين، وهو (Guadalentin) أو (Gudatin) وهو فرع من نهر شقورة (Seguar) في محافظة مُرْسِيَة[٥] شرقي إسبانيا[٦].

وعلى كل حال، فإن دراسات المستشرقين الحديثة، لم تأت بجديد، وأقربها للصواب هي التي اتفقت مع المؤرخين العرب في مصادرهم المعتمدة، التي ذكرت أن ميدان القتال جرى على وادي برباط على مقربة من شذونة[٧]. أما التي اختلفت مع تلك المصادر، فلم تأت بشيٍ يُطمئنّ إليه، وتاهت في غمرات التيه دون أن تأتي بجديد.

---

(١) Saavedra,pp.68-69,99-101، وانظر الرازي - نشر سافيدرا (١٥٤) و Alfonso,111,p.612

(٢) F. Simonet, op. 20-21.

(٣) Provencal, Vol.7.PP.20-21 , 25.

(٤) C . Sanchez - Albornoz, "Otra Vez Guadalete Y Covadonga," Cuadernoz de Historia de Espana, 1-11, 1944,pp.12,42,56,58,67.

(٥) مرسية: مدينة تقع بالأندلس من أعمال تُدمير، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٢٤ـ٢٥).

(٦) انظر أحمد مختار العبادي ـ نصان جديدان ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ العدد الثالث عشر ١٩٦٥ـ١٩٦٦م ص: ٢٨ـ٤٠

(٧) انظر نفح الطيب (١/ ٢٥٧ـ٢٥٨) وتاريخ الأندلس (١٣٥ـ١٣٦) نص ابن الشباط والروض المعطار (١٦٩و١٩٣).

د - سير القتال:

فرّق نهر بَرْباط بين الجيشين المتحاربين مدى أيام ثلاثة، شُغلت بالمناوشات البسيطة بين الجيشين، وقد كان جيش القوط في الضفة الشمالية من النهر، وكان طارق في الضفة الجنوبية منه. وفي اليوم الرابع التحم الجيشان، ونشبت بينها معركة عارمة. وظهر لذريق في وسط الميدان في حلل ملوكية، فوق عرش تجرّه الخيول المطهّمة، وهو منظر أثار سخرية جيبون[1] ولاذع تهكّمه، إذ يقول عنه: «ولقد يخجل ألاريك (مؤسس دولة القوط) عند رؤية خلفه لذريق، متوّجاً باللآلى، متّشِحاً بالحرير والذهب، مضطجعاً في هودج من العاج»[2].

وأظهر البربر المسلمون من غُمارة قدرة عظيمة على القتال، فقد كانوا من المختارين من بين أفراد تلك القبيلة المعروفين بالإقدام والشجاعة، ومن المدرّبين على التّعابي العسكرية أحسن تدريب. وكان طارق قد قدّم نفراً من السُّودان[3] أمام جيشه، ليتلقوا بما عُرف عنهم من الصبر والثبات الصدمة

---

(١) جيبون: أدورد جيبون (١٧٣٧ـ١٧٩٤م)، مؤرخ إنجليزي قضى طفولة سقيمة، ولم يدرس دراسة منظّمة، ولكنه كان نهماً في قراءاته. تعلّم بأكسفورد ولوزان قام بزيارة لروما أمدّته بفكرة تأليف كتابه الضخم الخالد: (تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) الذي ظهر في ستة مجلدات (١٧٧٦ـ١٧٨٣)، فحظي على الفور بالثناء والانتشار. كان شكل جيبون غير الوسيم مثاراً للسخرية بين الأوساط العالية التي غشيها. قابل بالسخط والاستنكار الثورة الأمريكية، ولكنه أظهر رضاءه عن الثورة الفرنسية التي خضبت أديم فرنسا بالدماء الغزيرة، انظر الموسوعة العربية الميسرة (٦٧٥).

(٢) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المنظر، فيقول الطبري نقلاً عن الواقدي: «فزحف الأدرينوق في سرير الملك، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلّة التي كان يلبسها الملوك»، انظر الطبري (٦/٤٦٨) ونفح الطيب (١/١١٢) والبيان المغرب (٢/٩).

(٣) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا سافدرا الإسباني، مع أنهم قاموا =

الأولى من الجيش القوطي، التي تكون عادة صدمة مدبّرة تؤثر في المعنويات للمتقاتلين، فترتفع معنويات المنتصر، وتنهار معنويات المنكسر.

وأظهر فرسان القوط قدرة قتالية عظيمة في أوائل المعركة، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسُّودان المسلمين ثباتاً عظيماً، وكبّدوا المسلمين خسائر بالأرواح كبيرة.

وكان قوّاد الفرسان من القوط، أعداء لذريق، غاضبين عليه وناقمين منه، وكان يليان ورجاله نشطين طوال المعركة في تخذيل الناس عن لذريق وصرفهم عنه، وكانوا يؤكِّدون للذين حول لذريق أن المسلمين لم يُقبلوا إلى هذه البلاد للفتح والاستقرار، بل للقضاء على لذريق والظّفر بالغنائم، وأنهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم بعد ذلك. ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين رجال لذريق، وكان كثير منهم كارهاً له ناقماً عليه، فلم يلبث فرسانه وهم خيرة جنده، أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره[(١)].

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين الجانبين أربعة أيام، ثم انهزم القوط وقُتل منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبّسة بالأرض[(٢)].

= بدور خطير جداً في الفتح. Saavedra. OP.cit.P.71

(١) تجمع المصادر العربية على ذلك، وتؤكد أنّ خيانة لذريق وسط المعركة، إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والمسلمين: وقد ناقش ساقدرا هذا الموضوع، وانتهى إلى أنّ الذي قام بترتيب المؤامرة كانا أخوي غيطشة: شيشبرت بن أخيكا، وأبة بن أخيكا، وكان أحدهما على خيل لذريق في هذه المعركة. وقد تعجّب ساقدرا من أنّ لذريق يعهد في أمر مهم كهذا لواحد من أعدائه، ولكن فاته أن بعض المصادر العربية تذكر أنّ لذريق سعى في الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاسمة، وهذا واضح من قول ابن القوطية «فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة ـ وقد ترعرعوا وركبوا الخيل ـ يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوِّهم...»، ابن القوطية ـ افتتاح الأندلس (٢ـ٣)، وانظر الهامش (١) من كتاب فجر الأندلس (٧٤).

(٢) المقري برواية الرازي (١/ ١٢١).

ويقال: إن انتصار طارق كان بسبب تعرّض لذريق للخيانة، وتذكر الحوليات اللآتينية، أن المسلمين عبروا إلى الأندلس، وهزموا الجيش القوطي بسبب خيانة أولاد غيطشة[١]. وتشير بعض المصادر العربية أيضاً إلى أن مباحثات جرت في طنجة قُبيل الفتح بين طارق بن زياد وأحد أولاد غيطشة[٢]. بينما يقول آخرون إن هذه المباحثات جرت قُبيل بدء المعركة بوقت قصير، عندما أصبح طارق فعلاً في إسبانيا، فعرض أولاد غيطشة، أن يتخلوا عن لذريق، ويؤيّدوا طارقاً برجالهم، شريطة أن يضمن لهم كل ممتلكات والدهم التي تبلغ ثلاثة آلاف ضيعة، وهي التي سُميت فيما بعد بصفايا الملوك، وذلك بعد أن يُخضع إسبانيا جميعها للمسلمين[٣].

وقد أورد مؤرخون عرب آخرون، تفسيرات أكثر احتمالاً وواقعية، بشأن هذه المسألة، ولا تعرض مصادرهم لأية مباحثات بين طارق وأولاد غيطشة. ويقتصر الأمر على أن أولاد غيطشة وبعض نبلاء القوط، قرّروا التخلي عن لذريق في ساحة المعركة. لأنهم اعتقدوا أن المسلمين لا ينوون الاستقرار في البلاد، بل إنهم جاءوا من أجل الغنائم، وبعد أن يندحر لذريق، فإن العرش سيعود إلى أصحابه الشرعيين، أي أولاد غيطشة[٤].

وقد كان الجيش القوطي نفسه مؤلفاً في معظمه من العبيد المجندين[٥]، وهم من المرتزقة المضطرين على القتال اضطراراً، إذ لا ناقة لهم في الحرب ولا جمل، فهم يقاتلون بقدر خشيتهم لأسيادهم، وبقدر ما تدرّ عليهم مهنتهم من مكاسب مادية، قد لا تُسمن و لاتغني من جوع في أغلب الأحيان.

---

(١) Alfonso 111.p.612 و Chronicon Albeldense,p.193

(٢) البيان المغرب (٢/ ٦).

(٣) افتتاح الأندلس (٥) والروض المعطار (٩ـ١٠) ونفح الطيب (١/ ٢٥٨).

(٤) أخبار مجموعة (٧ـ٨) فتح الأندلس (٦ـ٧) وابن الأثير (٤/ ٥٦٣) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦ـ١٠٧) والنويري (٢٢/ ٢٧) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٣١ـ٢٣٢و٢٥٧ـ٢٥٨).

(٥) Thompson.pp.265-267,cit. LV,V .3.4.7.19

ويبدو أنه لم يكن هناك أي أمل في أن يتمكن هذا الجيش القوطي من مقاومة الهجوم الإسلامي، وأن دور أسرة غيطشة في ترجيح كفة المسلمين، قد تعرّض إلى كثير من المبالغة[١]. وكانت صفوف الجيش القوطي تتألف من أتباع آل غيطشة وأتباع حلفائهم من الزعماء والأمراء الناقمين على لذريق، والذين تظاهروا بالإخلاص في وقت الخطر، وكلهم يتحيّن الفرصة للإيقاع بالملك المغتصِب لذريق[٢]، فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شرّ ممزّق. واستمال يليان والأسقف أوباس وهما في صف المسلمين كثيراً من جند القوط، وبثّا بدعايتهما في الصفوف الموالية للذريق كثيراً من عوامل الشقاق والتفرقة، فأخذ كل أمير يسعى في سلامة نفسه[٣]. وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى في جيش لذريق، فاضطرب نظامه ولاذ مَن بقي منه بالفرار وأسياف المسلمين في أقفيتهم، وقد قتل من القوط في تلك الأيام عدد عظيم، ولم يعثر للذريق على أثر. وتذهب المصادر العربية إلى أنه أراد أن يعبر وادي البرباط على عجل، فغرق فيه، ولم يعثر المسلمون إلاّ على خفّه[٤]. وتقول بعض الروايات النصرانية، إنه بقي في ميدان القتال حتى قُتل مدافعاً عن عرشه وأُمّته، وتقول بعضها: إنه فرّ عقب الهزيمة على ظهر جواده، ولكنه غرق في مياه النهر. وتميل الروايات الإسلامية إلى تأييد غرقه، وتقول: إن ملك القوط مات غريقاً، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبي، ولم يعثروا على إنسان بجثته. وتزعم بعض الروايات النصرانية، أن لذريق استطاع أن يلوذ بالفرار، ولكنه قُتل بعد ذلك، أو انه فرّ إلى بعض الأديار في البرتغال

---

(١) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٩).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٥٦٣) ونفح الطيب (١/ ١٢١) ودوزي (١/ ٢٧٢).

(٣) دولة الإسلام في الأندلس (٤٤).

(٤) لا يقطع ابن عذارى في البيان المغرب بموت لذريق، ويكتفي بقوله: «ولم يعرف للذريق موضع ولا وجدت له جثة، وإنما وجد له خفّ مفضّض، فقالوا: إنّه غرق، وقالوا: إنّه قُتل، والله أعلم»، انظر البيان المغرب (٢/ ١٠) وفجر الأندلس (٧٤).

وترهّب، وعاش متنكراً حيناً من الدهر. وينفرد صاحب كتاب: الإمامة والسياسة، بين المشارقة برواية أخرى، وهي: أن طارقاً ظفر بجثة لذريق، فاحتزّ رأسه، وبعث به إلى موسى بن نُصير، وبعث به موسى بن نصير إلى الخليفة في دمشق، ويتابعه في ذلك مؤلف اندلسي هو صاحب كتاب: تحفة الأنفس[1]، هذا إلى روايات كثيرة.

والمرجح من هذه الروايات كلها، أن لذريق فقد حياته في الموقعة التي فقد فيها ملكه، وأنه مات قتيلاً أو غريقاً على الأثر[2].

تلك مجمل ما جاء في المصادر والمراجع، حول أهم أسباب انتصار طارق على لذريق، آثرت ذكرها باختصار غير مُخِلّ، مع الإشارة إلى مصادرها ومراجعها، لكي أناقش آراءها، وأُبدي ما أراه حولها.

والمتتبِّع لسير القتال في هذه المعركة الحاسمة، يجد أن القتال كان ضارياً بين الجانبين المتحاربين: المسلمين من جهة، والقوط من جهة أخرى. فثبات البربر من غُمارة، وإظهارهم القدرة العظيمة على القتال، دليل على أن زخم القوط في المعركة كان شديداً، ولا يقاتل بهذه الشدّة رجال تنخر بين صفوفهم الإشاعات الضارّة، ويتآمرون على السُّلطة القائمة المتمثلة بِلِذريق ملكاً وقائداً عاما.

وقد أظهر فرسان القوط في اليوم الرابع من المعركة، ـ بعد أن حمي الوطيس ـ قدرة قتالية عظيمة، وثبتوا لضغط المسلمين الشديد، ولا يمكن أن يُظهر مثل هذه القدرة متآمر أو مقاتل تعصف بإرادته القتالية الإشاعات

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٥ـ٧٦) وانظر دولة الإسلام في الأندلس (٤٥).

(٢) يقول ابن الأثير (٤/ ٢١٤): إنه غرق في نهاية المعركة، ويقول المقري في نفح الطيب (١/ ١٢١): إنّه رمى بنفسه إلى النهر مختاراً، وقد ثقلته الجراح، ويقول ابن الأبار في الحلة السيراء (٣١) إنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبي وإحدى نعليه، وغاب شخصه فما وجد، وهذه هي أيضاً رواية: أخبار مجموعة (٦)، أنظر التفاصيل في الفقرة (٢) من الهامش في كتاب: دولة الإسلام في الأندلس (٤٥).

الضّارة.

كما أن تصدّي السُّودان المسلمين البطولي العزوم للقوط، يدلّ على أنّ القوط كانوا يقاتلون في المعركة كما يقاتل الرجال.

وكان تعداد جيش المسلمين في هذه المعركة -كما ذكرنا- اثنى عشر ألف مجاهد، استُشهد منهم في المعركة ثلاث آلاف مجاهد، أي أنّ خمسة وعشرين بالمائة من جيش المسلمين استُشهدوا في هذه المعركة، وهي نسبة عالية جداً، إن دلت على شيٍ فإنما تدل على شدّة مقاومة القوط في المعركة، وأنهم قاموا بواجبهم في القتال. فقد قسم طارق الغنائم بعد هذه المعركة على تسعة آلاف من المسلمين[1]، أي أن هؤلاء هم الذين سلموا، وقُتل الباقون.

أما التركيز على إشاعة أن المسلمين جاءوا من أجل الغنائم إلى الأندلس وليس من أجل الفتح، فهم قدموا ليرحلوا ولم يأتوا ليبقوا، فمن الصعب تصديقها، لأن ورثة غيطشة اشترطوا أن يستعيدوا قراهم وضياعهم بعد الفتح، فلماذا يشترطون مثل هذا الشرط على المسلمين، إذا كان المسلمون سيعودون بالغنائم إلى قواعدهم في الساحل الأفريقي، ويعود العرش وملك الأندلس إلى ورثة غيطشة الشرعيين؟!

ثم إن المسلمين قدموا إفريقية من أمد طويل، بدأ قبل سبعين سنة (أي سنة ٢٢هـ) ولم يرحلوا عنها، بل توسّعوا في فتوحهم بالتدريج، فلماذا يرحلون عن الأندلس بعد فتحها؟

ومن الواضح أن أخبار المسلمين في شمالي إفريقية، كانت معروفة لدى حكّام الأندلس بخاصة، وأهل الأندلس بعامة، فهم لا يمكن أن يتقبلوا بسهولة الإشاعة التي تزعم: أن المسلمين جاءوا ليرحلوا لا ليبقوا.

ومع ذلك، فيمكن أن يعتذر بمثل هذه الإشاعة الهارب، عن جريمة هربه من المعركة، مع الادِّعاء بأنّ هربه كان نكاية بالملك لذريق وانتصاراً لآل

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٦٣)، وانظر فجر الأندلس (٧٥).

غيطشة والناقمين عليه من النبلاء، وإرضاءً للمسلمين المنتصرين.

وإذا كان قادة فرسان القوط، قد خرجوا من المعركة بمن معهم من الفرسان - وهم خيرة جند لذريق - وتركوه لمصيره، فمن أين غنم المسلمون الخيل؟ لقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة، حتى لم يبق منهم راجل، فمن أين غنم السلمون هذا العدد الضخم من الخيول، إذا كان الفرسان القوط قد انسحبوا من المعركة بالتواطىء مع المسلمين؟ وهل يمكن أن يغنم المسلمون خيول مَن تواطأوا معهم على نصرتهم؟

وقد قتل في المعركة شيشبرت أخو غيطشة، وكان أبرز قادة فرسان القوط، فكيف قُتل وهو قد تخلى عن لذريق طمعاً في الغنيمة والسّلامة؟!

ومع ذلك، فلا يمكن إنكار أن آل غيطشة ومَن يشايعهم من النبلاء، كانوا ناقمين على لذريق الذي اغتصب عرش غيطشة، فهم يطمعون أن يستعيدوا عرشهم بزوال لذريق، وبرحيل المسلمين عن الأندلس، وكان رحيل المسلمين عن الأندلس من الأماني التي يتعللون بها ولا يعتقدونها.

وقد ورد نص في: أخبار مجموعة، يفيد هذا الاتجاه ويشير إليه: «...... ومعهم يليان - أي مع المسلمين - في جماعة من أهل البلد، يدلّهم على العورات، ويتجسس لهم الأخبار، فأقبل إليهم رُذريق (لذريق)، ومعه خيار أعاجم الأندلس وأبناء ملوكها، فلما بلغتهم عدّة المسلمين وبصائرهم، تلاقوا بينهم - أي أولاد الملوك - فقال بعضهم لبعض: هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا، وليس من أهله، وإنما كان من سفالنا، وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بإيطان بلدنا، إنما يريدون أن يملوا أيديهم، ثم يخرجون عنّا، فانهزم بنا بابن الخبيثة إذا لقينا القوم، فأجمعوا لذلك. وكان رُذريق قد ولّى شيشبرت ميمنته وأبة ميسرته، وهما أبناء غيطشة[1]، الذي كان ملكاً قبله، وهما رأس مَن أدار عليه الانهزام»[2]، فالاتفاق على الهزيمة لم تكن مع

(١) هما إخوة غيطشة وليسا ابنيه، كما ذكرنا ذلك من قبل.

(٢) أخبار مجموعة (٧ـ٨).

طارق، بل كانت بينهم لا يعرف عنها طارق شيئاً، لذلك اقتتل الطرفان المتحاربان اقتتالاً شديداً[1]، حتى ظنّوا أنه الفناء[2]، فلم تكن بالغرب مقتلة أعظم منها[3]، واستمرت المعركة ثمانية أيام، ولا يمكن أن تستمر معركة من المعارك ثمانية أيام، وهي مدّة طويلة جداً بمقاييس ذلك الزمن، إلاّ إذا كانت المعركة ضارية إلى أقصى الحدود، وإلاّ إذا كان الجانبان المتحاربان قد بذلا جهوداً قتالية جبارة في المعركة: «فالتقيا يوم الأحد، وصدق المسلمون القتال، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم، وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر، ولم يعرف لملكهم لذريق خبر، ولا بانَ له أثر، فقيل: إنه ترجّل وأراد أن يستتر في شاطىء الوادي، فصادف غديراً فغرق فيه فمات»[4]. في حين تذكر بعض المصادر، أن لذريق فرّ من الميدان، والتقى بالمسلمين في معركة أخرى، شمالي الأندلس، فقتل فيها[5]، لكن هذا الرأي ضعيف لا تدعمه الأدلة والمصادر المعتمدة الأخرى.

يمكن أن نستنتج، بعد عرض ما جاء في المصادر والمراجع العربية وغير العربيّة، ومناقشة ما جاء فيها من معلومات، أنّ المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة طارق، والقوط بقيادة لذريق، قد بذل خلالها الجانبان المتحاربان أقصى جهودهما المادية والمعنوية لإحراز النصر، وقد شُغل الجانبان بالمناوشات الاستطلاعية لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع حمي الوطيس بين الجانبين، واستمرت المعركة شديدة عارمة أربعة أيام، تكبّدت

---

(١) أخبار مجموعة (٨) والبيان المغرب (٧).
(٢) البيان المغرب (٧).
(٣) البيان المغرب (٧).
(٤) تاريخ الأندلس (٤٨)و(١٣٥)، والبيان المغرب (٢/٧و٨و٩) ونفح الطيب (١/ ٢٤٢و٢٤٩و٢٥٨-٢٥٩).
(٥) تاريخ الأندلس (٢٩وما بعدها).

خلالها الجانبان خسائر فادحة بالأرواح، مما يدل على ثباتهما الرّاسخ العنيد في القتال. وقد ثبت قلب القوط ثباتاً أفضل من ثبات الميمنة والميسرة، ويبدو أن قائدي الميمنة والميسرة اللذين كانا مع لذريق في الظاهر وعليه في الباطن، آثرا الانسحاب في اليوم الرابع من الاصطدام العنيف بين الجانبين، وفي اليوم السابع من حصول التماس المباشر بينهما، فأصبح قلب القوط يقاتل وحده، مما جعل المسلمين يكتسحونه بسهولة، لأن قواتهم ركزت عليه، وكانت من قبل تقاتله وتقاتل الميمنة والميسرة. وقد استطاع آل غيطشة تنفيذ مؤامرتهم على لذريق، بعد أن كبد المسلمون ميمنة القوط وميسرتهم خسائر فادحة، بحيث أوشكت الميمنة والميسرة على الانهيار تحت ضغط قوات المسلمين، إذ لم يكن بالامكان تنفيذ مؤامرتهم قبل أن يكبد المسلمون الميمنة والميسرة خسائر فادحة بالأرواح، لأن لذريق وهو في قوته لا يمكن أن يسكت على المتآمرين، إذ يقابل تآمرهم بالقوة، ويصفي المتآمرين جسدياً قبل أن ينجحوا في تصفيته.

ولا أرى، أن آل غيطشة كان لهم صلة بطارق، ولا علم لطارق بمؤامرتهم، إذ لم يثبت أنهم اتصلوا به قبل المعركة أو في أثنائها، فقد كتموا نواياهم، ولم يظهروها لأحد، وإلاّ سهل على لذريق اكتشافها في الوقت المناسب، وسهل عليه وضع حد نهائي لها قبل فوات الأوان.

وحين وجد لذريق أن المسلمين، قد أجهزوا على القلب الذي يقوده، لم يكن أمامه إلاّ الهرب تحت ضغط مطاردة عنيفة، فغرق في وادي الوحل أو قتل، والنتيجة واحدة هي أنه لم يبق بعد تلك المعركة الحاسمة على قيد الحياة.

وهكذا خسر لذريق، في هذه المعركة جيشه، كما خسر روحه.

وقد طارد المسلمون فلول القوط بعد انسحابهم من ميدان المعركة مطاردة عنيفة. فأبادوا من لم يستسلم من القوط، وبذلك جرت معارك محلية بين المسلمين وبين القوط، هي معارك استثمار الفوز، في جنوبي مدينة شَذُوْنَة

وشماليها، فسُمِّيت هذه المعركة الحاسمة بعدّة أسماء مختلفة، هي أسماء تلك المعركة الحاسمة وأسماء تلك المعارك المحليّة: معارك المطاردة، مثل معركة البحيرة، ومعركة وادي بكّه، ومعركة وادي لكه، ومعركة وادي البرباط، ومعركة شريش[1]، ومعركة السّواني، ومعركة السّواقي[2]، فهي معركة شَذُونَة بأسرها التي تقع في جنوبي غربي الأندلس[3].

ولا مجال لتصديق، أن لذريق هرب بعد هذه المعركة نحو الشمال، واصطدم بالمسلمين بموقعة جديدة[4]، لأن لذريق خسر قوّاته الضاربة في معركة وادي لكّه، ولم تكن لديه قوات احتياطية ليقاتل بها المسلمين، كما أن مطاردة المسلمين بعد المعركة كانت شديدة، بحيث لم يفسحوا المجال لنجاة الهاربين من ساحة القتال وتجمعهم بقيادة واحدة مسئولة، لتجديد القتال مع المسلمين من جديد.

وجرى القتال بالنسبة للقوط، بالنظام الخماسي للقتال: المقدمة، والمؤخرة، والميمنة والميسرة، والقلب، وهو نظام أصلح لإجراء الحركة المرنة بسهولة ويسر، وأكفل للثبات بوجه الهجمات، وأمنع لمباغتة العدو.

أما المسلمون، وكان أكثرهم من البربر، فقاتلوا بأسلوب: الكر والفر. قال ابن خلدون: «إن الكر والفر هو قتال البربر من أهل المغرب»[5]، ولا يزال البربر يقاتلون بهذا الأسلوب حتى اليوم، في قتالهم غير النظامي،

---

(١) شريش: مدينة كبيرة من كورة شذونة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٢٦٠).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٩ـ١٠) وابن القوطية (٧) وفتح الأندلس (٧) وأخبار مجموعة (٢٠٦) وابن الأثير (٤/ ٥٦٢) وابن الشباط برواية عريب (١٠٦) والبيان المغرب برواية الرازي (٨) والنويري (٢٢/ ٢٧) والحميري (١٦٩) وابن خلدون (٤/ ٢٥٤) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٤٩) و(١/ ٢٥٨).

(٣) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٨).

(٤) Saavedra.pp.68-69-F.simonet,op.cit.,p.23-29. ، وانظر الرازي، نشر ساقيدرا ص: ١٥٤

(٥) ابن خلدون (٢/ ٨٢٣).

المرتبط بقياداتهم غير النظامية. أما الذين ارتبطوا بالجيوش الحديثة، فقد أصبحت أساليبهم القتالية أساليب حديثة، أسوة بغيرهم كما هو معروف.

وأسلوب الكر والفر، هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو: النّشّابة منهم، والذين يقاتلون بالسيوف ويطعنون بالرماح، مشاةً وفرساناً، فإن ثبت لهم العدو أو أحسّوا بالضعف نكصوا، ثم أعادوا تنظيمهم وكرّوا، وهكذا يكرّون ويفرّون حتى يكتب لهم النصر أو الاندحار[1].

واستطاع المسلمون إحراز النصر على القوط، بالرغم من تمتع القوط بمزايا عسكرية يتفوقون بها على المسلمين، منها أن تعداد القوط كان ثمانية أضعاف تعداد المسلمين، ومنها أن غالبية جيش القوط كانوا من الفرسان، وكان غالبية جيش المسلمين من المشاة، والفرسان يتفوقون على المشاة بسرعة الحركة وبالتأثير الحاسم في القتال، وكان القوط في حالة إدارية: إعاشةً وكساءً وغطاء، متميزة على المسلمين الذين كانوا في حالة إدارية متواضعة. كما أن قيادة القوط لم تكن واهنة كما يتوهم قسم من المؤرخين، فقد كان لذريق يهتمّ بالمظاهر الخلاّبة، ولكنه كان طموحاً شجاعاً، كما أنه قائد ميداني، دأب على قيادة رجاله بنفسه، ولم يتخل عن قيادتهم لغيره من قادته المرءوسين. فكان يقود رجاله في حرب الخارجين عليه من الأسبان في الشمال، قبل إنزال المسلمين إلى برّ الأندلس، وقاتل المسلمين بنفسه، كما أنه لم يكن من العائلة المالكة في أسبانيا، فحملته قيادته وثقة الشعب به إلى القضاء على الملك غيطشة وتولى الملك خلفاً له بقيادته لا بنسبه وحسبه، فليس لذريق قائداً متخلّفاً، بل كان قائداً لامعاً بحق، فكانت قيادة القوط قيادة قادرة ذات كفاية عالية، كما كانت قيادة المسلمين كذلك متمثلة بطارق بن زياد.

إن انتصار المسلمين على القوط، ليس بسبب تعرض لذريق للخيانة، كما

---

(١) الرسول القائد (١٠٤) ط٣، وعقبة بن نافع الفهري (٥٠) ـ ط٤

تردّد ذلك بعض المصادر عن حسن نيّة أو عن سوء نيّة، بقصد إخفاء سبب النصر الحق، فقد انتصر المسلمون بعقيدتهم الراسخة، فكانوا يتميزون على القوط بمعنوياتهم العالية المتميزة، وهذه المعنويات العالية هي التي تجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله.

وليس معنى ذلك، أن الجيش القوطي خلا من الخيانة، فقد ظهرت الخيانة بعد اندحار القوط لا حين كانوا أقوياء، وبعد الاندحار تكثر الادّعاءات ويكثر الأدعياء.

وقد كان البربر قبل إسلامهم مستعبَدين للروم وللأسبان، فتبدل حالهم بالإسلام من حال إلى حال.

وكان سر انتصار المسلمين في معاركهم الحاسمة: في غزوة بدر الكبرى، والقادسية، واليرموك، ونهاوند، هو سر انتصارهم في معركة وادي برباط أو وادي لَكُّهْ، فبالإسلام انتصروا، وقد رفعت تعاليم هذا الدين معنويات المجاهدين قادةً وجنودا، وبعثت فيهم إرادة القتال التي لا تُقهر.

وكان هذا السر وراء فتوحاتهم شرقاً وغرباً، فقضت على الفرُس، وهزمت الرُّوم، وسارت رايات النصر من بلد إلى بلد، فأصبحت بلاد المسلمين لا تغيب عنها الشمس أبداً.

وبالإضافة إلى أن هذا الدين رفع المعنويات وبعث إرادة القتال، فقد أعطى الفرصة لظهور القادة المتميزين والجنود المتميزين أيضاً، لتستكمل حلقات عوامل النصر المعنوية والمادية المعروفة، وهي: المعنويات العالية، والقيادة المتميزة، والجنود المتميزين. وكانت تلك الحلقات متوفرة في المسلمين الفاتحين، فقد كان طارق قائداً متميزاً حقاً، برزت سماته القيادية طيلة أيام المعركة الحاسمة، كما برزت في إصراره الشديد على المطاردة المتّصلة التي لا هوادة فيها. كما كان جنود طارق جنوداً متميزين حقّاً، برزت سماتهم القتالية في إدامة التماس بالقوط، وإدامة قتالهم ليلاً ونهاراً بلا كلل ولا ملل، بدون إعطاء فرصة للقوط للاستراحة من عناء القتال، ودون أن يكترثوا

بتصاعد أعداد الشهداء الذين تساقطوا في ميدان القتال، فقد استشهد واحد من كل أربعة، ولابد أن يكون الجرحى أضعاف الشهداء فانتصروا على القوط بالشهداء المقبِلين، وانهزم القوط بالقتلى المدبِرين، وهذا هو الفرق بين الجيش الذي يتحلى بالمعنويات العالية المرتكزة على العقيدة الراسخة، والجيش الذي لا يتحلى بالمعنويات العالية.

وكما فتحت معركة القادسية الحاسمة أبواب العراق للمسلمين الفاتحين، وفتحت معركة اليرموك الحاسمة أبواب بلاد الشام لهم، وفتحت معركة نَهاوَند أبواب بلاد فارس، وفتحت معركة بابليون الحاسمة أبواب مصر للفاتحين، فقد فتحت معركة وادي لَكُّهْ الحاسمة أبواب الأندلس للمسلمين الفاتحين، فكانت معارك الفتح التي تلتها معارك ثانوية، لأنها معارك: استثمار الفوز، كما يطلق على أمثال تلك المعارك الثانوية التي تجرى بعد المعركة الحاسمة، معارك: استثمار الفوز، في المصطلحات العسكرية الحديثة، لأن الفاتحين يقاتلون فيها جيوشاً محليّة، تتّسم بصغر حجمها، وقلّة تدريبها، وجمع كثير من جنودها على عجل قسراً وبدون استعداد كافٍ ولا تدريب مناسب، وبضعف قيادتها المحلية، وبانهيار معنويات رجالها.

وليس معنى ذلك، أن المقاومة في معارك استثمار الفوز، مقاومة واهنة باستمرار، بل قد تشتد المقاومة أحياناً، كما سنلمس ذلك في معارك فتح الأندلس، التي تلت معركة الفتح الحاسمة، ولكن النصر يكون مضموناً، مهما اشتدت المقاومة وتأخر الفتح أياماً معدودات، ولن يكون ذلك شيئاً مذكوراً إلى جانب النصر المحقق المضمون.

وقد فتح طارق شطر الأندلس، وفتح موسى بن نُصير شطر الأندلس، ولكن ينبغي أن يُعزى فضل الفتح كله لطارق، لأنه المنتصر في المعركة الحاسمة لفتح الأندلس، وما فتحه طارق، وما فتحه موسى، بعد تلك المعركة الحاسمة، كان من نتائج معارك استثمار الفوز، التي تثمر باستمرار النصر المحقق المضمون.

٦ - فتوح طارق قبل عبور موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس

أ - الموقف العام بعد المعركة الحاسمة:

لم تكد أخبار انتصار المسلمين على جيش لذريق في معركة حاسمة على أرض الأندلس، تصل إلى المسلمين في شمالي أفريقية، حتى أقبل المسلمون نحو طارق من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقُشْر[(١)]، فلحقوا بطارق[(٢)]. وفاض البربر على الأندلس، وأخذوا يستقرّون في النواحي المفتوحة. وتضخّم تعداد جيش طارق إلى حدّ يصعب معه تقديره، بعد هذه المعركة الحاسمة، وأسلم الآراء هو القول: بأن جيش المسلمين تضخم تضخّماً عظيما. ورأى طارق، أنه لن يستطيع التقدم للفتح بمثل هذه الجحافل الضخمة من المجاهدين دفعة واحدة، لصعوبة السيطرة على أرتالها المتزايدة، ولصعوبة تعسكرها في مكان واحد في وقت واحد، ولمشاكل تأمين أرزاقها ومياهها وعلف حيواناتها من مكان واحد في وقت واحد، فآثر أن يفرقهم إلى أرتال صغيرة بقيادات مسئولة، للنهوض بواجبات معينة في الفتح[(٣)].

وكان من نتائج انتصار المسلمين على القوط في المعركة الحاسمة، ظهور اضطراب في شئون الأندلس كلها، التي لا تزال تحت سيطرة القوط: «وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل، ولحقوا

(١) القشر: في الأصل، السَّمكة قدر شبر، ويراد بها هنا الزورق الصغير.
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٤٣) وتاريخ الأندلس (٤٨) نص ابن الكردبوس.
(٣) انظر: فجر الأندلس (٧٥).

بالجبال»[١]. وحسب حزب غيطشة، أن الفرصة قد سنحت لهم، لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغية المهزوم[٢]، وفعلاً بذل وَقلَة (أخيلا) جهداً كبيراً لكي يستصدر من مجلس طليطلة قراراً، باعتباره ملكاً على الأندلس، خلفاً للملك لذريق، ولكن الأمر لم يستقر له، لأن الشائعات كانت تملأ الجو بأن لذريق لم يُقتل ولا يزال حياً يرزق. وعمل حزب غيطشة من جهة أخرى، على تشجيع طارق، للاستمرار في التقدم فاتحاً، حتى يتمّ لهم القضاء على لذريق وأنصاره نهائياً، وما كان طاق بحاجة إلى تشجيع أحد للنهوض بالفتح، فقد سار قدماً في تطبيق خطته العامة لفتح الأندلس. أما يليان، فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة الخضراء[٣].

ذلك هو الموقف العام بالنسبة للمسلمين من جهة، وبالنسبة للقوط من جهة أخرى، قبل أن يستثمر المسلمون انتصارهم على القوط في المعركة الحاسمة، لتحقيق أهدافهم في الفتح.

ب - فتوح المدن الثانوية:

كانت المعركة الحاسمة، وما جرى بعدها من مطاردة طارق للقوط الهاربين، حول مدينة شَذُوْنَة، دون أن يفتح المسلمون هذه المدينة. ويبدو أن أهلها ومَن لاذ بها من القوط الهاربين وحامية المدينة من الجيش القوطي المحلي، قد قرروا الدفاع عن المدينة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وبدأ

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٦٣) برواية الرازي.

(٢) Saavedra.op.cit.p.76، وللرازي إشارة هامّة تؤيّد هذا الرأي، فقال: «إن يليان قال لطارق: قد فضضت جيوش القوم ورعبوا، فاصمد لبيضتهم، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة، ففرِّق جيوشك معهم في جهات البلاد، واعمد أنت إلى طليطلة، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم»، مما يدلّ على أنّ كبار القوط كانوا يدبرون شيئاً في عاصمتهم، وأن يليان نصح طارقاً بالإسراع إلى طليطلة رأساً ليتدارك الأمر، انظر نفح الطيب (١/ ١١٤) برواية الرازي.

(٣) البيان المغرب (٢/ ١٠).

طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لَكُّةْ، فبدأ بحصار شذونة (Sidonia) وفتحها عَنْوَة بعد حصار.

ومضى إلى ميدنة المَدُور[١] (Almodovar) وهي مدينة مَوْرور (Moron)[٢] فافتتحها أيضاً.

ثم عطف طارق على مدينة قَرْمُونَة[٣] (Carmona) ففتحها أيضاً.

واتجه طارق نحو مدينة إِشْبِيْلِية[٤] (Sevilla, Seville) فتم له فتحها صلحاً، إذ صالحه أهلها على الجِزْيَة.

وزحف طارق إلى مدينة إِسْتَجّة[٥]، فعسكر حول المدينة، وضرب حولها الحصار. وقد أبدت حامية المدينة، مقاومة مستميتة للدفاع عنها، وكانت المدينة تمثل المركز الأول للمقاومة، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك[٦]. وبعد معركة قاسية، حقق المسلمون نصراً آخر على الرغم من مقتل وجرح العديد من رجالهم[٧]، وغنموا في هذه المعركة العديد من الخيول

---

(١) المدور: حصن حصين مشهور بالأندلس، بالقرب من مدينة قرطبة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٤١٧)، وانظر ابن الشباط (١٠٩) برواية عريب، ونفح الطيب (١/ ٢٦٠) برواية الرازي.

(٢) التاريخ الأندلسي (١٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٤).

(٣) ورد اسمها في معجم البلدان (٧/ ٦٢): قرمونية، وهي كورة بالأندلس، يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربيّ قرطبة وشرقي إشبيلية، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٦٢)، وانظر: تاريخ الأندلس (١٣٥ـ١٣٨) نص ابن الشباط حول فتحها.

(٤) إشبيلية: مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس، ليس بالأندلس أعظم منها، وبها قلعة ملك الأندلس، وهي قريبة من البحر، يطلّ عليها جبل (الشرف)، وهو جبل كثير الشجر والزيتون، وهي على شاطىء نهر عظيم تسير فيه المراكب، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٥٤) وتقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥).

(٥) إستجة: اسم كورة متصلة بأعمال (ريّة)، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ، وأعمالها متصلة بأعمال قرطبة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٢٤).

(٦) أخبار مجموعة (٩) ونفح الطيب (١/ ٢٤٤).

(٧) ابن الشباط برواية عريب (١١٢) والرازي (٦٧ـ٦٨) وابن القوطية (٩) وأخبار مجموعة (٩ـ١٠) وفتح الأندلس (٧ـ٨) وابن الأثير (٤/ ٥١٣) والبيان المغرب برواية الرازي =

التي كانوا في حاجة ماسة إليها، وتفرق من بقي من فلول القوط إلى المدن الأندلسية الأخرى.

ومن الطريف، أن طارقاً ظفر بالعِلْج صاحب إسْتَجَّة، فقد كان مُغترّاً سيىء التدبير، فخرج إلى النهر وحده لبعض حاجاته، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه. ووثب عليه طارق في الماء، فأخذه وجاء به إلى معسكر المسلمين، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أحبّ، وضرب عليه الجزية، وخلّى سبيله، ولعلّه عاون في استسلام المدينة للمسلمين، فقد كانت في موقع حصين، يساعدها على الدفاع المدبّر، كما كان فيها حماة من القوط الهاربين ومن أهل المدينة بأعداد لا يستهان بها، ساعدهم على الدفاع المديد، ولكن المسلمين فتحوها أخيراً بعد أن تكبدوا خسائر لا يستهان بها من الشهداء والجرحى.

وازدادت خشية القوط من المسلمين، وبشكل خاص عندما تبين لهم أن هيمنة طارق أصبحت مؤثرة وفعّالة في مناطق عديدة من بلاد الأندلس. وقد كان بعضهم يعتقد أول الأمر، أن هدف طارق، هو الحصول على الغنائم والعودة إلى الشمال الأفريقي، كما فعل طريف بن مالك من قبله، ولكنهم حين رأوا تقدمه السريع، هجروا مناطق السهول من البلاد، ولجأوا إلى الجبال وبقية المدن الحصينة الأخرى[1]. وأصبحت حالة القوط ممزّقة بعد موت لذريق[2]، نتيجة من نتائج انتصار المسلمين الحاسم، وعمد دوق (Duke) كل منطقة إلى الاستقلال بناحيته، وضرب الخوف والارتباك أطنابها في صفوف القوط، فاتخذت البلاد المهمّة مثل قُرْطُبَة وطَلَيْطُلَة وماردة والبييرة لها حكاماً . . . .

= (٢/٨) ونفح الطيب برواية الرازي (١/ ٢٦٠).

(١) أخبار مجموعة (٩ـ١٠) وابن الأثير (٤/٥١٣) والبيان المغرب (٢/٨ـ٩) برواية الرازي، ونفح الطيب (١/ ٢٦٠) برواية الرازي.

(٢) Chr. 754,P.147. (no.36) حولية سنة ٧٥٤م.

مستقِّلين[1].

والواقع أن لهذه المدن، ولغيرها، في أيام لذريق وأسلافه من ملوك الأندلس، حكاماً مستقلين، ولكنهم كانوا يرتبطون بالملك ويخضعون لأوامره وتوجيهاته، فلما قضى المسلمون على لذريق، كما قضوا على معظم جيشه الذي هو جيش المملكة المسئول عن حمايتها والدفاع عنها، وليس جيشاً محلياً مسئولاً عن حماية منطقة معينة والدفاع عنها، لم يبق في الأندلس ملك يجمع شمل الحكام تحت سيطرته ورايته، ولم يبق جيش للملك يفرض سيطرته على الحكام وعلى مناطقهم، ويعين الملك على فرض سيطرته، ويسيطر على أرجاء البلاد كافة ويجمع شملها ويوحِّد كلمتها، فأصبح حكام المدن الأندلسية والمناطق الأندلسية بطبيعة الحال حُكاماً مستقلين، كل واحد منهم هو المسؤول الأول عن حماية مدينته أو منطقته والدفاع عنها، إذ لم يبق من يدافع عنهم بعد القضاء على الملك وجيشه، بفضل انتصار المسلمين على القوط في معركة وادي لَكُّهْ الحاسمة، وليس كما يحاول إظهاره بعض المؤرخين الأجانب، بأنه أثر من آثار يليان وحزب غيطشة في القوط، لا أثر من آثار انتصار المسلمين على القوط.

واستبان لطارق كثرة مَن معه من المجاهدين، وصعوبة الاستفادة منهم جميعاً في حملة واحدة، وضعف مقاومة القوط المندحرين، فاستمع إلى نصيحة يليان بأن يفرِّق جنده في بعوث جانبية قائلاً له: «قد فتحت الأندلس، فخذ من أصحابي أدلاّء، ففرِّق معهم جيوشك، وسر معهم إلى مدينة طُلَيْطُلَة» ففرق جيوشه من إسْتِجَّة[2].

ووجه طارق من إسْتِجَّة سرايا جنده إلى عدّة جهات، فبعث جيشاً بقيادة مُغِيث الرُّومي مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك لفتح مدينة قُرْطُبَة (Cordoba) في سبعمائة فارس، فاستطاع مغيث فتح المدينة دون مشقة كبيرة بفضل

---

(١) الرازي نشر جاينجوس (٦٩)، وقارن: Livermore.P.288

(٢) فتح الأندلس (٨).

شجاعته وصدق المجاهدين المسلمين[١].

وأرسل جيشاً إلى مدينة مالَقَة[٢] (Malaga) وآخر إلى كورة إِلْبِيرَة[٣] (Elvira) حيث افتتح مدينتها غَرْناطة[٤] (Granada) وكذلك إلى كورة تُدْمير[٥] (Tudmir) وكانت قاعدتها أُورْيُولة[٦] (Orihuela) التي حلّت مدينة مُرْسِيَة[٧] (Murcia) محلّها قاعدة لكُوْرَة مُرْسِيَة بدلاً من تُدْمير[٨].

وقد حدثت معارك عديدة في هذه المناطق، فاستطاع المسلمون فتح عدة مدن فيها[٩]، يقول الرازي: «ففرّق طارق جيوشه من إِسْتِجَّة، فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبدالملك إلى قُرْطُبَة - وكانت من أعظم مدائنهم - في سبعمائة فارس، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم، ولم يبق فيهم راجل، وفَضَلت عنهم الخيلُ، وبعث جيشاً آخر إلى مَالَقَة، وآخر إلى غَرْناطة

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٦١).

(٢) مالقة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال (ريّة)، سورها على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٦٧).

(٣) إلبيرة: كورة كبيرة من الأندلس، واسم مدينة أيضاً، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وفيها عدة مدن منها قسطيلية وغيرهما، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٢٢) و ٢/ ٣٣٠).

(٤) غرناطة: أقدم مدن كورة إلبيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها، يشقها نهر قَلُوم ويعرف الآن بنهر حدارة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٢٨٠).

(٥) تدمير: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جَيَّان، وهي شرقي قرطبة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٣٧١ـ٣٧٢)، وانظر ما جاء حول الفتح في: البيان المغرب (٢/ ٩ـ١١) والإحاطة (١/ ١٠١) ونفح الطيب (١/ ٢٥٩ـ٢٦٥).

(٦) أوريولة: مدينة قديمة من أعمال الأندلس من ناحية تدمير بساتينها متصلة ببساتين مرسية، انظر معجم البلدان (١/ ٣٧٣).

(٧) مرسية: مدينة بالأندلس من أعمال تدمير، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٤ـ٢٥).

(٨) الروض المعطار (٣٤و٦٢و١٨١) ونفح الطيب (١/ ٢٥٩ـ٢٦٥).

(٩) التاريخ الأندلسي (٦٤).

مدينة إِلْبيْرَة، وسار هو في معظم الجيش إلى كورة جَيَّان يريد طُلَيْطلة»[1].

ثم ينقل المَقَّري عن الرازي ما يتعلق بفتح تُدْمير، فيقول: «وأما مَن وُجِّه إلى مَالَقَة ففتحوها، ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إِلْبيْرَة، فحاصروا مدينتها غَرْناطة، فافتتحوها عَنْوَة»[2]، «ومضى الجيش إلى تُدْمِير، وتُدْمِير: اسم العِلْج صاحبها، سُميت به، واسم قصبتها: أُوريُولَة، ولها شأن في المَنَعَة، وكان ملكها عِلْجاً داهية»[3]. وهذا يعني، أن سرية مَالَقَة التحقت بعد فتح مَالَقَة بسرية إِلْبِيْرَة، وافتتحا تُدْمِير سويّة، فتكون على هذا عدد السرايا التي أرسلها طارق ثلاثاً، بدلاً من أربع[4].

وقد اعترض بعض المؤرخين المحدثين، على عملية طارق في فتح جنوب شرقي الأندلس وكبار مدائنه مثل مالَقَة وغَرْناطة، وأُوريُولَة، وادّعوا أن ذلك غير صحيح، لأن المسلمين لم يفتحوا هذه النواحي إلاّ في ولاية عبدالعزيز بن موسى بن نُصير[5]. وذكروا: أنه لا يستبعد أن يكون طارق قد بعث سرايا صغيرة إلى هذه النواحي وُغيرها لمجرد الاستطلاع لا للفتح، وكان الجند عنده قد كثروا، ففرّق أعداداً منهم في جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق[6].

---

(١) نفح الطيب(١/ ٢٦٠ـ٢٦١)والإحاطة في أخبار غرناطة،ابن الخطيب(١/ ١٠١).
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٦٣) والإحاطة (١/ ١٠١).
(٣) نفح الطيب (١/ ٢٦٤).
(٤) التاريخ الأندلسي (٦٥).
(٥) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار.
(٦) فجر الأندلس (٧٧).

وهذا الاعتراض خطأ بلا شك، لأن المصادر المعتمدة تؤكد أن طارقاً بعث السرايا لهذا الفتح، كما أن طارقاً لا يمكن أن يتقدم شمالاً بإتجاه طُلَيْطلَة ويترك جناحه الأيمن ومؤخرته في خطر التعرض المعادي، لوجود بلدان تخضع للقوط وتعادي المسلمين، وبدون تطهير تلك المناطق، تبقى خطوط مواصلاته معرّضة للتهديد المعادي المباشر، وهذا ما لا يسكت عنه قائد حصيف قادر مثل طارق ولا يمكن أن يغض الطرف عنه في أي حال من الأحوال.

وكان فتح عبدالعزيز بن موسى بن نُصير لهذه المناطق ليس فتحاً جديداً، بل إن مدنها انتقضت على المسلمين، فأعاد عبدالعزيز فتحها من جديد.

وهناك روايات تنص على أن طارقاً هو الذي قاد جيش قُرطبة وفتحها[(١)]، ويبدو أن الرواية الأولى أصحّ، لأنْ هدف طارق في فتح قرطبة كان ثانوياً بالنسبة إلى هدفه في فتح طليطلة عاصمة البلاد ومركز مقاومتها، كما سيرد ذلك وشيكاً.

ج - فتح قُرْطُبة:

عهد طارق إلى مغيث الرومي بقيادة الحملة المتوجهة إلى قرطبة. ويقال بأن مغيثاً هذا، كان أسيراً رومياً من الشرق، وإنه كان مولى للخليفة الوليد بن عبدالملك أو لأبيه عبدالملك بن مروان[(٢)]. ولكن الأكثر احتمالاً، هو أن مغيثاً كان رومياً من شمالي إفريقية، ويؤيد هذا الرأي اطلاع مغيث ومعرفته الواسعة بهذه المنطقة وبالأندلس أيضاً[(٣)]. وقد تقدم مغيث على رأس سرية

---

(١) قارن: ابن القوطية (٩) والرقيق (٧٦) وابن الشباط (١١٥ـ١١٦) والرسالة الشريقية (١٩٢).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) وأخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب (٢/ ٩) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٣/ ١٢ـ١٣).

(٣) قارن: أخبار مجموعة (٣١).

مؤلفة من سبعمائة فارس من إِسْتِجَّة إلى قرطبة، بينما زحف طارق ببقية رجاله إلى طليطلة.

وصل مُغيث إلى ضواحي قرطبة، وعسكر في شَقُنْدَة (Seconda) قرب ضفاف نهر الوادي الكبير، فوجد أن حاكم المدينة القوطي لا يزال موجوداً هناك، ترافقه حامية مكوّنة من نحو أربعمائة أو خمسمائة رجل، أما بقية سكان المدينة، فقد غادروها إلى طليطلة. وأفلح مغيث في اقتحام المدينة بسبب تهدم أسوارها، فانسحب حاكمها مع حاميته، وتحصنوا في كنيسة تقع خارج الأسوار تدعى: سان أسيكلو (San Acisclo) حيث ضرب عليهم الحصار لمدة ثلاثة أشهر. وعندما أيقن هؤلاء بعدم قدرتهم على الاستمرار في المقاومة، حاول حاكم المدينة وقائد حاميتها الهرب إلى طليطلة، ولكنه وقع في أسر المسلمين، وأُبيدت الحامية بأجمعها. وبعد ذلك اتخذ مغيث قصر المدينة سكناً له، بينما سكن رجاله في المدينة(١).

وكان من عوامل انتصار المسلمين على القوط، أنهم استطاعوا قطع الماء عن المحصورين، وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض، فلم يفطن إليه المسلمون أولاً، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كان مع المسلمين(٢)، ولكن المحصورين صبروا صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم، حتى استسلموا أخيراً، وأسر حاكم المدينة وقائدها(٣) وأبيد رجاله(٤).

د - فتح طُلَيْطُلَة(٥):

---

(١) الرازي نشر جاينجو ص (٦٩-٧٠) وأخبار مجموعة (١٣-١٤) وفتح الأندلس (٨) والبيان المغرب (٢/٩-١٠) ونفح الطيب برواية الرازي (١/٢٦١-٢٦٣)، وقارن: Saavedra.p.85

(٢) نفح الطيب برواية الرازي (١/١٦٥).

(٣) فجر الأندلس (٨٢).

(٤) البيان المغرب (٢/١١).

(٥) طليطلة: مدينة كبيرة بالأندلس، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة، وتقع على =

سار طارق بمعظم جنوده[1] إلى كورة جَيَّان[2] في طريقه إلى عاصمة القوط: طُلَيْطُلَة (Tolodo) وقد اتّبع في طريقه الطريق الروماني القديم الذي يمرّ بمدينة جَيَّان (Jaen) والذي يدعى: طريق هانيبال[3] (Anibal) مخترقاً هضاب الأندلس وجبال سيرا مورينا (جبل الشارات)، وكان القوط قد فرّوا من طُلَيْطُلَة نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم، ولم يبق من سكانها غير عدد قليل من يهود ونصارى. وفتح طارق المدينة، وأبقى على من بقي من سكانها، وترك لأهلها عدّة كنائس، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا[4].

وسار طارق من طليطلة لملاحقة الهاربين، مخلفاً وراءه حامية من المسلمين للدفاع عن المدينة، واتخذ طريق وادي الحجارة، فعبر السلسلة الجبلية المسماة: (Cerro de san juan del Viso) عند ممر سمي على اسمه بفج طارق[5]. وعندئذ وصل إلى مدينة خلف الجبل تسمى: مدينة المائدة[6]، وهذه المدينة هي قلعة هنارس (Alcala Hanares) التي تقع شمال شرقي مدينة

= شاطىء نهر تاجة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٥٦).

(١) نفح الطيب (١/ ٢٤٤).

(٢) جيّان: مدينة لها كورة واسعة بالأندلس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٨٥).

(٣) يذكر المقري أنّ طارقاً سار إلى طليطلة في الطريق المار بجيّان، أي أنه اتبع طريق هانيبال الروماني، لأنه كان طريقاً معموراً في ذلك الوقت، وفيه تمر اليوم سكّة حديد بالأندلس، انظر نفح الطيب(١/ ١٦٧) وSaavedra.op.cit.79

(٤) دولة الإسلام بالأندلس (١/ ٥٠) وانظر التاريخ الأندلسي (٦٥).

(٥) من المحتمل أنّ هذا المكان يقع بالقرب من (Bibtrak) أو (Buitrago)، وهي المدينة التي تشرف على الممر الجبلي الذي يصل بين قشتالة الجديدة وقشتالة القديمة، انظر: Gayangos.vol.I.P.533

(٦) ابن القوطية (٩) وأخبار مجموعة (١٤) وفتح الأندلس (٩) وابن الأثير (٤/ ٥٦٤) والبيان المغرب (٢/ ١٢) و نفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٦٤_٢٦٥) والرسالة الشريفية (١٩١).

مَدْريد[١]. واسم المائدة، مشتق من مائدة عَثر عليها طارق، وهي كما يُروى تعود إلى سليمان بن داوود عليهما السلام[٢]. ولكن ابن حيّان ينكر هذا الادِّعاء، ويذكر أن هذه المائدة صنعت من الذهب والفضة ومن معادن نفيسة أخرى، بتبرعات ومساهمة أغنياء القوط لكنيسة طليطلة، واستُخدمت من قبل القساوسة لحمل الأناجيل أيام الأعياد، وزينة توضع فوق مذابح الكنيسة[٣]. والاحتمال الغالب أنها كانت مذبحاً لكنيسة طليطلة أكثر من كونها مائدة حقيقية، حملت إلى هذا المكان القصي الحصين من قِبَل الهاربين من القساوسة ورجال الدين المسيحي[٤]، وكان أسقف طليطلة نفسه سَنْدَرِد (Sindered) من بين الذين تمكنوا من الهرب في أثناء الفتح، ونجح فعلاً في الوصول إلى إيطاليا[٥]. وبعد افتتاح قلعة هنارس غنم طارق هذه المائدة مع التحف الثمينة الأخرى[٦].

---

(١) Saavedra.P.79.

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) والإدريسي (١٨٧ـ١٨٩) وأخبار مجموعة (١٥) وفتح الأندلس (٩) وابن الأثير (٤/ ٥٦٤) والبيان المغرب (٢/ ١٢) والنويري (٢٢/ ٢٨).

(٣) نفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٧٢).

(٤) قارن: فجر الأندلس (٧٨ـ٧٩).

(٥) Chr. 754 .P.147 (no.35)

(٦) يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أنّ طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة مع غيرها من التحف في مدينة المائدة، وهذه هي في الغالب قلعة هنارس، وهي بالطبع ليست مائـدة سليمان بن داود عليهما السلام ـ إن كانت لسليمان مائدة ـ وهي ليست كذلك بمائدة أصلاً، إذ لا يُعقل أن يهتمّ القوط ولا غيرهم بصناعة مائدة بمثل هذه الفخامة، ولكنّها على الغالب مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة، إذ لم تكن في قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود مثل هذا المذبح الفخم فيها، ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها: «وهذه المائدة المنوّه عنها المنسوبة إلى سليمان النبيّ عليه السلام، لم تكن له فيما يزعم رواة العجم، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم، كان أهل الحسبة منهم، إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضّة، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت أيام =

وكان الصيف قد انقضى، وأقبل شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ثلاث وتسعين الهجرية (تشرين الأول ٧١١م) ومعه برد الخريف، ففضّل طارق وأصحابه العودة إلى طليطلة لكي يقضوا الشتاء فيها[١]، وكانت الغنائم قد أثقلت جيش طارق إلى حدّ عظيم.

ومع هذا، فهناك روايات أخرى، تشير إلى أنه استمر في فتوحه، فوصل إلى جِلِّيقِيّة[٢] (Galicia) وأَسْتُرْقَة[٣] (Astorga) وما يجاورهما من مناطق[٤]، الأمر الذي يصعب تصديقه، خاصة إذا أخذنا بنظر الأعتبار، إطلالة الشتاء، ووعورة المنطقة[٥]. وتغلغل طارق عميقاً في أنحاء الأندلس، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوّات مقاتلة[٦]. وفي ذلك يقول ابن حَيّان ـ فيما ينقله

= المناسك، ويصفّونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذا السبيل»... وبقيّة العبارة تدلّ صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لمذبح كنيسة طليطلة. ونقل المائدة إلى قلعة هنارس، فيما يبدو، لتهريبها من المسلمين، ولوضعها في مكان حصين، وكانوا يظنون أنّ المسلمين يصعب عليهم الوصول إليه بسهولة ويسر. والمصادر الإسلامية تصف هذه المائدة بأنها: «كانت من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها»، والغالب أنهم كانوا يريدون أنّها كانت محلاّة بالزبرجد الأخضر، انظر فتوح مصر والمغرب (٢٠٥) وأخبار مجموعة (١٧و١٩) والبيان المغرب (١/ ١٤) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٧٢) وفتح الأندلس(٩).

(١) أخبار مجموعة (١٥) وابن الأثير (٤/ ٥٦٤) والبيان المغرب (٢/ ١٢) والنويري (٢٢/ ٢٨) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٤٥٦) والرسالة الشريفية (١٩٢).

(٢) جلّيقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب، انظر معجم البلدان (٣/ ١٣١).

(٣) إسترقة: بلد بناحية جليقية قرب ساحل المحيط وقرب مدينة ليون، انظر قادة فتح المغرب (١/ ٢٦٨).

(٤) ابن القوطية (٩) وابن الأثير (٤/ ٥٦٤) والرسالة الشريفية (١٦٢) والنويري (٢٢/ ٢٨) ونفح الطيب (١/ ٢٦٥).

(٥) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٧٤).

(٦) قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٥١).

المَقَّري في نفح الطيب ـ: «ومضى خلف من فرّ من أهل طليطلة، فسلك إلى وادي الحجارة (Gudalajara) ثم استقبل الجبل فقطعه في فجّ سمي به بعد، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل، ....، ثم مضى إلى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل، فأصاب بها حُلِيّاً ومالاً، ورجع ولم يتجاوزها إلى طليطلة، سنة ثلاث وتسعين. وقيل: إنه لم يرجع، بل اقتحم أرض جِلِّيقِيّة واخترقها حتى انتهى إلى مدينة أَسْتُرْقَة، فدوّخ الجبهة، وانصرف إلى طليطلة، والله أعلم»[1]، فقد عاد من مدينة المائدة، لأن الشتاء كان قد اقترب، وكان الإجهاد قد نال من المسلمين، وثقلوا بالغنائم، والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير[2]، وقد استغرقت عمليات الفتح التي قام بها طارق، قبل لقائه بموسى بن نُصير وإنجازاته أقل من سنة، ربما بعدّة شهور[3].

بقي عليّ أن أشير إلى تعاون المسلمين ويهود الأندلس، فهناك إشارات كثيرة في المصادر الإسلامية إلى هذا التعاون في أثناء فتح الأندلس، وتروي هذه المصادر أن المسلمين كرّروا ما فعلوه في قُرطبة وطليطلة على بقية المدن الأندلسية المفتوحة الأخرى، فحين يتم لهم فتح مدينة من المدن، يعمدون إلى ضم سكانها من يهود إلى المسلمين المدافعين عنها، حاميةً لها، بعد حركة المسلمين إلى فتح جديد[4].

ومن الناحية الأخرى، فإن المصادر اللاتينية لا تشير إلى أيّ نوع من تعاون المسلمين مع يهود الأندلس، وبصورة خاصة حولية سنة (٧٥٤م) وحولية بلدة

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٦٤ـ٢٦٥)، وانظر الروض المعطار (١٧٩).

(٢) فجر الأندلس (٨٠).

(٣) التاريخ الأندلسي (٦٦).

(٤) الرازي نشر جاينجوس (٧٢) والإحاطة برواية ابن القوطية (١/ ١٠١) وأخبار مجموعة (١٢و١٤و١٦) وابن الأثير (٤/ ٥٦٤) والبيان المغرب (٢/ ١٢) ونفح الطيب برواية الرازي (١/ ٢٦٣ـ٢٦٤).

قرطبة، وحولية الفونسو الثالث. ولكن لذريق الطليطلي (Rodericus Toletanus. Roderic of Toledo) ولوقادي توي (Lucasde Tuy) = (Lucas of Tuy) قد ذكروا بأن يهود الأندلس ساعدوا المسلمين في الفتح[1]. ولا يمكن تجاهل روايات المصادر الإسلامية إلى هذا التعاون، ومع هذا فإنه من غير الممكن تجاهل أن قصة هذا التعاون قد بولغ فيها كثيراً[2]، ولم يُفهم القصد منها تماماً كما ينبغي. ومن المحتمل أن يهودالأندلس حاولوا مساعدة المسلمين حينما أصبح هؤلاء فعلاً في الأندلس منتصرين، وذلك نتيجة للاضطهاد الذي لا قاه يهود الأندلس على يد ملوك القوط[3]، ولكن من المستحيل أن يكون هناك أي اتفاق سابق أو مؤامرة ـ كما يحاول أن يبرهن بعض المؤرخين الإسبان[4] ـ بين المسلمين ويهود الأندلس لتسليم البلاد إلى المسلمين، إذ لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك لضعفهم وتفككهم وانهيار معنوياتهم وشعورهم بمركب النقص، فهم كانوا بحاجة إلى مساعدتهم وإلى من يساعدهم، ولم يكونوا قادرين على مساعدة أحد بالقوة، لافتقارهم إلى القوة.

ومن المفيد في هذا المجال، أن نلاحظ، أن هذه الاتهامات قد رفضت من قبل مؤرخي يهود، باعتبارها أساطير معادية للسامية (Anti-Semitic Logends)[5].

---

(١) Toderic of Toledo (d.1247 A.D.) , De rebus Hispaniae,111,23-24 (Schett, Hispaniae illustratae, Frankfurt a\n, 1603, 111, 67-68); Lucas of Tuy, Chronicon mundi, 111,Era 748 (Schott,op,cit.,1V,70) in Katz,the Jews in the Visigothic and Frnakish..., pp.116-117.

(٢) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٧٢).

(٣) راجع الفصل الأول من كتاب: الفتح والاستقرار العربي والإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، عن اضهاد القوط ليهود.

(٤) R.Anador de los Rios , Historia Social , Politica y religiosa de los. judios de Espana y Portugal , Madrid , 187576, Vol .1.p.101,cit. Ashtor.op. cit., Vol.1.P.22; A. Ballesteros y Beratta, Historia de Espana: Su inbluencia en la historia Universla, vol.11,p.107.

(٥) .Bare,op.cit.,Vol.1.p.23;Ashtor,op.cit.,vol.1.p.22

والواقع هو أن يهود الأندلس، قبل الفتح الإسلامي للأندلس، كانوا مضطهدين من ملوك القوط ومن القوط أنفسهم، فلما انتصر المسلمون على القوط، عرض يهود خدماتهم على المسلمين، الذين رفعوا عنهم الظلم وعاملوهم بالحسنى معاملة إنسانية، كدأبهم مع المظلومين بعامة وأهل الكتاب منهم بخاصة، فعاونوا حاميات المدن الأندلسية المفتوحة من المسلمين، بإنذارهم المبكر بنوايا القوط وتحركاتهم، والمسلمون وحدهم يدافعون عن المدن المفتوحة، بالاستعانة بالعيون والأرصاد والجواسيس من يهود الأندلس، باعتبارهم من أهل تلك المدن، وأعرف الناس بمداخلها ومخارجها ومواطن ضعفها وقوتها، ولم يتطرق مصدر من المصادر الإسلامية إلى أن يهود الأندلس دافعوا عن المدن المفتوحة مع المسلمين بالسلاح، ولم تتطرق تلك المصادر إلى أن يهود الأندلس قاتلوا القوط مع المسلمين.

ولقد عاون يهود الأندلس المسلمين الفاتحين، لأن المسلمين كانوا أعداء القوط، وعدوّ عدوي صديقي ـ كما يقول المثل العربي المشهور ـ ولكن هذا السبب ليس كافياً بالنسبة للعقلية اليهودية المعروفة، والسبب المهم هو أن المسلمين هم المنتصرون، والقوط هم المغلوبون، فهم دائماً مع المنتصر على المغلوب، ومع القوي على الضعيف، لأنهم يستفيدون من المنتصر لحمايتهم وتوقع الانتفاع منه في مصالحهم المادية والمعنوية. ثم إن المسلمين الفاتحين أصبحت بيدهم مقاليد الأمور في المدن المفتوحة، وهم حكام الأندلس اليوم وغدا. أما القوط، فقد كانوا حكام الأمس، ولا فائدة ترتجى منهم اليوم أو غدا، ويهود مع من بيده مقاليد الأمور، الحاكم الذي يستطيع أن يفيد ويضر، لا مع من لا يستطيع أن يفيد ويضر، وليس له من الأمرأي شيء. وقد ذاع عدل المسلمين ومعاملتهم الناس بالحسنى، بينما جرّب يهود الأندلس القوط، فلم يجدوا منهم إلاّ الظلم والاضطهاد، فعاونوا أصحاب العدل على أصحاب الظلم، وأصحاب الرحمة على أصحاب الاضطهاد.

ولكن يهود الأندلس كانوا مع المسلمين في الأندلس، ما داموا أقوياء متحدين، فلما ضعفواوتفرقوا، وأصبحوا دويلات بعد أن كانوا دولة واحدة، وقوي الإسبان واشتد ساعدهم، وأخذوا يعملون على استعادة بلادهم من المسلمين بالسياسة والحيلة والتآمر تارة، وبالقوة تارة أخرى، أصبح يهود الأندلس مع الأسبان على المسلمين، فلما استولى الإسبانيون على إسبانيا، وانحسر حكم المسلمين عن الأندلس، لقي يهود إسبانيا من الإسبان جزاء سِنِمار، واضطُهد مَن بقي منهم في إسبانيا اضطهاداً ذكّرهم باضطهاد القوط لهم قبل الفتح الإسلامي، وحينذاك فقط، قال قائلهم: كانت أسعد أيام يهود الأندلس، طيلة تاريخهم في الأندلس، هي أيام الحكم الإسلامي في الأندلس، ففي تلك الأيام وحدها عرفنا الحرية والعدل والرخاء والتسامح، ولم نكن نعرف هذه القيم قبل المسلمين، ولا عرفناها بعدهم!

إن يهود الأندلس، كبقية يهود العالم، في كل زمان ومكان، يعملون من أجل مصالحهم فقط، لا من أجل أشخاصٍ معينين أو أمم معينة، أو مبادىء وقيم معينة، فهم يعاونون مصالحهم، ويتعاونون مع مصالحهم، وهم يعينون من ينفعهم في مصالحهم، ويتعاونون معه، فمصلحتهم أولاً وقبل كل شيء، والتعاون والمعاونة من أجل تلك المصالح الذاتية.

ذلك هو مظهر تعاونهم سراً، في نقل الأخبار ونشر الإشاعات وخلق الفتن والتجسس، لهم الغُنْم دوماً دون الغُرْم، والمنفعة دون الضرر، ولهم مصالحهم وعلى غيرهم تحمل المسئولية.

٧ - فتوحات طارق بعد عبور موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس

أ - بين موسى وطارق:

كان رد الفعل لانتصار حملة طارق عظيماً في شمالي إفريقية، فبعد

سماعهم أخبار النصر الذي أحرزه طارق على لذريق، اتجه البربر نحو الأندلس من كل صوب، واجتازوا المضيق بكل ما وقعت عليه أيديهم من قوارب ومراكب، وبعد وصولهم استوطنوا المناطق السهلة من البلاد التي هجرها سكانها الأصليون، الذين اضطروا إلى اللجوء نحو القلاع والحصون، أو هربوا إلى المناطق الجبلية[١].

وبعد أن فتح السلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كل أمل للقوط في العودة إلى الحكم، تقدم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء لهم بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء، ويبدو أنهم كانوا يطمعون أن ينسحب المسلمون من الأندلس ليعود أبناء غيطشة إلى الحكم من جديد، فلما تبين لهم أن طارقاً ومن معه جاءوا ليبقوا لا ليرحلوا، وأنهم جاءوا لنشر الإسلام بالدعوة إلى الله، سُقط في أيديهم، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إيّاه، فمنحهم طارق ضياع أبيهم - وكان عددها كبيرا - وأمضاها لهم. ويبدو أنهم طمعوا بالمزيد، فلم يجبهم طارق إلى ما سألوا، لأن ذلك يخالف ما وعدهم به، وهو منحهم ضياع أبيهم بلا زيادة ولا نقصان، فاستأذنوا طارقاً في المسير إلى موسى بن نُصير في إفريقية، وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه، وما أعطاهم من عهد، ففعل. ولما بلغوا موسى، أقرّ طارقاً على ما فعل. ويبدو أنهم ألحّوا على موسى بالزيادة، فأحالهم على الخليفة نفسه[٢]، فأقرّ عهد موسى وطارق[٣].

وكان طارق على صلة بقائده موسى بن نُصير: يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته وأوامره ووصاياه، ويخبره عن كل شيءٍ أولاً بأوّل منذ بداية الفتح، ويستشيره بكل ما يحتاج إلى المشورة، «اتصل الخبر بموسى بكتاب طارق إليه، فكتب به، موسى إلى . . . .

---

(١) نفح الطيب برواية الرازي (١/ ٢٥٩).
(٢) نفح الطيب برواية الرازي (١/ ١٦٧ـ١٦٨).
(٣) فجر الأندلس (٨٣).

الوليد»[1]. وبعد سنة من عبور طارق، وتفرّق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت، خاف طارق أن يُغلب، وأن يستغل القوط قلة جيشه، فأرسل إلى موسى يستنجده[2]. والأمثلة على اتصال طارق بموسى في المصادر الإسلامية كثيرة جداً، مما يدل على أن الانسجام والتعاون والوفاق كانت سائدة بين موسى وطارق.

وبلغت فتوحات طارق أسماع موسى، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره، فقد أمره موسى ألاّ يتعدى قرطبة على قول، أو موضع هزيمة لذريق في وادي لَّكُّهْ على قول آخر[3]، فسارع موسى إلى عبور المجاز ودخول الأندلس.

وهناك مَنْ ينصّ، على عبور موسى بن نُصير إلى الأندلس كان بسبب استدعاء طارق إياه[4]، فقد كتب طارق إلى موسى: « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث . . . الغوث . . . »، فلما أتاه الكتاب، نادى في الناس وعسكر، فاستخلف عبدالله بن موسى بن نصير على إفريقية وطنجة والسّوس[5]، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان بن موسى انه يأمره بالمسيرة، فسار مروان بمن معه، حتى أجاز إلى طارق قبل دخول أبيه موسى. وخرج موسى بن نصير والناس معه، حتى أتى المجاز، فأجاز بمن

---

(١) تاريخ الأندلس (٤٨) وابن خلدون (٤/ ٢٥٤).
(٢) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٤ـ٧٥) وفجر الأندلس (٨٩) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٢) و التاريخ الأندلسي (٦٨).
(٣) البيان المغرب (٢/ ١٨ـ١٩).
(٤) البيان المغرب (٢/ ١٩).
(٥) السوس: أ ـ السوس الأدنى: كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة. ب ـ السوس الأقصى: أقصى بلاد المغرب على المحيط، والسوس الأقصى اسم مدينة أطلق اسمها على كورة السوس الأقصى ذات المدن والقرى الكثيرة. جـ ـ والسوس: مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى مسيرة شهرين، وبعده المحيط الأطلسي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ١٧٢) والمشترك وضعاً (٢٥٦) والمسالك والممالك (٣٤).

زحف معه في جموعه[1].

هذان السببان مقبولان غاية القبول، من الناحية العسكرية العلمية البحت، فقد شعر موسى أن المسلمين قد استرسلوا بالفتح، أكثر مما ينبغي، بالنسبة للقوات المتيسرة لديهم، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة الأرجاء في خطر داهم، فقد بّقيت مدن الشرق والغرب الأندلسية لم تفتح بعد، وكان لابد من فتحها، وإلاّ تعرض المسلمون الفاتحون لخطر عزل قواتهم عن بعضها، والقضاء عليها وهي متفرقة ضعيفة في كل مكان تحل فيه، وقطع خطوط مواصلاتها الواهنة لامتدادها بعيداً عن قواعدها، ولأن أجنحتها مكشوفة لوجود مدن معادية غير مفتوحة قريبة منها وتستطيع التأثير فيها بسهولة وسرعة، ولأن قوات المسلمين كانت قليلة جداً، بالنسبة إلى طول خطوط مواصلاتها وإلى سعة البلاد وكثافة سكانها. وفعلاً حدث ما توقعه طارق وموسى، فقد أصبحت قسم من قوات المسلمين منعزلة أو شبه منعزلة، بعيدة عن إمكان دعمها بقوات إسلامية كافية عند الحاجة، وأصبح موقف المسلمين بصورة عامة في الأندلس خطيراً للغاية، مما جعل طارقاً يستغيث بموسى، فلا يرى موسى حلاًّ مُرضياً إلاّ أن يعبر إلى الأندلس بنفسه مع قوات إسلامية كافية، لمعالجة الأمور هناك، فحشد لحملته هذه كل قواته المتيسرة: عشرة آلاف من العرب، وثمانية آلاف من البربر، في سفن صنعها خصيصاً لذلك، يحفِّزه شغف بالفتح رغماً من شيخوخته، ونزل بولاية الجزيرة، حيث استقبله الكونت يُليان، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين الهجرية[2] حزيران-تموز ٧١٢م).

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٤-٧٥)، وفي البلاذري (٢٣٢): إنّ موسى كتب إلى طارق كتاباً غليظاً، لتغريره بالمسلمين، وافتتانه عليه بالرأي في غزوه، وأمر ألا يتجاوز قرطبة.

(٢) أخبار مجموعة (١٥) وفتح الأندلس (١٠) ونفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ٢٦٩) والرسالة الشريفية (١٩٢). ويذكر ابن حبيب (٢٢٣) وكل من الرازي وعريب ابن =

وأكاد أتبين بوضوح، أن موسى كان يعرف حرص الخليفة الوليد بن عبدالملك على أرواح المسلمين حرصاً لا مزيد عليه. وأنه كان يمانع من ركوب البحر ومن فتح الأندلس حرصاً على أرواح المسلمين، وأنه وافق على ركوب البحر وفتح الأندلس أخيراً بعد إلحاح موسى بن نصير عليه وتزيين أمر الفتح له وتهوين أمر ركوب البحر عليه، على أن تبقى مسئولية العملية كلها على عاتق موسى وحده دون سواه، إذا لحق بالمسلمين ضرر، وغُرِّر بهم، فقد كتب موسى إلى الوليد بن عبدالملك يستأذنه في فتح الأندلس، فأجابه الوليد: «أنْ خضها بالسرايا، حتى ترى وتختبر بشأنها، ولا تُغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»، فلما راجعه موسى، أنه ليس ببحر زخّار، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه، أجابه الوليد: «وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه»[1]، وهكذا بقي موسى مع موافقه الوليد، المسئول الأول عن عملية العبور والفتح، ولن يتساهل معه الوليد إذا لحق بالمسلمين خسائر بالأرواح دون مسوِّغ منطقي مقبول.

لقد كان نزول موسى إلى الأندلس لسبب حربي واضح، وهو تدعيم الفتح وترصينهُ، وحتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة بالمسلمين، من جرّاء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لا يتناسب مع ما لديه من رجال.

وقد يرد على البال - وبخاصة بالنسبة للمدنيين - أن أعداد المسلمين تكاثروا في الأندلس بعد انتصاراتهم المتوالية، فقد زحف البربر بأعداد ضخمة إلى برّ الأندلس، واستوطنوا سهولها التي نزح عنها سكانها الأصليون، ولكن تعداد المسلمين الإجمالي في الأندلس، ليس هو المهم، بل المهم هو تعداد المقاتلين منهم، المدربين على القتال، والمجرَّبين في

= سعد أن موسى أبحر بعشرة آلاف رجل فقط، انظر ابن الشباط (١١٦-١١٧) والبيان المغرب (١٢/ ١٣) ونفح الطيب (١/ ٢٧٧).

(١) نفح الطيب (١/ ٢٥٣) والبيان المغرب (٢/ ٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠)، وانظر التاريخ الأندلسي (٤٦).

الميدان، فقد اختار موسى قوات طارق قبل إبحارها معه إلى الأندلس، واختار له جنود المدد وقيادتهم حين طلب طارق المدد، أما الذين جاءوا للارتزاق والسكنى من غير المدربين والمجرِّبين، فلا قيمة قتالية لهم في ميادين القتال.

أم ما تردد في مصادر التاريخ الإسلامي، من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح، حتى أكل الحسد قلبه، وقرر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح[1]، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط[2]، فمغالى به، إذ لا يُعقل أن يصدر ذلك عن تابعي جليل وقائد فاتح عرف بالعقل والإتزان والمروءة كموسى بن نصير.

ثم إن طارقاً كان مولى لموسى، يعمل بأوامره، وينفذها نصاً وروحاً، وكان يكتب إليه أخبار الفتح مفصلاً، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به، لاستطاع إزاحته عن طريقه، وذلك بعزله أو استدعائه، إلى القيروان، فليس من المعقول أن يستطيع طارق مخالفة أوامر مولاه موسى في شيءٍ.

ولعل أوضح دليل، على مبلغ التزام طارق بطاعة موسى، وأنّه كان مثالاً للطاعة والنظام، أنه بعث بأولاد غيطشة إلى مولاه موسى، عندما قدموا إليه في طليطلة وقالوا له: «أنت أمير نفسك، أم على رأسك أمير؟»، فقال طارق: «بل على رأس أمير، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم»[3]، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسئولية والالتزام بسلسلة المراجع.

وأوضح دليل، على أن قدوم موسى إلى الأندلس، كان لمعاونة طارق لا لتأديبه، وأنه قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحت، هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزوله أرض الأندلس، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد

---

(١) ابن الأثير (٤/ ٢١٥) والبداية والنهاية (٩/ ٨٣) والبيان المغرب (٢/ ١٩) وابن خلدون (٤/ ١١٧) ونفح الطيب (١/ ٢٥١).

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٨٣).

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٤٩).

الجنوبية والغربية التي خلّفها طارق دون فتح، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة، ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس، ولتثبيت قوات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة، فلما تم له ذلك سار إلى طارق ولقيه في طَلَبِيرَة(١) على مقربة من طُليطلة، ويقال: إن الملاقاة بين طارق وموسى حدث في مكان يدعى المعرض (Almaraz) بين نهري تاجُهْ (Tajo) والتيتار (Tietar) قرب طَلَبِيرَة غربي طُليطلة(٢). وحين التقيا قال موسى لطارق: «يا طارق! إنه لن يجازيك الوليد بن عبدالملك على بلائك، بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئاً مريئاً»، فقال طارق: «أيها الأمير! والله لا أرجع عن قصدي هذا، ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط، أخوض فيه بفرسي»، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه، إلى أن بلغ إلى جِلّيقيّة، وهي على ساحل البحر المحيط(٣).

---

(١) طلبيرة: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة، قديمة البناء، على نهر تاجُهْ، بضم الجيم. وهي (Talavera de la Raina) إلى الغرب من طليطلة، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (٧/ ٥٣) وابن الآبار (٢/ ٢٥٧) والروض المعطار (١٢٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٤٥) وصفة المغرب والأندلس للإدريسي (١٨٧) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٨٩).

(٢) فتح مصر والمغرب (٢٠٧) وأخبار مجموعة (١٨) وفتح الأندلس (١١) والبيان المغرب (٢/ ١٦) والرسالة الشريفية (١٩٣) ونفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ٢٧١)، وقارن: Saavedra.p.98.

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٢٧)، فأين ذلك مما جاء في كتاب: فتح مصر والمغرب (٢٨٣): «وأخذ موسى بن نُصير طارق بن عمرو، فشدّه وثاقاً وحبسه وهمّ بقتله. وكان مغيث الرومي غلاماً للوليد بن عبد الملك، فبعث إليه طارق: إنك إن رفعت أمري إلى الوليد، فإنّ فتح الأندلس كان على يديّ، وأنّ موسى حبسني يريد قتلي، أعطيتك مائة عبد... وعاهده على ذلك... فلما أراد موسى الإنصراف، ودّع موسى بن نصير، وقال له: لا تعجل على طارق، ولك أعداء، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره، وأخاف عليك وجده! فانصرف مغيث وموسى بالأندلس!

«فلما قدم مغيث على الوليد، أخبره بالذي كان من فتح الأندلس على يدي طارق، وبحبس موسى إياه، والذي أراد به من القتل، فكتب الوليد إلى موسى، يقسم له =

= بالله، لئن ضربته لأضربنّك، ولئن قتلته لأقتلنّ ولدك به، ووجه الكتاب مع مغيث الرومي. . . فقدم به على موسى الأندلس، فلما قرأه أطلق طارقاً وخلّى سبيله، ووفى طارق لمغيث بالمائة عبد التي كان جعل له». . . انتهى!!

وأقول: إن هذا الذي ذكره ابن عبد الحكم في كتابه: فتح مصر والمغرب، يناقض ما ذكره هو أيضاً في ص (٢٨٣) من نفس الكتاب، فقد ذكر في ص (٢٨٠): «فأجاز موسى من الخضراء، ثم مضى إلى قرطبة، فتلقاه طارق، فترضّاه وقال له: إنّما أنا مولاك، وهذا الفتح هو لك»، ثمّ ذكر في نفس الصفحة أيضاً: «ويقال: إنّ موسى هو الذي وجّه طارقاً بعد مدخله الأندلس إلى طليطلة، وهي النصف ما بين قرطبة وأرْبُونَة، وأربونة أقصى ثغر الأندلس» وهذا يدل على أنّ موسى كان منسجماً مع طارق، ويدل على أنه لم يحبسه ولم يهمّ بقتله، وإنّ كل ما جاء حول ذلك لا نصيب له من الصحة.

وابن عبد الحكم على جلالة قدره مؤرخاً وعالماً، يذكر الروايات المختلفة، أسوة بغيره من المؤرخين القدامى، كأنّه يحشد المعلومات المتيسرة، دون أن يترك شاردة ولا واردة منها، تمهيداً لمن يأتي بعده من المؤرخين، ليناقش تلك الروايات، ويرجح منها ما كان راجحاً، ويبدي رأيه بالذي لا يراه صواباً، فجزاه الله عن المؤرخين خيراً.

وفي كتاب فجر الأندلس (٨٦): «ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لانفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية، هو أنّها كانت معروفة في المشرق، مجهولة عند أهل الأندلس. وأما وجودها في المشرق فمرجعه على أغلب الظن إلى مغيث الرومي، فقد كان محنقاً على موسى، مولعاً بالكيد له، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد، وأنّه أولى بولاية الأندلس -كما سنرى- فانتهز فرصة ذهابه إلى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين، وأخذ يبالغ في مساءات موسى ويختلق عليه، حتى لقد أنكر عليه كلّ فضل في الفتح -كما يرى في رواية ابن عبد الحكم الآنفة الذكر- وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية». وأما الأندلسيون، وهم أحرى أن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحّته، لأن أخبارهم أُخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف، فلا يعرفون إلاّ أنّ موسى: «وضع السّوط على رأس طارق ونّبه»، كما يقول صاحب الأخبار المجموعة، وقد كان مستطيعاً أن يقول: إنّ موسى ضرب طارقاً بالسّوط، بدلاً من قوله: وضع السّوط على رأسه، فقط». . . . انتهى.

ولم يلبث طارق وموسى أن تعاونا تعاوناً وثيقاً، فترك موسى طارقاً على قيادته، وسار كل منهما في اتجاه، متعاونين متساندين، وهذا واضح من قول ابن حيّان: «قالوا: ثم إن موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضى عنه، وأقرّه على مقدّمته، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه»[١].

لقد تحمل جيش طارق من الأعباء ما يزيد على طاقته، لدرجة أجهد الجند وعرّضهم للأخطار، فقد اقتحم هذا الجيش الأندلس، وصادم القوط في مواقع موضعية وموقعة حاسمة، وتوغّل في قلب البلاد، واستولى على حاضرتها قبل أن يستفيق القوط من الصدمة، كل ذلك جرى في وقت قصير. ثم إن المقاومة القوطية بدأت تتكون وتترعرع وتشتد بالتدريج في نواحي البلاد، وبخاصة في جهةغربي الأندلس، حيث تصلح المناطق الجبلية المهجورة في إقليم استرامادور لأن تكون أوكاراً لرجال المقاومة القوطية، وهذا يفسِّر لنا خط سير الحملة التي قادها موسى بن نصير[٢]، فحمى الجناح الأيسر المكشوف لقوات طارق، وحرم المقاومة القوطية من فرصة التعرّض بخطوط مواصلات المسلمين، التي تربط قواتهم الأمامية بقواعدها المتقدمة في الأندلس. وهذا ما يفسر لنا أهم سبب من أسباب توقف طارق في طُليطلة وعدم تغلغله في الفتح، فقد حرص موسى - وهو على حق - على توقف

= ولا أرى أنّ مغيثاً يفتري على الخليفة الكذب، وهو الصادق المؤتمن، وليس بالإمكان إتّهام موسى بمثل هذه التهمة، لأنّ كذبها سيظهر حتماً، لعدم إمكان إخفاء مثل تلك التهمة الكبرى، ولا يمكن أن نصدق أنّ مغيثاً ينقل الخليفة غير الواقع والصدق، ويبدو أن مغيثاً لا علم له بهذه القصة، وقد وضعت على لسانه من بعده، لذلك لم يصدقها أحد، ولم ينقلها أهل الأندلس عن ابن عبد الحكم، لأنهم لم يصدّقوا للحادث والحديث والراوي، ومن حق كلّ إنسان ألاّ يصدّق ما يبدو عليه التزوير والانحراف والإفتراء.

(١) نفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ١٧٢).

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٢).

طارق عن الانطلاق شمالاً أو شرقاً أو غرباً للفتح، خوفاً من محاولة القوط قطع مواصلات قوات طارق، وحتى لا يتعرض جناحا قوات طارق الأيمن والأيسر لخطر تعرض المقاومة القوطية المحتملة، مما يسبب لها خسائر فادحة بالأرواح.

والواقع، أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس، بتعاون وثيق، وأن خروج طارق للقاء موسى عند طَلَبِيرَة لم يكن لمجرّد اللقاء، بل لغرض آخر حربي سنعرفه، وقد أتم الرجلان الفتح على أحسن ما يكون القادة تعاوناً.(١)

ب - فتوح موسى قبل لقاء طارق:

نزل موسى في جبل الفتح (جبل طارق)، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة والتأهب، فلما عزم السير، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب، وعددها يزيد على عشرين راية، فأجمعوا السير إلى إِشْبِيلِية وغزو ما بقي من غربي الأندلس حتى أَكْشُونْبة(٢).

وزحف موسى إلى شَذُونة، ومنها سار إلى قَرْمُونَة ورَعْواق(٣) (Guadaira Alca) ففتحها، وبهذا أمّنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشَذُونة ورعواق وقَرْمُونة وإسْتجّة وقرطبة في يد المسلمين، وأصبح بإمكان موسى أن يتجه نحو الغرب

---

(١) انظر التفاصيل في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٥١_٢٥٥) وفجر الإسلام (٨٧)

(٢) أكشونبة: مدينة بالأندلس، يتصل عملها بعمل لشبونة، وهي غربي قرطبة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣١٧) وفيه وردت أكسبونبة.

(٣) ورد اسم هذه المدينة في المصادر العربية بصيغ مختلفة: رعوان، زعواق، رَعواق، ويبدو أن الصواب هي: رعواق، وهي قلعة جوادايرا، انظر: نفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٧٠) وأخبار مجموعة (١٦) وفيهما ذكر فتح قرمونة قبل إشبيلية، وانظر فجر الأندلس (٩٢).

ليفتح إشْبِيلِية كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طُليطلة إذ ذاك.

واتجه موسى بقواته إلى إشْبِيلِية، ففتحها المسلمون بعد بضعة أشهر من الحصار، ويبدو أن سكانها فتحوا أبوابها للمسلمين بعد أن طال الحصار واشتد القتال. وأما حاميتها القوطية، فانسحبت إلى لَبْلَة(١) على مصب وادي آنة، ومنها إلى أَكْشُونبَة ثم إلى بَاجَة(٢)، وهناك استقرّت تنتظر الحوادث.

وسار موسى على رأس قواته قاصداً مارِدَة(٣)، متبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدتين، واستولى في طريقه على بلدة تسمى لَقَنْت(٤) سلّم له أهلها دون مقاومة، فسموا لذلك: موالي موسى(٥).

ولما أدرك موسى ماردة، وجدها أحصن وأقوى مما ظنّها، فقد كان الهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها، لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك، فأقام موسى محاصراً البلد بقية الصيف والشتاء التالي، ولم يسلّم البلد إلاّ في الأول من شهر شوال سنة أربع وتسعين الهجرية (٣٠ حزيران -

---

(١) لبلة: قصبة كورة بالأندلس كبيرة، يتصل عملها بعمل أكشونبة وهي شرق من أكشونبة وغرب من قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام، أربعة وأربعون فرسخاً، وهي بريّة بحرية، انظر معجم البلدان (٧/ ٣١٩).

(٢) باجة: مدينة من أعمال الأندلس، تتصل بنواحي ماردة، وهي ضمن اثنتي عشرة مدينة قاعدتها ماردة، انظر المشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٦٣).

(٣) كورة متصلة من نواحي الأندلس، متصلة بحوز فِرّيش بين الغرب والجوف من أعمال قرطبة، واحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى، وهي مدينة رائعة كثيرة الرخام، فيها آثار قديمة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣٦٠).

(٤) لقنت: حصنان من أعمال ماردة بالأندلس: لقنت الكبرى، ولقنت الصغرى، وكلّ واحدة تنظر إلى صاحبتها، انظر معجم البلدان (٧/ ٣٣٦). وقال ابن القوطية: «ثمّ قصد من إشبيلية، إلى لقنت، إلى الموضع المعروف بفجّ موسى، في أوّل لقنت إلى ماردة»، انظر افتتاح الأندلس (٩).

(٥) فتح الأندلس (١١)، وانظر تعليق (Joaquin de Gonzales) بخصوص هذه العبارة (٩٣) من الترجمة، وانظر فجر الأندلس (٩٣).

يونيو ٧١٣م) بعد قتال طويل، هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كمائن أخفاها موسى في مقاطع الصخر أمام مخارج البلد، وقد استُشهد أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين، سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنية من شيء يشبه التُرابة[1] الصلبة. ولم يسلِّم أهل البلد إلاّ بعد أن عاهدهم موسى على: (أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقِيّة للمسلمين، وأموال الكنائس وحليِّها لها)، وهي شروط سيكون لها أثر في تحديد العلاقة بين المسلمين والقوط فيما بعد[2].

وأقام موسى في ماردة أكثر من شهر، يرتِّب أحواله، وينظِّم أمورها، ويريح رجاله، ويكمل نواقصهم في السلاح والتجهيزات ووسائط النقل من الحيوانات، استعداداً لاستئناف الفتوح.

ج - لقاء القائدين:

من الواضح أن موسى أحسّ أن عناصر المقاومة القوطية في ناحية ماردة، كانت أقوى مما لقي المسلمون في أماكن أندلسية أخرى، وعرف أن فلول القوط وأنصار لذريق بخاصة، كانوا يتجمعون في تلك المناطق الجبلية الوعرة

---

(١) الترابة: الإسمنت.

(٢) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق في: أخبار مجموعة (١٨) ونفح الطيب (١/ ١٧١)، وقد أورد هذان الكتابان تفاصيل مهمة مما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن المهم. ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التي كانوا يختبئون تحتها لنقب سور البلد، وذكروا أنّ هذا الموضع يسمى إلى وقتهما: (برج الشهداء) لهذا السبب. ويذكران أيضاً حيلة موسى مع أهل ماردة وتلوينه شعره من أبيض إلى أحمر إلى أسود إرهاباً لهم، وانظر تفصيل فتح ماردة في: الرازي نشر جلينجوس (٧٨) وأخبار مجموعة (١٦ـ١٨) وابن الأثير (٤/ ٥٦٤ـ٥٦٥) والبيان المغرب (٢/ ١٤ـ١٥) والنويري (٢٢/ ٢٨ـ٢٩) وفجر الأندلس (٩٣) والفتح والاستقرار العربي الإسلامي (١٩٦) والتاريخ الأندلسي (٧٤ـ٧٨).

ظنّاً منهم أنّ المسلمين إذا وصلوا إليها، فإن طبيعتها الجبلية الوعرة ستساعد المقاومة القوطيّة على الدفاع الرصين، حيث يمكن التسرب منها إلى نواحي قَشْتَالة[١] واسترامادور إذا أخفقوا في الدفاع، وفعلاً لاقى موسى عقبات في طريقه من ماردة إلى طُليطلة، فخفّ طارق للقاء موسى بالظاهر، ونجدته بالواقع، حتى يخفف الضغط على قوات موسى من جهة، وليجبر المقاومة القوطية على مجابهة قوات موسى وقوات طارق في آن واحد، ويضطرّها على الانسحاب.

والذي أخّر طارق عن الخروج للقاء موسى، منذ عبوره إلى الأندلس، حتى هذه الأيام، يمكن تفسيره بأن موسى، رأى أن مقام طارق بطليطلة يؤمِّنه من عمل يقوم به قوطها، فلما فرغ من أمر ماردة، وأراد السير نحو طليطلة، أحسّ أن الطريق طويل محفوف بالمخاطر، لأن فلول القوط كانت تتجالب[٢] وتتجمّع في تلك النواحي. فلما رأت موسى يأخذ في الطريق وجدت الفرصة سانحة لاعتراضه ومنازلته في معركة لها ما بعدها، وكان هذا هو السبب الذي حفّز طارقاً إلى المسير للقاء موسى. ولا يعلّل سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاه موسى طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه، إلاّ بأنّ موسى لم يطلب إلى طارق المجيء إليه إلاّ في تلك الأيام، حينما أحسّ ببعض ما كان يدبّر حوله في هذه المناطق الجبلية الوعرة.

والوقع أن حشود القوط تربصت بالمسلمين في تلك المنطقة، ولبثوا يتحينون الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين. ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء في طريقه، فكان لابد له من القضاء عليهم، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً، وانتظر مولاه في وادي الأرّوكامبو(Arrocampo) في مكان يسمى المعرض (Almaraz) بين التاجة ونهر

---

(١) قشتالة: إقليم عظيم بالأندلس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٩٣).
(٢) البيان المغرب (١٥).

التيتار (Tietar) قرب طلبيرة غربي طليطلة.[١]

أما موسى فسار في طريق ماردة سلمنجة بحذاء نهر أُطلق عليه اسمه، وهو نهر موسى (Valmuza)[٢].

وإذا كان حدث شيء بين القائدين، فلا يعدو أن يكون مناقشة بعض القضايا، أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، «وعلى توغله بالمسلمين، وتغريره بهم»[٣]، حيث اندفع بهذه السرعة إلى قلب البلاد. وحين: «خرج إليه طارق وتلقّاه، فتعتّب عليه موسى وقال له: ما دعاك إلى الإيغال والتّقحّم في البلاد بغير أمري؟»[٤]. فاعتذر له طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه القتالي[٥]. وقد تمكن طارق من حسم القضية مع سيِّده، وأظهر نواياه الحسنة، وعرض على موسى كل ما أصابه من غنائم وكنوز في فتوحاته[٦]. ويبدو أنه كان موفقاً أيضاً في

---

(١) فتح مصر والمغرب (٢٠٧) وأخبار مجموعة (١٨) وفتح الأندلس (١١) والبيان المغرب (٢/ ١٦) والرسالة الشريفية (١٩٣) ونفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ٢٧١)، وفجر الأندلس (٩٩)، وقارن: Saavedra.P.98

(٢) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو، يعيننا على تحديد المكان الذي التقى فيه بطارق على وجه التقريب. فابن عذارى يقول: «اتفق الأكثرون على أنّ التقاءهما كان على طليطلة (لما بلغه مسير موسى إليه، فلقيه بمقربة من طلبيرة)، كما قال الرازي، وذكر الطبري أنه كان على قرطبة. ولما كانت بعض المراجع الأجنبية تقول بأنّ اللّقاء وقع عند ناحية تسمى (Almaraz) وهو لفظ عربي الأصل يرجع إلى أصله العربي: (المعرض) وهو مكان على مقربة من طلبيرة، فإننا نستطيع القول بأنّ اللّقاء بين موسى وطارق وقع هناك، انظر البيان المغرب (٢/ ١٧) وأخبار مجموعة (١٨) و Saavedra.op.cit.p.98 و Rodericus Tolitanus. de rbus Hispaniae,1,111.cap.xx1v.

(٣) البيان المغرب (١/ ١٦).

(٤) تاريخ الأندلس (٢٥ مقدمة المحقِّق) و (١٤٩ نص ابن الشباط) والحلة السيراء (٢/ ٣٣٤).

(٥) التاريخ الأندلسي (٩٠).

(٦) أخبار مجموعة (١٩) وابن الأثير (٤/ ٥٦٥) والبيان المغرب (٢/ ١٦-١٧) والنويري =

إقناع موسى بوجهة نظره في الفتح، وبضرورة استقرار المسلمين الدائم في البلاد المفتوحة، وهذا الأمر واضح جداً من التفاهم المتبادل، والتعاون المشترك الذي ساد بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة[1]: «ثم إن موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضى عنه، وأقرّه على مقدمته، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه»[2]، كما ذكرنا ذلك.

لقد كان عبور موسى إلى الأندلس لسبب حربي واضح، وكان باستدعاء طارق له، فجاء منقذاً لا منتقماً. كما كان توجه طارق للقاء موسى لسبب حربي واضح أيضاً، لأن قوات موسى أصبحت مهددة بحشود المقاومة القوطية. فقدم إلى موسى بمبادرة منه أو بطلب من موسى، وما حدث في سير الحوادث هو الدليل القاطع على سبب اللقاء بين القائدين.

فقد انقضَّت حشود المقاومة القوطية التي كانت في تلك المنطقة الجبلية الوعرة على جيش موسى في ناحية يسميها مؤرخو المسلمون: السَّواقي، وهي (. . . . de los Cornejos) على مقربة من تمامس (Tamames)[3] فردّ المسلمون على القوط بهجوم مقابل وثبتوا للقوط حتى أفْنَوْهم عن آخرهم[4].

ويبدو أن اشتباك المسلمين بالقوط في معركة السَّواقي، شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها، ووثبوا بها، فاضطرّ موسى إلى فتحها من جديد،

= (٢٢/ ٢٩) و نفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ٢٧٣).

(١) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٨١).

(٢) نفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ١٧٢).

(٣) فتح الأندلس (٨) والإمامة والسياسة (٢/ ١٥٦).

(٤) لا عبرة بمن ذكر أنّ لذريق قُتل في هذه المعركة، وأنّ قبره في فيزيو معروف حتى زمان الفونسو الكبير الذي ذكر في حولياته: أنه رأى وقرأ عليه لوحة تقول: هنا يرقد لذريق ملك القوط (Hic requiescir Rudericus rex gothorum)، فقد قضى لذريق نحبه في المعركة الحاسمة التي قادها طارق، كما ذكرنا، والقبر وما مسجل عليه مزوّر كما هو واضح، وكثيرة هي القبور المزورة كما هو معروف.

ودخولها دخول المنتصر[1].

أليس هذا الذي حدث في معركة السَّواقي، وفتح طليطلة ثانية، دليلاً قاطعاً، على أن المسلمين بقيادة طارق بعد تغلغلهم العميق في البلاد، أصبحوا في خطر جسيم، لانكشاف جناحيهم: الأيمن والأيسر، ولتهديد خطوط مواصلاتهم الطويلة الواهنة، فكان عبور موسى هو لدرء هذا الخطر الجسيم، كما أن بقاء طارق في طليطلة دون فتح جديد، ودون لقاء موسى، بالرغم من مضي مدة طويلة من الزمن على عبور موسى، هو لتثبيت حشود المقاومة القوطية في أماكنها دون التعرض بقوات موسى وقوات طارق لأطول مدة ممكنة. كما أن حركة طارق للقاء موسى في طريقه إلى طليطلة، وهو طريق جبلي وعر فيه حشود المقاومة القوطية المتربِّصة بالمسلمين، كان لمعاونة موسى على اجتياز الطريق المحفوف بالمخاطر سالماً آمناً، أو ضمان إحراز النصر على القوط إذا اشتبكوا بالمسلمين، لأن اشتباكهم بقوات موسى وقوات طارق أصعب عليهم من اشتباكهم بقوات موسى وحدها.

إن كل ما حدث يدلّ على أن القائدين كانا يعملان لمصلحة المسلمين العليا، لا لمصلحتهما الشخصية الضيقة، فلا مجال لتصديق ما زعمه بعضهم من حدوث مشادات بينهما، قد تصدق على إطفاء ما يعتلج في صدور الصبيان من حزازات، دون أن يخطر أمثالها ببال قائدين عظيمين.

وبالإمكان ذكر أدلّة جديدة، على أن موقف طارق والمسلمين في الأندلس، نظراً لاندفاعهم السريع في عمق البلاد، كان موقفاً خطيراً للغاية وواهناً إلى أبعد الحدود، وهو السبب في استنجاد طارق بموسى، وعبور موسى بنفسه إلى الأندلس، لمعالجة الموقف الراهن وملافاة أخطاره، ولو أن الأمر أصبح لا يحتاج إلى أدلة جديدة، ولكن استكمال البحث بالدرجة الولى، هو الذي يحملني على ذكرها بإيجاز، ثم لتكون أدلة جديدة تصاف

---

(١) فتح الأندلس (١٢).

إلى الأدلّة السابقة.

فقد ذكرنا أن طارقاً فتح مدينة شَذُوْنة عَنْوَة بعد معركته الحاسمة مع القوط، كما فتح مدينة قَرْمُوْنَة وإِشْبِيلِيَة وإِسْتِجَّة وطُليطلة.

وفتحت سراياه قُرطُبَة ومالَقَة وإِلْبِيرة وكورة تُدْمِير وغَرْناطة وأُورْيُولَة.

وذكرنا في فتوح موسى قبل لقائه بطارق، أنه فتح شَذُونَة وقَرْمُونَة ورعواق وإشبِيلِيَة ومارِدة ولَقَنْت.

ومعنى ذلك، أنّ كثيراً من المدن التي فتحها طارق لأول مرّة، استعادها القوط، مما يهدّد أجنحة قوات طارق، ويهدد خطوط مواصلاته، فاضطر موسى أن يستعيد فتحها من جديد، لتأمين جناحي طارق الأيمن والأيسر وخطوط مواصلاته، ولتفتيت المقاومة القوطية أينما وجدت.

وحتى طُليطلة، بعد أن غادرها طارق بوقت قليل، لكي يلاقي موسى وهو في طريقه إليها، استعادها القوط، فاضطر موسى أن يستعيد فتحها من جديد.

لقد عزّز عبور موسى موقف المسلمين بقيادة طارق في الأندلس، وأزاح عنهم ما كان يخشونه من أخطار، وأمن خطوط مواصلات المسلمين، وحمى أجنحتهم حماية كاملة، وفتّت قوات القوط، وبدّد حشودهم في الجبال الوعرة، وجعل آمالهم في استعادة ما فتحه المسلمون إلى حوزتهم سراباً، وأظهر لهم بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى، أن الخيار الوحيد المفتوح أمامهم، هو الاستسلام للمسلمين، والتعاون معهم في إدارة البلاد، ومعاونتهم في تعميرها، فقد جاء المسلمون ليبقوا لا ليرحلوا.

ومضى موسى وطارق إلى طليطلة، ليقضيا فصل الشتاء معاً هناك، وليرتاح المسلمون ويكملوا استعداداتهم لفتح جديد.

د - الفتح المشترك بين القائدين:

كان هدف موسى وطارق ....

السَّوْقِي[١]، هو فتح شمالي الأندلس، وقد بدأ بانتهاء فصل الشتاء وحلول فصل الصيف، أي حوالي شهر جمادى الثانية من سنة خمس وتسعين الهجرية (آذار-مارس ٧١٤م) وزحف الجيش الإسلامي، على مقدِّمته طارق، وسار موسى خلفه على جيوشه، نحو مدينة سَرَقُسْطَة[٢] (Zaragoza): «المدينة البيضاء»[٣]، ففتحا المدينة دون قتال شديد على ما يبدو، فأقاما هناك سوية ينظمان أحوالها، وأنشأ فيها مسجداً خططه التابعي الجليل حَنَش بن عبدالله الصَّنعاني[٤]. وأوغلا في البلاد، لا يمرّان بموضع إلاّ فُتح عليهما، وكانت

(١) السَّوْقيّ: الاستراتيجي، من السَّوْق، وكانت تستعمل في الجيش العراقي منذ الثلاثينات من القرن العشرين الميلادي.

(٢) سرقسطة: تعريب للاسم الروماني: قيصر أجستا (Saesar Augusta) لأنّ أغسطس قيصر هو الذي أسسها سنة (٢٣ق.م) على أطلال المدينة الإيبيرية القديمة التي كانت تعرف عند الإيبيريين باسم: سلدوبا (Salduba)، وهي من أطيب البلاد، نقع على نهر إبْرُهْ الذي مجراه ينصب في البحر الأبيض المتوسط بساحل طُرطوشة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/ ٧١) ونصوص عن الأندلس لابن الدلائي (٢١-٢٣).

(٣) الروض المعطار (٩٦).

(٤) حنش بن عبد الله الصنعاني: هو حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة أبو رشيد، من صنعا دمشق، روى عن فضالة بن عُبيد ورُويفع بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد، وروى عنه ابنه وقيس بن الحجاج وجماعة. غزا المغرب، وسكن إفريقية، وعداده في المصريين، وهو تابعي كبير ثقة، دخل الأندلس، وكان مع علي بن أبي طالب بالكوفة. بعد استشهاد عليّ رضي الله عنه، غزا المغرب والأندلس. كان حنش إذا فرغ من عشائه وحوائجه، وأراد الصلاة من الليل، أوقد المصباح وقرب المصحف وإناء فيه ماء، فكان إذا وجد النعاس استنشق بالماء، وإذا تعايا في آية نظر في المصحف، وكان إذا جاءه سائل مستطعم لم يزل يصيح بأهله: «أطعموا السائل»، غني يُطعم، نزل مصر، ومات سنة مائة الهجرية، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان، فأتى به عبد الملك في وثاق فعفا عنه، وذلك لأنّ عبد الملك حين غزا المغرب مع معاوية بن خُديج نزل عليه بإفريقية سنة خمسين الهجرية، فحفظ له ذلك. غزا الأندلس مع موسى بن نصير، وله بها آثار، ويقال: إنّ جامع سرقسطة من ثغور الأندلس من بنائه، وأنّه أوّل من اختطّه. وفي رواية: إنّ أبا المهاجر دينار بعث حنش بن عبد الله الصنعاني إلى جزيرة شريك (في إفريقية)، فافتتحها، انظر =

الغنائم جسيمة، ولم يعارضهما أحد إلاّ بطلب صلح، وموسى يجيء على أثر طارق في كل ذلك، ويُكمل ابتداءه، ويوثِّق الناس على ما عاهدوه عليه[1]. وكانت طلائع المسلمين لم تكد تشرف على سَرقُسطة حتى رعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومَنْ معه من الرُّهبان، فجمعوا كتبهم المقدّسة وقرّروا الهجرة من البلد، والفرار بهذه الذخائر، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فسكنت مخاوفهم، وعدلوا عن مغادرة المدينة[2]، وفتحت المدينة البيضاء: سرقسطة أبوابها للمسلمين سنة خمس وتسعين الهجرية.

ولم يكد المسلمون يستقرون في سَرَقُسْطَة بعد فتحها، حتى توجه طارق وموسى إلى مناطق حول تلك المدينة وفتحا تلك المناطق، كما فتحا مدناً

= التفاصيل في: تهذيب ابن عساكر (٥/ ٩ـ١١) ومعجم البلدان (٥/ ٣٩٢ـ٣٩٣) والاستقصا (١/ ٧١) وتاريخ علماء الأندلس (١/ ١٢٥) رقم ٣٩١ وجذوة المقتبس (٢٠٢) رقم ٤٠٣ وبغية الملتمس (٢٧٨) رقم ٦٨٧ وقادة فتح المغرب العربي (١/ ١٣٩) و (١/ ١٥٢).

(١) نفح الطيب (١/ ٢٥٥ـ٢٥٦).

(٢) في فجر الأندلس (١٠٢): «ويبدو أنّ ما لقيه المسلمون من الشدّة عند ماردة والسّواقي، وما دهمهم من ثورة أهل طليطلة، مال بهم إلى الشدة، فنراهم في غزوتهم هذه أميل إلى العنف مما كانوا عليه قبل ذلك، فبينما كان طارق يحتلّ المواقع احتلالاً سلمياً، فيؤمّن أهلها، ولا يكاد يأخذ إلا ما كان من أملاك القوط وأملاك الكنيسة، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم، ويبدو كذلك أنّ هذا كان نتيجة سياسة موسى، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسبايا، هذا وإن العرب أنفسهم ـ وعلى رأسهم الخليفة ـ أنكروا عليه هذا المسلك»، كما ورد في: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٠ـ١٠١) مثل هذا المعنى. وما ورد في قصة الأسقف بنسيو في أعلاه، يناقض هذا الرأي الذي مصدره المستشرقون، ويعطي نموذجاً واقعياً حياً لرحمة المسلمين للمغلوبين. فإذا ظهرت شدة من موسى في بعض المواقف، فلأنّ الموقف الحربي قد يتطلب ذلك، انظر قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٦٦).

أخرى في تلك الناحية: وشْقَة[1] (Huesca) ولارِدَة[2] (Lerida) وطَـرَّكُونَة[3] (Tarragona) وبَرْشَلُونة[4] (Barcalona)[5] وأحب موسى سيره نحو البرت، ولكن جنده روِّعوا لما شاهدوه من قفر تلك النواحي وقلّة عمرانها، ثم إن أهلها كانوا يتكلمون اللغة الباسكية (لغة الباسك)، فوقعت من جند موسى موقعاً غريباً، وظنوا أنهم لا يتكلمون[6]، وزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم كالبهائم[7]. وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة، اشتدّ ذلك على الناس وقالوا: (أين تذهب بنا؟! حسبنا ما في أيدينا!) وكان موسى قد قال حين دخل إفريقية وذكر عُقْبَة بن نافع: (لقد كان غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدو، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟!)، فسمعه حَنش بن عبدالله الصَّنعاني في حينه، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً في الفتح، قام حنش فأخذ بعنانه، ثم قال: «أيها الأمير! إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرّر بنفسه وبمن

---

(١) وشقة: بليدة بالأندلس، وتعدّ من الثغر الأعلى من ثغور الأندلس مع لاردة وغيرها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٤٢٣) ونصوص عن الأندلس (٢٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩٥).

(٢) لاردة: مدينة مشهورة بالأندلس، شرقي قرطبة، تتصل أعمالها بأعمال طركونة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٣١٣).

(٣) طرّكونة: بلدة بالأندلس، متصلة بأعمال طرطوشة، وهي مدينة قديمة على شاطىء البحر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/ ٤٤).

(٤) برشلونة: مدينة أندلسية مشهورة، قريبة من طرطوشة، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٨٢-١٨٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩٦-٩٩).

(٥) فجر الأندلس (١٠٣) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠١) ودولة الإسلام في الأندلس (١/ ٥٣) والتاريخ الأندلسي (٩٢).

(٦) في البيان المغرب ١٢/ ١٨): «وفتح بلاد البشكنس وأوغل في بلادهم، حتى أتى قوماً كالبهائم، وغزا بلاد الإفرنج»، وانظر فجر الأندلس (١٠٣).

(٧) البيان المغرب (٢/ ٢٤) والإمامة والسياسة (٢/ ٧٨) وقادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٦٦).

معه، أما كان معه رجل رشيد؟! وأنا رشيدك اليوم! أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا؟! أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عزّ وجل، وأعرض مما فتح الله عليك، ودوّخ لك؟! إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم وأحبوا الدّعة)، فضحك موسى ثم قال: «أرشدك الله، وكثر في المسلمين أمثالك»، ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس، وهو يقول: (أما والله، لو انقادوا إليّ، لقدتهم إلى رومِيّة (روما)، ثم يفتحها الله على يديّ إن شاء الله»[1].

ولكن موسى ومعه طارق، استطاعا أن يعيدا إلى رجالهما نشاطهم وحماستهم للفتح، وبينما كانا يعدّان العدّة لفتح جِلِّيْقِيَّة[2] إذ أتاه مُغيث الرّومي[3] رسول الخليفة الوليد بن عبدالملك بن مروان، يأمره بالخروج من الأندلس، والكفّ عن التوسع في البلاد، وأن يشخص إلى دمشق، فساءه ذلك، وقطع به عن إرادته، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم يدخله المسلمون غير جِلِّيْقِيَّة، فكان شديد الحرص على اقتحامها[4]. وكان موسى قد أوفد علي بن رَباح[5]، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره، وهو من

---

(١) الإمامة والسياسة (٨٠ـ٨١)، وانظر ما جاء حول ذلك في قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٦٦ـ٢٦٧).

(٢) جلِّيقيّة: ناحية قرب ساحل المحيط، من ناحية شمالي الأندلس، في أقصاه من جهة الغرب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/ ١٣١) وتقويم البلدان (١٨٤ـ١٨٥) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٧١ـ٧٣).

(٣) مغيث الرومي: انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار.

(٤) نفح الطيب (١/ ٢٥٨).

(٥) علي بن رباح: هو أبو عبد الله علي بن رَباح بن نُصَير اللّخمي، كان فاضلاً جليلاً من جملة التابعين، يروي عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم عمرو بن العاص وولده عبد الله، وعُقبة بن عامر وأبو هريرة وعائشة أم المؤمنين زوج النبيّ ﷺ، وروى عنه جماعة يكثر تعدادهم، وكان إذا انفرد يستذكر ما حفظ من أحاديث نبويّة خوفاً من نسيانها. ولد سنة خمس عشرة الهجرية، وكان أعور، ذهبت عينه يوم الصواري في البحر مع عبد الله بن سعد سنة أربع وثمانين الهجريّة. وكانت له مع عبد العزيز بن مروان منزلة، وهو الذي زفّ أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان إلى الوليد =

التابعين[1] مع مغيث الرّومي مولى الوليد بن عبدالملك، رسولين إلى الخليفة ينهيان إليه أخبار الفتوح، يوم كان موسى في طُليطلة بعد أن استعاد فتحها من جديد، وذلك سنة أربع وتسعين الهجرية، فعاد مغيث إلى موسى بما أمره به الوليد.

ولكن قدوم مُغيث، لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الفتوح التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت، ريثما يتم فتح جِلِّيْقِيَّة، ولاطف مغيثاً من أجل ذلك، وسأله إمهاله إلى أن ينفِّذ عزمه في فتح جِلِّيْقِيَّة، والمسير معه أياماً، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل مغيث ومشى معه[2]. وقد وهب مغيثاً القصر الذي ينسب إلى مغيث في عهد المسلمين، وهو: (بلاط مغيث) بجميع أرضه من أرض الخمس[3]، نظير إمهاله بعض الوقت ومصاحبته في غزوة جِلِّيْقِيَّة. وقَبِل مغيث هذه الشروط، فلما اطمأن موسى إلى ذلك، بادر بالسير شمالاً لفتح قَشْتَالة[4] القديمة (Castilla leVieja أو Old Castille) تأميناً للحدود الشمالية

= بن عبد الملك، ثم عتب عليه عبد العزيز، فأغزاه إفريقية، إلى أن توفي بها، ويقال: إن وفاته كانت في سنة أربع عشرة ومائة الهجريّة، وقيل توفي سنة سبع عشرة ومائة الهجرية، انظر التفاصيل في: تاريخ علماء الأندلس (١/ ٣١٠) رقم ٩١٥ ورياض النفوس (١/ ٧٧ـ٧٨) ونفح الطيب (١/ ٢٦٠ـ٢٦١)، وانظر الإمامة والسياسة (٢/ ٧٥ـ٧٦) حول إيفاده إلى الوليد بن عبد الملك من قبل موسى بن نصير.

(١) دخل الأندلس أربعة من التابعين هم: علي بن رباح اللّخْمي، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن زياد الحبليّ، وحنش بن عبد الله الصنعاني، وحيوة بن رجاء التميمي، وفي بغية الملتمس (٥١): إنّ محمد بن أوس الأنصاري وهو من التابعين غزا الأندلس مع موسى بن نُصير، وانظر تاريخ علماء الأندلس (١/ ٣١٠)، هذا بالإضافة إلى موسى بن نُصير الذي كان من التابعين أيضاً.

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٥٨).

(٣) الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية (٢٠٤).

(٤) قشتالة: إقليم عظيم بالأندلس، قصبته اليوم طليطلة، انظر معجم البلدان (٧/ ٩٣) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٧٢).

لإقليم طُليطلة[1].

والحديث عن إقناع مغيث بالغنيمة والقصر، لإبقاء موسى على رأس جيشه، ليستكمل تحقيق أهدافه في الفتح، ليس من السهل تصديقه ولا قبوله، فهو رشوة لتأجيل تنفيذ أمر الخليفة الواضح الصّريح، وقدكان مغيث قوياً أميناً لا يتقبل الرشوة ولا يرتضى لنفسه مخالفة أوامر الخليفة الصريحة الواضحة، والذي يبدو أن الخليفة أمر مغيثاً أن يُشخص موسى معه إلى دمشق، دون أن يأمره بإشخاصه فوراً، فكان لمغيث أن يتصرف في أمر موسى بحرية مطلقة، فرأى أن الموقف العسكري يتطلب بقاء موسى ردحاً من الزمن في الأندلس، لاستكمال فتوحاته، واقتنع برأي موسى بضرورة بقائه لغزو منطقة جِلِّيْقِيَّة، حتى لا يتعرض إقليم طليطلة لتعرض قوطي، كما لم يجد مغيث محذوراً من بقاء موسى في قيادته، فلا اعتراض له على أمر الخليفة، كما لا يستطيع أن يعترض، فكان لبقاء موسى فائدة للفتح دون ضرر على الخلافة، لذلك اقتنع مغيث بالسير مع موسى ومرافقته في فتحه، فكانت الغنيمة والقصر جزاء جهاده لا جزاء تراخيه في تنفيذ أمر الخليفة أو جزاء التخلي عن التنفيذ.

والغريب أن المستشرقين ركّزوا على هذه الفرية، وبالغوا في شرحها وتوضيحها وتسليط الأضواء عليها، فصوّروا في هذا الفصل مغيثاً متواطئاً مع موسى على الخليفة، ثم صوّروه في الفصل الثاني عدواً لدوداً لموسى، يشنّع على موسى لدى الخليفة لأنه كان يرى نفسه أحق من موسى بتولي الأندلس، وليس ذلك من خلق التابعين وتابعي التابعين، ولا كان الدسّ والافتراء والكذب والحسد والرشوة من أخلاقهم، فإذا لم يكن مقنعاً، للمؤرخ الذي تتبع خلق أولئك الرجال، فالتناقض المكشوف في موقف مغيث-بحسب ادعاءات المستشرقين-لابد أن يكون مقنعاً، إذ كيف يمكن أن نصدق أن مغيثاً يفتري ما يفتري على موسى بحضور الخليفة، ثم يسكت عنه موسى في

---

(١) Saavedra.op.cit.p.113-114 .

تقاضيه الرشوة لقاء تراخيه في تنفيذ الأمر الخليفي؟ وهل من المعقول أن يعفو الخليفة عن المتراخي في تنفيذ أمره لقاء رشوة معروفة وليست سِرّاً.

وبالطبع استفاد المستشرقون من المصادر الإسلامية في ترويج هذه الادعاءات، وما ذلك أراد مؤلفوها.

وسنرى سبب استدعاء موسى إلى دمشق وشيكاً، حيث لا نجد محلاّ لمثل هذه التخرّصات.

وكان يتفرّع من سّرْقُسْطة طريقان رومانيان يتجهان من الشرق إلى الغرب: الأول يذهب بحذاء نهر إبْرُهْ[1] (Ebro)-(الإبرو) حتى هارو (Haro) ومن هناك يتبع بروفيسكا (Barivlesca) ثم أمَايَة[2]، ثم لِيُون[3] وأسترقة. والثاني ينفصل من الطريق الأول عند بدايته، ويتجه نحو قَلُوْنية وبَلَنْسِيَة[4]، ويلتقي بالطريق الممتد من ماردة إلى أسترقة في مدينة بنافنتي، وكان لابد لموسى من السير في كل من هذين الطريقين. فقسم جيشه قسمين: قسم بقيادته، والآخر بقيادة طارق.

واختار موسى الطريق الثاني، وعهد إلى طارق بالسير في الطريق الأول، أدنى سفوح جبال كَنْتَبْرية، وشرع طارق بمهاجمة البشكنس[5] غربي نهر إبره، فلم يجد صاحب الناحية فُرْتُون (Fortunius) بداً من الدخول في طاعة المسلمين، بل اعتنق الإسلام، ومنه تسلسل بنو

---

(١) نهر إبره: ويقع في شمال شرقي الجزيرة الإيبيرية، ويصب في البحر الأبيض المتوسط عند طرطوشة، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٥٧).

(٢) أماية: احدى المدن الأندلسية، وهي احدى مدن الجزء الثالث بحسب تقسيمات الأندلس القديمة، وهي: (Amaya)، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٢).

(٣) ليون: مدينة بالأندلس في منطقة جليقية، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٨٤ـ١٨٥).

(٤) بلنسية: كورة ومدينة بالأندلس شرقي قرطبة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ٢٧٩) وتقويم البلدان (١٧٨ـ١٧٩).

(٥) البشكنس: الباسك.

قَسِيّ[1] أصحاب الثغر الأعلى[2]، الذين لهم ذكر كثير في تاريخ الأندلس[3]، ثم تابع طارقٌ سيره، واستولى على أمايَة واسترقة اللتين ذكرهما قسم من المؤرخين خطأً في حملة طارق التي كانت سنة اثنتين وتسعين الهجرية[4] (٧١١م) كما فتح مدينة ليون[5] في هذه السنة أيضاً.

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية لنهر إبره في إقليم قَشْتالة[6]، فأطاعه معظم من مرّ بهم من رؤساء هذه المناطق. وقد لقي مقاومة عند قرية تسميها بعض المراجع بارو أو بازو في مقاطعة بلد الوليد الحالية (فاليا دوليد Valladolid) ولم يلبث أن تغلّب عليهم، ثم سار متابعاً فتوحه. وبدلاً من أن يعرِّج على استرقة ليلتقي فيها بجيش طارق، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tarna) وسار متابعاً مجرى نهر النالون (Nalon) ثم حطّ رحاله عند قلعة لُكْ (Lucus Asturum الرومانية و Maria de Lugo اليوم) غير بعيد عن أَبِيط (Oviedo) وما زال بها حتى فتحها. وسار موسى حتى بلغ خيخون (Gijon)

---

(١) بنو قَسِيّ: كان قَسِيّ قومِس الثّغر في أيام القوط، فلما افتتح المسلمون الأندلس التحق بالشام، وأسلم على يدي الوليد بن عبد الملك، فكان ينتمي إلى وَلائه، فولد قسي فرتون، وبنو قسي من المولدين، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٥٠٢ـ٥٠٣)، وانظر نشاطهم في الأندلس في كتاب: نصوص عن الأندلس (٣٢ و٣٥ و٤٠ و٤١ و٤٩ و١٦٥).

(٢) الثغر الأعلى: ويشمل سرقسطة عاصمة هذا الثغر، ولاردة، وتطيلة، ووشقة، وطرطوشة، وغيرها. وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار، وتمثله اليوم منطقة أراغون (Aragon)، راجع الآثار الأندلسية (٧٨) والحلل السندسية (١/ ٢٠٦) و (٢/ ١١٤) وجغرافية الأندلس وأوروبا (٩٥).

(٣) انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٥) وأخبار مجموعة (١٥).

(٥) أخبار مجموعة (٢٨)، وقد جعل هذا المصدر فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة (٧١١م)، وهو خطأ واضح، انظر فجر الأندلس (١٠٤).

(٦) قشتالة: إقليم عظيم بالأندلس، عاصمته طليطلة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٩٣).

وأقرّ بها حامية، وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في هذه النواحي البعيدة، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاي (Peka de Pelayo) على البحر الأخضر[1]، فطاعت الأعاجم، ولاذوا بالسلم وبذل الجزية، وسكنت العرب المفاوز، وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه، حطّو به ونزلوه قاطنين[2].

وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط، فاطمأن إلى أنه فتح شبه الجزيرة كلها، لذلك شعر أنه لم يّعُد هناك أي معنى للاسترسال في الفتح، وكان موسى يخلِّف في كل مدينة وقلعة يفتحها حامية من المسلمين، فتفرّق جنده، وطال السّير بمن بقي منهم معه، ونال منهم الجهد، فمالت نفوسهم إلى العودة، لذلك اكتفى موسى بوصوله إلى خيخون، وأزمع العودة، وهو يعلم أن أعداداً كبيرة من القوط قد تراجعوا أمامه، واجتمعوا في نواحي أشتوريش وجِلِّيقيّة، وأنهم يكوِّنون الخميرة الأولى لاستعادة الأندلس من المسلمين في المستقبل -كما حدث ذلك فعلاً- ولو لم ينشغل العرب عن البقية الباقية من القوط بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بينهم، لاستطاعوا القضاء عليهم بسهولة ويسر، ولكن العرب شُغلوا بأمور أنفسهم، فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة، وأن تنمو بالتدريج وتقوى وتشتد، لتنتهز في المسلمين كل فرصة تسنح، ولتستعيد ما تستطيع استعادته مرحلياً من الأندلس كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

ومن الواضح جداً، أن موسى ترك جبهة القتال مُكرهاً لا بمحض إرادته، فقد كان الخليفة يريد عودته إلى دمشق، وكان مغيث يتربص به ليتولى العودة معه، فلما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي في نظر الخليفة

---

(١) هو المحيط الأطلسي، وكان يسمى أيضاً: الأقيانوس، وبحر الظلمات.

(٢) نفح الطيب (١/٢٥٨)، وانظر فجر الأندلس (١٠٤ـ١٠٥) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٢ـ١٠٣).

ومغيث، كان لابد له أن يعود، لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط، بل إلى دمشق رأساً، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله، وكان الوليد بن عبدالملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل، إذ أن رسولاً آخر من الوليد، يكنى: أبانَصْر، بعثه إلى موسى، عندما استبطأه في القفول، فأتاه وهو في مدينة لُكْ بناحية جلِّيقية(١).

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٧٦)، وفي فجر الأندلس (١٠٦) ورد: «حتى لتذهب الروايات، إلى أنّ الوليد، بعث إليه رسولاً آخر، اسمه: أبو نصر، لقيه في لك، فأخذ بعنان فرسه، وأمره بالعودة؛ وذلك أمر مستبعد، لأن مغيثاً وصل موسى في سرقسطة في أوائل الربيع، ولما تنقضي على وصوله ثلاثة أشهر، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة، فأرسل يتعجّل، وربما كان أبو نصر هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس». وأقول: قد وردت ترجمة مغيث الرومي في نفح الطيب (٤/ ١١ـ١٣) وفي غيره من المصادر، وهو لا يكنّى: أبا نصر في تلك المصادر كلها. ولماذا نستبعد قدوم الرسول الآخر الذي أرسله الوليد إلى موسى، وقد انقضت على وصول الرسول الأول ثلاثة أشهر، وهي مدّة طويلة، وبخاصة بعدما استقرّ في ذهن الوليد أنه يريد أن يشقّ عصا الطاعة، انظر الإمامة والسياسة (٢/ ٧٥ـ٧٦)، وأنّ موسى يطمع في فتح غالة والوصول إلى رومة، انظر الإمامة والسياسة (٢/ ٨١)، بل الوصول إلى أرض الشام عن طريق إفرنجة (فرنسا)، انظر نفح الطيب (١/ ٢٥٩)، في الوقت الذي سئم المسلمون فيه الفتح، وأظهروا رغبتهم في العودة إلى قرطبة؟؟

لقد كان الخليفة الوليد بن عبد الملك حريصاً غاية الحرص على سلامة المسلمين، فعارض منذ البداية في إقحامهم في بحر شديد الأهوال، فلما علم بما شرح به موسى من فتح غالة، اشتدّ قلقه وأرسل أبا نصر رسولاً ثانياً إلى موسى يستعجله القفول إلى دمشق، وإذا كان مغيث قد وافق على إكمال موسى لفتوحه، فلأنّ مغيثاً قائد يقدِّر أهمية الموقف العسكري الراهن، ويقدِّر أهمية إكمال الفتح لحاضر المسلمين ومستقبلهم في الأندلس، أما أبو نصر ـ كما يبدو ـ فلم يكن قائداً، وهو منفِّذ قويّ أمين للأوامر، شديد الضبط والربط، لا يقبل بعذر ولا ينصت إليه، فمن الواضح أنّ أبا نصر شخصية ثانية غير مغيث ومختلفة عنه كلّ الاختلاف. وفي نفح الطيب (١/ ٥٨) نص صريح وهو: «وقفل معهم ـ أي مع موسى وطارق ـ الرسولان: مغيث وأبو نصر»، انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٣ـ١٠٤) وقادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٧٠ـ٢٧١).

وهناك بعض المؤرخين، يذكرون أن موسى بن نُصير، بعد أن افتتح سرقسطة، بعث سراياه إلى قطالونة، ففتحت بَرْشَلونَة[1]، ومن هناك اخترقت جبال البرتات (البرانس) وتوغلت في بلاد غالة[2]، فاستولت على أُرْبُونة[3] (Nabonne) وصخرة إينيون (Avignon) وحصن لودون على وادي ردونة، وهو وادي نهر الرُّون[4]. ولا نستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت برشلونة ولاردة وجزء من إقليم قطالونية، وأنها قد وصلت إلى جبال البرتات واجتازتها إلى قَرْقَشُونة[5]، فهو نفس الطريق الذي اتبعه السَّمح بن مالك[6] بعد ذلك بسنوات، ولكن فتح موسى هذا لم يكن فتحاً مُسْتداما، إنما كان فتحاً وقتياً بقوات استطلاعية خفيفة، استطاعت جمع المعلومات عن تلك

---

(١) برشلونة: وتسمى أيضاً برشنونة، وهي مدينة مصاقبة للأندلس وقريبة من طرطوشة، تقع في شمال شرقي الأندلس، على البحر الأبيض المتوسط، ويعتبرها بعض جغرافيّ العرب، أنّها ليست من الأندلس، انظر تقويم البلدان (١٨٢ـ١٨٣)، ويراها بعضهم أنها من الأندلس، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٩٦)، والثاني هو الصواب، فهي من الأندلس. وتكسر الشين في برشِلونة، عند بعض الجغرافيين العرب.

(٢) الغال: بلاد الغال (Gaul و Gallia) و (Gallos)، وهي تمثّل قسماً كبيراً من فرنسا أو جنوبها أحياناً، وكان يسمونها: غاليوش، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٥٩).

(٣) أربونة: مدينة شمال شرقي قرقوشة، تقع على السّاحل الفرنسي الجنوبيّ، انظر ما جاء عنها في تقويم البلدان (١٨٢ـ١٨٣).

(٤) نفح الطيب (١/ ٢٥٦).

(٥) قرقشونة: وهي (Carcassonne) بلد في جنوبي فرنسا قريبة من حدود إسبانيا الشمالية، وفي معجم البلدان (٧/ ٥٩): إنّ المسافة بين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرون يوماً. وفي نفح الطيب (١/ ٢٦٠): إنّ موسى انتهى إلى حصن من حصون العدو يقال له: قرقشونة، وانظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤) ـ الأمير شكيب أرسلان ـ مصر ـ ١٣٥٢هـ. وفي نفح الطيب (١/ ٢١٨) وابن خلدون (٤/ ١١٧): إنّ موسى توغّل في الأندلس إلى برشلونة من جهة الشرق وأربونة في الجوف، ويعتبر البكري مدينة قرقشونة من الجزء الأول الأندلسيّ، انظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٦٠).

(٦) السمح بن مالك: سترد ترجمته في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار.

المنطقة من بلاد فرنسة، تمهيداً لفتحها فيما بعد[1].

(١) في البيان المغرب (٢/ ٢٤) ونفح الطيب (١/ ٢٥٩)، أنّ موسى انتهى إلى صنم، فوجد في صدره مكتوباً: «يا بني إسماعيل! إلى هنا منتهاكم، وإذا سألتم: إلى ماذا ترجعون؟ أخبرناكم: ترجعون إلى اختلاف ذات بينكم، حتى يضرب بعضكم رقاب بعض» ومن الواضح أنّ هذه أسطورة من الأساطير، وهي قصة جغرافية، نسجت فيما بعد، تقريراً لما حدث بين الفاتحين فعلاً، وأدّى بهم إلى ضياع الفردوس المفقود (الأندلس) منهم، وخروجهم منها أذلاء مغلوبين حين تفرّقوا واختلفوا وتخلّوا عن عقيدتهم التي قادتهم إلى النصر، فأصبحوا مسلمين جغرافيين، لا مسلمين حقيقيين، وعرباً من قوارير، أو بالجنسية -حسب- لا عرباً حقّاً، وكانوا قد دخلوها أعزاء فاتحين منتصرين متّحدين موحّدين، متمسكين بعقيدتهم مضحّين في سبيلها بالغالي والرخيص، فكان بأسهم على أعدائهم شديداً، فانتصروا وعزّوا، فأصبح بأسهم بينهم شديداً، فاندحروا وذلّوا. تلك هي عبرة الأسطورة للمسلمين اليوم وغداً، فهي في معناها واقع مرير قد حدث، وهي في مبناها أسطورة من الأساطير.

الإنسان

١ - عودة القائدين إلى دمشق

أ - العودة :

بادر موسى بالعودة من لُكْ بجِلَّيقية مع أبي نصر الرسول الثاني للوليد بن عبدالملك، وكان مع أبي نصر رسالة من الوليد إلى موسى، يوبِّخ الوليد بها موسى، ويأمره بالخروج من الأندلس، وألزم رسوله إزعاجه[١]، فأخذ موسى في طريق العودة أواخر سنة خمس وتسعين الهجرية (منتصف صيف ٧١٤م)[٢]. وفي طريقه من لُكْ، التقى بطارق الذي كان عائداً من حملة له على أراغون (Aragon) في الثغر الأعلى[٣]، فسار الاثنان معاً إلى طليطلة. أما غالبية جنودهما، ففضلوا البقاء في المدن والأرياف المفتوحة، حيث استقروا وأقاموا منازلهم[٤]. ومرّ موسى بطليطلة وقرطبة في طريقه إلى إشبيلية، حيث عيّن هناك ابنه عبدالعزيز[٥] والياً على الأندلس، وترك معه مساعدين من أمثال حبيب بن أبي عُبَيْدة الفِهْري[٦] وكثيراً من القادة المسلمين الآخرين مع رجال

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٧٦).

(٢) كانت مغادرة موسى من إشبيلية إلى شمالي إفريقية في شهر ذي الحجّة من سنة خمس وتسعين الهجرية (أيلول ـ سبتمبر ـ ٧١٤م).

(٣) الثغر الأعلى: ويشمل سرقسطة عاصمة هذا الثغر، ولاردة، وتطيلة، ووشقة، وطرطوشة وغيرها، وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار، وتمثله اليوم منطقة أراغون، أنظر جغرافية الأندلس وأوروبا (٩٥).

(٤) نفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ٢٧٦).

(٥) عبد العزيز بن موسى بن نصير: سترد ترجمته المفصلة في كتابنا«قادة فتح الأندلس والبحار».

(٦) ورد اسمه في البيان المغرب (٢/ ٣٠): حبيب بن أبي عبده بن عقبة بن نافع، وكذلك =

قبائلهم، ليدافعوا عن البلد ويحموه[1]. وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للبلاد، وذلك بسبب قربها من البحر والمضيق، كما جعلها أيضاً قاعدة بحرية للمسلمين في الأندلس[2].

وركب موسى البحر، ومعه طارق ومغيث الرومي وأبو نصر وكبار الجند، في شهر ذي الحجة من سنة خمس وتسعين الهجرية (أيلول - سبتمبر ٧١٤م)، ومعهم يُليان، وقد أبحر موسى ومَن معه من إشبيلية، وهو متلهِّف على الجهاد الذي فاته، آسف على ما لحقه من إزعاج، وكان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة (فرنسا)، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام، مؤمِّلاً أن يتخذ مُخْتَرَقَه[3] بتلك الأرض طريقاً مُهْيعاً[4]، يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً[5].

وتذهب بعض المصادر العربية، إلى أن موسى استصحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى[6]، وفي ذلك مبالغة واضحة، فهذا العدد الضخم من الأسرى، يحتاج إلى وسائط نقل هائلة لنقلهم برّاً وبحراً من الأندلس إلى دمشق، ويحتاج إلى تدابير إدارية من الصعب جداً تحقيقها، والغالب أن عدداً قليلاً من الأسرى رافق موسى في رحلته هذه، وأما الباقون منهم، فقد تُركوا

= في المعجب من تاريخ المغرب (٣٤). أما في تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦)، فقد ورد اسمه: حبيب بن أبي عبيدة.

(١) أخبار مجموعة (١٩) وفتح الأندلس (١٧) وابن الأثير (٤/ ٥٦٦) والمراكشي (٨) والبيان المغرب (٢/ ٢٣) والنويري (٢٢/ ٢٩) وابن خلدون (٢/ ٢٥٥) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٧٦) والرسالة الشريفية (٢١٠).

(٢) أخبار مجموعة (١٩) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/ ٢٧٦) والرسالة الشريفية (٢١٠)، وهي قاعدة متقدِّمة.

(٣) مخترقة: أي المكان الذي يخترقه، أي يسلكه ويجتاز البلاد منه.

(٤) مهيعاً: الواضح البيِّن، وهو أيضاً الواسع المنبسط.

(٥) نفح الطيب (١/ ٢٧٧).

(٦) أنظر نفح الطيب (١/ ٢٧٧).

في المزارع يزرعونها ويديمونها، وفي الأعمال الإدارية الأخرى يديرونها ويدبّرون أمرها. ولكنه استصحب معه مائة رجل من أشراف الناس: من قريش ومن الأنصار، ومن سائر العرب ومواليها. وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل: منهم أبناء كسيلة، وملك السّوس الأقصى، وملك قلعة أوساف، وملك ميورقة ومنورقة، ومعه الغنائم من الذهب والفضة والجوهر، محمولة على ثلاثين ومائة عجلة[١]، فكان مع موسى أربعمائة رجل[٢]، بل هناك رواية أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط، ألبسهم أفخر الثياب، وسار بهم في موكبه، ليدلّ على عظم الفتح الذي تم على يديه[٣].

واستخلف موسى ابنه عبدالله على إفريقية، وابنه مروان على طنجة والسّوس[٤]، فمرّ بطريق عودته بالقيروان[٥]، ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين الهجرية (كانون الأول - ديسمبر ٧١٤م)، فأقام هناك ثلاثة أيام، يأتيه أهل مصر في كل يوم، فلم يبق شريف إلاّ وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً، وأهدى لولد عبدالعزيز بن مروان فأكثر لهم، وجاءهم بنفسه فسلم عليهم، ثم سار متوجهاً حتى أتى فلسطين[٦].

ولما قدم موسى ومعه طارق إلى الوليد بن عبدالملك في دمشق، كان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي تُوفي فيه، إذ بلغا دمشق سنة ست وتسعين الهجرية (كانون الثاني - يناير ٧١٥م) أي قبل وفاة الوليد بأربعين

---

(١) أنظر التفاصيل في: الإمامة والسياسة (٢/ ٨٢).
(٢) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦).
(٣) أنظر: فجر الأندلس (١٠٧).
(٤) ابن حبيب (٢٣١ـ٢٣٢) وفتح مصر وإفريقية (٢١٠) وأخبار مجموعة (١٩) وفتح الأندلس (١٨) وابن الأثير (٤/ ٥٦٦) وابن الكردبوس (٥٠) وابن الشباط (١٢٣) والبيان المغرب (٢/ ١٨ـ١٩و٤٤) ونفح الطيب (١/ ٢٧٧).
(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (٣٤).
(٦) الإمامة والسياسة (٢/ ٨٢ـ٨٣).

يوماً[1]، وتوفي الوليد في الخامس عشر من جمادى الثانية من سنة ست وتسعين الهجرية (٢٥ شباط - فبراير ٧١٥م)، فخلفه في الحكم أخوه سليمان بن عبدالملك الذي كان مستاء أيضاً من موسى، فتروي المصادر أنه حينما اقترب موسى من بلاد الشام، كتب إلى موسى، يأمره بتأخير وصوله إلى دمشق، حتى يموت الوليد، وبذلك يتسنى لسليمان الحصول على الكنوز التي جلبها موسى معه، وينال فخر الفتح لنفسه. ولكن موسى أهمل طلب سليمان، وتقدم إلى دمشق[2]. وكان سليمان بعث إلى موسى مَن لقيه في الطريق قبل قدومه على الوليد، يأمره بالتريث في مسيره، وألاّ يعجل، فإن الوليد بآخر رمقه، فقرأ موسى الكتاب، وقال: «خنت والله وغدرت وما وفيت! والله لا تربّصتُ ولا تأخّرت ولا تعجّلت! ولكني أسير بمسيري، فإن وافيته حيّاً لم أتخلّف عنه، وإن عجلت منيّته فأمره إلى الله»، فرجع الرسول إلى سليمان، فأعلمه[3]. وقد أبى موسى أن يتجاوب مع سليمان، لأن دِينه منعه من هذا التجاوب، فقدم على الوليد وهو حي، فسلم له الأخماس والمغانم والتّحف والذخائر، فلم يمكث الوليد إلا يسيراً بعد قدوم موسى حتى توفي، واستُخلف سليمان، فحقد عليه وأهانه[4].

وقيل: إن موسى وصل إلى دمشق بعد وفاة الوليد، فقدم على سليمان حين ....

---

(١) فجر الأندلس (١٠٧)، ولم تكن مقابلة الوليد لموسى مقابلة حسنة بسبب تماديه في سياسته في أثناء فتح الأندلس، وتباطؤه في إطاعة أوامر الخلافة، أنظر ابن الأثير (٤/ ٥٦٦) والنويري (٢٢/ ٣٠) وابن الكردبوس (٥٠).
وانظر كذلك: Chr. 154. p. 149. (no.4)
وسترد أسباب مقابلة الوليد لموسى بجفاء، وأسباب سحبه وسحب طارق معه من الأندلس إلى دمشق وشيكا.

(٢) ابن الكردبوس (٥٠) والبيان المغرب (٢/ ٢٠) ونفح الطيب (١/ ٢٨٠-٢٨١).

(٣) الإمامة والسياسة (٢/ ٨٣)، وانظر البيان المغرب (٢/ ٢٥).

(٤) نفح الطيب (١/ ٢٦٢) وانظر تاريخ افتتاح الأندلس (٣٦).

استُخلف[١].

والصواب، هو أن موسى وطارقاً وصلا إلى دمشق قبل موت الوليد، وكان الوليد مريضاً، فمثُلَ موسى بحضرة الوليد، ولكن الوليد لم يقابله مقابلة حسنة بسبب تماديه في سياسته في أثناء فتح الأندلس، وتباطئه في إطاعة أوامر الخلافة[٢]، وكان مع موسى وطارق كميات هائلة من الغنائم والأسرى والهدايا الثمينة من الذهب والفضة واللؤلؤ، كما حملا أيضاً (المائدة) المشهورة وكثيراً من الكنوز الأندلسية الأخرى. ولكن الظّاهر أن قلب الوليد كان متغيِّراً على موسى تغيّراً لا سبيل إلى إصلاحه، لذلك لم يُحسن الوليد لقاء موسى، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان، وهو أشدّ غضباً من أخيه على موسى، ولهذا كان طبيعياً ألاّ ينتظر موسى خيراً كثيراً من سليمان، وأن يُدرك أن أيام مجده وعزِّه قد مضت مع أمس الدابر[٣].

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ به قسم من المؤرخين من أفاعيل سليمان بموسى، فمن المستبعد ما يقال: إن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر[٤]، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه[٥]، فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه، حتى اضطر إلى أن سأل العرب معونته، فيقال: إن لَخْماً[٦] حملت عنه من أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً، وقيل: حمّله سليمان غرم مائتي ألف، فأدى مائة ألف وعجز، فاستجار بيزيد

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤)، وانظر المعجب في أخبار المغرب (١/ ٣٥).

(٢) ابن الأثير (٤/ ٥٦٦) والنويري (٢٢/ ٣٠) وابن الكردبوس (٥٠).

(٣) قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٧٩).

(٤) أنظر التفاصيل في الإمامة والسياسة (٢/ ٨٤ـ٨٥).

(٥) تقصّي حسابه: أي تتبعه وشدّد البحث عنه لتعرف حقيقته، أنظر ما جاء حول ذلك في نفح الطيب (١/ ٢١٢).

(٦) بنو لخم: هو مالك بن عَدي بن الحارث بم مُرَّة بن أُدد بن زيد بن يَشْجُب بن عريب بن زيد بن كُهْلان بن سَبَأ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤١٨ـ٤٢٢)، وكان موسى من بني لخم.

بن المُهلَّب[1]، فاستوهبه من سليمان، فوهبه إياه، إلاّ أنه عزل ابنه عبدالله عن افريقية[2]، وأن سليمان ألزم موسى أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالاً يفتدي به نفسه، حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين، فيفرح بذلك موسى، ويدفعه إلى الموكلين به، فيخفّفون عنه العذاب[3]، لأن

---

(١) يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرة: أنظر سيرته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح بلاد ما وراء النهر ـ مخطوط.

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٦٢).

(٣) أنظر التفاصيل في نفح الطيب (١/ ٢٦٥ـ٢٦٦)، وفي الإمامة والسياسة (٢/ ٨٤ـ٨٥): «لما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، بعث إلى موسى، فأُتي به، فعنّفه بلسانه، فكان مما قال له يومئذ: اجترأت، وأمري خالفت، والله لأقللنّ عددك ولأفرقنّ جمعك، ولأبددنّ مالك، ولأضعنّ منك ماكان يرفع غيري ممن كنت تمنيه أماني الغرور، وتخدعه من آل أبي سفيان، وآل مروان! فقال له موسى: والله يا أمير المؤمنين، ما تعتلّ عليّ بذنب، سوى أني وفيت للخلفاء قبلك، وحافظت على مَن ولي النعمة عندي فيه، فأما ما ذكر أمير المؤمنين من أنّه يقلّ عددي، ويفرِّق جمعي، ويبدِّد مالي، ويخفض حالي، فذلك بيد الله وإلى الله، وهو الذي يتولّى النعمة على الإحسان إليّ، وبه أستعين، ويعيذ الله عز وجل أمير المؤمنين ويعصمه أن يجري على يديه شيئاً من المكروه لم أستحقه ولم يبلغه ذنب اجترمته، فأمر سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحر على طريقه، وكانت بموسى نسمة (ربو)، فلما أصابه حرّ الشمس وأتعبه الوقوف، هاجت عليه، وجعلت قِرب العرق تنصبّ منه، فما زال كذلك حتى سقط، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً، إلى أن نظر سليمان إلى موسى، وقد وقع مغشياً عليه، قال عمر بن عبد العزيز: ما مرّ بي يوم كان أعظم عندي، ولا كنت أكرب من ذلك اليوم، لما رأيت من الشيخ موسى، وما كان عليه من بُعد أثره في سبيل الله، وما فتح الله على يديه وهذا يُفعل به! فالتفتَ إليّ سليمان، فقال: يا أبا حفص! ما أظنّ إلاّ قد خرجت من يميني! فقال عمر: فاغتنمت ذلك منه، فقلت: يا أمير المؤمنين! شيخ كبير بادن، وبه نسمة قد أهلكته، وقد أتيت على ما فيه من السلامة لك من يمينك، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله، العظيم الغناء عن المسلمين. قال عمر: منعني من الكلام فيه، ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه، فخشيت إن ابتدأته أن يلحّ عليه، وهو لحوح. قال عمر: فلما قال لي ما قال آخراً، حمدت الله على ذلك، وعلمت أنّ الله قد أحسن إليه، وأنّ سليمان قد ندم فيه. فقال سليمان: مَن يضمّه؟ فقال يزيد بن المهلّب: أنا أضمّه يا أمير المؤمنين. قال: =

سليمان لو كان قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك أولاده ولاة على افريقية والأندلس، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المُهلَّب الذي كان مقرّباً جداً من سليمان بن عبدالملك وصاحب الأمر في دولته[1]، ولأن عمر بن عبدالعزيز كان من أقرب المقرّبين إلى سليمان، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبدالعزيز عن مثل تلك التصرفات، دون أن يقول كلمة الحق، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولأن سيرة سليمان الذي وصفه المؤرخون، بأنه مفتاح الخير، أطلق الأسارى، وخلّى أهل السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبدالعزيز[2]، لا تستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى، وهو

= وكانت الحال بين يزيد وسليمان لطيفة خاصة. قال سليمان: فضمه إليك يا يزيد، ولا تضيّق عليه. قال: فانصرف به يزيد، وقد قدم إليه دابة ابنه مخلد، فركبها موسى، فأقام أياماً. قال: ثمّ إنه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح، حتى افتدى منه بثلاثة آلاف دينار»... انتهى.

ومن الواضح أن المبالغة والتناقض يسودان هذه الرواية، فسليمان لا يتورّع من تعذيب شيخ فانٍ عذاباً يقرِّبه من حافة القبر، وسليمان تارة قاس غاية القسوة، وهو رحيم غاية الرحمة تارة أخرى في نفس الوقت، بحيث يوصي بهذا الشيخ خيراً، فلا يرضى أن يضيق عليه أحد! كما أن هذه القصة تناقض ماجاء عن سليمان من مزايا، فهو: «مفتاح الخير، أطلق الأسارى، وخلى السجون، وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز...».. الخ، كما جاء في الطبري (٥/ ٣٠٤)، فكيف يقوم بتعذيب شيخ له ماضٍ مجيد، كما وصفه عمر بن عبد العزيز بالذات، وكما يعرف عنه الناس جميعاً؟!

كما أن هناك تناقضاً فاضحاً بين هذه القصة، وبين ماجاء في القصص التي نوهنا عنها في أعلاه، ويبدو أن هذه القصة وأمثالها من جملة القصص الموضوعة للتشنيع بسليمان وغيره من رجال العرب المسلمين الخلفاء ومَن عمل معهم في تلك الأيام الذهبية من تاريخ العرب والإسلام، وبخاصة في مجال الفتوح شرقاً وغرباً، وأمثال هذه القصص ظاهرة التهافت والتناقض، لا تستقيم مع خلق العرب وتعاليم الإسلام، التي كانت سائدة في المجتمع العربي الإسلامي حينذاك.

(١) أنظر قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) الطبري (٥/ ٣٠٤).

شيخ كبير، له ماضٍ ناصع مجيد في خدمة العرب والمسلمين. وأرى أن من المستبعد أن يعاقب سليمان تابعياً جليلاً هو موسى بن نصير، ويعاقب مَن معه من أمثال طارق بن زياد، لأنهما أسسا ملكاً وقضيا حياتهما مجاهِدَين في سبيل الله، لمجرّد قالة ظالمة أو وشاية كاذبة. وحتى مقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير، لم يكن لسليمان يد فيها، لأن سليمان غضب لمقتل عبدالعزيز، وأرسل إلى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبدالعزيز، والقبض على قتلته، وإرسالهم إليه[1].

لقد كان موقف سليمان من موسى ومَن معه سليماً، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد.

ولكن، لماذا عزل الوليد بن عبدالملك موسى عن إفريقية والأندلس، وأقرّ سليمان هذا العزل؟.

لماذا استدعى الوليد موسى وطارقاً من ساحات القتال على عجل، ولم يمهلهما حتى يحققا كل أهدافهما في الفتح؟.[2]

ب - أسباب استدعاء موسى وطارق:

كان للخلفاء أساليب خاصة، لمعرفة تفاصيل أعمال ولاتهم وقادتهم وتصرفاتهم، للاطمئنان إلى أنّ أولئك القادة والولاة، لا يخرجون عن الخطة التي رسمها لهم الخليفة، وليحول الخلفاء - جهد الإمكان - دون خروج

---

(١) أنظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٦-١٠٧)، وفي أخبار مجموعة (٢٢): «ولما بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى، شقّ ذلك عليه، فولّى إفريقيّة عبيد الله بن يزيد. . . . وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز، بأن يتشدّد في ذلك، وأن يقفلهما إليه ومَن شاركهما في قتله من وجوه النّاس. . . .».

(٢) قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٨٠).

الولاة والقادة عليهم، عند سنوح الفرصة المناسبة لهم.

من تلك الأساليب الخاصة التي يسيطر بها الخلفاء على ولاتهم وقادتهم، وبخاصة في الأصقاع النائية عن عاصمة الخلافة، هي إرسال من يعتمدون عليهم من الرجال، لينقلوا إليهم بدقة وسرعة وأمانة، كل مايرونه ضرورياً، لجعل الخلفاء مطمئنين من سير الأمور، في مختلف البلاد والأمصار، كما يريدون.

وكان مُغيث الرومي أحد من كان يعتمد عليه الوليد بن عبدالملك، لأن عبدالملك بن مروان كان قد أدّبه مع ولده الوليد، وقد نشأ بدمشق، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها. وقد وقع بينه وبين طارق، ثم وقع بينه وبين موسى، فرحل معهما إلى دمشق، ثم عاد ظافراً عليهما إلى الأندلس. وكان مغيث مشهوراً بحسن الرأي والكّيْد[1]. وكان يطمع بولاية الأندلس، فلما عزم سليمان على تولية طارق بن زياد الأندلس استشار مغيثاً، فعرفه عن عزمه، وقد بالغ في إيذاء موسى عند سليمان[2].

ويُروى لمغيث شعر خاطب به موسى وطارقاً، منه قوله:

أعَنْتُكُمُ ولكن ما وفيتُم ... فسوف أعيث في غربٍ وشرق

وعارض يوماً في محفل من الناس موسى بن نصير، فقال له موسى: «كُفَّ لسانك»، فقال مغيث: «لساني كالمِفْصَل[3]، ما أكفه إلاّ حيثُ يقتل»[4].

والظاهر أن مغيثاً لم يدّخر وسعاً في تشويه سمعة موسى عند الوليد، وعند سليمان من بعده، طموحاً في تولي الأندلس من بعد موسى، ولكن كان مغيث صادقاً في اتهامه، إذ حقّق سليمان جميع ما رُمي به موسى عنده، فأغرمه غرماً

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٣).

(٢) نفح الطيب (٣/ ١٣).

(٣) المفصل: بكسر الميم، اللّسان، ويروى بفتح الميم والصاد: المَفْصَل، أنظر لسان العرب (٤/ ٣٨).

(٤) نفح الطيب (٤/ ١٣).

عظيماً[1]، ومن هذا يتضح أن مغيثاً رمى موسى بعدم الأمانة في التصرّف بالغنائم.

فهل كان اتهام موسى بنزاهته حقاً؟ الواقع أن مغيثاً ليس وحده اتهم موسى بالغلول أو بعدم تطبيق تعاليم الإسلام في الغنائم نصّاً وروحاً، فقد ذكروا أن سليمان بينما كان يقلّب هدايا موسى التي جاء بها من الأندلس وإفريقية إلى دمشق، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له: عيسى بن عبدالله الطويل من أهل المدينة المنورة، وكان على الغنائم، فقال: «يا أمير المؤمنين! إن الله أغناك بالحلال عن الحرام، وإني صاحب هذه المقاسم، وإن موسى لم يخرج خُمساً من جميع ما أتاك»، فغضب سليمان، وقام عن سريره، فدخل منزله، ثم خرج فقال للناس: «نعم، قد أغناني الله بالحلال عن الحرام»، وأمر بإدخال ذلك بيت المال[2].

ولكن ذلك لا يكفي لإثبات التهمة الموجّهة إلى نزاهة موسى، وهو الذي عُرف بالتديّن، وكان ورعاً تقياً لله[3]. ولو ثبت عليه لما توسّط له عمر بن عبدالعزيز عند سليمان، فعفا عن موسى[4]، وعمر بن عبدالعزيز معروف بالتزامه بتعاليم الشرع الحنيف.

ولا شك في نزاهة موسى، فقد أغناه الله هو الآخر بالحلال عن الحرام، فلماذا يتردى إلى مهاوي الخيانة في في أمانته، وقد فتحت عليه أبواب الخير؟ لقد كان كريماً سخيّاً، فأعطى من الغنائم مَن أعطى، ولم يستأثر بما أخذ من الغنائم لنفسه ولمصلحته الشخصية حسب.

فما هي أسباب استدعاء موسى من الأندلس إلى دمشق وعزله؟.

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٨٥).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤).

(٣) وفيات الأعيان (٤/ ٤٠٢) ونفح الطيب (١/ ٢٢٤)، وانظر رياض النفوس (١/ ٧٨) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٠٣).

(٤) الإمامة والسياسة (٢/ ٢/ ٩٢ـ٩٣).

يبدو أن الوليد، ومن بعده سليمان، اعتقدا أن موسى غرّر بالمسلمين، وأنه عرّضهم للمهالك، بتغلغله عميقاً في الأندلس، كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس، فيقود المسلمين إلى روميّة[1]، وأن موسى: «أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القُسطنطينيّة، ويتجاوز إلى الشّام دروبه ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة»، فنُمِي هذا الخبر إلى الوليد، فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما همّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع، وكتب له بذلك عهده، ففتّ ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها، وأنزل ابنه عبدالعزيز لسدِّها وجهاد عدوِّها[2]. والظاهر أن الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان، فقد فكّر عمر بن عبدالعزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها، إذ خشي تغلب العدو عليهم[3]، فإذا كان هذا ما يعتقده عمر بن عبدالعزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين الهجرية[4]، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية[5]، والفتح كان في أوّله، والأندلس جد بعيد عن دار الخلافة؟.

وإذا كان عمر بن عبدالعزيز، قد خشي على المسلمين في الأندلس، بعد استقرار الفتح فيها، فكيف لا يخشى الوليد ومن بعده سليمان، على المسلمين في الأندلس، من طموح موسى في التغلغل بهم بعيداً بعيداً إلى

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/ ٨١).
(٢) نفح الطيب (١/ ٢١٨).
(٣) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٩) وأخبار مجموعة (٢٣).
(٤) الطبري (٥/ ٣٠٤).
(٥) نفح الطيب (١/ ٣١٨) وفتح مصر والمغرب (٢٨٤).

روميّة وإلى القسطنطينية؟.

لقد كان طموح موسى في التوسع بالفتح، سبباً واضحاً لاستدعائه إلى دمشق، وهذا السبب - فيما أرى - من الأسباب الجوهرية لاستدعائه.

وهناك سبب آخر، لا يقل خطورة عن السبب السابق، هو اتهام موسى بالخلع، فقد ذكروا أن الوليد بن عبدالملك لما بلغه سير موسى إلى الأندلس، ووُصفت له، ظنّ أنه يريد أن يخلع، ويقيم فيها، ويمتنع بها، وقيل له ذلك. وأبطأت كتب موسى عليه، لاشتغاله بما هناك من العدو، وتوطئته للفتح[١]، مما زاد في شكوك الوليد بنيات موسى بمحاولته الاستقلال أو التحرر من سلطان الخلافة. ولعل الذين أدخلوا هذه الشكوك في روع الوليد، لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده ومواليه على إفريقية والأندلس، مما ضاعف تلك الشكوك، وجعلها بعيدة عن الحدس، قريبة من التصديق.

ولعل اتِّهام موسى بالخلع، هو الذي يفسر لنا، لماذا لم تختلف نظرة سليمان عن سلفه الوليد إلى موسى مع ما بين الخلف والسلف من تناقض كثير ـ كما هو معروف ـ ذلك لأن أصحاب السلطان، إذا اختلفوا في كل شيء، فإنهم يتفقون على شيء واحد، هو عدم التغاضي عن كل مَن يريد التحرّر من ربقتهم والاستقلال عنهم، سواء كان إتهامه حقاً بذلك أم كان باطلاً. كما أنهم كانوا ولا يزالون يدخلون في حسابهم أسوأ الاحتمالات، لمقاومة الذين يخروجون عليهم أو الذين يتهمونهم بالخروج عليهم زوراً وبهتاناً، ويكفي أن يأخذوا المتّهم أخذاً في حالات الظن وفي حالات اليقين.

سأل سليمان مغيثاً عن طارق بن زياد، وقد أراد أن يوليه الأندلس خلفاً لموسى، فقال: «كيف أمر طارق بالأندلس؟» فقال مغيث: «لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها، لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا»، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان، وبدا له في ولايته[٢]، وهذا يدل بوضوح، على

(١) الإمامة والسياسة (١/ ٧٥).
(٢) نفح الطيب (٤/ ١٢).

السياسة التي كان يتبعها سليمان في توليه الولاة، إذ يستبعد عن الولاية كل مَن يخشى خطره من بعيد أو قريب.

وكان يزيد بن المُهَلّب بن أبي صُفْرَة، من أقرب المقربين إلى سليمان بن عبدالملك، وكان لموسى يد على المهلب بن أبي صفرة[1]، وقد سأل يزيد يوماً موسى: «أريد أن أسألك، فاصْغ إليّ»، فقال موسى: «سل عمّا بدا لك»، فقال: «لم أزل أسمع عنك، أنّك من أعقل الناس، وأعرفهم بمكايد الحروب، ومُداراة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يدي هذا الرجل (يعني: سليمان بن عبدالملك) بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزَخَّار[2]، وتيقنت بُعدَ المرام واستصعابه واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها، واستكملت رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرِّك، وحصل في يدك من الذّخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد مَن لا يرحمك. ثم إنك علمت أن سليمان وليّ عهد، وأنه المُوالي بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لا محالة[3]، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التّهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك «يعني سليمان وطارقاً»، وما رضا هذا الرجل إلاّ بعيد، ولكن لا آلو جهداً[4]»، فقال موسى: «يا ابن الكرام! ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت: إذا جاء الحَيْنُ[5]، غطّى على العين؟!»، فقال يزيد: «ما قصدتُ بما قلت لك تعديداً وتبكيتاً، وإنّما قصدت تلقيح العقل، وتنبيه الرأي، وأن أرى ما عندك!»، فقال موسى: «أما رأيت الهُدْهُد يرى الماء تحت الأرض عن بُعدٍ، ويقع في

---

(١) أنظر: الإمامة والسياسة (٢/ ٩٤-٩٥)، وانظر سيرة المهلّب في كتابنا: قادة فتح السند والأفغان.

(٢) البحر الزخار: الطّامي الممتلىء الجيّاش بالأمواج.

(٣) أشرف على الهلاك: أراد أنّه قارب الموت لسوء حاله.

(٤) لا آلو جهداً: لا أقصّر فيما لدي من الجهد والوسع أن أبذله في إرضائه عنك.

(٥) الحَيْن: الهلاك.

الفخّ وهو بمرأى عينه؟!»[1].

وسهر يزيد بن المهلب عند موسى ليلة، فقال له: «يا أبا عبدالرحمن! في كم تعد مواليك وأهل بيتك؟»، فقال موسى: «في كثير»، فقال يزيد: «يكونون ألفاً؟» فقال موسى: «وألفاً وألفاً إلى منقطع النفس!»، فقال يزيد: «وأنت على ما وصفتَ، وألقيت بيدك إلى التهلكة؟! أفلا أقمت في قرار عزَّك وموضع سلطان، وامتنعت بما قدمت به؟ فإن أُعطيت الرضى، وإلاّ كنت على عزِّك وسلطانك»، فقال له: «والله لو أردتُ ذلك، لما نالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نَرَ الخروج من الطاعة والجماعة»[2].

تلك هي أسباب استدعاء موسى وطارق من الأندلس إلى دمشق وعزلهما، وهذا لا يمنع من وجود أسباب تافهة أخرى، أخذها على موسى وطارق كل من الوليد بن عبدالملك وسليمان بن عبدالملك. فما علاقة طارق بمجمل تلك الأسباب؟.

لقد اتهم موسى بنزاهته، فقيل: إنه لم يخرج خمساً من جميع مغانمه، ولم يُتّهم طارق بمثل هذه التهمة من أحد، وليس هناك أي نص في المصادر يتهمه بنزاهته. وقد كان موسى مسئوله المباشر، وكان مولى موسى، وكان في جيش طارق قبل عبور موسى إلى الأندلس، مَن يرفع عنه أمره إلى موسى، فلا يخفى من أمر طارق على موسى شيء، ولا نعلم أن موسى حاسب طارقاً على نزاهته أو شكّ في نزاهته.

وحين قدم طارق إلى دمشق مع موسى، لم يُحاسب من الخليفة ولا من غير الخليفة على نزاهته، ولم يتطرّق الشك حوله من ناحية نزاهته إلى أحد من المسئولين أو إلى أحدٍ من غير المسئولين.

أما السبب الثاني، وهو اتهام موسى بالتغرير بالمسلمين، من وجهة نظر الوليد بن عبدالملك وأخيه سليمان بن عبدالملك، فإن طارقاً يُشارك في هذه

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢١٥).

(٢) البيان المغرب (٢/ ٢٥-٢٦)، وانظر أيضاً البيان المغرب (١/ ٤٢).

التهمة أيضاً، إن لم تكن تهمته في التغرير أجسم من تهمة موسى بها وأضخم، فقد تغلغل في الأندلس بالعمق، وعرّض جناحيه: الأيمن والأيسر لخطر التعرّض القوطي عليهما، كما عرّض خطوط مواصلاته للخطر أيضاً، مما حدا بموسى إلى العبور للأندلس، لمعالجة الموقف الخطير الذي أصبحت قوات المسلمين تتعرض له في حينه، فعالج موسى الموقف، ورصّن وضع قوات المسلمين، وأبعد عنها الخطر الوشيك الداهم.

ولا يمكن تبرئة طارق من تهمة التغرير بالمسلمين، وسترد مناقشة ذلك في الحديث عن سماته القيادية.

أما اتهام موسى بالخلاعة، وهو السبب الثالث، فاتهام باطل من أساسه، وقد احترق به طارق كما احترق به موسى، باعتباره أحد موالي موسى، ولم تكن تلك التهمة في الواقع إلاّ في خَلَد الخليفة ومَن يشايعه في ظنونه وأوهامه.

والحق، أن موسى أصبحت له شعبية طاغية في إفريقية والمغرب والأندلس بخاصة، وفي سائر بلاد المسلمين بعامة، لفتوحاته العظيمة، وانتصاراته الباهرة، ولفضله وإحسانه على الناس مادياً ومعنوياً.

كما أصبحت لطارق شعبية طاغية في الأندلس وبين البربر بخاصة، وفي إفريقية وسائر بلاد المسلمين بعامة، لفتوحاته العظيمة، وانتصاراته الباهرة، ولشجاعته الفذّة، وإقدامه النادر.

والشعبية الطاغية، إذا تحلّى بها قائد من القادة، فإن ذلك لا يُريح المسئول الأعلى، ويجعله يخشى ذلك القائد، ويظن به الظنون، ومن تلك الظنون اتهامه بالخلع، حتى ولو كان بعيداً عن التفكير بذلك، كما كان الحال بالنسبة لموسى وطارق.

وشعبية موسى الطاغية، وشعبية طارق الطاغية، هي التي أدّت إلى سحبهما من الأندلس إلى دمشق، وحرمانهما من قيادتهما المنتصرة الموفقة، وحرمان الفتح من جهودهما المثمرة، حيث خافت الخلافة منهما على

الخلافة، وخشيت الخلافة من إقدامهما على الخلع، وهما في بلاد قصيّة عن عاصمة الخلافة، بعيدة عن مراكز قوتها، بين رجالهما الذين يدينون لهما وحدهما الولاء، لأنهم لا يعرفون غيرهما، وهم يعيشون برخاء ونعمة بفضلهما.

ولكن الخلع لم يخطر على بال موسى، كما لم يخطر على بال طارق، فاحترق موسى بنيران تهمة هو بريء منها، واحترق طارق بنيران موسى بدون ذنب يستحق عليه العقاب.

وأياً كانت أسباب حنق الوليد وسليمان على موسى ومولاه طارق، فإن فاتحي الأندلس لم يلقيا الجزاء الحق، بل غمط حقهما وفضلهما، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران، أنها لم تقدِّر البطولة في هذا الموطن قدرها[1]. ولعلّ عذر الوليد ومن بعده سليمان، أن موسى كان يمثل خطراً شديداً على الخلافة بعد امتداد سلطانه إلى أعماق إفريقية والمغرب، وأوروبا، وسيطرته على تلك الأصقاع النائية سيطرة شخصية وبأولاده ومواليه وأتباعه، وسيطرته في الأندلس كانت بطارق، مما فسح المجال لتقولات خصوم موسى وحاسديه عليه وعلى أعوانه البارزين وعلى-رأسهم طارق-

ومن الواضح، أن موسى - في حقيقة أمره - كان بعيداً كل البعد عن الاختلاس، ولكنه كان كريماً جداً، ولم يكن تغلغله في تلك الأصقاع النائية التي جعل الخلفاء يظنون أنه غرّر بالمسلمين وعرّضهم للأخطار، إلاّ عن رغبته الأكيدة في الفتح ونشر رايات الإسلام، مع تمكّنه وثقته الكاملة بقابليته وقابليّة رجاله على تحمل أعباء هذا الفتح العظيم وتبعاته، فكان المسلمون في أمنٍ ودعة لا في خطر وشِدّة - كما حسب الخلفاء وتصوّروا-. كما أن موسى لم يفكر أبداً بالخلع والاستقلال عن الخلافة، فقد كان إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها، وشدّة ضبطه وابتعاده عن شقّ عصا الطّاعة،

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس (٥٨) وانظر فجر الأندلس (١٠٩).

والانزلاق في مهاوي الفتن والفرقة، كل ذلك يجعله بعيداً غاية البعد عن اتهام خصومه وحاسديه له بالخلع أو الاستقلال الذاتي، خاصة وأنه كان في ذلك الوقت كان قد بلغ الثمانين من عمره، وهي سن لا تشجع مَن بلغها على المغامرة، وتجعل من صاحبها إنساناً ذا تجربة وخبرة، بعيد النظر، مقدِّراً لعواقب الأمور.

لقد ذهب موسى ومعه طارق، ضحية الدسّ والحسد، فخسر العرب المسلمون بتنحيتهما بطلين من ألمع أبطالهم، وفاتحَيْن من أعظم فاتحيهم، ورجلَيْن من أنبغ رجالاتهم، وقائدَيْن من أبرز قادتهم، وكانت تنحيتهما نكسة قاصمة للفتح الإسلامي في الأندلس وأوروبا[١].

وقد بقي في الأندلس، جيوب من القوط، لم يتم القضاء عليها نهائيا، ولو بقي موسى وطارق لقضيا عليها قضاءً مبرما. وهذه الجيوب من بقايا القوط، هي التي نمت وانتعشت واستردت الأندلس من المسلمين بعد حين، كما هو معروف.

ولو بقي موسى وطارق في الأندلس، لأصبح فتح الأندلس فتحاً مستداما، كفتوح البلاد والأمصار الأخرى.

ولكن هل خسر العرب والمسلمون موسى وطارقاً وحدهما نتيجة للدس والحسد؟؟!!

---

(١) قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٨٦).

٢ - الرّجل

كان طارق مع موسى بن نصير في رحلته الطويلة من الأندلس إلى دمشق، وقد احترق طارق بنار موسى كما ذكرنا، فسحب من قيادته في الأندلس، وأصبح مع موسى رجلاً بلا غد، له رصيد في الفتح وتاريخ، ولكن السّلطة تخلّت عنه إلى الأبد.

وقد توفي موسى سنة سبع وتسعين الهجرية[١] (٧١٨م) وهو في الحج برفقة الخليفة سليمان بن عبدالملك[٢]، وكانت وفاة موسى بوادي القُرى[٣]، ولم يعد من حجه إلى دمشق.

ولا ندري هل كان طارق مع موسى في رحلة حجه، أم بقي في دمشق؟ كما لا ندري أبقي في دمشق بعد رحيل موسى عن هذه الدنيا، أم رحل طارق إلى إفريقية أو الأندلس؟.

وعلى كل، فكان لطارق عَقِب لهم ذكر في الأندلس، وكانوا ينكرون ولاء طارق لموسى إنكاراً شديداً[٤]، ويذكر قسم منهم أنه من قبيلة صَدِف العربية من حضرموت، ويذكر قسم آخر، أنه من موالي قبيلة صَدِف وليس بمولى موسى بن نصير. كما يذكر قسم منهم، أن طارقاً من بني ليث من قُضَاعة[٥]،

---

(١) تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس (٢/ ١٤٤) وجذوة المقتبس (٣١٧) وبغية الملتمس (٤٤٢) والحلة السيراء (٢/ ٣٣٤) والعبر (١/ ١١٥-١١٦) وشذرات الذهب (١/ ١١٣) ونفح الطيب (١/ ٢٥٤).

(٢) الإمامة والسياسة (٢/ ١٠١).

(٣) وادي القرى: وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، كثير القرى، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٧٥).

(٤) نفح الطيب (١/ ٢٥٤) برواية الرازي.

(٥) أنظر: نفح الطيب (١/ ٢٥٤) برواية الرازي و(١/ ٢٣٩) وأخبار مجموعة (٦).

كما ذكرنا ذلك في الحديث على: نسبه وأيامه الأولى، فلا ندري هل عاد طارق إلى الأندلس بعد موت موسى، أم رحل إليها عقبه، أو رحل إليها قسم منهم، ومتى؟

ومن المرجح أن عقبه هم الذين رحلوا إلى الأندلس، لأن طارقاً لو رحل إليها، لذكر رحيله المؤرخون، ولما سكتوا عنه.

ومن الواضح، أن طارقاً نَفْزاوِيّ من البربر ومن إفريقية، كما ذكرنا ذلك من قبل، ولم يدّعي أنه عربي، ولكن من جاء بعده من ولده ادّعى ذلك.

وقد ولد مسلماً، إذ كان أبواه وجده مسلمين، فهو من أسرة اشتهرت بسبقها إلى اعتناق الإسلام، إذ أسلم والد طارق أيام عُقبة بن نافع، والتحق طارق بعد وفاة والده بخدمة المسلمين، وكان إذ ذاك صغير السن، ولكنه كان يتمتع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الإسلامي، جعله من أشد المقربين إلى موسى بن نصير[1]. ولا نعلم بالضبط متى تم اتصال طارق بموسى ولا بمكانه، ولكننا نعلم أنه ولاّه مقدمته في فتح مدينة طنجة، فلما فتحت هذه المدينة ولاّه موسى على إدارة وقيادة هذه المدينة، وكان ذلك في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) وأبقى معه عدداً قليلاً من العرب لنشر الإسلام بين البربر[2].

وقد ظهر اسم طارق لأول مرة، بعد خروج موسى من القيروان لفتح مدينة طنجة، فولاّه موسى مقدمته، مما يدل على تبادل الثقة بين موسى وطارق، ولا تكون هذه الثقة إلاّ نتيجة لتجربة عملية طويلة، نجح فيها طارق بالنسبة لموسى، فحصل على ثقة موسى الكاملة به، فولاّه قيادة مقدّمته، فهل كانت

---

(١) الشيخ محمد أبو زيد طنطاوي ـ فتح العرب للأندلس ـ مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (٤٣ـ٤٤) العدد الثاني ـ السنة العاشرة ـ رمضان ١٣٩٧هـ ـ مؤسسة مكة للطباعة والإعلام.

(٢) ابن حبيب (٢٢٢) وفتح مصر والمغرب (٢٠٤ـ٢٠٥) وابن الأثير (٤/ ٥٤٠) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠).

هذه التجربة التي نجح فيها طارق في إفريقية والمغرب حسب، وقد مكث موسى فيها سنوات قليلة، أم أن هذه التجربة سبقت قدوم موسى إفريقية والمغرب، واستمرت بعد ذلك في إفريقية والمغرب؟؟

والجواب على ذلك صعب، لأن المصادر المعتمدة لا تيسر الجواب الواضح، إذ لا نصوص تدلّ عليه أو تشير إليه، فمثل هذه الثقة لا تتكوّن بسهولة وسرعة، فمن المحتمل أنّ طارقاً اتصل بموسى في مصر قبل توليه، إفريقية والمغرب، وليس ذلك ببعيد الاحتمال، ولكن لا دليل عليه من النصوص المتيسرة في المصادر المعتمدة.

على كل حال، نجح طارق إدارياً في ولايته على طنجة، فقد أصبح موثوقاً به من البربر بخاصة، ومن أهل المدينة بعامة، وأصبح موضع حبّهم وولائهم. وقد تخطت شعبية طارق حدود ولايته إلى ما جاورها من الولايات، فكان سبباً من أسباب استمالة يُليان إلى المسلمين، مهما تكن الأسباب الأخرى، فاتصل يُليان بطارق، وكان طارق صلة ارتباط يُليان بموسى بن نصير، وسبباً من أسباب تسليم سَبْتَة للمسلمين سلماً بدون قتال، ومعاونة يُليان وتعاونه مع المسلمين في فتح الأندلس، كما ذكرنا ذلك.

ولا مجال للشك، في أن اتصال يُليان بطارق وموسى، وتسليم سبته للمسلمين سلماً، بعد أن استعصى عليهم فتحها بالقتال، وتعاون يُليان مع المسلمين ومعاونته لهم في فتح الأندلس، كان حسنة من حسنات طارق، تُعرف له وتُذكر بالشكر والعرفان.

كما كان التفاف البربر حول قيادته في طنجة أولاً، وفي الأندلس ثانياً، دليلاً على تمتعه بالخلق الكريم.

ولا أحد يدري أين ولد طارق؟ ولا أيامه الأولى قبل اتصاله بموسى بن نصير؟ ولا أيامه بعد رحيل موسى عن هذه الدنيا إلى جوار الله؟ كما لا يعرف أحد عن عدد أولاده ولا أسمائهم، ومتى جرى رحيل بعضهم أو رحيلهم إلى الأندلس، ولا يدري أحد هل رحل أولاد طارق إلى الأندلس، أم رحل

أعقابهم، كل ذلك غيرمعروف! كما لا يدري أحد متى مات وأين مات، وكم كان عمره يوم توفي؟.

وقد ذكرنا نص خطبة طارق في رجاله، قبل أن يخوضوا المعركة الحاسمة، معركة وادي لَكُّهْ، وتروى لطارق كذلك أبيات من الشعر، لا بأس من ذكرها هنا، وهي:

ركبنا سَفِيناً بالمجاز مُقَيَّراً   عسى أن يكون الله مِنّا قد اشترى
نُفُوساً وأموالاً وأهلاً بِجَنَّةٍ   إذا ما اشْتَهَيْنَا الشَّيء منها تَيَسَّرا
ولسنا نُبَالي كيف سَالت نُفُوسُنا   إذا نحن أدركنا الذي كان أَجْدَرا

وهذه الأبيات مما يُكتب لمراعاة قائلها ومكانته، لا لعلوّ طبقتها[١]. وهي ليست من الشعر البليغ، ولكنّها من النظم الموزون المقفّى، وهي إن دلّت على شيء، فإنما تدل على إيمان طارق العميق بالإسلام، ومبلغ حبّه للجهاد في سبيل الله واستعداده للتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله بالمال والنفس والأهل. ومن الواضح أن هذه الحماسة الدينية لطارق، كانت وراء اندفاعه الشديد في طريق الفتح.

وهذه الأبيات، في معانيها مقتبسة من قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٢].

«وكان طارق حسن الكلام، ينظم ما يجوز كتبه»[٣]، إنه كان بليغ العبارة في نثره، قوي الأسلوب، متين التراكيب، كما يشهد على ذلك خطابه التاريخي، وإنه كان ينظم الشعر، ومهما قيل في ضعف شعره وقلّته، فإن نثره

---

(١) أنشد في المُسْهَب وابن اليَسَع في المُغْرِب لطارق من قصيدة قالها في الفتح، أنظر نفح الطيب (١/ ٢١٥).
(٢) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩/ ١١١).
(٣) نفح الطيب (١/ ٢٣١) برواية بشكوال.

وشعره يدلاّن على معايشة العرب معايشة طويلة، فلا يُستبعد أن يكون قد رحل إلى مصر أو بلاد الشام أو كان مع موسى في البصرة يوم كان هناك، ولكن لا دليل يثبت تلك المعايشة إلاّ نثره ونظمه، وقد تكون تلك المعايشة تمت في إفريقية مثلاً (تونس) في أحد حواضرها كالقيروان، التي كانت يومذاك تعج بالعرب الفاتحين وأبنائهم وذويهم ومواليهم.

ومن ثقة موسى به قائداً وإنساناً، وثقة البربر به ومحبتهم له واعتمادهم عليه: «لو أمر أهلها بالصلاة إلى أيّ قبلة شاءها لتبعوه، ولم يروا أنهم كفروا»[1]، وعدم اتهامه بنزاهته، يمكن أن نستنتج، أنه كان مسلماً حقاً، قوي الإيمان، راسخ العقيدة، مجاهداً صادقاً، قوياً أميناً، نزيهاً لم يتلوث بمال حرام، ولم يخلِّف درهماً ولا ديناراً ولا عقارا، دمث الأخلاق، حليماً كريماً سخياً، محباً للناس محبوباً منهم، شهماً غيوراً.

ولا أعرف قائداً فاتحاً، له في تاريخ الفتوح ما لطارق في تاريخ الفتوح، بخل عليه التاريخ إنساناً كما بخل على طارق الإنسان، فاقتصر تاريخه على مجده في الفتح، وهو مجد عظيم، دون أن يشمل تاريخه إنساناً، وقد عوّض عليه مجده في الفتح ما فاته إنساناً، وحسبه ما فتح عوضاً مجزيا.

---

(١) نفح الطيب (٤/ ١٢).

القـائــد

١ - سماته القيادية عامة:

يتميز طارق على مَن سبقه من قادة الفتح الإسلامي، وعلى مَن عاصره منهم، بأنه أول قائد غير عربي تولّى منصب القيادة، في دولة تختار قادتها من العرب المسلمين، ولا تُولى القيادة مسلماً غير عربي، بل ينبغي أن يكون القائد عربياً مسلماً.

كما تولى طارق القيادة، وهو غير عربي، على قادة من العرب، وعملوا بإمرته وتحت لوائه دون تردد ولا تذمّر.

لقد كان طارق من البربر، تولى قيادة جيش المسلمين لفتح الأندلس، على عهد الوليد بن عبدالملك، أحد خلفاء بني أمية وأكثرهم فتحاً، وكانت الدولة الأموية تلتزم العرب وتتعصب لهم، فلا تُولي القيادة إلاّ من عربياً أصيلاً. ولم يسبق أن تولّى منصب القيادة منذ جاء الإسلام وبدأ الفتح الإسلامي، إلى أيام طارق، إلاّ عربي مسلم أصيل.

بل لم يتسنّم طارق هذا المنصب الرفيع في القيادة حسب، بالرغم من نسبه إلى غير العرب، فقد أصبح أيضاً قائداً على عدد من القادة العرب المسلمين في الأندلس، كانوا مع المدد البالغ تعداده خمسة آلاف مجاهد، الذين أمدّ بهم موسى بن نصير طارقاً[١] فعمل هؤلاء القادة العرب بقيادة طارق، وساروا بإمرته، وخضعوا لسلطته، ونفّذوا أوامره ووصاياه دون تردد.

بل لم يكن العربي المسلم، ليتولى منصب القيادة، في عهد الدولة الأموية، إلاّ إذا كان عربياً أصيلاً لا من قوارير، ذا حَسَب ونسب، رئيساً على قبيلته، أو من بين أفراد عائلة ذلك الرئيس. ولكن ليس كل رئيس قبيلة يتولى منصب قيادتها وقيادة غيرها من القبائل والشعوب الإسلامية الأخرى، ولا كل

---

(١) أخبار مجموعة (٧).

فرد من أفراد عائلة رئيس القبيلة يتولى منصب القيادة، فهذا المنصب يتولّاه رئيس القبيلة أو أحد أفراد عائلته، إذا اتّسم بسمات قيادية معينة تؤهله للقيادة، أما الذي لا يتّسم بتلك السمات، فلا يتولى القيادة، ويتولاها من يتسم بها من أفراد عائلة رئيس القبيلة، لأن القائد الذي لا كفاية له، يقود رجاله إلى الموت والهزيمة، ولا يقودهم إلى السلامة والنّصر، ولا أحد يُولّي مَن لا كفاية له، و لا أحد يتولى القيادة بلا كفاية، وبخاصة في أيام الحرب وفي ميادين القتال.

لقد كانت القيادة، في تلك الأيام، يتولاها: العربي المسلم أولاً، والعربي الأصيل ذو الحسب والنسب ثانياً، وذو الكفاية العالية في القيادة ثالثاً وأخيراً.

كان خالد بن الوليد - مثلاً - من بني مخزوم، وهم بطن من عشرة أبطن من قريش، انتهى إليها الشّرف قبل الإسلام[1]، فكان في بني مخزوم القُبَّة وأعِنَّة الخيل، أما القُبَّة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فهي قيادة الفرسان في الحروب[2]، وكان أبوه الوليد ذا مكانة مرموقة بين سادات قريش، فهو عدلها يكسو الكعبة عاماً، وتكسوها قريش بأجمعها عاماً آخر[3]، لشرفه ورجاحه عقله واتزانه، لذلك تيسرت تلك الشروط لخالد في أنه عربي أصيل ذو كفاية قيادية عالية، فتولى القيادة، لأنه تميز على آل بيته وأهله بالكفاية القيادية العالية، فتولاها دونهم، ولم يتسنّمها غيره من إخوته وذوي قرباه.

وما يُقال عن خالد، يقال عن غيره من القادة، فكلهم من العرب المسلمين، ذوي الحسب والنسب والكفاية القيادية المتميزة؛ حتى جاء طارق، فكان قائداً من غير العرب، فما الذي حمله إلى القيادة حَمْلا ولم يكن

---

(١) هم: بنو هاشم، وبنو نوفل، وبنو أميّة، وبنو عبد الدار، وبنو تَيمْ، وبنو أسـد، وبنو مخزوم، وبنو عَدِيّ، وبنو جُمَح، وبنو سَهْم، أنظر سيرة ابن هشام (١/١٤٣ـ١٤٤).

(٢) أسد الغابة (٢/٩٣) والاستيعاب (٢/٢٧).

(٣) أنساب الأشراف (١/ ٦٠) والسيرة الحلبية (١/٣٤٧).

عربياً أصيلا؟ ما الذي جعل القيادة تسعى إليه، وهو من البربر؟

لا بد وأن تكون لديه مزايا قيادية فذّة، مهّدت له الطريق لتولي القيادة، وتغلبت على العقبات التي كانت تحول بينه وبين أمثاله من غير العرب، لتولي القيادة في تلك الأيام من عهد بني أمية في التاريخ الإسلامي العريق.

فما هي مجمل تلك المزايا؟

لم يأخذ موسى حشوداً من العرب المسلمين معه إلى إفريقية والمغرب، فقد سار من مصر مصحوباً ببعض المتطوّعين من رجال القبائل العربية هناك(١)، واعتمد في فتوحه على العرب والبربر الموجودين في إفريقية والمغرب، ولم يكن تعداد العرب المسلمين بالنسبة إلى تعداد البربر المسلمين الذين يتزايدون يوماً بعد يوم شيئاً مذكوراً، فكان العرب المسلون أقلية، والبربر المسلمون أكثرية، ولا مجال لموسى إلاّ في التعاون مع البربر المسلمين، فاستعان بهم فتمكن من توسيع نطاق فتوحاته، لتشمل من القيروان إلى المحيط الأطلسي(٢).

وبعد أن أخضع موسى القبائل البربرية في إفريقية، قرر أن يبذل جهوداً فعالة لافتتاح المغرب، فأرسل ثلاث حملات: قاد الأولى بنفسه(٣)، وقاد الحملتين الثانية والثالثة قائدان مرءوسان من قادته(٤)، فنجح موسى في محاولاته الثلاث نجاحاً باهراً، أرضى بها كلاً من عبدالعزيز بن مروان والي مصر ومسئوله المباشر، والخليفة في دمشق، اللذين أبديا إعجابهما بحملاته الناجحة وكثرة ما حمله إليهما من غنائم(٥).

---

(١) أخبار مجموعة (٣ـ٤) ونفح الطيب (١/ ٢٣٠و٢٥٠).

(٢) Cf. p.Guichard, Al J Andalus. P. 284

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (١١٧ـ١١٨) والبيان المغرب (١/ ٤١).

(٤) البيان المغرب (١/ ٤١ـ٤٢) وابن خلدون (٤/ ٤٠٢).

(٥) ابن حبيب (٢٢٤) وفتح مصر والمغرب (٢٠٣ـ٢٠٤) وفتح الأندلس (١٢) والرسالة =

وفي الحملة الناجحة التي قادها موسى، من هذه الحملات الثلاث، زحف موسى مصحوباً بطارق على مقدّمته إلى طنجة، ففتحها، ثم توغل جنوباً ففتح مناطق واسعة جداً، وكان توغله ناجحاً للغاية. وقد امتازت تلك الحملات التي قام بها موسى وقائداه، بضراوة شديدة، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، إلاّ ويُقرّ الفاتحون زعماءهم في الرئاسة، مقابل مساهمة كل قبيلة بربرية بعدد كافٍ من المجاهدين والانضمام إلى جيش المسلمين، فاستطاع موسى أن يجند أعداداً هائلة من مختلف قبائل البربر، مثل: كُتَامَة، وهَوَّارة، وزَنَاتة، ومَصْمُودَة[1]، فوحد موسى هؤلاء المجاهدين الجُدد من البربر، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة بقيادة طارق الذي عينه حاكماً على هذه المدينة في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م)؛ ولم يُبْقِ مع طارق إلاّ القليل من العرب المسلمين، الذين كانت مهمتهم نشر تعاليم الإسلام بين البربر[2]، وغادر الجيش الإسلامي بقيادة موسى إلى القيروان، حيث استقر موسى ومّن معه هناك، وبقي طارق وجيشه البربري في طنجة قائداً ووالياً.

ومنذ ذلك الوقت، تمت سيطرة موسى بن نصير على الشمال الإفريقي، أي سيطرة الدولة الإسلامية، على تلك المناطق النائية، بعد سبعين سنة من الاقتتال بين الفاتحين المسلمين وبين البربر، هي المنطقة الكائنة بين بَرْقة[3] على الحدود الليبية المصرية والمحيط الأطلسي. وما كان موسى ليستطيع

= الشريفية (١٦٥) والنويري (٢٢/ ٢٢_٢٣).

(١) البيان المغرب (١/ ٤٣_٤٤) وعبيد الله بن صالح ـ تحقيق بروفنسال (٢٢٤).

(٢) ابن حبيب (٢٢٢) وفتح مصر والمغرب (٢٠٤_٢٠٥) وذكر بلاد الأندلس (رقم ٨٥ج) ص: ٨٣_٨٤ وابن الأثير (٤/ ٥٤٠) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠) والبيان المغرب (١/ ٤٢) والنويري (٢٢/ ٢٢) وابن خلدون (٤/ ٤٠٢) و (٦/ ٢٢٠ و٤٣٧) ونفح الطيب (١/ ٢٣٩) والسلاوي (١/ ٩٦).

(٣) برقة: اسم صقع كبير، يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها: إنطابلس، وتفسيره الخمس مدن، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/ ١٣٣) والمسالك والممالك (٣٢).

تحقيق هذه السيطرة الكاملة، لو لا تطبيق روح الإسلام في السير على سياسة التعاون والاندماج بين العرب المسلمين والبربر المسلمين، وكان بإمكان أسلاف موسى أن يحققوا النصر في تلك الأصقاع النائية بوقت أقصر لو اتبعوا منذ البداية سياسة أبي المهاجر[1] دِينَار الإيجابية في هذا المجال[2].

ومن الواضح، أن أول مزية من مزايا قيادة طارق، التي أهّلته لتولي منصبه القيادي، هي أنه بربري، فقد كان السواد الأعظم من جيشه والأغلبية المطلقة من البربر المسلمين، وكان العرب المسلمون في طنجة أقلية مطلقة أيضاً، يقتصر واجب رجالها على الدعوة إلى الله، فهم من الدعاة لا من القادة، فرأى موسى أن يولي طارقاً على قومه البربر المسلمين، فهو منهم وإليهم، يعرف آمالهم وآمالهم، ويستطيع التفاهم معهم وحل مشاكلهم ومعالجة معضلاتهم بسهولة ويسر، وهو أقدر على قيادتهم وإدارتهم من عربي مسلم غريب عنهم، كما أنه قادر على التأثير في نفوس البربر، لأنه ليس غريباً عنهم، ويتقبّلون التعامل معه أكثر مما يتقبلون التعامل مع قائد أو إداري غريب عليهم، يشعرون أنه سيِّدهم وهم تَبَع له وهو مفروض عليهم، بعكس شعورهم بالنسبة لقائد أو إداري من البربر، يشعرون أنهم أنداد له، وهو ليس مفروضاً عليهم، بل من أبنائهم.

ولكن مزيته البربرية وحدها لا تكفي لتولي القيادة، فيبدو أنه كان مؤمناً صادقاً، حَسُنَ إسلامُه، وأصبح ولاؤه للإسلام وتعاليمه، وبذلك رضي الدعاة العرب أن يعملوا معه وبإمرته وإدارته وتوجيهه، ولو لا ذلك لرفضه البربر المسلمون والدعاة العرب في مثل تلك الأيام في أيام الفتح والجهاد والدعوة إلى الله.

وقد ولاه موسى على مقدمته في حركته لفتح طنجة، وقد كان موسى من

---

(١) أبو المهاجر دينار: أنظر سيرته المفصّلة في كتابنا قادة فتح المغرب العربي (١/ ١٣٧ـ١٤٩).

(٢) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٤٣).

ألمع قادة الفتح الإسلامي، ولا يمكن أن يولي على مقدمته إلاّ مَن كانت له سمات قيادية متميزة، لأن المقدمة مسئولة عن أمن سائر الجيش، ومسئولة عن الحصول على المعلومات عن العدو والأرض، وهي التي تُيَسِّر تقدم الجيش إلى الأمام بسهولة وانطلاق، ومسئولة عن منع العدو من الحصول على المعلومات عن جيش المسلمين، لئلا يستفيد من تلك المعلومات في ضربه وعرقلة تقدمه في المكان والزمان الجازمين، وهي مسئولة عن تطهير الطريق ليتقدم الجيش بسرعة واندفاع، ولا يمكن أن ينهض بهذه المسئوليات إلا قائد متميز.

والذي يبدو، أن موسى، جرّب طارقاً، في مسيرته الطويلة الشاقة، من القيروان إلى المحيط الأطلسي، فأثبت طارق أنه جدير بالثقة، فولاّه موسى على مقدمته أولاً، فكانت أول الغيث، ثم انهمرت عليه المناصب بعد ذلك.

وقد كان موسى على صلة وثيقة بطارق، لأن طارقاً هو مولى موسى، ومن مواليه المقربين، ولكن موسى لم يُقدِم على تولية طارق القيادة، لأن طارقاً مولاه، فليس هناك مَن يولي القيادة في أيام الحرب مّن لا يستحقها، حتى ولو كان ابنه أو شقيقه، ولا يُولي في مثل تلك الظروف غير ذوي الكفاية القيادية العالية من القادرين على تحمل أعباء القتال وقيادة الرجال، لأن مَن يُولِّي منصباً قيادياً في أيام الحرب لمن لا تتوفر فيه الكفاية والمزايا القيادية المطلوبة، تكون العاقبة الوخيمة هزائم واندحاراً وخسائر فادحة عليه، وعلى جيشه وعلى القائد الذي تولى القيادة اعتباطاً وعلى الأمة والبلاد، ولا يمكن أن يقع في مثل هذا الخطأ الشنيع قائد متميز مثل موسى ولا أي قائد آخر.

إن مفتاح مزايا قيادة طارق، هو أنه كان المثال الشخصي لرجاله في الشجاعة والإقدام، فهو لا يكتفي بإصدار الأوامر لرجاله، بل هو أول من يبدأ بتنفيذها على نفسه، بشكل يكون فيه أسوة حسنة للذين يعملون معه، إن استطاعوا.

ولم يكن طارق من القادة الذين يقودون رجالهم من الخلف: يُصدر أوامره

إليهم، ويطالبهم بتنفيذها، ثم يقبع في الخلف آمناً مطمئناً بعيداً عن الخطر. إنه من القادة الذين يقودون رجالهم من الأمام: يصدر أوامره إلى رجاله، ويقول لهم اتبعوني، وافعلوا ما تروني أفعل، ثم يكون القدوة لرجاله في الشجاعة والإقدام، والتضحية والفداء.

كان يُتْعِب نفسه، أكثر مما يُتعب رجاله، فكان لا ينام ويُنِيم.

ولكي تتضح سمات طارق القيادية، لا بد من ضرب الأمثال، لكي نستنتج منها تلك السمات بوضوح وجلاء.

وحين أصبح المسئول عن فتح الأندلس، أعدّ خطة الفتح المفصّلة، وبدأ بتنفيذ مراحلها في رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجرية (آب - أيلول = أغسطس - سبتمبر ٧١٠م)، وذلك بإرسال حملة استطلاعية بقيادة أبي زُرْعة طَريف بن مالك المعافري، مؤلفة من أربعمائة راجل ومائة فارس.

ونجحت مهمة طريف الاستطلاعية نجاحاً باهراً، فقرر طارق أن يقود الحملة المقبلة، تنفيذاً لمراحل خطة الفتح.

لقد كان طارق قائداً يبدأ أعماله بالاستطلاع المفصّل، ليكون على بيِّنةٍ من أمره، ولا يخطو خطوة إلاّ بعد جمع المعلومات الضرورية بالاستطلاع، فلا يضع خطوته إلاّ في موضع أمين، واضح المعالم غير مجهول التفاصيل، فهو يعمل دائماً بالنور، ولا يعمل أبداً في الظلام، وتلك سمة مهمة من سمات القائد الحصيف.

وفي عملية عبور جيش طارق من مدينة سَبْتة إلى بر الاندلس، برزت ثلاث سمات من سمات قيادته: الأولى: استئثاره بالخطر لحماية رجاله وإيثارهم بالأمن، والثانية: حرصه الشديد على أرواح رجاله، والثالثة: المبالغة في بذل جهده للاطمئنان على سلامة العملية في الإنزال، والتأكد من إكمال عبور رجاله كافة كما ينبغي دون تخلف بعضهم عن العبور، وإنجاز عملية العبور بدون خسائر تذكر مادياً ومعنوياً.

فقد أبحر طارق من سبتة على رأس الوجبة الأولى من رجاله ليلاً، وجرى

إنزال رجاله في مكان وَعْرٍ من الشاطئ الأندلسي، وسهل عملية الإنزال باستخدام المجاذيف وبراذع الخيل التي أُلقيت على الصخور لتلافي خطرها على رجاله، فتمكن طارق من إنزال هذه الوجبة من رجاله على الشاطىء بصورة مفاجئة دون أن يراه أحد من العدو(١).

ولما اطمأن طارق إلى سلامة هذه الدّفعة من رجاله، عاد بالسفن الفارغة إلى البر الإفريقي في سبتة، وحمل الدفعة الثانية من رجاله على السفن، وعاد بهم إلى البر الأندلسي، حيث جرى إنزالهم، حتى قال بعض المؤرخين: إن طارق كان آخر من عبر الأندلس(٢)، وهذا صحيح، فقد عبر مع الدفعة الأولى، ثم عبر مع الدفعة الثانية، وبذلك اطمأن إلى عبور آخر رجل من رجاله بسلام، فقد أبحر طارق مع أول جماعة، وأخفى نفسه في الجبل حتى الليلة التالية، حيث أرسل المراكب مرة أخرى لكى تعود ببقية رجاله(٣)، وما أخفى طارق نفسه في الجبل، بل عاد ليرافق الجماعة الثانية من رجاله، فقد قاد فعلاً المجموعة الأولى إلى الشاطىء الأندلسي، ولكن ما أن هبطت تلك المجموعة بسلام، حتى عاد بالمراكب إلى سبتة لكي يُشرف على بقية العملية، ومن ثم أبحر مع المجموعة الأخيرة من الرجال(٤).

وكان تعداد رجال طارق الذين جرى إنزالهم في هذه المرحلة سبعة آلاف رجل، وهم الذين عبروا المضيق مع طارق. وتضم المجموعةالأخرى خمسة آلاف رجل، وهم الذين أرسلوا فيما بعد مَدداً لطارق من قبل موسى بن نصير(٥)، وضمت الحملة سبعمائة رجل من السُّودان(٦). وهذا يُظهر لنا، أن

---

(١) ابن الكردبوس (٤٦) والبيان المغرب (٢/ ٩).

(٢) ابن الشباط (١٠٦) والبيان المغرب (٢/ ٦) برواية الرازي، ونفح الطيب (١/ ٢٥٤).

(٣) فتح مصر والمغرب (٢٠٥-٢٠٦).

(٤) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس (١٦٤).

(٥) نفح الطيب برواية ابن حيّان (١/ ٢٣١-٢٣٢) وأخبار مجموعة (٧) وابن الأثير (٤/ ٥٦١-٥٦٣).

(٦) ذكر بلاد الأندلس رقم: ٨٥ج ص: ٨٤ وفتح الأندلس (٥).

طارقاً من أولئك القادة الذين يقدمون على إنجاز ما يُكلَّفون به من مهمات عسكرية بكل عزم وبدون تردد، دون خلق المعاذير أو اختلاقها للتملص من تحمّل المسئولية، والتهرّب من الأخطار المتوقعة. ومن الواضح، أن تقبل طارق مهمة العبور للفتح، بقوّة لا تزيد عن سبعة آلاف رجل فقط، لفتح بلاد واسعة، لها ملك ونظام راسخ وجيش عريق، يمكن أن يعد من طارق حباً للمسئولية، كما أن الإقدام على تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من مرجعه بدون تردد وبشجاعة، دليل على تمتع طارق بحب المسئولية. وهي سمة من سمات القادة الكبار، وتمتعه بالشجاعة، وبالضبط المتين، والشجاعة والتحلي بالضبط المتين من سمات القادة الكبار أيضاً.

وبهذه المناسبة، فإن القادة العسكريين، من ناحية تحمل المسئولية، صنفان: صنف يتحمل المسئولية، ولا يتردد في تنفيذ الأوامر الصادرة إليه، حتى إذا كان التنفيذ صعباً جداً، فهو يبدأ بالتنفيذ، ثم يطالب بمعاونته ما وجد إلى ذلك سبيلاً. وصنف يتهرب من المسئولية ويتملص منها، حباً بالعافيةوالسلامة، فيختلق المعاذير أو يخلقها، فإذا اضطر إلى تنفيذ ما عُهِدَ إليه نفّذه متذمراً. والصنف الأول الذي يتحمل المسئولية من القادة، هم الذين يُفلحون في أداء واجباتهم، ويقودون إلى النصر. أما الصنف الذي يخاف المسئولية من القادة، فهم الذين لا يُفلحون أبداً في أداء واجباتهم، ولا يقودون رجالهم إلاّ إلى الهزيمة.

وظهرت سمة جديدة من سمات قيادة طارق، في تحصين مواضع إنزال قواته في جبل طارق[١]، فمن واجب المقاتل أن يحصّن موقعه فوراً وبدون تأخير بعد احتلاله مباشرة، ليستعين بموقعه المحصن على الثبات أولاً، وليحمي نفسه من رصد العدو وسهامه المصوبة إليه: «فلما حصلوا في الجبل، بنَوْا سوراً على أنفسهم يسمى: سور

(١) ذكر بلاد الأندلس رقم: ٨٥ج ص: ٨٤ـ٨٥ والبيان المغرب (٢/ ٩) وابن خلدون (٤/ ٢٥٤) ونفح الطيب (١/ ٢٣٢).

العرب. . . إلخ. . .»[1]. والحرص على بناء هذا السور لحماية جيش طارق، دليل على تمتعه بمزية: الأمن، وهو مبدأ من مبادى الحرب، يستحثّ القائد على أمن قواته من نظر العدو ورصده ومن أسلحته المصوبة إليه، كما أن التحصين يساعد على الثبات.

وظهرت سمة: رفع المعنويات في قيادة طارق، في معركته الخاطفة على بَنْج[2] (Banj)، حيث قضى طارق على قوات بنج، ولم يَنج من جندها إلاّ واحد اسمه: بِلْيَاسِن، أسرع إلى معسكر لذريق في أقصى شمالي الأندلس[3]، وأخبره بنزول المسلمين البلاد، وإبادة قوات بنج إبادة كاملة.

ومن الواضح جداً، أن انتصار المسلمين الساحق، على قوات القوط، وإبادتها عن بكرة أبيها، أدى فيما أدى، إلى رفع معنويات الفاتحين، وإنهيار معنويات القوط، وارتفاع المعنويات عامل من عوامل النصر، وانهيارها عامل من عوامل الهزيمة.

وبالرغم من ثقة طارق بنفسه، وثقته برجاله، وارتفاع معنويات المسلمين، إلاّ أن طارقاً حين علم باقتراب لذريق وقواته المتفوقة الضارية من مواضع المسلمين، كتب إلى موسى يستنجده فأرسل إليه جيشاً قرابة خمسة آلاف مقاتل، بقيادة طريف بن مالك[4]، فقويت بالمدد نفس طارق ونفوس مَن معه.

وتكرّر استنجاد طارق بموسى، بعد تغلغله بالعمق في الأندلس، فأصبحت ميمنة المسلمين وميسرتهم مهددة بالعدو، كما أصبحت خطوط مواصلاتهم بقواعدها المتقدمة والأمامية مهددة بالعدو أيضاً، فكتب طارق إلى موسى: «إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث . . .

---

(١) البيان المغرب (٢/ ٩).
(٢) البيان المغرب (٢/ ١٠).
(٣) نفح الطيب (١/ ١٤٩).
(٤) العبر (٤/ ٢٥٤) ونفح الطيب (١/ ٢٣٣).

الغوث»[1] فعبر موسى إلى الأندلس، باستدعاء طارق إياه[2].

وهذا يظهر مزيتين مهمتين من مزايا طارق القيادية، هما: تقديره الصائب للموقف العسكري، ومطالبته بالمدد في الوقت الذي يحتاج إلى المدد، دون أن يغتر بالمعنويات العالية التي يتحلى بها ويتحلى بها رجاله، وبالانتصارات المتوالية على العدو القوطي. والمزية الثانية، هي حرصه العظيم على أمن رجاله، فلا يفسح المجال لتعرضهم إلى التهلكة دون مسوّغ. وهاتان المزيتان من أهم المزايا التي يتصف بها القادة العظام في التاريخ. فإن تقدير الموقف الصائب في الزمان والمكان المناسبين يدل على تمتع القائد بالذكاء الألمعي، وبمزية سبق النظر، فيتوقع الأحداث قبل وقوعها، ويُعدّلها ما يمكن أن تُعالج به علاجاً ناجعاً. أما الحرص على أمن قوات القائد، فهو الذي يحفظ لها معنوياتها من الانهيار، ويجعلها تثق بالقائد وتنفذ أوامره طوعاً عن طيبة خاطر، مهما يعترض سبيلها من مصاعب ومعضلات.

وقد ظهرت مزيّة: الشجاعة، في طارق، في مواقف كثيرة، فضرب بشجاعته لرجاله أروع الأمثال، وكان أسوة حسنة لهم، حتى كانت خسائر رجاله في معركة لَكُّهُ، وهي المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة طارق، وبين القوط بقيادة لذريق، ثلاثة آلاف شهيد، من مجموع جيش طارق الذي كان اثنى عشر ألف مقاتل، أي أن خمسة وعشرين بالمائة من جيش المسلمين استشهدوا في هذه المعركة الحاسمة، فقد قسم طارق الغنائم بعد انتصاره على القوط في هذه المعركة على تسعة آلاف من المسلمين[3]، أي أن هؤلاء هم الذين سَلِموا، واستُشهد الباقون.

ويقول طارق في خطبته على رجاله قبل الاشتباك بالقوط في تلك المعركة الحاسمة: « . . . . ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بنفسي، لا أقصِّر حتى أُخالطه

---

(١) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٤ـ٧٥).
(٢) البيان المغرب (٢/ ١٩).
(٣) نفح الطيب (١/ ١٦٣).

أو أُقتل دونه»[١]، و: «مافعلت من شيءٍ فافعلوا مثله، إن حملتُ فاحملوا، وإن وقفت فقفوا . . . . ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيّبه حتى أُخالطه أو أُقتل دونه»[٢]، فهو لا يريد من رجاله شيئاً أكثر من أن يفعلوا ما يفعله ويقتفوا آثاره في الشجاعة والإقدام. ومن الواضح، أن تأثير طارق في رجاله كان عظيماً، فقد كان قدوتهم في الشجاعة، وخير دليل على شجاعتهم ما أنجزوه في الفتوح، وما أحرزوه من انتصارات، وما بذلوه من تضحيات.

ومن الأمثلة التي تدل على شجاعة طارق النادرة، أن العِلْج صاحب إِسْتَجَّة خرج إلى النهر وحده لبعض حاجاته، فصادفه طارق هناك، وكان طارق قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه. ووثب طارق على العلج صاحب إِسْتَجَّة في الماء، وأخذه أخذاً وقاده إلى معسكر المسلمين، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أحبّ، وضرب عليه الجزية، وخلّى سبيله. وكان طارق يحاصر المدينة، فاستسلمت للمسلمين، ووفّى العلج أمير المدينة بما عاهد عليه طارقاً[٣]، ولا يمكن أن يبتعد قائد عن جيشه، ويخرج وحده بعيداً عن رجاله، فيصاول رجلاً من الأعداء ويأسره، ثم يظهر أن الأسير أمير المدينة المحاصرة وبيده الحل والعقد ومصير المدينة، فيفتدي نفسه بتسليم المدينة للفاتحين، بعد أن قاومت مقاومة شديدة مدة طويلة. وطارق في مزيّة الشجاعة، يشابه خالد بن الوليد في هذه المزية، فقد كان خالد أيضاً يترصّد قائد أعدائه، فإذا استمكنه هاجمه هجوماً مباشراً، حتى يقتله أو يأسره؛ وقَتْلُ القائد في تلك الأيام، يؤدي غالباً إلى انهيار معنويات

---

(١) مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (٥/ ٢٢٢ ـ القسم الفرنجي) وسراج الملك (١٥٩) وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ووصفه لابن الشباط (١٥٤ـ١٥٥) تحفة الأنفس لابن هذيل نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٤١).

(٢) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٤) ووفيات الأعيان (٤/ ٤٠٤ـ٤٠٥) وتاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (١٥٤ـ١٥٥) ونفح الطيب (١/ ٢٢٥ـ٢٢٦).

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٦٠) وانظر أخبار مجموعة (٩/ ١٠) وابن الأثير (٤/ ٥٦٣) والبيان المغرب برواية الرازي (٢/ ٨ـ٩).

رجاله، فلا يبقى أمامهم غير الاستسلام.

ولعل مما يدل دلالة واضحة، على تمتّع طارق بالذكاء الخارق، والكياسة، وحسن التدبير والسياسة، والمقدرة على استقطاب ثقة الناس به من رجاله ومن أعدائه، ما فعله طارق مع يُليان صاحب سبته، فقد استعصت هذه المدينة على الفاتحين، ونجحت في صدهم عن أسوارها خائبين. وقد تطرقنا بما فيه الكفاية عن أسباب ثبات سبتة أمام الفاتحين، وأسباب استسلام يُليان للمسلمين وتسليم سبتة لهم صلحاً بدون قتال، وتوطيد صلته المباشرة بالمسلمين في التعاون معهم ومعاونتهم في الفتح. ولكن صلة يُليان المباشرة بطارق واتصاله به -لأن طارقاً كان على طنجة التي على حدود سبتة- وهو السبب المهم في استسلام يليان للمسلمين وتسليم سبتة لهم سلماً بدون قتال.

تلك هي سمات قيادة طارق البارزة: ذكاء خارق، وكياسة واتِّزان وحصافة، وحسن التدبير وحسن السياسة، والقابليّة على استقطاب الثقة به إنساناً وقائداً، ونسبه البربري الذي آثر عليه نسبه إلى الإسلام، وإيمانه العميق الراسخ بتعاليم الدّين الحنيف، وتجربة عملية ناجحة في القيادة، يقود رجاله من الأمام، ويكون قدوة حسنة لهم بالأعمال لا بالأقوال، يستأثر دون رجاله بالخطر ويؤثرهم بالاطمئنان، يبذل جهداً في جهاده أكثر مما يبذله أيّ رجل من رجاله، حريص غاية الحرص على أرواح رجاله، يتحلى بالضبط المتين، ويتحمل المسئولية كاملة ويحبها، يبذل قصارى جهده لرفع معنويات رجاله، ويهتم بأمن جيشه كل الاهتمام، يسبق النظر فيُعدّ لكل ما يُحتمل وقوعه من علاج، لا يجتاحه الغرور ولا يستخذي للأماني، يقدِّر الموقف العسكري تقديراً واقعياً صائباً، يتميز بالشجاعة النادرة والإقدام.

تلك هي مجمل سمات قيادة طارق، التي أهّلته بحق لتولي منصب القيادة، على عهد بني أميّة، وعلى قادة من العرب، رضوا بقيادته، وتعاونوا معه، وعاونوه في ميادين . . . .

القتال[1].

وهي سمات تؤهِّل مَن يتحلّى بها، أن يتولى المناصب القيادية، إذا استطاع أن يبرز تلك السمات عملياً، أمام الذين بيدهم تولية القادة.

ولعل من المفيد تطبيق مزايا قيادة طارق، على مزايا القادة المعروفة في كتب الدراسات العسكرية المعتمدة، زيادةً في الإيضاح، لا زيادة في التّعريف.

٢ـ طارق ومزايا القيادة العامة:

أ - لقد كان طارق: ذا قرار سريع صحيح، حاضر البديهة، يعالج المواقف الحربية المتبدلة بسرعة وبشكل غير متوقّع، بإصدار القرار السريع الصائب المناسب، في الوقت المناسب، دون أن يضيِّع الوقت سدى، فتضيع الفرصة السّانحة التي لا تعود من جديد. فقد أقلع طارق على رأس الجماعة الأولى من رجاله، وكان إقلاعه من سَبْتَة، بسبب رغبة طارق في إيجاد مكان ملائم للإنزال على الشاطئ الأندلسي، وربما كان المكان الذي قصده أولاً منطقة الجزيرة الخضراء التي تقابل سبتة، ولكن طارقاً قرر التخلي عن الإنزال في هذا المكان القريب، لأنه وجد جماعة من القوط، فيه حاولت منعه من الإنزال، فأبحر منه ليلاً إلى مكان وعْرٍ من الشاطىء. وقد حاول تسهيل عملية الإنزال، باستخدام المجاذيف وبراذع الخيل التي ألقيت على الصخور لتلافي خطرها، وبهذه الطريقة تمكن طارق من الإنزال

---

(١) مثل طريف بن مالك، وعبد الله بن عامر المعافري الجد الأعلى للمنصور بن أبي عامر وغيرهما، وهما من أشهر العرب المساهمين في جيش طارق، أنظر: ابن بسام ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ (١/ ٤٠) ـ القاهرة ـ ١٩٤٥، والحلة السيراء (١/ ٢٧٥) والبيان المغرب (٢/ ٢٥٦ـ٢٥٧) والإحاطة (٢/ ١٠٢) وأعمال الأعلام (٥٩) ونفح الطيب (١/ ٣٩٦و٣٩٩) وذكر بلاد الأندلس (رقم ٨٥ج ص: ١٤٧ـ١٤٨) و (رقم ٥٥٨ ص: ٢٠٥).

المفاجىء، من غير أن يراه أحد على الشاطىء[1]، فتم إنزال جماعته الأولى بسلام دون خسائر تذكر، وكوّن بإنزالها رأس الجسر الواجب إقامته لتأمين عبور المسلمين وإنزالهم على البر الأندلسي بسلام ودون خسائر تذكر.

ومن هذه العملية الصغيرة، المتمثلة في عبور الوجبة الأولى من رجال طارق إلى الأندلس، يبدو قراران سريعان صحيحان: الأول: قراره تبديل مكان الإنزال من الجزيرة الخضراء إلى جبل طارق، للتخلص من مقاومة القوط للإنزال. والثاني: في استخدام المجاذيف وبراذع الخيل على الصخور لتلافي خطرها على رجاله.

ويمكن استنتاج قراراته السريعة الصحيحة، في كل عملياته الحربية التي استمرت أربع سنوات في الأندلس، وهي كثيرة جداً لا تحصى، فلا عملية بدون قرار سريع صحيح، وإلاّ كانت الهزيمة، ولا نعرف هزيمة لطارق في حياته العسكرية، مما يدل على أنه كان ذا قرار سريع صحيح على الدوام، ولعل تولية طارق مقدمة موسى في فتح طنجة، ومقدمة موسى بعد عبوره إلى الأندلس، خير دليل على تمتعه بالقرار السريع الصحيح، لحاجة قائد المقدمة إلى مثل هذا القرار.

ب - **وكان طارق يتحلى بالشجاعة الشخصية**، وكل عملياته في فتح الأندلس، تدل على أنه كان شجاعاً مقداماً، من الطراز الأول شجاعة وإقداماً، وقد ذكرنا أمثلة على شجاعته النادرة قبل قليل، ولعل هذه الشجاعة هي التي لفتت نظر موسى بن نصير وغيره من المسئولين، ولفتت إليه أنظار رجاله من العرب والبربر، فكان أسوة حسنة لهم في الشجاعة والإقدام.

ج - **وكان طارق يتحلى: بالإرادة القوية الثابتة**، فإقدامه على العبور إلى الأندلس لفتحها، على رأس سبعة آلاف مقاتل فقط، دليل واضح على قوة إرادته وثباتها. وإقدامه على خوض المعركة الحاسمة على رأس اثني عشر

---

(١) ابن الكردبوس (٤٦) وفي البيان المغرب (٢/٩) يورد رواية مشابهة عن عبور طارق ونزوله على الجبل.

ألف مقاتل فقط، لمصادلة القوط، وهم أضعاف أضعاف قوته، بقيادة ملك القوط لذريق وحشد من قادته، على أرض الأندلس التي يعرفها القوط لأنها أرضهم، ويجهلها المسلمون لأنها ليست بلادهم، دليل واضح جلي على قوة إرادة طارق وثباتها. وتغلغل طارق بالعمق في الأندلس، وهو في نحو تسعة آلاف مقاتل، دليل واضح على قوة إرادة طارق وثباتها.

إن تمتع طارق، بمزية: الإرادة القوية الثابتة، قد لا تحتاج إلى دليل.

د - **وكان طارق يتمتع بمزية: تحمل المسئولية**، وكان لا يتحملها حسب، بل يحبّها، فهو يتحمل المسئولية ويحبها، ولعل قبوله بمهمة فتح الأندلس، بقوة لا تزيد على سبعة آلاف مقاتل، خير دليل على تحمله للمسئولية وحبها، وعدم التملّص منها، والتهرب من عواقبها.

هـ - **وكان طارق يتحلى بمزية تمتعه: بنفسية لا تتبدّل**، في حالتي النصر والهزيمة، والسراء والضراء، واليسر والعسر.

لقد كان أحد رجال البربر، فقدّمه جدُّه إلى مصاف القادة المرءوسين، ثم أصبح والياً على منطقة طنجة الواسعة، وقائداً على حاميتها من البربر. واستمر نجمه في الصعود، فتولى قيادة مستقلة، لها ارتباط مباشر بموسى بن نصير، وفي الأندلس، أصبح قائداً فاتحاً، تخضع البلاد المفتوحة من الأندلس لسلطته المباشرة. وعبر موسى إلى الأندلس، فأصبح طارق من جديد قائداً مرءوساً، ثم بدأ نجمه بالهبوط، حتى سُحب من قيادته بأمر الخليفة الوليد بن عبدالملك بن مروان، وأصبح رجلاً بلا غد، لا يعرف مستقبله ولا مصيره. وحل في الشام، بعد أن قطع المسافة الطويلة الشاسعة بين الأندلس ودمشق، برفقة مولاه موسى بن نصير، فما عرف أحد من المؤرخين وغيرهم، أن نفسية طارق تبدلت في حالتي العز والذل، والسلطة وبلا سلطة، والقيادة وبدون قيادة، بل بقي نفسياًصابراً محتسبا، لم يغتر بمظاهر السلطان، ولا استكان لمظاهر الخذلان، لأنه لم يكن يعمل لنفسه في جهاده وجهوده، بل كان يعمل لله من أجل مصلحة الإسلام والمسلمين

العليا، وليس لمصلحته الشخصية مكان ولا مكانة حتى يفرح إذا ربحت، ويحزن إذا خسرت، وهذا هو سر صبره الجميل، وبقاء نفسيته ثابتة لا تتبدل.

و - **وكان طارق يتمتع بمزية: سبق النظر**، وهذه المزية تجعل القائد يتوقع ما سيقوم به العدو قبل وقوع الأمر بوقت كافٍ، ويتخذ التدابير الضرورية لإحباط ما يقوم به العدو. أي أن سبق النظر، هي عملية اكتشاف نيات العدو المقبلة، واتخاذ الاجراءات الكفيلة بإحباط النشاط المعادي في الزمان والمكان المناسبين.

وقد ظهرت مزية سبق النظر في طارق، بصورة جلية وواضحة في استنجاد طارق بموسى، حين علم باقتراب لذريق وقواته المتفوقة من مواضع المسلمين، قبل اشتباك المسلمين بالقوط في معركة لَكُّهْ، وهي المعركة الأندلسية الحاسمة، فأرسل موسى إلى طارق خمسة آلاف مقاتل مدداً، وبهذا المدد قويت نفس طارق ونفوس مَن معه. وبهذه النجدة التي انضمت إلى جيش طارق، استطاع طارق إحراز النصر على القوط.

وتكرر استنجاد طارق بموسى بعد تغلغله بالعمق في الأندلس، فعرّض ميمنة المسلمين وميسرتهم وخطوط مواصلاتهم لخطر معادٍ عظيم. وقد سبق طارق النظر، فاستنجد بموسى، فبادر موسى إلى نجدته بنفسه، وعبر إلى الأندلس، وقضى على الخطر الداهم الذي كان يتهدد المسلمين قبل عبوره، وقضى بالتعاون مع طارق على المقاومات القوطية التي أخذت تشتدّ شيئاً فشيئاً بالتدريج.

وما كان بإمكان طارق أن ينتصر على القوط في المعركة الحاسمة، لو لم يسبق النظر فيستنجد بموسى، فيصله المدد، فيقوى المسلمون به مادياً ومعنوياً، ويحرزون النصر المؤزر على القوط.

وما كان بإمكان طارق، أن ينجو بجيشه المعرّض جناحاه وخطوط مواصلاته إلى تعرض مُعَادٍ، لو لم يسبق النظر، فيستنجد بموسى، فيعبر موسى بنفسه على رأس قوات ضاربة، يُزيل بها الخطر المحدق بجيش

طارق، ويقضي بالتعاون مع طارق على مراكز المقاومة القوطية أو على أخطر مراكزها في جبال الأندلس على أصحّ تعبير.

ز - وكان يتمتع بمزية: معرفة النفسيات والقابليات لرجاله، فأكثرهم من البربر، عاش معهم، وعاشوا معه. أما العرب الذين كانوا في جيشه، فقد كان أكثرهم معه في طنجة يعمل في مجال الدعوة، فلما عبر إلى الأندلس، استمروا على عملهم في مجال الدعوة، وتحملوا أعباء الجهاد بالإضافة إلى واجبهم الأصلي، فكانوا كالمجاهدين الآخرين، إن لم يتفوقوا عليهم في طلب الشهادة والاستقتال في سبيل الله. وبهذه المناسبة، فقد كان علماء السّلف الصالح، وهم الدعاة إلى الله، لا يتخلفون عن تحمل أعباء الجيش بأمانة وإخلاص، وكانوا حين يذكرون: أن الجهاد فرض، لا يكتفون بهذا الكلام، بل يطبقونه عملياً على أنفسهم، وليس سراً أن نسبة القراء من شهداء معركة اليمامة بين المسلمين بقيادة خالد ابن الوليد وبين بني حَنِيفَة المرتدين بقيادة مُسَيْلَمة الكذّاب، كانت أعلى من نسبة شهداء المسلمين الآخرين، فقد شهد المعركة من المسلمين نحو ثلاثة عشر ألف مقاتل[١]، فاستشهد من المسلمين ألف ومائتا شهيد[٢]، منهم خمسمائة من القراء[٣] وحدهم، أي أن خمسة وأربعين بالمائة من الشهداء كان من القراء، وهم علماء المسلمين، بينما كان تعدادهم بالنسبة للمسلمين الآخرين قليلاً[٤]، وهكذا كان علماء المسلمين يُقرنون الأقوال بالأفعال، بل كانوا يقولون قليلاً، ويفعلون كثيراً، وهذا هو سر استجابة الناس لهم وإقبالهم عليهم.

---

(١) جاء في كتاب: فضائل القرآن لابن كثير ص(١٢) ملحق بالجزء التاسع من تفسير ابن كثير ما يلي: «التفّ حول مسيلمة من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهّز الصدّيق أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد في ثلاثة عشر ألفاً».

(٢) الطبري (٢/ ٥١٩).

(٣) الطبري (٢/ ٥١٩) وابن الأثير (٢/ ١٤٠).

(٤) أنظر التفاصيل في كتابنا: بين العقيدة والقيادة (٢١٢-٢١٣).

وبالإضافة إلى معرفة طارق لرجاله في أيام السلم، فقد تضاعف معرفته بهم في أيام الحرب، فليس كأيام الحرب تربط المقاتلين وتعمق تعارفهم وتكشفهم على حقيقتهم، إذ يستمر الاتصال المباشر بينهم ليلاً ونهاراً في تعاون وثيق، فتنكشف نفسياتهم وقابلياتهم، ويُعرف الشجاع من الجبان، والصادق من الكاذب، والمستقيم من المنحرف، لأن التعامل بين المقاتلين يزداد، والميدان يُظهر الشجاع من الجبان.

وقد كان طارق، بما عُرف عنه، من اتصال وثيق بالبربر والعرب، الذين معه، على معرفة بنفسيات رجاله وقابليتهم، لا تكاد تخفى عليه من أمرهم خافية، فيستخدم الرجل المناسب للواجب المناسب استناداً على نفسيته وقابليته، ولا يكلف رجلاً يجهل طوايا نفسه وخبايا قابليته، إلاّ بعد اختياره، لمعرفة الواجب الذي يستطيع النهوض به، رغبة لا رهبة، وطوعاً لا كرهاً، وباقتدار لا بعجز، لذلك استطاع طارق أن يحقق النصر بقواته القليلة، على القوط بقواتهم المتفوقة، لأنه يستخدم الرجل المناسب للواجب المناسب بموجب نفسيته وقابليته لا بموجب عوامل أخرى.

ح - **وكان يتحلى بمزية: الثقة المتبادلة**، فقد كان رجلاً مستقيماً صادقاً أميناً، مجاهداً حقاً، شجاعاً مقداما، ألفاً مألوفاً، يطبق أوامره على نفسه، كما يطبقها على رجاله، إن لم يكن يحرص على تطبيقها أكثر من حرص أي رجل من رجاله. وقد كان يردد دائماً: اعملوا ما أعمل، فلا يطالب أحداً من رجاله أن يعمل غير ما يعمل هو شخصياً، إذ يبدأ بالعمل أولاً، ثم يطالب الآخرين أن يقتفوا آثاره في عمله لا في قوله، فإذا كان الهجوم، كان أول المهاجمين، أمام رجال الصّوْلة في الهجوم، مستهدفاً قائد العدو بالذات، غير مكترث بما حول ذلك القائد من حُماة وحماية.

لقد كان في مزاياه يستحق أن يثق به رجاله، فأولوه ثقتهم الكاملة، ويستحق أن يثق به رئيسه المباشر، وهو موسى بن نصير، ورئيسه الأعلى، وهو الخليفة في دمشق، فأولوه ثقتهم الكاملة، وجعلوه قائداً من قادة الفتح،

وكلفوه بمهمة فتح الأندلس، وكان ذلك المنصب القيادي وتلك المهمة في الفتح، بالنسبة لطارق باعتباره من البربر لا من العرب، وبالنسبة للنظام الحاكم يومذاك، من الغرائب المستحدثة التي لا سابقة لها، ولكن مزايا طارق جعلته موضع ثقة رؤسائه، كما جعلته موضع ثقة مرءوسيه.

وكان طارق، يبادل رجاله ثقة بثقة، والثقة المتبادلة هي العمود الفقري لكل نصر، وانتصارات طارق وفتوحاته دليل على ثقته برجاله، ودليل على أنهم كانوا يستحقون تلك الثقة.

ط - **وكان يتحلى بمزية: المحبة المتبادلة**، فقد كانت مزاياه تجعله محبوباً من رجاله، كما أنه كان يبادلهم حباً بحب، كما كان يبادلهم ثقة بثقة.

كما كان طارق محبوباً من رؤسائه أيضاً، ولولا ذلك لنحّوه من منصبه القيادي، وولّوا مكانه مَن يُحبّون.

ولعل أحسن دليل على حب رجال طارق لطارق، ما وصف به مُغيث الرّومي طارقاً. فقد ذكروا أن سليمان بن عبدالملك أراد أن يولي طارقاً على الأندلس، فاستشار سليمان مُغيثاً في تولية طارق، وقال له: (كيف أمره بالأندلس؟)، فقال: «لو أمر أهلها بالصلاة إلى قِبْلَة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا»[1].

لقد كان طارق يحب رجاله، ويحب رؤساءه، وكان رؤساؤه ورجاله يبادلونه حباً بحب، مما جعل التعاون بين القيادة والرجال تعاوناً وثيقاً، لأنه نابع من القلب، وليس بسبب إغراء ووعيد وضغط وإكراه.

ي - **وكان يتمتع بمزية: الشخصية القوية النافذة**، فما كان لمثله، أن يخترق الحدود والقيود، المؤدِّية إلى منصب القيادة، لو لم يكن ذا شخصية قوية نافذة.

وقد كان موسى بن نصير الذي ولى طارقاً القيادة، مُلْتَزِماً من عبدالعزيز بن

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٣).

مروان الذي كان على مصر، وكان موسى معنياً بإقناع الخليفة وعبدالعزيز بن مروان بقابليته قائداً، وأنه قادر على فتح مناطق شاسعة، وتزويد الخلافة ومصر بالغنائم، محاولاً تخفيف الانطباع السَّيء الذي كوّنه عنه الخليفة بسبب العمل الذي اتُّهم به في البصرة. لذلك كان موسى معنيّاً باختيار القادة القادرين من ذوي الكفاية العالية، ومنهم طارق، لتحقيق ما يصبو إليه من فتوح ومغانم، ولا يكون القائد القادر إلاّ ذا شخصية قوية نافذة، لأنها إحدى مزايا كفاية القائد العالية، أما القائد الإمَّعة المتردد الذي يخالف المسئولية، فلا مكان له بين قادة الفتح في تلك الأيام.

ك - وكان طارق يتمتع بمزية: القابلية البدنية، ولا نصوص تشير إلى ذلك في المصادر المعتمدة، ولكن يمكن استنتاج أن طارقاً كان يتحلى بهذه المزية، من سير أعمال طارق في ميادين القتال.

فقد ولاّه موسى على مقدمته في مسيرة فتح طنجة، وولاّه على مقدمته أيضاً بعد عبور موسى إلى الأندلس، ولا يُولى قيادة المقدمة إلاّ قائد يتّسم بالنشاط وسرعة الحركة والتنقل من مكان إلى آخر على عجل، ولا يكون ذلك كما ينبغي إلاّ لقائد ذي قابلية بدنية متميزة.

كما أن تولية طارق على جيش من من جيوش المسلمين، متوجِّه لفتح الأندلس، بما في ذلك من مصاعب ومشاق، دليل على أنه كان يتمتع بقابلية بدنية متميزة.

وتحمل أعباء الحرب، من حركة مستمرة، وتنقل مستمر، وقتال بما فيه من صولات وجولات، في مختلف فصول السنة بما فيها من حرّ وبرد وأمطار، لا ينهض بأعبائها إلا من كان ذا قابلية بدنية متميزة. وإقدام طارق على ممارسة القتال في مقدمة الصفوف الأولى، ومهاجمة قادة القوط قبل غيرهم، وانقضاض طارق على أمير إسْتَجَّة وهو في ماء النهر، وأخذه أخذاً بالقوة، وحمله قسراً إلى معسكر المسلمين، أدلّة واضحة على تمتع طارق بمزية القابلية البدنية المتميزة.

وأكاد أتبين بوضوح، أن قابليته البدنية الخارقة، كانت من أسباب إقدام موسى على توليته منصب القيادة المرموقة.

ل - **الماضي الناصع المجيد**، من سمات القائد الناجح المنتصر، ولا شي عن ماضي طارق في الصادر المعتمدة التي بين أيدينا. فقد برز طارق لأول مرة سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) حين تولى مهمة قيادة مقدمة موسى في سيرته لفتح طنجة، ثم ولاّه على طنجة بعد فتحها وجعله قائداً لحاميتها من البربر، ولم يبق مع طارق إلاّ القليل من العرب الذين كانت مهمتهم نشر تعاليم الإسلام بين البربر[١]. ومن الواضح أن ماضيه المجيد مرتكز على سجاياه إنساناً وقائداً، فقد تقدم بتلك السّجايا لا بحسبه ونسبه: فهو قائد عصامي بحق. ولا يبدو أنه كان من أشراف البربر أو رؤسائهم وملوكهم، فقد كان مع موسى أبناء كسيلة وملك السوس الأقصى، فولّى طارقاً القيادة دونهم، فلو كان موسى يُولي ذوي الحسب والنسب من البربر، لولى هؤلاء دون طارق، ويبدو أن سجايا طارق ومزاياه قدّمته، حين أخرت سادة البربر وأشرافها.

إن طارقاً كان أول جَد لعقبه في الأندلس، فكان موضع فخرهم واعتزازهم، كما كان موضع فخر المسلمين وتاريخهم.

والإسلام كان أباه، وحَسَبه بالإسلام فخراً وماضياً مجيداً، وحاضراً حميداً.

٣ـ في تطبيق مبادىء الحرب[٢]:

---

(١) ابن حبيب (٢٢٢) وفتح مصر والمغرب (٢٠٤ـ٢٠٥) وذكر بلاد الأندلس (رقم ٨٥ج ص:٨٣ـ٨٤) وابن الأثير (٤/ ٥٤٠) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠) والبيان المغرب (١/ ٤٢) والنويري (٢٢/ ٢٢) وابن خلدون (٤/ ٤٠٢) و (١/ ٢٢٠ و ٤٣٧) ونفح الطيب (١/ ٢٣٩) والسّلاوي (١/ ٩٦).

(٢) مبادىء الحرب: هي المبادىء الجوهرية التي تنشىء في القائد السجيّة السليمة في =

أ - اختيار المقصد وإدامته[1]:

كان مقصد طارق في عملية الإنزال، ثم الانطلاق شمالاً في الجزيرة الأندلسية، واضحاً جلياً هو: فتح الأندلس، والبقاء فيها، أسوةً بالبلاد التي فتحها المسلمون قبل الأندلس. وقد كان هذا المقصد، من اختيار موسى، وكان على طارق مهمة وضعه في حيِّز التنفيذ العملي، وإدامة تحقيقه بمراحل متعاقبة، تبدأ بحشد القوة الكافية للإنزال، وإعداد وسائط نقل الجيش الاسلامي من البر الإفريقي إلى البر الأندلسي، وإجراء عملية العبور، وإنزال الجيش الإسلامي إلى البر الأندلسي، وإتخاذ رأس جسر من القوة الإسلامية النازلة، وتأمين حماية رأس الجسر وتطويره ليصبح قاعدة أمامية متقدمة للمسلمين، وتحصين تلك القاعدة وحمايتها، والانطلاق منها انسياحاً في البلاد للفتح . . . . . إلخ . . . . كما جرى عملياً في الفتح.

ومن الواضح، أن الفتح هو المقصد الذي جرى اختياره، ولكن إدامة هذا المقصد يجري بمراحل، لكل مرحلة من مراحله مقصد واضح أيضاً، كالرافد يصب في النهر الكبير، والرافد يمثّل مقصد كل مرحلة، والنهر الكبير يمثل المقصد الرئيس وهو: الفتح، وتلك الروافد، تديم النهر الكبير، الذي هو المقصد الرئيس، وهو الفتح، لهذا فإن مقاصد مراحل عملية الفتح بمجموعها تتفق مع المقصد الرئيس وتديمه ولا تتناقض معه وتضعفه في حال من الأحوال.

لقد كان طارق يعرف حق المعرفة مقصده، وقد بذل قصارى جهده

= تصرفاته الحربيّة، وهي العناصر الأساسية التي يتكوّن منها مسلك القائد في أعماله القيادية بصورة طبيعية وغير متكلفة.

(١) اختيار المقصد وإدامته: في كلّ حركة حربيّة، من اللاّزم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح، والمقصد النّهائيّ هو تحطيم إرادة العدو على القتال. ويجب أن نوجه كلّ صفحة من صفحات الحرب نحو هذا المقصد الأعلى، ولكن لكلّ صفحة من تلك الصفحات مقصد محدود، يجب أن يُعرف بوضوح.

لتحقيقه، وسهر بدأب وعزم على إدامته، بما عُرف عنه من أمانة وإخلاص.

ب - التّعّرض [1]:

كان طارق قائداً تعّرضياً في كل عملياته القتالية التي خاضها في الأندلس، ولا نعلم أنه خاض معركة دفاعية واحدة في الأندلس، منذ حلّ فيها إلى أن غادرها.

وكان في اتخاذه مبدأ: التّعّرض، مسلكاً له في قيادة رجاله، موفقاً ناجحاً، فقد انتصر على القوط، ولم يُهزم في أية معركة خاضها، وأجبر القوط على الرغم من تفوقهم العَدَدِي والعُدَدِي على المسلمين، على اتخاذ مسلك الدفاع، فلم يُفلحوا حتى في مسلك الدفاع الذي اتخذوه، ودأبوا على الانسحاب من مواضعهم الدفاعية إلى مواضع دفاعية جديدة، لأنهم لم يستطيعوا الثبات أبداً أمام تيار زخم تعرض المسلمين.

ج - المباغتة [2]:

المباغتة، هي إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له، والكتمان من أهم الوسائل التي تؤدي إلى المباغتة.

لقد طبق طارق مبدأ المباغتة، في كثير من عملياته العسكرية، فقد عبر من سبتة، وفيها كثير من عيون القوط وعملائهم، ولم يعبر من ميناء إسلامي

---

(١) التعرّض: هو الهجوم على العدو لسحقه، ولا يتمّ الحصول على النّصر إلاّ بالتعرّض وحده، أما الدفاع فلا يؤدي إلى النّصر.

(٢) المباغتة: أهم مبادىء الحرب وأبعدها أثراً في الحرب، وتأثيرها المعنوي عظيم جداً، وتأثيرها من الناحية النفسيّة يكمن فيما تحدثه من شلل متوقّع في تفكير القائد الخصم. وهذه هي بعض الوسائل التي يمكن بها الحصول على المباغتة: أ ـ بكتمان الاستعدادات للخطط الحربية، وبكتمان جسامة القوات الاحتياطية. ب ـ بالتنقل السريع للقوات من مكان إلى آخر، تمهيداً لإنزال الضربة على موضع لا يتوقّعه العدو. جـ ـ باستخدام الأرض التي يصعب استخدامها لوعورتها مثلاً أو لأنّها مغمورة بالمياه، أو بعبور الموانع التي تُعتبر غير قابلة للعبور. دـ باستخدام أسلحة جديدة غير متوقعة أو أساليب تعبويّة جديدة.

معروف مثل طنجة، لأن القوط كانوا يتوقعون عبور المسلمين من طنجة، باعتبار أن المسلمين طهّروا المنطقة من عيون القوط وعملائهم، ولم يكونوا يتوقعون عبور المسلمين من سبتة، لأنها كانت تعجّ بالرَّتَل الخامس[1] من عملاء القوط وعيونهم، فاستطاع طارق كتمان حركة عبوره، فباغت القوط بهذا العبور.

كما جرى عبور المسلمين ليلاً، فكان الظلام الدامس، حجاباً ساتراً للمراكب والقوارب التي استخدمها المسلمون في العبور.

وحين وجد طارق، أن الجزيرة الخضراء، لا تخلو من مقاومة قوَطية، وقد تعرقل إنزال قواته على البر الأندلسي، وتكبّدها خسائر في الأرواح، مما قد يؤدي إلى إخفاق عملية الإنزال دون مسوِّغ منطقي معقول، أقدم طارق فوراً على توجيه رجاله بوسائل نقلهم البحري إلى منطقة جبل طارق، وأجرى إنزال قواته هناك بدون أية مقاومة قوطية تذكر، لأن تلك المنطقة كانت خالية تماماً من القوط، وكان القوط يفكرون أنّ المسلمين لا ينزلون قواتهم في تلك المنطقة الوعرة، لصعوبة الإنزال عليها، لأنها صخرية شديدة الوعورة، تعرقل الإنزال، وتؤذي النازلين عليها من الرجال.

وتطبيق طارق لمبدأ المباغتة كثير جداً، نكتفي بالأمثلة التي أوردناها، خشية أن يطول الحديث.

د - تحشيد القوّة[2] :

عبر طارق على رأس سبعة آلاف مجاهد، وقبل المعركة الحاسمة التي خاضها على القوط بقيادة لذريق، أمدّه موسى بخمسة آلاف مجاهد، فخاض المعركة الحاسمة باثني عشر ألف مجاهد. ولما أكمل طارق فتح طليطلة،

---

(١) الرتل الخامس: كناية عن الجواسيس والوكلاء والعيون والأرصاد والموالين وأصحاب المصالح الشخصية، وأصحاب العلاقة الدينيّة والعنصرية والمذهبية.. الخ..

(٢) تحشيد القوّة: هو حشد أكبر قوّة أدبيّة وبدنيّة، وأعظم قوّة معنويّة وماديّة، لاستخدامها في المكان والزمان الجازمين.

أصبحت قوات المسلمين في خطر محدق، لتزايد وطأة المقاومة القوطية، ولانكشاف جناحيها الأيمن والأيسر، ولتعرض خطوط مواصلاتها للانقطاع؛ فقدم موسى على رأس قوات ضاربة من المسلمين، لترصين موقف قوات طارق في الأندلس، واستئناف الفتح، وهكذا اهتم طارق بتطبيق مبدأ: الحشد، بما يناسب ظروفه الراهنة[١].

وإذا نوقش أسلوب تطبيق طارق، لمبدأ: تحشيد القوة، على الطريقة العسكرية الحديثة، من عسكري مختص بمثل هذه البحوث والدراسات، فربما يتورّط بإصدار استنتاجات خاطئة، وبخاصة إذا نوقش اسلوب طارق لهذا المبدأ، اعتماداً على الناحية المادية من التحشّد حسب، إذ أن حشد سبعة آلاف مجاهد للعبور من أجل تحقيق الفتح، وحشد اثنى عشر ألف مجاهد للمعركة الحاسمة التي خاضها طارق على القوط بقيادة لذريق، إذ ما جدوى حشد سبعة آلاف مجاهد لمواجهة مملكة وشعب وبلاد شاسعة؟ وما جدوى حشد اثني عشر ألف مجاهد لمواجهة مائة ألف قوطي أو ثمانين ألف قوطي؟ وكيف يمكن أن ينتصر واحد في الهجوم على سبعة في الدفاع عن بلده؟ والمعروف أن المهاجم ينبغي أن يكون خمسة أمثال المدافع على الأقل، ليمكن أن يكون الهجوم ناجحاً!

لقد كان تفوق القوط على المسلمين (مادياً) فواقاً ساحقاً، فكان المسلمون مقصِّرين في تطبيق مبدأ، تحشيد القوة، من الناحية المادية، ولكن المسلمين كانوا متفوقين على القوط (معنوياً) فواقاً ساحقا.

وكان نابليون يقول: (إن الجيش يتألف من ٧٥٪ معنوياً، ومن ٢٥٪ مادياً)، وآخر ما استقرت عليه آراء الخبراء العسكريين العالميين، بعد تطور الأسلحة وظهور الأسلحة النوويّة، هو: إن الجيش يتألف من ٥٠٪ مادياً

---

(١) كان مبدأ تطبيق تحشيد القوة، بالنسبة للمسلمين، قياساً على الناحية المادية في القوّة وحدها، غير كافٍ، لأن التفوّق المادي كان دوماً إلى جانب القوط، ولكن التفوق المعنوي كان إلى جانب المسلمين، فانتصرت الفئة القليلة على الكبيرة بإذن الله.

٥٠٪ معنوياً)، فلا يزال للمعنويات وزن مرموق حتى في العصر الحديث، الذي يمكن أن نطلق عليه: العصر المادي، لأن اهتمام الناس عامة بالناحية الروحية المتمثلة بالدين، في هذا العصر، أقل بكثير من اهتمامهم بهذه الناحية في القرون الخالية.

وقد كان اهتمام المسلمين بالدين الحنيف عظيماً، في القرن الأول الهجري، الذي كان خير القرون بلا مراء، من ناحية التمسك بالدين والاهتمام به: «خير الناس قَرْني، ثم الذين يلُونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيءُ أقوام تسبق شهادةُ أحدهم يمينَهُ، ويمينُه شهادته»(١) -كما قال عليه الصلاة والسلام- واهتمام المسلمين بالدين، رَفَعَ معنوياتهم، لأن أحدهم كان يحرص على الموت، كما كان يحرص غيرهم على الحياة، وكان كل فرد منهم يتمنى أن يموت قبل صاحبه لينال الشهادة، وكان كل فرد من غيرهم يتمنى أن يموت صاحبه قبله، كما قال خالد بن الوليد لأحد قادة الرّوم في معركة اليرموك الحاسمة، لذلك كانت معنويات المسلمين عالية جداً في ذلك القرن، وهذه المعنويات اكتسحت أمامهم تفوق عدوهم المادي عليهم، وقادتهم إلى النصر.

إن تطبيق المقاييس المادية الشائعة في هذا العصر كثيراً، على أسلوب تطبيق طارق وأمثاله من القادة المسلمين مبدأ: تحشيد القوة، لا يخلو من محاذير يؤدي إلى استنتاجات خاطئة. ومن المهم في هذا المجال، ألاّ ننسى القرن الذي حارب فيه طارق، والمعنويات العالية التي كان يتحلى بها المسلمون المجاهدون يومذاك، وأثر المعنويات العالية في إحراز النصر.

وصدق الله العظيم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢).

---

(١) رواه عن ابن مسعود، الشيخان البخاري ومسلم، والإمام الترمذيّ، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده، أنظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي ٢/ ١٣.

(٢) سورة البقرة ـ الآية: ٢٤٩

ولعل انتصار المسلمين شرقاً وغرباً، بالرغم من تفوق عدوهم عليهم مادياً، في القرن الأول الهجري، خير دليل على أن المقاييس المادية وحدها، لا تصلح في التطبيق على المسلمين، في ذلك القرن بالذات، للحكم لهم أو عليهم في تطبيق مبدأ تحشيد القوّة.

وإلاّ فكيف نعلل انتصارهم في الأندلس، على الكثرة الكثيرة، في القرن الأول الهجري؛ فلما أصبحوا كثرة كثيرة بعد قرون من فتح الأندلس واستيطانهم في ربوعها، هُزموا وخسروا ما فتحه أجدادهم، وطُرد مَن طُرد منهم، وشُرِّد مَن شُرِّد، وقُتل من قتل، ونُصِّر مَن نُصِّر منهم قسرا؟

إن انتصارات المسلمين في القرن الأول الهجري، قرن الفتوح والانتصارات، كان انتصار عقيدة بلا مراء.

هـ - الاقتصاد في المجهود[1]:

إذا كان بالإمكان حدوث اختلاف بين الباحثين، حول تطبيق طارق مبدأ: تحشيد القوّة، فليس بالإمكان حدوث مثل هذا الاختلاف في تطبيق طارق مبدأ: الاقتصاد في المجهود، إذ أن تطبيقه كان مثالياً حقاً، وكيف لا يكون كذلك، وقد تم الإنزال بسبعة آلاف مجاهد، وتم بهذه القوة الصغيرة نسبياً بالنسبة للقوات القوطية المتفوقة مراحل: تأسيس رأس جسر للمسلمين في البر الأندلسي، وتكوين قاعدةأمامية متقدمة للمسلمين في منطقة جبل طارق وحمايتها، والانطلاق شمالاً، وفتح المنطقة الشاسعة بين جبل طارق ووادي لَكّة، كل ذلك جرى بسبعة آلاف مجاهد حسب.

وجاء المدد من موسى إلى طارق قبل خوض المسلمين معركة وادي لَكّهْ، وهي المعركة الأندلسية الحاسمة، وكان المدد خمسة آلاف مجاهد فقط،

---

(١) الاقتصاد بالمجهود: هو استخدام أصغر القوّات للأمن أو لتحويل انتباه العدو إلى محل آخر، أو صدّ قوّة معادية أكبر منها، مع بلوغ الغاية المتوخاة.

إن الاقتصاد بالمجهود، يدل على الاستخدام المتوازن القوى، والتصرّف الحكيم بجميع المواد لغرض الحصول على التّحشّد المؤثّر في الزمان والمكان الحاسمين.

فخاض طارق المعركة الحاسمة باثني عشر ألف مجاهد، وانتصر على القوط انتصاراً حاسماً، بعد أن تكبّد المسلمون ثلاثة آلاف شهيد.

وانطلق جيش طارق شمالاً، من وادي لكّهْ، حتى تم فتح طُليطلة وعدد كبير من المدن الأندلسية الكبرى، بقوات إسلامية لا تزيد عن تسعة آلاف مجاهد.

وتحقيق هذه الانتصارات المتعاقبة للمسلمين والفتوح، بمثل قواته القليلة في عَدَدها وعُدَدها، الكثيرة بمعنوياتها ومَددها، يمكن اعتباره مثالاً رفيعاً لتطبيق مبدأ: الاقتصاد في المجهود، ينبغي أن يكون أسوة حسنة في هذا المجال.

و - الأمن [1]:

أمّن طارق حماية قواته في مراحل عملياته للفتح كافة، وبذل غاية جهده لمنع العدو من الحصول على المعلومات عن قواته، واستطاع الحصول على المعلومات الضرورية عن القوط عَدَداً وعُدَداً وتنظيماً وقيادة، مستفيداً من شتى المصادر لجمع تلك المعلومات، وبذلك طبق مبدأ: الأمن.

وهناك أمثلة كثيرة على تطبيق مبدأ: الأمن، عملياً، في عمليات طارق العسكرية، تحقيقاً لمقصده الرئيس في فتح الأندلس، فعملية طُريف بن مالك المعافري الاستطلاعية إلى برّ الأندلس، هي في جوهرها لجمع المعلومات المفصلة عن القوط، وطبيعة أرض الأندلس؛ وكان طارق يبدأ أعماله العسكرية بالاستطلاع، ليكون على بيِّنة من أمره، ولايخطو خطوة إلاّ بعد جمع المعلومات الضرورية بالاستطلاع، فلا يضع خطوته إلاّ في موضع أمين، فهو دائماً يعمل في النور لا في الظلام.

وقد ولاّه موسى على مقدمته في عملية فتح طنجة، وولاّه على مقدمته بعد

---

(١) الأمن: هو توفير الحماية للقوّة ومواصلاتها، لوقايتها من المباغتة، ومنع العدو من الحصول على المعلومات عن القوة وتسليحها وتنظيمها وتعدادها وقيادتها، وعن الأرض التي ستجري عليها المعارك القادمة.

عبوره إلى الأندلس، ومعنى ذلك أن طارقاً خبير جداً: بجمع المعلومات عن العدو، وبحرمان العدو من جمع المعلومات عن قوات المسلمين، وبحماية قوات المسلمين من مباغتة العدو لها بالمكان أو الزمان أو الأسلوب.

إن تعداد الأمثلة العملية، على تطبيق مبدأ: الأمن، في عمليات طارق الحربية، قد يطول بدون جدوى، إذ أن تطبيقه لهذا المبدأ، لا يحتاج إلى دليل، ويكفي أن نتذكر أنه استطاع مباغتة القوط في كثير من المواقف، دون أن يستطيع القوط مباغتته.

ز - المرونة [1]:

كانت قوات طارق، تتحرك إلى أهدافها، بكفاية وسرعة، بل كانت سرعتها في بعض الأحيان تخرج عن حدودها، فتُصبح اندفاعاً لا حركة سريعة، كما جرى في حركة قوات طارق بعد المعركةالحاسمة، حتى تم لها فتح طُليطلة، حيث كان اندفاعها سريعاً، وكان سببه: الحرص على تشتيت تجمعات القوط، لكي لا تُصبح قوات ضاربة مؤثرة من جهة، ومطاردة فلول القوط لإجبارها على الإستسلام من جهة ثانية.

وكانت عملية طارق متفتحة مرنة، فإذا أعدّ خطة من الخطط، فرأى الموقف الراهن يقتضي تبديلها أو تحويرها، لم يتأخر أبداً عن التبديل أو التحوير، لتلائم خطته الموقف الراهن الجديد، ولا يبقى مصرّاً على خطته

---

(١) المرونة: إنّ المبدأ الذي كان يُسمى قبل الحرب العالمية الثانية مبدأ: قابليّة الحركة، أصبح في الوقت الحاضر مبدأ: المرونة. ذلك لأنّ: قابلية الحركة، تدلّ على الحركة الماديّة، وهي عمليّة نسبيّة، لا يُعبّر عنها تعبيراً صحيحاً، إلاّ بالمقارنة مع قابلية حركة العدو.

إنّ المرونة، تعني أكثر من ذلك، إنّها لا تتضمن قوّة الحركة حسب، بل قوّة العمل السريع كذلك، فعلى القائد أن يكون مرن الفكر، وعليه أن يطبق تلك المرونة عند وضع الخطط لحملته، وأن تكون خططه بشكل يمكِّنه من أن يُعدِّل بسرعة عمليات قوّاته، حين تضطّره الظروف غير المنظورة إلى هذا التعديل.

الأولى، لسبب أو لآخر، دون مسوّغ مقبول.

فقد أبحر طارق من سبتة، بسبب رغبته في إيجاد مكان ملائم للإنزال في منطقة الجزيرة الخضراء على الساحل الأندلسي، ولكن طارقاً تخلى عن الإنزال في ذلك المكان، حين وجد جماعة من القوط حاولت منعه من الإنزال، فأبحر منه ليلاً إلى مكان وعر على الشاطىء، وهو جبل طارق، وتمكن من الإنزال المفاجىء في المكان الجديد، دون أن يراه أحد على الشاطىء[1].

وهكذا استبدل طارق خطة جديدة بخطته الأولى، فنجح في إنزال رجاله بدون مقاومة معادية تذكر، ونجح في مباغتة العدو بهذا الإنزال.

والأمثلة على تبديل خطط طارق أو تحويرها، يغني عنها المثال السابق، للدلالة على تمتع عقلية طارق بالمرونة المطلوبة.

ج - إدامة المعنويات[2]:

كانت الثقة والمحبة متبادلتين بين طارق ورجاله، ليس بالنسبة لرجاله من البربر، بل بالنسبة لرجاله من العرب أيضاً قادةً وجنودا، فقد كانت لطارق مزايا إنساناً وقائداً، تجعله موضع ثقة رجاله ومحبتهم، كما كان يبادلهم ثقة بثقة ومحبة بمحبة، لذلك كان التعاون بين القيادة والرجال وثيقاً.

وكانت عوامل رفع المعنويات لجيش المسلمين عامة، متيسِّرة إلى أبعد الحدود في القرن الهجري الأول، وهي: العقيدة الراسخة أولاً، والقيادة ذات الكفاية العالية ثانياً، والانتصارات الباهرة ثالثاً وأخيرا.

لقد كان المسلمون متمسِّكين بالإسلام، وأثر الإسلام في رفع المعنويات

---

(١) ابن الكردبوس (٤٦)، وانظر البيان المغرب (٢/ ٩) الذي يذكر أن طارقاً أجرى إنزال رجاله في منطقة جبل طارق.

(٢) المعنويّات: الصّفات التي تميّز الجيش المدرَّب عن العصابات غير المدرّبة: بها تظهر الطاعة القائمة على الحب، وتبرز الشجاعة في القتال، والصّبر على تحمّل المشاق، وتبرز كلّ المزايا التي تجعل المقاتل مطيعاً باسلاً صبوراً.

معروفة، ومنه: الحياةالمستمرة للشهداء والأجر العظيم للمجاهدين. وكان المسلمون يومئذ يقودهم: أكثرهم تدينا، وأعظمهم كفاية، وأفضلهم سجايا، وأحمدهم سيرة، لذلك كانت الثقة بين الرئيس والمرءوس متبادلة، والتعاون بين القادة والجنود وثيقاً. وكانت الانتصارات باهرة، بفضل العقيدة المنشئة البنّاءة والقيادة الرصيفة القادرة. لذلك كانت عوامل تيسّر المعنويات العالية بين جيوش المسلمين واضحة للعيـان، وهي التي يسّرت النصر منذ إنزال قواته على البر الأندلسي، إلى قبل المعركة الحاسمة بسبعة آلاف مجاهد فقط، ويسّرت له النصر على لذريق ومَن معه في المعركة الحاسمة، وكانوا في نحو مائة ألف مقاتل إلى ثمانين ألف مقاتل بجيش من المسلمين تعداده اثنا عشر ألفاً، ويسّرت له فتح المنطقة الأندلسية الممتدة من منطقة وادي لَكّهْ إلى طليطلة بقواته التي تبلغ تسعة آلاف مجاهد، وكان لمعنويات المسلمين وإدامتها أثر حاسم في إحراز هذه الانتصارات(١).

ط - الأمور الإدارية(٢):

مهما تكن خطة العمليات دقيقة مرنة معقولة، فلا تؤتي ثمراتها المرتقبة إذا تعذر تنفيذها من الوجهة الإدارية، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك بالقول: إن نجاح كل خطة من خطط العمليات مرهون بنجاح خطتها الإدارية.

والواقع أن القوط كانوا متفوقين إدارياً على المسلمين، فأرزاقهم وكساؤهم ومساكنهم متيسرة بشكل أفضل مما هي متيسرة لدى المسلمين، لأن القوط يقاتلون في بلادهم، والمسلمون يقاتلون بعيداً عن بلادهم. وكانت وسائط تنقل القوط أفضل مما كان بحوزة المسلمين منها، وبخاصة

---

(١) أنظر التفاصيل في بحث: المعنويات (١٣-٢٨) في كتابنا: الإسلام والنّصر - بيروت - دار الفكر - ١٣٩٢هـ.

(٢) الأمور الإدارية: الغذاء، الكساء، السّكن، الطبابة، البيطرة، التنقل، السّلاح، التجهيزات... الخ..

قبل خوض المسلمين معركة الأندلس الحاسمة في وادي لَكُّهْ، فاستعان المسلمون بمراكب يُليان للعبور، وغنم المسلمون خيول القوط، فأصبحوا فرساناً بعد المعركة الحاسمة، وكان أكثرهم قبلها من المشاة. كما استغنى المسلمون في عبور المدد الذي بعث به موسى إلى طارق، عن سفن يُليان، وعبروا بالسفن التي صنعها لهم موسى في مصانع السفن بتونس.

وكان كل مجاهد يتسلم أسلحته الخاصة به التي تعود إليه ملكيتها، كما كان يتجهز بالملابس الخاصة به أيضاً. ومع ذلك كان لدى كل قائد مستودع للسلاح والتجهيزات، يُسلِّح بها مَن لا يستطيع أن يسلح نفسه، ويجهّز بها مَن لا يستطيع أن يجهِّز نفسه بما يحتاج من تجهيزات، وغالباً ما يكون هؤلاء من فقراء المسلمين المعدمين، الذين لم يسلِّحهم ويجهِّزهم أغنياء المسلمين، فقد كان الأغنياء يجاهدون بأموالهم كما يجاهدون بأنفسهم، ومن الجهاد بالأموال تسليح الغزّاة وتجهيزهم وحملهم أيضاً.

وكانت مشكلة الغذاء بالنسبة للمسلمين غير معقّدة، فقد كانوا يكتفون بأبسط الغذاء كالتمر والسَّوِيْق[1]، فإذا غنموا ما يؤكل نعموا به، وإلاّ صبروا. أما السّكن، فكانت الخيمة كافية لهم، فهي مسكنهم في الصحراء وفي التنقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى، فإذا وجدوا سكناً مريحاً آووا إليه، وإذا لم يجدوا كانت الخيام هي المأوى.

وكان في جيش المسلمين عامة مَن يداوي الجرحى ويسهر على شفائهم، وبخاصة من نساء المجاهدين. وكان هناك مَن يداوي حيوانات المجاهدين من البياطرة، الذين مارسوا معالجة الحيوانات مدة من الزمن وراثياً مع آبائهم وأجدادهم، أو بالتعلّم من الذين يمتهنون البيطرة.

لقد كانت الأمور الإدارية، بصورة عامة، في جيش المسلمين، أقل كفاية وإتقاناً، مما هي عليه في جيش القوط، ولكنها لم تكن مهملة في جيش

---

(١) السّويق: طعام يتّخذ من مدقوق الحنطة والشّعير، سُمي بذلك لانسياقه في الحلق. (ج): أسْوِقَة.

المسلمين. ولعل طبيعة المسلمين زُهداً وتقشفا، في أيام الفتوح، هي التي سهلت عليهم تحمل نواقص الأمور الإدارية، وزادت من صبرهم عليها، إذ لم يكونوا قد اعتادوا ترف العيش وتعودوا عليه.

ي - التّعاون[1]:

كان التعاون وثيقاً بين طارق ورجاله في عمليات الفتح، منذ بدايتها إلى أن سُحب طارق من جبهة القتال في الأندلس إلى دمشق، فقد كان طارق كما ذكرنا يثق برجاله ويثقون به، وكان يحبهم ويحبونه، وكان يتمتع بمزايا قيادية تجعله قريباً من قلوب رجاله أثيراً عليهم، لذلك كان التعاون وثيقاً بين القيادة ورجالها، لأنه ينطلق من أسس رصينة، ولا ينطلق من خوف أو رغبة، ولا من سلطة أو رهبة.

وكان التعاون وثيقاً أيضاً، بين طارق ومسئوله المباشر موسى بن نصير، فقد لَبَّى موسى كل مطالب طارق، فبادر إلى إرسال المدد إليه فوراً بعد طلبه، فوصل المدد إلى طارق في المكان والزمان المناسبين، أي في ساحة القتال، قبل الاشتباك في المعركة الحاسمة - معركة وادي لَكُّهْ. ولما استنجد طارق بموسى ثانية بعد فتح طليطلة وتعرّضت قوات المسلمين إلى خطر محدق، من جرّاء تغلغلها بالعمق في الأندلس، بادر موسى بالعبور على رأس المدد، وبذل قصارى جهده للقضاء على مواطن الخطر الذي كان محدقاً بقوات طارق في الأندلس، ولم يتأخر موسى عن معاونة طارق والتعاون معه، تحقيقاً للفتح.

كما صنّع موسى السفن محلياً، فأنشأ مصنعاً حربياً لصنع السفن، واستطاع أن يحمل المدد على سفنه لا على سفن يُليان، كما جرى في عبور جيش طارق إلى البر الأندلسي، في بداية الفتح.

ولم يقتصر طارق، على وضع مبدأ: التعاون، في حيِّز التطبيق العملي،

---

(١) التّعاون: توحيد الطاقات الماديّة والمعنويّة كافة، لبلوغ الغرض، وهو إحراز النصر على العدو وإجباره على الإستسلام دون قيد ولا شرط.

بينه وبين رجاله، وبينه وبين رئيسه المباشر موسى بن نصير، بل وضع هذا المبدأ في حيِّز التطبيق العملي، بينه وبين يُليان ومَن معه، فاستفاد من سفنهم في العبور، وسخّرهم عيوناً وأرصاداً ومصدراً لاستقطاب المعلومات الضرورية عن القوط وعن طبيعة الأرض في الأندلس، واستفاد منهم أدلاّء في مسيرته عبر الأندلس. كما كان طارق يستشير يُليان ويتقبَّل آراءه، وبخاصة بعد نجاح يُليان في اجتياز تجربة إخلاصه لطارق، وثبات إخلاصه، وقناعة طارق بذلك: «.. فهربوا إلى طليطلة - يريد القوط - وغلقوا مدائن الأندلس. وأقبل يُليان إلى طارق، فقال له: قد فرغت بالأندلس، وهؤلاء أدلاّء من أصحابي، فرِّق معهم جيوشك، وخذ أنت إلى طليطلة، ففرّق جيوشه من إسْتِجَّة..»[1] فقبل طارق نصيحة يُليان، وأرسل جيوشه إلى مَالَقَة وإلْبِيرَة ومُرْسِيَة وقُرْطُبَة[2].

كما تعاون طارق مع يهود الأندلس، الذين كانوا متذمِّرين من القوط وملكهم تذمراً شديدا، فأنصفهم المسلمون بما عرف عنهم من عدل وتسامح، وأزاحوا عنهم ما كانوا يعانونه من اضطهاد الملك والقوط، فاستفاد منهم طارق عيوناً وأرصاداً، ينقلون له الأخبار عن القوط ونواياهم، ويكشفون له ما يبيِّته القوط للمسلمين، وقد تطرقنا إلى ذلك، وكان يهود الأندلس متطوعين في نقل تلك المعلومات عن القوط للمسلمين، ولم يثبت لديّ أنهم عاونوا في القتال، بل اقتصر تعاونهم على جمع المعلومات عن القوط، ونقلها للمسلمين نكاية بالقوط وتقرّباً من المسلمين.

لقد طبق طارق مبدأ: التعاون، تطبيقاً سليماً.

٤ - نقطة الضعف :

---

(١) أخبار مجموعة (٩ـ١٠).

(٢) الرازي نشر جاينجوس (١٦) وأخبار مجموعة (٩ـ١٠) وفتح الأندلس (٩) وابن الأثير (٤/٥٦٣) والبيان المغرب (٢/٩و١١) والنويري (٢٢/٢٧) ونفح الطيب برواية الرازي (١/ ٢٦٠ـ٢٦١).

تغلغل طارق بقواته القليلة نسبياً تغلغلاً بالعمق في الأندلس، امتد من جبل طارق حتى طُليطلة، فعرَّض بحق تلك القوات إلى خطر عظيم، لأنه كشف جناحيها: الأيمن والأيسر، وعرّض خطوط مواصلاتها للانقطاع، فأصبح خطر القوط يهدّد قوات طارق، ليس من أمام، باعتبار أن العدو في الجبهة أمام المسلمين، بل من يمين الجيش الإسلامي، ومن يساره، ومن خلفه، وأصبح مهدداً بقطع خطوط مواصلاته، التي تربطه بقاعدة المسلمين الأمامية المتقدمة في جبل طارق، وقاعدة المسلمين الأمامية في سَّبْتَة وطنجة، وقاعدة المسلمين الرئيسة في القيروان.

لذلك قرّر موسى بن نصير، أن يتولى تلافي الأمر بنفسه، بالعبور على رأس قوات المدد، وبذل قصارى جهده بماعرف به من سمات قيادية متميزة، للقضاء قضاءً مبرماً على مواطن الخطر التي كانت محدقةً بقوات طارق في الأندلس، وحماية جناحيهما الأيمن والأيسر حماية كافية، وتأمين خطوط مواصلاتها بقاعدتها الأمامية المتقدمة، وبقواعدها الأمامية على البر الأفريقي القريب من الشواطىء الأندلسية وبقاعدة المسلمين الرئيسة في إفريقية والمغرب في القيروان.

وأسرع موسى بإنزال قواته على البر الأندلسي في منطقة جبل طارق، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة.

وكان مجرد وصول موسى على رأس قواته إلى البر الأندلسي، قد أثّر في معنويات المقاومة القوطية، وجعلها تحسب حساب هذه القوات الإسلامية الجديدة، وتتريث في التعرض بقوات طارق، ريثما ينكشف الموقف وتتضح الأمور.

وزحف موسى إلى شَذُوْنَة، فاستعاد فتحها، وكان طارق قد فتحها بعد المعركة الحاسمة مباشرة، ويبدو أن القوط استعادوها من المسلمين.

وتحرك موسى من شذونة إلى قَرْمُوْنَة ورعواق، ففتحها أيضاً، وبذلك أُمِّنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء وجبل طارق إلى

قُرطبة، وكان طارق قد فتح قرمونة، ويبدو أن المقاومة القوطية استعادتها من المسلمين، ففتحها موسى ثانية.

ومن الواضح، أن سقوط شذونة وقرمونة بعد فتحها من طارق لأول مرة، عرّض خطوط مواصلات طارق للانقطاع، مما يكبِّدها خسائر فادحة بالأرواح ويجبرها على الاستسلام، فكان من أول ثمرات عبور موسى إلى البر الأندلسي، استعادة فتح هاتين المدينتين من جديد، تأميناً لخطوط مواصلات قوات طارق في الأمام، وترصيناً لموقفها في الثبات، وقضاءً على مراكز المقاومة القوطية في مؤخّرة قوات المسلمين.

واتجه موسى نحو الغرب، ليفتح مدينة إشبيلية كبيرة مدائن الأندلس بعد طليطلة إذ ذاك، ففتحها موسى بعد بضعة أشهر من الحصار، وكان طارق قد فتح هذه المدينة لأول مرة، ويبدو أن القوط استعادوها من المسلمين، فاستعادها موسى إلى المسلمين بعد قتال مرير.

وسار موسى على رأس قواته إلى مارِدَة، وكان الهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها، لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك، فبقي موسى محاصراً البلد بقية الصيف والشتاء التالي، ولم يسلِّم البلد إلاّ بعد عشرة أشهر من الحصار الصعب المديد، مما يدل على صلابة عود المقاومة القوطية في هذا البلد المنيع.

وكان الطريق بين ماردة إلى طليطلة جبلياً وعراً، وكان ملغوماً بالمقاومة القوطية المتنامية، فتوجه موسى إلى طليطلة، وتوجه طارق من طليطلة باتجاه ماردة، فالتقى القائدان في وسط الطريق بين طليطلة وماردة، بعد مقاومة شديدة وقتال متواصل، فقد كانت المقاومة القوطية قد اتخذت من المواقع الجبلية جيوباً للمقاومة، وساعدت وعورة المنطقة على نجاح هذه المقاومة، ولكن قوات طارق وموسى كبّدوا المقاومة القوطية خسائر فادحة، دون أن يستطيعوا استئصال شأفتها من الجذور.

وكانت المعركة التي شهدها موسى وطارق في طريق ماردة طليطلة معركة

قاسية، أُطلق عليها معركة: السّواقي، ثبت المسلمون لهجوم القوط ثباتاً راسخاً، وصبروا على مقاومة الهجوم صبراً جميلاً، ثم ردّوا على هجوم القوط بهجوم مقابل، فانتصر المسلمون على القوط.

ويبدو أن اشتباك المسلمين بالقوط في معركة السواقي، شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها، ووثبوا بها، وسيطروا على مقاليدها، فاضطر موسى على استعادة فتحها من جديد، ودخولها دخول المنتصر.

وحين كان موسى محاصراً ماردة انتقضت إشبيلية من جديد، فوجه موسى ابنه إلى اشبيلية ففتحها للمرة الثالثة، ثم نهض إلى لَبْلَة[1]، وباجَة، ففتحهما أيضاً. وقد سار عبدالعزيز بن موسى بعد ذلك على رأس جيشه لا ستكمال فتح الأندلس غرباً: البرتغال حاليا، فكانت له فتوح في غربي الأندلس[2]، وبذلك أبعد موسى الخطر الذي يهدد جناح قوات طارق الأيسر، بفتوح عبدالعزيز بن موسى.

كما بعث موسى ابنه عبد الأعلى[3] إلى جنوبي الأندلس وجنوب شرقي الأندلس، وكان ذلك بعد استعادة فتح إشبيلية للمرة الثانية، فاستطاع عبدالأعلى أن يستعيد فتح مالَقَة وإلبِيرة، وكان التعاون بين الأخوين في الفتح وثيقاً.

وكما أبعد موسى الخطر الذي يهدد جناح قوات طارق الأيسر بفتوح

---

(١) لبلة: قصبة كورة بالأندلس كبيرة، يتصل عملها بعمل أكشونية، وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة، بينها وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام أربعة وأربعون فرسخاً، وبينها وبين إشبيلية إثنان وأربعون ميلاً، وهي بريّة بحرية غزيرة الفضائل والثمر والزروع والشجر، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣١٩).

(٢) عبد العزيز بن موسى بن نصير: ترد ترجمته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار، وفيه تفاصيل فتوح عبد العزيز.

(٣) عبد الأعلى بن موسى بن نصير: ترد ترجمته المفصّلة في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار، وفيه تفاصيل فتوح عبد الأعلى.

عبدالعزيز بن موسى أبعد موسى الخطر الذي يهدد جناح قوات طارق الأيمن بفتوح عبدالأعلى بن موسى، وبهذه الجهود المكثفة التي بذلها موسى بمعاونة طارق الذي ثبت في طليطلة بالرغم من إحاطة القوط به إحاطة السّوار بالمعصم، وبمعاونة ولدي موسى اللذين فتحا غرباً وشرقا، فأمّنا جناحي طارق المكشوفين: الأيمن والأيسر، كما أصبحت خطوط مواصلات قوات طارق آمنة أيضاً، وأصبح المسلمون الفاتحون في الأندلس بعيدين عن الخطر، قريبين من الأمن، وبذلك استطاع موسى بمعاونة طارق، الانطلاق شمالاً لاستكمال الفتح.

أليس هذا الذي حدث في معركة السّواقي، بين فلول القوط وقوات موسى بن نصير بمعاونة طارق، وفتح موسى ثانية المدن الأندلسية التي فتحها طارق قبله ثم انتقضت، وفتح موسى طليطلة ثانية بعد انتقاضها منتهزة فرصة مغادرتها من طارق بوقت قليل، دليلاً قاطعاً على أن المسلمين بقيادة طارق قد تغلغلوا في الأندلس بالعمق أكثر مما ينبغي، وأنهم بعد تغلغلهم الذي لا يتناسب مع حجم قواتهم، أصبحوا في خطر محدق جسيم، فكان عبور موسى هو لدرء هذا الخطر المحدق الجسيم؟.

ثم أليس بقاء طارق في طليطلة دون التحرك لفتح جديد، ودون التوجه للقاء موسى، بالرغم من مرور مدة طويلة من الزمن على عبور موسى إلى الأندلس، هو لتثبيت حشود المقاومة القوطية في أماكنها، دون التعرض بقوات موسى وقوات طارق لأطول مدة ممكنة، بل لحماية طليطلة بالذات من هجمات المقاومة القوطية واحتمال استعادتها من المسلمين؟

ثم أليس حركة طارق للقاء موسى في طريقه إلى طليطلة، وهو طريق جبلي وعر، فيه حشود المقاومة القوطية المتربصة بالمسلمين، كان لمعاونة قوات موسى، على اجتياز هذا الطريق المحفوف بالمخاطر بأمن وسلامة، أو ضمان إحراز النصر على القوط إذا اشتبكوا بالمسلمين، لأن اشتباكهم بقوات موسى وقوات طارق، أصعب عليهم بكثير من اشتباكهم بقوات موسى وحدها؟.

لقد كان تغلغل طارق بقواته القليلة نسبياً، بالعمق في الأندلس، هو نقطة الضعف، في قيادة طارق، فقد كان تغلغل قواته عمقاً لا يتناسب مع حجمها في حال من الأحوال.

ولا يمكن أن تخفى نقطة الضعف هذه على طارق، بما عرف عنه من سجايا قيادية عملية لا تتكرر إلاّ نادرا. ويمكن تعليل أسباب وقوع طارق في هذا الخلل الذي كان يمكن أن يأتي على فتوحه ويكبّد قواته خسائر فادحة مادياً ومعنوياً، بأنه لم يكن يعمل وحده في الأندلس، ولا كان فتحها يهمه وحده، فقد كان موسى بن نصير مسئوله المباشر إنساناً وقائدا، مطلعاً على موقف طارق إطلاعاً مفصلاً، فكان لا يتهاون في إمداد قواته بالرجال، ويحرص على مصير قوات طارق حرص طارق عليها. كما كان مصير فتوح طارق لا تهمّ طارق وحده، بل تهمّ موسى بالدرجة التي تهمّ طارقاً، إن لم يكن يهمّ موسى أكثر مما يهمّ طارقاً - وبخاصة وأن الخليفة يحاسب موسى على مصير قوات طارق ومصير فتوحه، لو لحق بقوات طارق وفتوحه ضرر من جرّاء إهمال موسى في المدد أو تقصيره، لذلك بادر موسى إلى قيادة المدد بنفسه رغم شيخوخته، مبالغة في حرصه على معاونة طارق والتعاون معه، وقطع الخطر الذي تعانيه قواته، والعمل على إكمال الفتوح إلى نهايتها المرجوة، التي يتمناها موسى كما يتمناها طارق. ومن الواضح جداً، أن موسى، كان بإمكانه أن يولّي أحد أبنائه قيادة المدد، أو يولّي هذا المدد أحد قادته المرءوسين، وكان أولاد موسى قادرين على تحمل أعباء قيادة المدد عن أبيهم الشيخ، وكان قادة موسى المرءوسون مجرَّبين في الفتوح والمعارك وقادرين على تحمل أعباء قيادة المدد أيضاً، ولكن موسى قرر أن يتحمل مسئوليته كاملة، بعد أن وجد مبلغ ما يحيق بقوات طارق من أخطار جسيمة، فزجّ نفسه في معارك واضحة المخاطر، ولكن حرصه على مصير المسلمين والفتح غطّى على ما توقعه من مشقات وأخطار، فآثر سلامة المسلمين وراحتهم على سلامته وراحته.

لقد كان طارق، يستند على ركن ركين في قيادته، فقد كانت الثّقة متبادلة إلى أبعد الحدود، بين طارق وموسى رئيسه المباشر في القيادة، لذلك كان يُقْدم على النهوض بواجبه قائداً، حتى إذا كان النهوض به لا يخلو من الأخطار كان يعلم علم اليقين، أن هناك مَن يشاركه في تحمل تلك الأخطار مشاركة تُبدِّدها تبديداً، وتجعلها أثراً بعد عَيْن.

ولو أن الثقة لم تكن متبادلة بين طارق وموسى، لاختلف الأمر اختلافاً جذرياً، ولما أقدم طارق على مجازفة عسكرية دون مسوِّغ، ولكنه كان يعلم أن موسى لا يمكن أن يتخلى عنه، وأن المدد سيجعل من المجازفة نصراً لامعاً.

وكان هناك ما يسوِّغ لطارق واندفاعه في العمق الأندلسي، من الناحية العسكرية الفنية البحت، فبعد خروج طارق من المعركة الحاسمة، معركة وادي لكّه، منتصراً على القوط بقيادة ملكهم لذريق انتصاراً حاسما، كان عليه أن يطارد فلول القوط بتماس شديد، وألاّ يفسح لهم المجال للتجمع تحت لواء واحد بقيادة واحدة من جديد، لذلك طارد فلولهم حول ساحة المعركة الحاسمة، وكبّدهم خسائر فادحة بالأرواح في مطاردته التي نهضت بها سراياه نهوضاً موفقاً. وقد لجأ قسم من القوط إلى مدينة شذونة القريبة جداً من ساحة المعركة الحاسمة، فاقتضى الموقف العسكري، أن يفتح طارق هذه المدينة، ليُطهرها من فلول القوط الذين احتموا بها. وكان قلول القوط قد انسحبوا إلى إستِجّة، فطاردهم طارق إلى هذه المدينة، وفتحها وبدّد فلول القوط التي لجأت إليها.

وبعد فتح إستجة، انسحب القسم الأكبر من فلول القوط إلى طُليطلة، باعتبارها أكبر مدنهم وعاصمة ملكهم: للدفاع عنها، والاحتماء بها، والتعاون مع حاميتها المحلية في صدّ المسلمين عن فتحها. كما انسحب بعض فلول القوط، إلى المدن المجاورة لمدينة إستجة، بأعداد أقل من الأعداد التي أخذت طريقها إلى طليطلة. فكان على طارق أن يطارد تلك

الفلول في معاقلها الجديدة، وعلى رأسها مدينة طليطلة، فتوجه على رأس القسم الأكبر من رجاله إلى طليطلة، وفرق السرايا إلى المدن المجاورة لإستجة، عاملاً بنصيحة يُليان، لأنها تحقق هدفه الحيوي في مطاردة فلول القوط أينما وُجدوا وحيثما اتجهوا، كما تُحقق هدفه في الفتح؛ وهكذا فرض الموقف الراهن نفسه على طارق، فازداد تغلغله في عمق البلاد، وتوسعت جبهته، وكان هذا التغلغل والتوسع في الجبهة لا مفرّ منه، بالنظر للموقف العسكري الراهن، على الرغم من خطره الداهم على قوات المسلمين.

لقد اضطر طارق على اتخاذ هذا المسلك اضطراراً، وهو يعلم حق العلم محاذيره. ومن الواضح أن طارقاً، بعد انتصاره على القوط في المعركة الحاسمة، وكانت قوات القوط متفوقة على قوات المسلمين تفوقاً ساحقاً في تلك المعركة -كما ظهر لنا من دراسة المعركة- وهو يرى طارق انسحاب فلول القوط بأعداد ضخمة من ساحة المعركة في اتجاهات مختلفة، على غير هدى وبصيرة غالباً، وعلى هدى وبصيرة نادراً، فكان الموقف الراهن، يقضي عليه أن يطارد الفلول القوطية، مستفيداً من حالة انهيارها المادي والمعنوي، نتيجة لقتل ملكها أولاً، ولهزيمتها ميدانياً ثانيا، إذ لا يمكن أن يستمر هذا الانهيار طويلاً، فمن الواجب استغلاله بأقصى ما يمكن في مطاردة سريعة مدبرة، خوفاً من أن يستعيد القوط تماسكهم المادي والمعنوي، ويتجاوزوا مدة الانهيار الذي يعانونه، والذي لا يمكن إدامته وتعميق آثاره، إلاّ بالمطاردة الفورية، وهذا ما طبقه طارق عملياً، فقاده إلى التغلغل عمقاً، وإلى توسيع جبهة المسلمين، بدون أن يزداد تعداد المسلمين في حينه.

والواقع أن طارق كان أمامه مسلكان لا ثالث لهما: أن يكتفي بانتصاره في المعركة الحاسمة، ويتخذ موضعاً دفاعياً مناسباً، ريثما تصل إليه الإمدادات، ثم يستأنف مسيرته لاستكمال ما بدأه من فتوح.

ومحذور هذا المسلك، أن يستعيد فلول القوط رشدهم، الذي فقدوه من جراء هزيمتهم وقتل ملكهم، وجسامة خسائرهم بالأرواح والأموال،

وحينذاك يمكن أن يهاجموا قوات طارق في مواضعها الدفاعية، ويمكن أن يستعيدوا ما فقدوه من مدن أندلسية من المسلمين، وبخاصة وأن التفوق العَدَدي والعُدَدي مع القوط على المسلمين. وحتى في حالة وصول المدد إلى المسلمين، وهم بهذه الحالة، من تجمع القوط واستعادة معنوياتهم، فإن انتصار المسلمين عليهم يكون أصعب بكثير من حالتهم في تفرقهم وانهيار معنوياتهم، مما يجعل اتخاذ هذا المسلك من طارق، غير مأمون العواقب، ولا مضمون النتائج.

والمسلك الثاني الذي كان أمام طارق، هو مطاردة فلول القوط بسرعة وبتماس شديد، وهذا هو المسلك الذي اتخذه طارق، وطبّقه عملياً في مسيرة الفتح.

لقد كان أمام طارق مسلكان صعبان، أحلاهما مُرّ، فاختار المسلك الذي يناسب المجاهدين الصادقين في القرن الأول الهجري، خير القرون، وقرن الفتوح الإسلامية المجيدة.

وما كان بإمكانه أن يختار المسلك الأول، مسلك الدفاع، لأنه كان قائداً تعرضياً لا قائداً دفاعياً، ولا تنطبق مقاييس طارق على مقاييس القادة في العصر الحديث، فقد كانت أسبقية المقاييس بالنسبة لطارق وقادة الفتح الاسلامي قاطبة، للمقياس الروحي، فأصبحت أسبقية المقاييس اليوم، للمقياس المادي، وشتّان ما بين المقياسين.

ولكل عصر مقاييسه المعتبرة، ولكل زمان دولة ورجال.

٥ - مجمل السِّمات:

أ - سِماته الخاصة:

ذكاء خارق، وكياسة واتِّزان وحصافة، وحسن التدبير وحسن السياسة، والقابلية على استقطاب الثِّقة به إنساناً وقائداً، ونسبه البربري الذي آثر عليه نسبه إلى الإسلام، فهو طارق ابن الإسلام بحق لا طارق ابن البربر نسباً،

وإيمانه الرّاسخ العميق بتعاليم الدين الحنيف، وتجربة عملية ناجحة في القيادة، يقود رجاله من الأمام ويكون قدورة حسنة لهم بالأعمال لا بالأقوال، يستأثر دون رجاله بالخطر، ويؤثرهم بالاطمئنان، يبذل جهداً في جهاده أكثر من أيّ رجل من رجاله، حريص غاية الحرص على أرواح رجاله، يتحلى بالضبط المتين، ويتحمل المسئولية كاملة ويحبّها، يبذل قصارى جهده في رفع معنويات رجاله، يهتم بأمن جيشه كل الاهتمام، يسبق النظر، ويُعِد لكل ما يحتمل وقوعه ما يناسب من حلول، لا يجتاحه الغرور في حالة النصر ولا يستخذي في حالة الاندحار، يُقدِّر الموقف العسكري تقديراً واقعياً صائباً، يتميّز بالشجاعة النادرة والإقدام.

ب - سِماته العامة :

كان ذا قرار سريع صحيح، يتميز بالشجاعة الشخصية، وكان ذا إرادة قوية ثابتة، له نفسية رصينة لا تتبدّل في حالتي النصر والهزيمة، يتحمل المسئولية ويحبّها ولا يتهرب منها ويلقيها على كواهل الآخرين، يتمتع بمزية سبق النظر، وعلى معرفة مفصلة بنفسيات رجاله وقابلياتهم، يثق برجاله ويثقون به، يثق برؤسائه ويثقون به، يحب رجاله ويحبونه، وكان ذا شخصية قوية نافذة، يتمتع بالقابلية البدنية المتميزة، وله ماضٍ ناصع مجيد في ميدان الجهاد.

وكان يعرف مبادىء الحرب بالفطرة، ويطبقها عل عملياته العسكرية تطبيقاً ناجحاً، ومن المعلوم أن مبادىء الحرب لا تتغير، ولكن أساليب الحرب هي التي تتغير.

ج - تلك هي سمات طارق الخاصة والعامة، التي قَدَّمَتْه لتسنّم منصب القيادة، ثم جعلت منه قائداً لامعاً من أبرز قادة الفتح الإسلامي، لا يُذكرون إلاّ ويذكر معهم.

وسمات قيادة طارق، تشابه إلى حدّ بعيد سمات قيادة خالد بن الوليد، فإذا كان خالد بطل فتوح المشرق، فطارق بطل فتوح المغرب. وإذا كان خالد

بطل العرب المسلمين، فطارق بطل البربر المسلمين.

وإذا كان خالد من بني مخزوم من قريش، فإن طارقاً لم يكن من بني مخزوم ولا من قريش، وإذا كان لنسب خالد أثر في تسنّمه القيادة، فلا أثر لنسب طارق في تسنمه القيادة، وهو بحق القائد العصامي الذي بنى مجده بمزاياه وكفاياته، وهو الجَدّ الأول لعَقِبه وعَقِب عقِبه يعتزّون بالانتساب إليه، ويفخرون بسجاياه وفتوحه.

تلك هي مجمل سماته الخاصة والعامة، لعلّها تفيد الذين يؤثرون الإيجاز على الإطناب، ولعلّها تفيد الذين لا يتسع وقتهم لدراسة الشروح والتفصيلات.

طارق في التاريخ

يذكر التاريخ لطارق، أنه فتح شطر الأندلس، وكان أول قائد بدأ بفتح الأندلس فتحاً مستداماً.

ويذكر له، أنه شارك موسى بن نصير في فتح ولاية طنجة الواسعة الأرجاء من المغرب.

ويذكر له، أنه فتح مدينة سبتة المغربية سِلْماً، بعد أن استعصى فتحها على الفاتحين عَنْوَة.

ويذكر له، أنه كان إدارياً لامعاً، برز في إدارته الحازمة على ولاية طنجة المغربية.

ويذكر له، أنه كان سياسياً حصيفاً، استمال يُليان بالحسنى، حيث عجز السيف عن استمالته.

ويذكر له، أنه أول قائد غير عربي، تسنّم منصباً قيادياً كبيراً، بمجهوده وجهاده ومزاياه، لا بنسبه وحسبه وكفايته حسب.

ويذكر له، أنه كان قائداً لامعاً، من ألمع قادة الفتح الإسلامي، في القرن الأول الهجري، قرن الفتوح والانتصارات.

ويذكر له، أنه أول من نشر العربية لغةً، والإسلام ديناً، في الفردوس العربي المفقود.

ويذكر له، أنه كان من أشجع الشجعان، لا يُبالي أَوَقَع الموت عليه، أو وقع هو على الموت.

ويذكر له، أنه في سماته القيادية يشابه خالد بن الوليد، فهو خالد فتوح المغرب، كما كان خالد بن الوليد قائد فتوح المشرق، وكان طارق بطل غير العرب المسلمين، كما كان خالد بطل العرب المسلمين.

ويذكر له، أنه في مزاياه القيادية، يشابه المُثنّى بن حارثة الشّيباني، فهو

بطل فتوح الأندلس، كما كان المثنى بطل فتوح العراق.

ويذكر له، أنه غنم مغانم جسيمة في الأندلس، ولكنه لم يخلّف أرضاً ولا داراً، ولم يُورث درهماً ولا ديناراً.

ويذكر له، أنه كان محبوباً من البربر، تتوجه حشودهم بأمره إلى الجهاد، بدون سؤال ولا جواب.

ويذكر له، أنه لمع سنوات معدودات فاتحاً، ثم سطع حتى بهر الناس شرقاً وغرباً، ولكنه انطفأ فجأة، فاندثر إنساناً، وبقيت فتوحه لا تندثر أبداً.

ويذكر له، أنّ بقدر حديث المؤرخين عنه قائداً، بقدر إغفال الحديث عنه إنساناً، فطارق القائد معروف جداً، وطارق الإنسان مجهول جداً.

ويذكر له، أن فتوحه الأندلسية، قوبلت بالعقوق، وقضى أيامه بعد رحيله من الأندلس إلى دمشق، مغموراً مجهول المكانة والمكان.

ويذكر له، أنه احترق بنار مولاه موسى، فتحمَّل ما تحمَّله موسى ثابتاً صابراً محتسباً، دون أن يقترف ما يستحق عليه العقاب.

ويذكر له، أنه لم يحاسب كما حوسب غيره في تصرفه بالأموال، بل كانت جريمته الأولى والأخيرة، أنه ذو شعبية طاغية في المغرب والأندلس، فيخشى على السُلطة من شعبيته وعواقبها، ويُخشى من الناس أن يستغلّوه في مصاولة السُلطة، ويُخشى من استجابته للناس، فيضع السُلطة في اختبار عسير.

ويذكر له، أن الخروج على السُلطة، كان يدور في خَلَد حاسديه من الطامعين في ولاية الأندلس، ولا يدور في خلده طرفة عَيْن، لأنه كان أكبر من المناصب، تسعى إليه ولا يسعى إليها، ويعتبرها تكليفاً لا تشريفاً.

ويذكر له، أن السُلطة أقصته عن القيادة، اعتماداً على ما سمعته عنه لا على ما تحققته منه، فذهب ضحيّة الوشاية والافتراء، لا ضحية الواقع واليقين، وخسر الفتح بإقصائه قائداً لا يتكرر إلاّ نادراً، وكانت الخسارة بإقصائه قائداً وإنساناً لا تعوّض.

رحم الله القائد الفاتح، البطل المجاهد، الإداري الحازم، السياسي البارع، التقي، الذكي الألمعي، طارق بن زياد فاتح شطر الأندلس.

طَريف بن مالك
فاتح جزيرة طريف[١] والجزيرة الخضراء[٢]

نسبه وأيامه الأولى

هو طَريف بن مالك من البربر، يكنى: أبا زُرْعَة[٣]، وهو طريف البربري مولى موسى بن نصير[٤]، الذي تُنسب إليه جزيرة طريف[٥].

وطريف ينتسب إلى قبيلة بَرغَواطة البربرية[٦] من البرانس، ومن المعلوم أن البربر قسمان: البرانس، والبتر، وكانت قبيلة بَرَغْواطة تسكن الإقليم المواجه للبحر المحيط شمال وادي أمّ ربيع[٧]، حول منطقة مدينة الرباط الحالية.

---

(١) جزيرة طريف: جزيرة صغيرة في بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وطريف بليدة في جنوبيّ الأندلس، أنظر تقويم البلدان (١٨٨)، والجزيرة والمدينة منسوبتان إلى طريف بن مالك الذي فتحهما، أنظر تقويم البلدان (١٦٦).

(٢) الجزيرة الخضراء: مدينة أمام سبتة من برّ الأندلس الجنوبيّ، وهي طيّبة نزهة، توسّطت مدن السّاحل، وأشرفت بسورها على البحر، ومرساها أحسن المراسي للجواز، وأرضها أرض زرع وضرع، وبخارجها المياه الجارية والبساتين النّضيرة، ونهرها يعرف بوادي العسل، وهي من أجمع المدن لخير البر والبحر، أنظر تقويم البلدان (١٧٢-١٧٣) ومعجم البلدان (٣/ ٩٩).

(٣) البيان المغرب (٢/ ٥) ونفح الطيب (١/ ٢٥٣).

(٤) موسى بن نصير: أنظر سيرته المفصّلة في: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١-٣٠٩).

(٥) نفح الطيب (١/ ٢٢٩ و ٢٥٣ و ٢٨٥).

(٦) فتوح مصر والمغرب والأندلس (٢٥٤) - ابن عبد الحكم - نشر شارل توري (Torrey) - ليدن - ١٩٢٠م.

(٧) تاريخ المغرب العربي (٤٣)، والإقليم حول منطقة مدينة الرباط الحالية.

وسنجد أن طريفاً ليس من قبيلة برغواطة حسب، بل هو رئيسها، وكان له دور كبير في تلك القبيلة، من ناحيتي: العقيدة، والقتال، أي في توجيهها الفكري، وفي قيادتها في ميادين القتال.

وتذهب بعض المصادر، إلى أنه كان من أهل اليمن، فهو أبو زُرْعَة طريف بن مالك المَعَافِري[1]، الاسم طبق الكنية[2]، والمعافر باليمن والأندلس ومصر[3]، والأصل من اليمن لأنهم من سبأ. وهو طريف بن مالك النّخَعِي[4]، والنّخَعُ بن عامر من سبأ[5] أيضاً، وسَبَأ من اليمن.

ومن الواضح، أن طريفاً ليس عربياً، فهو ليس من المعافر ولا من النخع، وهو بعد ذلك ليس من اليمن، بل هو بربري من المغرب، ظهر أثره في البربر على عهد موسى بن نصير، وظل أثره فيهم بعد عهد موسى بن نصير، ولم يبرح المغرب في العهدين، وظل مع البربر واحداً منهم حى توفاه الله.

ويبدو أن والد طريف، وهو مالك، كان مسلماً، بدليل اسمه العربي الإسلامي، مما يدل على أن طريفاً ولد وشب وترعرع في بيت إسلامي، ولعلّ تدينه لفت إليه الأنظار، بالإضافة إلى مزاياه وكفاياته الأخرى، وكان قربه من موسى بن نصير قد أتاح له الفرصة السانحة لتولي منصباً قيادياً، فنجح في منصبه القيادي نجاحاً ظاهراً. وقد كان من أقرب المقرّبين إلى موسى بن نصير من البربر: طارق بن زياد، وطريف بن مالك، فاستعان بهما في قيادة البربر، وبخاصة في مهمة فتح الأندلس.

وأخبار طريف في أيامه الأولى نادرة جداً، وقد برز لأول مرة في توليته

---

(١) المعافري: نسبة إلى يَعْفُر بن مالك بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زيد بن كَهْلَان بن سَبَأ، أنظر جمهرة أنساب العرب(٤١٨)

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٥٤) برواية الرازي.

(٣) جمهرة أنساب العرب (٤١٨).

(٤) ابن خلدون (٤/ ٢٥٤) ونفح الطيب (١/ ٢٣٣) نقلاً عن ابن خلدون.

(٥) النّخع بن عامر بن عُلَّة بن جَلد بن مالك بن أُدَد بن زيد بن يَشْجُب بن عَرِيب ابن زيد بن كَهْلان بن سبأ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٤١٢ـ٤١٤).

قيادة على جماعة من البربر، لتحقيق استطلاع في الأندلس، وربما بقي طريف مجهولاً لو لم يتَسنّم هذا المنصب القيادي، الذي سترد أخباره وشيكاً.

الفاتـــح

بدأ موسى بن نصير استشارته للخلافة في دمشق، وكان الخليفة القائم حينذاك هو الوليد بن عبدالملك بن مروان (٨٦هـ - ٩٦هـ)، بعد اتصالاته بيُلْيَان[١] صاحب مدينة سَبْتَة أو قبل اتصالاته بيليان. وقد تردّدت الخلافة بادىء الأمر في الموافقة على القيام بمثل هذه العملية الكبيرة: فتح الأندلس، خوفاً على المسلمين من ركوب البحر، ومن صعوبة القتال بحراً وبرّاً، وهي تعلم أن خبرة المسلمين والعرب منهم بخاصة في فنون القتال البحري قليلة جداً.

فقد كتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك، يخبره بالذي دعاه إليه يليان (من فتح الأندلس) من أمر الأندلس، ويستأذنه في اقتحامها. وكتب إليه الوليد: «أن خُضْها بالسرايا، حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال». وراجعه موسى: «أنه ليس ببحرٍ زَخّار، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه»، فكتب إليه: «وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه»[٢].

وأرسل موسى في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجرية (آب: أغسطس - أيلول: سبتمبر ٧١٠م) سرية استطلاعية إلى جنوبي الأندلس، مؤلفة من خمسمائة مجاهد، منهم مئة فارس، والباقي من المشاة، بقيادة أبي

---

(١) أنظر ما جاء عن يليان وعن اتصالاته بموسى بن نُصَير وطارق بن زياد، في سيرة طارق بن زياد، في كتاب: قادة فتح الأندلس والبحار.

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٥٣).

زُرْعَة طريف بن مالك، وهو مسلم من البربر[١].

وعبر هذا الجيش الزّقاق، والزّقاق اسم يطلق أحياناً على المضيق بين الأندلس وشمالي إفريقية[٢]، من سبتة، بسفن يليان أو غيره، ونزل في جزيرة بالوما (Isla de Las Palomas) في الجانب الإسباني، وعُرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف[٣] (Tarife) ومن ذلك الموقع، الذي اتخذه طريف وسريته الاستطلاعية القتالية قاعدة أمامية متقدمة، قام طريف وسريته بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل الأندلسي الجنوبي بإرشاد يليان وصحبه، وأغار على الجزيرة الخضراء، فأصاب غنيمة كبيرة، ورجع سالماً في رمضان أيضاً سنة إحدى وتسعين الهجرية، فلما رأى الناس ذلك تسرّعوا إلى الغزو[٤]، وتشجعوا على فتح الأندلس. وخفت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعون المسلمين، كما قامت تلك القوة بحراسة موقع إنزال المسلمين في جنوبي الأندلس، وكانت نتيجة الغارة الاستطلاعية التي قادها طريف، أن المسلمين غنموا مغانم كثيرة وسبياً عديداً، وقوبلوا بالإكرام والترحيب، وشهدوا كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها، وعادوا في أمنٍ وسلام. وقصّ قائدهم طريف على موسى نتائج رحلته، فاستبشر بالفتح، وجدّ في أهبة الفتح، كما تشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح المستدام[٥].

لقد كانت مهمة سرية طريف، مهمة استطلاعية، هدفها الحصول على

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٦٠ و٢٢٩ و٢٣٣ و٢٥٣) والروض المعطار (٨ و١٢٧) والبيان المغرب (٢/ ٥).

(٢) تاريخ الأندلس (١٣٠) نصّ ابن الشباط، والروض المعطار (٨٣ و١٢٧) ومقدمة ابن خلدون (١/ ٤٢٧) ونفح الطيب (١/ ١٢٧ و١٢٩ و١٤٥ و٢٢٩ و٢٣٢ و٢٤٥ و٢٥٢).

(٣) دولة الإسلام في الأندلس (١/ ٤٠) وفجر الأندلس (٦٧)، وانظر الفتح والاستقرار العربي والإسلامي في شمالي إفريقيا والأندلس (١٦٢).

(٤) ابن الأثير (٤/ ٥٦١).

(٥) Saavedra. OP. Cit. PP. 64

المعلومات عن طبيعة الأرض والسكان وأساليب قتالهم ودرجة ضراوتهم، وتفاصيل قيادتهم، ومبلغ الثّقة المتبادلة بين القيادة والسكان، ومبلغ حرص السكان والقيادة على الدفاع عن أرضهم[1]، وكان لقيام طريف بعدّة غارات في المنطقة دون أن يلاقي أيّة مقاومة[2]، نتيجة مهمة واحدة، هي: عدم حرص القيادة والسكان على الدفاع عن أرضهم كما ينبغي، وهي نتيجة على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لخطط الفتح، وبالنسبة للمسلمين الفاتحين.

ولكن مهمة سرية طريف الاستطلاعية، لم تقتصر على هذه الناحية من جمع المعلومات عن أهل الأندلس وطبيعة أرضهم حسب، بل تتعدّاها إلى استطلاع حقيقة نوايا يليان ومّن معه تجاه السلطة القائمة في الأندلس، والمتمثلة بالملك لذريق ونظامه، وحقيقة نواياه ومّن معه تجاه المسلمين الفاتحين. وقد أثبتت سرية طريف آلاستطلاعية، أن يليان ورجاله يحقدون على لذريق، ولا يتأخرون عن التشبث بكل وسيلة ممكنة للقضاء عليه، وأنهم من أجل التنفيس عن حقدهم عملياً، يضعون كل طاقاتهم المادية والمعنوية للتعاون مع المسلمين في ميدان القتال ومعاونتهم، وكان التأكد من تلك النوايا ضرورياً لاستكمال الإعداد للفتح، وقد تأكد لموسى بن نصير وطارق بن زياد، أن يليان ومَن يشايعه صادقون في معاونتهم وتعاونهم مع المسلمين الفاتحين، وأن غرضهم هو التعاون والمعاونة وليس خدعة بل حقيقة لا غبار عليها.

وهذامثال علىمبلغ حرص المسئولين يومئذ،خلفاء وقادة،على أرواح

---

(١) الاستطلاع نوعان: الاستطلاع بدون قتال، بأفراد قلائل، والاستطلاع بالقتال، بقوّة قادرة على القتال، تستطيع الحصول على المعلومات بالقتال، كسرية طريف، أنظر كتب التدريب التعبوي الرسميّة.

(٢) أخبار مجموعة (١) وفتح الأندلس (٥) وابن الكردبوس (٤٥) وذكر بلاد الأندلس (٨٤) وابن الأثير (٤/ ٥٦١) والبيان المغرب (٢/ ٥) والنويري (٢٢/ ٢٦) ونفح الطيب (١/ ١٦٠ و٢٥٣ـ٢٥٤).

المسلمين، وقد أدّى طريف ورجاله واجبهم الاستطلاعي المزدوج على أتم ما يرام، وكان استطلاعه تمهيداً لوضع خطة فتح الأندلس موضع التنفيذ العمليّ في ميادين القتال[1].

الإنســـان

لم نَعُد نسمع عن طريف، بعد هذه السريّة الاستطلاعيّة الموفّقة التي قادها مستطلعاً أحوال الأندلس سكاناً وأرضاً للمسلمين، وبدأ عملياً تطبيق خطة فتح الأندلس، ومهّد لهذا الفتح تمهيداً موفقاً.

ولكنه ظهر مرة أخرى من جديد، على مسرح الحوادث في المغرب، ولعب دوراً خطيراً في الثورة التي قادها مَيْسَرة البربري المَدْغَرِي[2] في المغرب الأقصى[3]، وكانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين، وكان ذلك سنة سبع عشرة ومائة الهجرية[4] (٧٣٥م).

وقائد الثورة ميسرة المدغري، نسبة إلى قبيلة مَدْغَرة، وهي من القبائل البترية من البربر، يُلقبه بعض المؤرخين بـ: الفقير[5]، وربما كان هذا لقبه بين أتباعه نسبة إلى فقره وزهده، بينما يلقبه آخرون بـ:

---

(١) أنظر عن عملية طريف الإستطلاعية: نفح الطيب (١/ ٢٥٣) والبيان المغرب (٢/ ٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠)، وأنظر التاريخ الأندلسي (٤٦).

(٢) أنظر التفاصيل في: ابن الأثير (٥/ ١٩٠ـ١٩٤) والبيان المغرب (١/ ٥٢ـ٥٤).

(٣) المغرب الأقصى: في ساحل البحر المحيط غرباً إلى تلمسان شرقاً، ومن سبتة إلى مراكش ثمّ إلى سجلماسة وما في سمتها شمالاً وجنوباً، أنظر تقويم البلدان (١٢٢) وأحسن التقاسيم (٢١٥ـ٢٣٦) والأعلاق النفيسة (٣٤٧ـ٣٥٣) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٨٥ـ٩٣) ومختصر كتاب البلدان (٧٨ـ٨٨) وصفة المغرب (٢ـ٢٩) والمسالك والممالك للاصطخري (٣٣ـ٣٨) وهو المملكة المغربية في الوقت الحاضر، أنظر تاريخ المغرب العربي (١٢).

(٤) ابن الأثير (٥/ ١٩١).

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢١٨).

الحقير[1]، استهانة به، وهؤلاء خصومه من أعداء الخوارج. وكان الرجل في مبدأ حياته بسيطاً عمل سقّاء يبيع الماء في سوق القيروان، مركز الإشعاع الديني، حيث العلماء والفقهاء وأهل الزهد والورع والتقوى. وكان بين هؤلاء مَن يدعو إلى العودة بالإسلام إلى نقائه الأول، ويقف في وجه الإجراءات التي تخلّ بمبدأ: الإخاء والمساواة بين جميع المسلمين، فكانوا كما يبدو يروِّجون عن غير قصد لمبادىء الخوارج، أي لمبادىء الثورة على الدولة[2].

وقد كان ميسرة يسعى إلى تحقيق المساواة في الأعطيات بين العرب والبربر في الجيش الإفريقي، فقصد ميسرة على رأس وفد من المغاربة يبلغ حوالي عشرين رجلاً دمشق للفت نظر هشام بن عبدالملك إلى مطالب المغاربة، فطال مقامهم بباب الخليفة دون جدوى. وتتلخص مطالب المغاربة؛ في أن أمير المغرب عندما يغزو بجنده العربي وبالمغاربة، فإنه يحرم المغاربة من نصيبهم من الغنيمة ويقول: «هذا أخلص لجهادكم»، وإذا حاصر مدينة قال: «تقدَّموا» وأخّر جنده، وأراد ميسرة ومن معه أن يعرفوا: أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا[3]؟!. وموضع الشكوى في هذه الرواية هو: تمييز العرب على المغاربة، مما يتضمن عدم تطبيق مبدأ المساواة والإخاء بين المسلمين، مما يعتبره بعضهم خروجاً على مبادىء الإسلام.

وعاد ميسرة وجماعته من الشام بعد أن خاب رجاؤهم في إنصاف الخليفة، فخرجوا من المعارضة الصامتة إلى الثورة المسلحة. وبدأت الثورة في طنجة في موطن مدغرة قبيلة ميسرة، حيث أعلن نفسه إماماً وبايعه الناس[4]. وسرعان ما انضمت إلى قبيلته جميع قبائل المنطقة من غمارة ومكناسة وبرغواطة، وكانت دعوة الخوارج منتشرة في قبيلة برغواطة بفضل طريف

---

(١) البيان المغرب (١/ ٥٢).
(٢) ابن الأثير (٥/ ١٩١).
(٣) أنظر التفاصيل في الطبري (٤/ ٢٥٤ـ٢٥٥) وابن الأثير (٣/ ٩٢ـ٩٣).
(٤) ابن الأثير (٥/ ١٩١) وفتوح مصر والمغرب (٢١٨).

رئيسها[1]، ولا نعرف متى اعتنق طريف مذهب الخوارج هل كان قبل نهاية القرن الأول الهجري، أم بعد نهايته في بداية القرن الهجري، ومن المرجح أن يكون في بداية القرن الثاني، لأن نهاية القرن الأول، كان بالنسبة للبربر ومنهم طريف، مليئاً بالأحداث الجسام، وعلى رأسها فتوح الأندلس، وما أعقبها من ترصين الفتوح، وتوطيد أقدام الفاتحين، وترسيخ جذور الفتوح والفاتحين. أما بداية القرن الثاني الهجري، فقد أصبح البربر أكثر تفرغاً، وبدا التناقض بينهم وبين العرب يطفو على السطح، فكان لا بد من أن يملأوا فراغهم بعمل ما، فكان هذا العمل تلك الثورة العارمة للبربر على العرب.

وبعد القضاء على ثورة ميسرة ومَن كان معه من الخوارج الصُّفريّة سنة أربع وعشرين ومائة الهجرية[2] (٧٤١م)، تفرق أصحابه في البلاد، فلجأ طريف إلى بلاد تامَسْنا على ساحل البحر المحيط بين مصبّى وادي سَلا وأم الربيع حيث تستقر قبيلة برغواطةالبربرية، وهناك تزعم بربر المنطقة من برغواطة[3].

وكان طريف من جملة قواد ميسرة ومَن جاء بعده في ثورة الخوارج الصُّفرية بالمغرب[4]، فلما انتهت تلك الثورة بالإخفاق، حلّ طريف ببلاد تامَسْنا (منطقة مدينة الرباط الحالية، وما حولها)، فقدَّمه البربر على أنفسهم، فوُلِي أمرهم، وكان على دين الإسلام. وبقي أميراً على البربر في تلك البلاد - ليس على برغواطة حسب - بل على جميع بربر تلك البلاد، حتى تُوفي. وترك أربعة أولاد، فوَلِيَ الأمر بعده صالح بن طريف، وكان مولده سنة عشر ومائة الهجرية (٧٢٨م)، فتنبَّأ فيهم، وشرع لهم ديانة، وسمَّى نفسه: صالح المؤمنين، وعهد إلى ابنه إلياس بديانته، وأمره ألاّ يُظهر ذلك إلاّ إذا قوي أمره، وحينئذٍ يدعو إلى مذهبه، ويقتل مَن خالفه من قومه. وخرج صالح إلى

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٥٤).

(٢) البيان المغرب (١/ ٥٦).

(٣) البكري (١٣٨) والبيان المغرب (١/ ٢٢٣).

(٤) البيان المغرب (١/ ٥٧).

المشرق، وزعم أنه يعود إليهم في دولة السابع من ملوكهم، وزعم أنه هو المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجّال، وأنه يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، وتكلم لهم في ذلك بكلام كثير نسبه لموسى عليه السلام ولسَطيْح الكاهن[١] وغيره[٢].

وقد كان ابتداء أمر صالح خلفاً لوالده طريف سنة أربع وعشرين ومائة الهجرية[٣] (٧٤١م)، أي في سنة عودة طريف من حرب الخوارج متعاوناً معهم وقائداً مرؤساً لهم في ثورتهم على الدولة، ويبدو أن طريفاً لم تطل مدّته رئيساً على تلك المنطقة من بلاد المغرب، فخلفه ابنه صالح الذي استغل شدّة جهل[٤] البربر في تلك المنطقة النائية، فزعم لهم ما زعم، وصدَّقوا مزاعمه لجهلهم في حينه.

لقد كان طريف أبا ملوك برغواطة البربرية، وهو من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق عليهم السلام[٥]، ومن الواضح أن طريفاً لم يكن يعرف هذا النسب، ولم ينتسب إليه، وأن أولاده الذين حكموا البربر بصفة دينية منحرفة، هم الذين ادّعوا لأنفسهم هذا النسب، لإعطاء انحرافهم الديني مسحة النّسب إلى الأنبياء، قد يقنع البربر في جهلهم حينذاك، ولكنه لا يقنع البربر الذين كانوا على درجة من العلم بهذا الانحراف، لذلك اقتصر انحراف عَقِب طريف على برغواطة، فنُسب هذا الانحراف إلى قبائل الإقليم، فعرف بـ: زندَقة بَرْغَواطة[٦].

---

(١) أحد كهّان اليمن في الجاهلية، واسمه ربيع بن ربيعة، أنظر ابن الأثير (١/ ٤١٨-٤١٩).

(٢) أنظر التفاصيل في البيان المغرب (١/ ٢٢٣-٢٢٤)، وانظر البكري (١٣٨) والاستبصار (١٩٨).

(٣) البيان المغرب (١/ ٥٧).

(٤) البيان المغرب (١/ ٥٧) والاستبصار (١٩٧).

(٥) البيان المغرب (١/ ٢٢٣)، واسحٰق هو ابن إبراهيم عليه السلام.

(٦) د. سعد زغلول عبد الحميد - تاريخ المغرب العربي - (٤١٧) دار المعارف بالقاهرة - =

وكان سبب انضمام طريف إلى الخوارج وثورتهم، هو انحراف بعض ولاة الدولة عن العدل ومبادىء الإسلام، فقد تولّى عُبَيْدَ الله بن الحَبْحَاب[1] إفريقية والمغرب كله لهشام بن عبدالملك بن مروان. واستخلف ابن الحبحاب على طنجة ابنه إسماعيل، وجعل معه عمر بن عبدالله المُرادِي[2].

وأساء عمر بن عبدالله المرادي السِّيرة، وتعدى في الصدقات والعُشُر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فَيْءٌ للمسلمين، وذلك مالم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يُخَمّسون مَنْ لم يُجبْ للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة[3]. فلما سمع البربر بذلك نقضوا الصلح على ابن الحبحاب، وتداعت عليه بأسرها مسلمها وكافرها، وعظم البلاء. وقدّم مَن بطنجة من البربر على أنفسهم مَيْسَرة السقّاء ثم المدغريّ، وكان خارجياً وصُفريّاً وسقّاء، وقصدوا طنجة، فقاتلهم عمر بن عبدالله فقتلوه، واستولوا على طنجة، وبايعوا مَيْسَرة بالخلافة، وخُوطب بأمير المؤمنين[4]، وكثر جمعه بنواحي طنجة من البربر وقوي أمره، وكان ذلك سنة سبع عشرة ومائة الهجرية[5] (٧٣٥م).

والخوارج الصُّفرية، هم أتباع زياد بن الأصفر، وهم في آرائهم أقل تطرّفاً من الأزارقة وأشدّ من غيرهم[6]. وقد خالفوا الأزارقة في مرتكب الكبيرة،

= ١٩٦٥م.

(١) عبيد الله بن الحبحاب: مولى بني سلول، وكان رئيساً نبيلاً، وأميراً جليلاً، بارعاً في الفصاحة والخطابة، حافظاً لأيام العرب وأشعارها ووقائعها، أنظر البيان المغرب (١/ ٥١).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٩١).

(٣) البيان المغرب (١/ ٥١-٥٢).

(٤) يقصد بها: الإمامة، كما هو معروف عند الخوارج، وخاصة في ذلك الوقت المبكر.

(٥) ابن الأثير (٥/ ١٩١).

(٦) أنظر ما جاء عن المبادىء التي تجمع الخوارج كتاب: تاريخ المذاهب الإسلامية (١/ ٧٥-٧٨).

فالأزارقة اعتبروه مشركاً، ولم يكتفوا بتخليده في النار، بل زادوا أنه يُعد مشركا. أما الصُّفرية فلم يتّفقوا على إشراكه، وقد اعتنق مذهبهم كثير من الصالحين شرقاً وغرباً[١].

وبالنسبة لطريف، فإن ثورة البربر كانت عارمة، لم يتخلف عنها أحد، فما كان بإمكانه أن يتخلف وحده عنها، وقد جرفته روح الجماعة. كما أن شعار الثورة في مقاومة الانحراف لا غبار عليه، فلا يرضى الإسلام أن يُخَمّس البربر المسلمون ولا يرضى المسلمون الصالحون من الفقهاء والمحدثين بهذا التّخميس، كما أن التفرقة بين المسلمين على أساس الجنس لا يقرِّه الإسلام كما هو معروف.

أما اتِّهام طريف بانحرافه عن الإسلام[٢]، فقد كذبه مَن اتَهمه بهذه التهمة في كتابه الذي اتّهمه فيه[٣]، كما لم تأخذ بهذا الاتهام المصادر المعتمدة الأخرى، فقد نسبت زندقة برغواطة إلى صالح ابن طريف لا إلى طريف[٤]، فالتهمة الموجهة إلى طريف ولدت ميِّتة، لم يصدقها أحد، ولم يأخذ بها أحد.

ويبدو أن طريفاً، كان قادراً حازماً[٥]، كان كريماً مضيافاً شهماً غيوراً مؤمناً تقياً، ولو لم تكن هذه الصفات الإنسانية فيه، لما ارتضته برغواطة رئيساً عليها، ثم أصبح على قبائل بلاد تامسنا في المغرب الأقصى رئيساً عليهم من الناحيتين الدينية والدنيوية في آن واحد وبلا منازع.

وعلى الرغم من أن المصادر المعتمدة، بخلت في الحديث عنه إنساناً

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة ـ تاريخ المذاهب الإسلامية (١/٨٨ـ٨٩) ـ القاهرة ـ بلا تاريخ.

(٢) البيان المغرب (١/٥٧).

(٣) البيان المغرب (١/٢٢٤).

(٤) البكري (١٣٤) والاستبصار (١٩٧).

(٥) فجر الأندلس (٦٦).

بخلاً لا يناسب ما قدمه للمسلمين من جهود مثمرة، فأخباره في تلك المصادر قليلة جداً، إلاّ أنه يبدو بجلاء أنه كان رجلاً من رجال المسلمين الأبرار، الذين سخّروا مواهبهم لخدمة مصلحة المسلمين العليا، ولم يسخِّروها لخدمة مصلحتهم الشخصية، وحسبه بذلك عملاً من الأعمال الباقية التي لا تُنسى.

القائــــد

كان طريف أحد موالي موسى بن نصير كما ذكرنا، فكان بتماس شديد مع أمير إفريقية والمغرب، وكان موسى دائب الحركة كثير النشاط، يسير من فتح إلى فتح في ولايته، حتى قضى على الفتن الداخلية قضاءً مبرماً، وأشاع الأمن والاطمئنان بين السكان، وفرض هيبة الدولة وسلطانها، وفتح ما لم يُفتح من قبل.

ويبدو أن طريفاً، برز من جملة مَن برز في عمليات موسى العسكرية، فلفت إليه الأنظار، ومنهم نظر موسى. وكان موسى بعد أن سيطر على إفريقية والمغرب سيطرة كاملة، يتطلع إلى فتح الأندلس، فقد كان حاضر إفريقية والمغرب ومستقبلهما بالنسبة لتوطيد أركان الفتوح فيهما، مهدّداً من الروم أولاً ومن القوط الغربيين في الأندلس ثانيا، وقد هاجم موسى قواعد الروم في البحر الأبيض المتوسط: صِقِلّيَة وسَرْدانِيَة، وفتح مَيُوْرَقَة ومَنُوْرَقَة[1]، لغرض حماية فتوح إفريقية والمغرب من الروم، لأن الهجوم أنجع وسائل للدفاع؛ وبقي على موسى فتح الأندلس، لوضع حدّ نهائي لتهديد القوط الغربيين ـ الذين يحكمون الأندلس ـ لحاضر ومستقبل فتوح المسلمين في إفريقية والمغرب.

---

(١) أنظر تفاصيل ذلك في سيرة عبد الله بن موسى بن نُصَير في كتاب: قادة فتح الأندلس والبحار.

وفاتح موسى الخلافة في دمشق، حول فتح الأندلس، إذ لم يكن بإمكانه أن يُقدم على تنفيذ مثل هذه العملية الكبرى بدون موافقة الخلافة الصريحة، وكان الخليفة يومها الوليد بن عبدالملك ابن مروان الذي كان حريصاً أعظم الحرص على أرواح المسلمين، وكان يرفض بشدّة وحزم وإصرار كل محاولة للتغرير بالمسلمين وتعريضهم للمخاطر دون مسوِّغ، وقد وافق على مضض على اقتراح موسى الخاص بمحاولة فتح الأندلس الذي كان موسى يريد وضعه في ميدان التطبيق العملي، بعكس الخليفة الوليد بن عبدالملك الذي كان يرى في هذا الفتح نوعاً من التغرير بالمسلمين، فكان الوليد لا يتردد في الإقدام على إلغاء عملية فتح الأندلس برمتها، في حالة تعرّض سرايا الاستطلاع التي مهّدت لخطة الفتح للإخفاق. لذلك بذل موسى غاية جهده في تنفيذ أمرالخليفة أولاً: «أن خُضها بالسرايا، حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تُغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»[1]، وأن تكون سرية الاستطلاع التي تمهِّد للفتح مختارةَ المقاتلين بقيادة قائد مختار أيضاً، ينجح في مهمتة القيادية الصعبة، ويُقنع الخليفة بنجاحه أن موسى لا يغرّر بالمسلمين، بل يقودهم إلى النصر.

وأي قائد عام، في مكان موسى بن نصير، في حرصه العظيم على فتح الأندلس، يشترط عليه الخليفة، أن يبدأ عملية الفتح بالاستطلاع بالسرايا، فإذا نجحت سرايا الاستطلاع كان له ما يريده من فتوح في الأندلس، وإلاّ فلا فتوح في الأندلس إذا أخفقت سرايا الإستطلاع، وتوضع عملية الفتوح كلها على الرف، فإنه لا بد أن يختار قائداً متميزاً لقيادة سرايا الاستطلاع، ويختار له رجاله أو يسمح له باختيارهم، ليضمن نجاح مهمة الإستطلاع، فيرضى الخليفة، وتبدأ عملية الفتح.

وأرى أن موسى، حين اختار طريفاً، لقيادة سرية استطلاعية، يتوقف عليها

---

(١) نفح الطيب (٥٥٣).

مصير الإقدام على فتح الأندلس، لا بد من أن تتيسر فيه مزايا قيادية متميزة، تؤهله لتولي مثل هذه المهمة المصيرية الصعبة، لا لينجح في تحقيق مهمته كما ينبغي حسب، بل ليتفوق في نجاحه، وحينذاك يصبح الخليفة مرحباً بالفتح لا متخوفاً على المسلمين منه.

ومفتاح مزايا شخصية طريف القيادية، تتركز في إيمانه العميق، فهو مجاهد صادق. وهو شجاع مقدام، يعتبر الشهادة أُمْنِية من أعزّ أمانيه، وهو متّزن غير متهوِّر، لا يخطو خطوة بدون حساب، وهو كذلك ذكي ألمعي الذكاء.

وتلك هي أبرز مزاياه القيادية، التي جعلت موسى بن نصير يوليه أهمّ وأخطر منصب قيادي مصيري، فنهض بأعبائه بنجاح عظيم.

أما مجمل مزاياه القياديّة الأخرى، فيمكن تعدادها بإيجاز شديد.

فقد كان من أولئك القادة الذين يتمتعون بمزية: إصدار قرار صحيح سريع لأخذ المبادرة، ووضع الحلول الناجعة للمعضلات، في الوقت والمكان الجازمين، دون إضاعة الوقت سدى.

وكان على جانب عظيم من: الشجاعة للشخصية، فبقي مجاهداً في ساحات الفتوح حتى توقف مَدّ الفتوح، ثم دأب على القتال حتى نهاية أيامه في هذه الحياة.

وكان ذا إرادة قوية ثابتة، لا يضعف ولا يهون، ولا ينحرف عن هدفه ولا يتزعزع، ولا يسالم ولا يستسلم.

وكان يتحمل المسئولية، ويحبها، ولا يتهرب منها، ولا يتملّص من أعبائها، ولا يلقيها على عواتق الآخرين رغبة بالسلامة والعافية.

وكان له نفسية لا تتبدّل، في حالتي النصر والاندحار، واليسر والعسر، والرخاء والشدّة.

وكان لذكائه المفرط، يتمتع بمزية: سبق النظر، فكان يتوقع ما يُعدِّه العدو له من خطط للإيقاع بقواته، فيضع الخطط التي تُحبط خطط العدو، وتؤدي به

إلى الهزيمة، وتؤدي برجاله إلى النصر.

وكان على معرفة وثيقة بنفسيات وقابليات رجاله، فهو واحد منهم نسباً ومصيراً، وهو معهم في السراء والضراء وحين البأس، فكان يولي الرجل المناسب العمل المناسب، الذي يناسب نفسيته وقابليته، مما يؤدي إلى النجاح أو الامتياز بالنجاح.

وكان يثق برجاله، ويثقون به، ويسيرون تحت قيادته إلى الموت دون خوف، ثقة به، لأنه يؤثرهم بالأمن، ويستأثر دونهم بالخطر، ويحرص على أرواحهم أكثر مما يحرص على روحه، ولا يغرّر بهم في حال من الأحوال. وكان يثق برؤسائه، وكان رؤساؤه يثقون به، ولو لا ثقة موسى به، لما ولّاه مثل هذا المنصب الخطير.

وكان يحب رجاله، وكان رجاله يحبونه، لأنه يتمتع بالمزايا التي تحبِّب الإنسان إلى الناس، كما كان موضع حب رؤسائه، وكان يبادلهم حباً بحب.

وكان ذا شخصية قوية نافذة، يؤثِّر في أتباعه بالمُثُل التي يؤمن بها ويحملها، فهو يعمل لهم أكثر مما يعمل لنفسه، ويحب لهم ما يحبه لنفسه، ولا يريد منهم غير ما يريده من نفسه ومن أهله، فهو ينصفهم قبل أن يطالبه أحد بالإنصاف.

وكان يتمتع بـ القابلية البدنية المتميزة، فهو في ريعان الشباب، حين تولى منصبه القيادي، وقد بقي متمتعاً بالقابلية البدنية حتى في أيامه الأخيرة، والدليل: أنه بقي مقاتلاً رهيباً، لم يتخلّ عن سيفه، في يوم من الأيام.

وكان من ذوي الماضي الناصع المجيد، فهو من رؤساء البربر، كان رئيساً قبل أن يتولى القيادة، ثم رئيساً قائداً، فلما تخلّت عنه القيادة، بقي رئيساً لا ينازعه في رئاسته منازع.

وكان يطبق مبادىء الحرب بصورة تلقائية، وهذه المبادىء ثابتة في كل زمان ومكان، ولكن الأساليب الحربية هي التي تتبدّل باستمرار.

فقد كان يطبق مبدأ: اختيار المقصد وإدامته، وكان قائداً تعرّضياً، لم يتخذ

أسلوب الدفاع في حربه. وكان يطبق مبدأ المباغتة، ولعلّ عبوره في سفن يُليَان، أو سفن التجار الذين يعملون مع يليان، كان الهدف منه مباغتة القوط بالعبور، وهم يظنون أن السفن تعود للتجار الموالين لهم، ولا تعود للمسلمين الفاتحين، إذ من المعلوم، أن موسى بن نصير، كان يمتلك كثيراً من المراكب والسفن التي يستغنى بها عن سفن يليان وأتباعه، ولكن موسى استفاد من سفن يليان لإخفاء العبور، ولمباغتة القوط في الساحل الأندلسي بالعبور وبالإنزال.

وكان يطبق مبدأ: تحشيد القوة، ويستغل طاقات رجاله كافة، في تحقيق هدفه في الاستطلاع والفتح.

وكان يطبق مبدأ: الاقتصاد في المجهود، فيعرف هدفه، ويستعمل القوة المناسبة لتحقيق هدفه، دون إفراط ولا تفريط.

وكان يحرص أعظم الحرص على تطبيق مبدأ: الأمن فلا نعرف أن العدو استطاع مباغتة قواته، وقد استطاع أن يباغت عدوّه في عمليته الاستطلاعية، فحقق هدفه، وغنم غنائم كبيرة نسبياً، وعاد إلى قاعدته سالماً.

وكان يطبق مبدأ: المرونة، فكانت خططه قابلة للتطوير والتحوير عند الحاجة، وكانت قابليته على الحركة جيدة للغاية.

وكان يضع مبدأ: التعاون، نصب عينيه، فهو ييسّر التعاون الوثيق بين رجاله أفراداً وصُنوفاً، وهو يتعاون مع يليان ورجاله ويسهّل التعاون بينهم وبين رجاله، وهو يتعاون مع قيادته العليا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وكان يعمل على: إدامة المعنويات، بالعقيدة الراسخة، والقيادة الحصيفة، والانتصارات المتعاقبة، لأنه يعلم حق العلم، أن الرجال الذين يتمتعون بالمعنويات العالية، ينتصرون على الرجال الذين يعيشون بمعنويات منهارة.

وكان يهتم: بالأمور الإدارية، فالجندي يمشي على بطنه، والمقاتل لا يصبر طويلاً على الجوع والعطش، ولا على نقص الأمور الإدارية ملبساً

النصر، وكانت بالنسبة لقوة طريف جيدة للغاية، وكان وضع رجاله الإداري أفضل بكثير من وضع غيرهم من الفاتحين شرقاً وغرباً.

وكان يساوي نفسه بأصحابه، ويعيش معهم كما يعيشون، ويحاول ألاّ يتميز عليهم بمظهر من مظاهر الدنيا، ولا يرضى أن يتميز أحد من أصحابه على غيره مادياً أو معنوياً.

وكان يؤمن بمبدأ: الشورى، فيستشير رجاله، ويشاورهم فيما يعترضه من مشاكل، ويطبق مشورتهم.

لقد تقدّم طريف على غيره من البربر المسلمين، بمزاياه القيادية التي لفتت إليه الأنظار، فولاّه موسى منصباً قيادياً، في ظروف غير اعتيادية، لينهض بتحقيق هدف مصيري صعب، في أيام يصعب فيها على غير العرب المسلمين الوصول إلى المناصب القيادية، لأنها كانت للعرب المسلمين وحدهم دون سواهم، ولكن طريفاً وطارق بن زياد وحدهما من البربر توليا منصبين قياديين في فتوح الأندلس، وكانا قبل ذلك من أقرب المقربين إلى موسى بن نصير ومن أبرز المقربين إليه من البربر المسلمين. كما تولى طارق منصبه القيادي بمزاياه القيادية أولاً وقبل كل شي، ولكن قربه من موسى بن نصير، أتاح له فرصة إظهار تلك المزايا للعيان، وربما لو كان بعيداً عن موسى، لما استطاع موسى اكتشاف تلك المزايا القيادية في طارق بسهولة ويسر، ولما أتاح له الفرصة الملائمة لتولي منصبه القيادي الرفيع، فكانت تولية طارق لمزاياه القيادية أولاً، ولقربه من موسى صاحب السلطة في اختيار القادة وتوليتهم ثانياً، كذلك كان الأمر بالنسبة لطريف، فقد شقَّ طريقه إلى منصبه القيادي بمزاياه القيادية أولاً، وبتماسه الشديد بموسى.

وعلى كل حال، فقد كان طريف عند حسن ظنّ موسى بن نصير به، وعند حسن ظن طارق بن زياد أيضاً، وعند حسن ظن المسلمين الفاتحين في الأندلس، وكان تولّيه منصباً قيادياً مكسباً لا شك فيه للقيادة العامة وللفتح والفاتحين.

طَرِيْف في التاريخ

يذكر التاريخ لطريف، أنه كان من أوائل البربر المسلمين، الذين تولوا منصباً قيادياً في فتوح الأندلس، في عهد كانت فيه المناصب القيادية للعرب المسلمين وحدهم دون سواهم.

ويذكر له، أنه قاد سرية استطلاعية، إلى بر الأندلس فنجح في تحقيق أهداف القيادة العامة، نجاحاً باهراً.

ويذكر له، أنه أول مَن مهّد لوضع خطّة فتح الأندلس، في موضع التنفيذ، فاستطاع المسلمون الفاتحون فتحها، خلال ثلاث سنوات.

ويذكر له، أنه كان يميل بطبعه إلى معاناة القتال، فبدأ حياته مجاهداً في ساحات الفتوح، وبقي يمارس هوايته المفضلة في القتال، حتى رحل عن هذه الحياة.

ويذكر له، أنه كان رئيساً من رؤساء إحدى القبائل البربرية المسلمة، ولكن نطاق رئاسته توسّع بالتدريج، حتى شمل في رئاسته عدة قبائل بربرية مسلمة، تحل في منطقة مدينة الرباط الحالية الشاسعة المنعزلة.

ويذكر له، أن اسمه لا يزال علماً على جزيرة أندلسية، كان أول مّن وضع قدمه في رحابها، وأنزل رجاله في أرجائها، فعُرفت باسمه منذ ذلك التاريخ ولا تزال.

رحمه الله رحمةً واسعة، وأسكنه فسيح جنّاته، جزاء ما قدّم للإسلام والمسلمين من جهود مادية ومعنوية في الفتح وفي غير الفتح قائداً وإنساناً.

مغِيْث الرُّومِيّ
فاتح قُرْطُبَة[1]

نسبه وأيامه الأولى

هو مُغِيث الروميّ، مولى الوليد بن عبدالملك[2]، أو مولى عبدالملك بن مروان[3]، والصواب أنه مولى عبدالملك بن مروان، فهو الذي أدبه[4]، ولا تناقض بين الروايتين إلاّ من الناحية اللّفظية حسب، فقد كان مغيث مولى عبدالملك، فلما تُوفي وأصبح ابنه الوليد خلفاً له، أصبح مولى الوليد بن عبدالملك.

ومغيث رومي[5] الأصل، وقيل: إنه ليس برومي على الحقيقة، وتصحيح نسبه، أنه مغيث بن الحارث بن الحُوَيْرِث بن جَبَلَة بن الأيْهَم الغَسّاني[6]،

---

(١) قرطبة: مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها، وكانت عاصمة لملكها وقصبتها، أنظر التفاصيل في المسالك والممالك (٣٥) ومعجم البلدان (٧/ ٥٢) وتقويم البلدان (١٧٤ـ١٧٥) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٢) وجغرافية الأندلس وأوروبا (١٠٠).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٧٩) ونفح الطيب (١/ ٢٦٠ـ٢٦١) و (٣/ ١٤).

(٣) البيان المغرب (٢/ ٩).

(٤) نفح الطيب (٣/ ١٢).

(٥) نفح الطيب (٣/ ١٢).

(٦) جبلة بن الأيهم الغساني: آخر ملوك غَسَّان، وقد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم ارتدّ وتنصّر بعد ذلك ولحق بالروم، وكان سبب تنصّره، أنّه مرّ بسوق دمشق، فأوطأ رجلاً فرسُه، فوثب الرجل ولطمه، فأخذه الغسانيون وأدخلوه على أبي عُبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فقالوا: «هذا لطم سيدنا»، فقال أبو عبيدة: «البيّنة أنّ هذا لطمك؟!»، فقال جبلة: «وما تصنع بالبيّنة؟»، فقال: «إن كان لطمك لطمتُه بلطمتك»، قال: «ولا يُقْتل؟!»، قال: «لا!»، قال: «ولا تقطع يده؟»، قال: «لا، إنما أمر الله بالقِصاص، فهي لطمة بلطمة»، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم، =

سُبِيَ من الروم بالمشرق وهو صغير، فأدّبه عبدالملك بن مروان مع ولده الوليد، وأنجب في الولادة، فصار بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة، وسادوا وعظم بيتهم، وتفرعت دَوْحَتهم، وكان منهم عبدالرحمن بن مغيث حاجب عبدالرحمن بن معاوية صاحب الأندلس[(١)] وغيره[(٢)]. والمرجح أنه رومي، فقد نُسب إلى الروم وهو على قيد الحياة، وكان مولى لبني أمية، وكان بإمكانه أن يُظهر نسبه إلى جَبَلَة بن الأيْهَم وإلى ملوك الغساسنة في حياته، فلما أصبح أولاده من ذوي السلطة والثراء في الأندلس، أرادوا أن يجمعوا بين الحسب المرموق والنسب العريق، في عهد كان للنسب فيه مكانة كبيرة جداً، وبخاصة للنسب العربي الأصيل إلى إحدى القبائل الأصيلة، في عهد بني أُميّة، فانتسبوا إلى الغساسنة، فسجّل لهم انتسابهم هذا أحد المؤرخين، ثم تناقلها المؤرخون عن بعضهم، الخلف عن السّلف. ووضع نسبه واضح، ولا يبدو أنه المسئول عن وضعه، بل هو من وضع عَقِبه، فهم المسئولون عن هذا الوضع، الذي أرادوا به الفخر ومنافسة أصحاب النسب في نسبهم العريق.

ونشأ مغيث في دمشق، وتأدب مع بني عبدالملك، فأفصح في العربية، وصار يقول من الشعر والنثر[(٣)]، ما يجوز تدوينه، وتدرّب على الركوب، وأخذ نفسه بالإقدام في مضايق الحروب، حتى تخرّج في ذلك تخرُّجاً أهّله للتقدم على الجيش الذي فتح قُرطبة[(٤)].

لقد نشأ مغيث وترعرع وشبّ في أحضان البيت المالك: بيت الخليفة عبدالملك بن مروان، وتعلّم جنباً إلى جنب الوليد بن عبدالملك. وكان

= ولم يزل هناك إلى أن هلك، أنظر المعارف (٦٤٤).

(١) عبد الرحمن بن معاوية الداخل: أنظر سيرته المفصّلة في نفح الطيب (٣/ ٢٧ـ٥٥).

(٢) نفح الطيب (٣/ ١٢) عن الحجازي.

(٣) نفح الطيب (٣/ ١٢) عن الحجازي.

(٤) نفح الطيب (٣/ ١٢ـ١٣).

التعليم النظري لا ستيعاب العلوم المتيسرة السائدة حينذاك ميسورا، ليس لبني أميّة ومّن حولهم وحدهم دون غيرهم من الناس، بل كان ميسوراً للناس كافة من الراغبين في تلقي العلم. وربما يكون الفرق الوحيد بين تعليم أبناء الخلفاء ومّن حولهم وبين أبناء غيرهم من سائر المسلمين، هو أن أبناء الخلفاء ومّن حولهم، يتلّقون العلم على أساطين العلماء وجهابذة الشيوخ، وغيرهم يتلقى العلم عن هؤلاء الأساطين والجهابذة وعن المتصدِّين للتعليم من العلماء والشيوخ الآخرين.

وقد نشأ مغيث في دمشق عاصمة الخلافة، ليتعلم القرآن الكريم وعلومه، والحديث النبوي الشريف وعلومه، والتاريخ والسِّير وأيام العرب قبل الإسلام وبعده، وعلوم اللغة صَرْفاً ونَحواً وبلاغةً وبياناً وشعراً ونثراً، كما تعلم فنون الأدب في مجالي الشعر والنثر، وحفظ نماذج من أقوال الخطباء والأدباء والشعراء، ولم يغفل الحساب والهندسة وتقويم البلدان.

وكان الخلفاء بخاصة والعرب بعامة، في تلك الأيام، يعتبرون اللّحن في اللّغة عيباً من أشنع العيوب، «فتأدّب مغيث بدمشق مع بني عبدالملك، فأفصح بالعربية، وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتبه»[1].

وكما كان الخلفاء يحرصون على تعليم أبنائهم ومَن حولهم العلوم المختلفة والآداب والفنون، كانوا يحرصون أيضاً على تعليم أولادهم العلوم العسكرية العملية والنظرية.

وقد تعلم مغيث العلوم العسكرية النظرية، مثل: إقامة المعسكرات، تنظيم المعسكر، اختيار المعسكر، وشروط المعسكر الجيد، فنون التعبية: كإخراج المقدّمات والمؤخرات والمجنبات، وأساليب الحماية، والاستفادة من الأرض، وزرع الربايا والكمائن. ومعالجة المشاكل غير المتوقعة، وتأمين القضايا الإدارية في الميدان، وطرق رفع المعنويات، وكل هذه العلوم تلقّن

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٢) عن الحجازي.

من مجاهدين مجرّبين لهم في ميادين الجهاد باع طويل.

كما تدرّب على الفنون العسكرية العملية: ركوب الخيل، والرمي بالسهام، والتصويب الدقيق، والضرب بالسيوف، والطعن بالرماح، والسباحة، وتحمل المشاق العسكرية: سيراً على الأقدام مسافات طويلة، والحرمان من الطعام والشراب مدة من الزمن، وتحمل التقلبات الجوية حراً وبرداً ومطراً وثلجاً، «وتدرّب على الركوب، وأخذ نفسه بالإقدام في مضايق الحروب، حتى تخرّج في ذلك تخرجاً أهّله للتقدم على الجيش . . . »[1].

ولكن مثل هذا التدريب العسكري وحده لا يكفي، لأنه تدريب (فردي)، فلابد من تلقي التدريب الإجمالي، وهو ممارسة الجهاد قائداً أو جندياً في ساحات الجهاد، ليطبق ما تعلمه (فرداً) من فنون عسكرية نظرية وعملية على القتال ضمن المقاتلين تطبيقاً عملياً، إذ لا فائدةمن التدريب الفردي، إلاّ إذا طُبّق عملياً في التدريب الإجمالي، وأفضل أنواع هذا التدريب هو ممارسة القتال عملياً.

وقد كان أسلوب التدريب على القتال شائعاً في أيام الأمويين بالنسبة لأولاد الخلفاءومَن حولهم، وبالنسبة لأولاد المسلمين كافة، فكان من نصيب مغيث أن يتدرب في ميادين الجهاد الإفريقي والمغربي والأندلسي، كما سنرى ذلك وشيكاً.

الفاتـــح

دخل مغيث الأندلس مع طارق بن زياد[2]، وكان الوليد بن عبدالملك هو الذي وجّهه إلى الأندلس . . . .

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٢-١٣) عن الحجازي.

(٢) نفح الطيب (٣/ ١٢).

غازياً[١]، ولا نعلم بالضبط متى وجّهه إلى هذا الواجب، وكان عبور طارق إلى الأندلس في يوم الإثنين الخامس من شهر رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية[٢] (٢٧ نيسان ـ أبريل ـ سنة ٧١١م)، فلابد من أن يكون مغيث قد بُعث إلى إفريقية والمغرب قبل هذا التاريخ. وكان موسى بن نصير قد فاتح الوليد بن عبدالملك بفتح الأندلس واستأذنه بفتحها، فكتب إليه الوليد: «أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»[٣]. وبعث موسى في رمضان من سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠م) سرية استطلاعية إلى جنوبي الأندلس، بقيادة طريف الملقب بأبي زُرعَة[٤]، وهو مسلم من البربر[٥]، فمن المحتمل أن الوليد بعثه قبيل الشروع في عمليات فتح الأندلس إلى تلك المنطقة، للإشراف على سير تلك العمليات، ومن المرجح أنه أرسله بعد فتح طنجة التي كانت سنة تسع وثمانين الهجرية[٦]، وقبل عبور طريف إلى الأندلس، أي في أوائل سنة إحدى وتسعين الهجرية.

وكان مغيث على خيل طارق بن زياد[٧]، وبعد أن فتح مدينة إسْتَجّة[٨]، فرّق جيوشه من هذه المدينة، فبعث مغيثاً إلى قرطبة، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل القوط، ولم

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٤).

(٢) نفح الطيب (١/ ١١٩) والبيان المغرب (٢/ ٦).

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٥٣) والبيان المغرب (٢/ ٦) ووفيات الأعيان (٥/ ٣٢٠)، وأنظر التاريخ الأندلسي (٤٦).

(٤) ترجمته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الأندلس والبحار.

(٥) نفح الطيب (١/ ١٦٠و٢٢٩) والروض المعطار (٨ و١٢٧) والبيان المغرب (٢/ ٥)، وأنظر التاريخ الأندلسي (٤٥).

(٦) ابن الأثير (٤/ ٥٤٠).

(٧) فتوح مصر والمغرب (٢٧٩).

(٨) إستجّة: اسم كورة بالأندلس، متّصلة بأعمال ريّة، بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ، وأعمالها متّصلة بأعمال قرطبة، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٢٢٤).

يبق فيهم راجل، وفَضَلت عنهم الخيل. وكَمن المسلمون بعُدْوَة نهر شَقُنْدَة (Secunda) في غَيْضَة أرْز شافحة، وأرسلوا الأدلاّء فأمسكوا راعي غنم، فسئل عن قرطبة، فقال: «رحل عنها عظماء أهلها إلى طُلَيْطِلَة، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حُماتهم مع ضعفاء أهلها». وسُئل عن سورها، فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها، غير أنه فيه ثُغرة، ووصفها لهم[1]. وشقندة هذه، هي حيّ الرّبَض (الضاحية) في جنوبي قرطبة، في الضفة الأخرى من نهر الوادي الكبير[2] (Guadalquivir) مقابل قرطبة. وتربّص المسلمون على الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير بالقوط، وأخذوا يستطلعون أخبار القوط، ويجمعون المعلومات عنهم قبل أن يعبروا النهر ويهاجموا البلد. وكان أهل قرطبة كارهين لأمر القوط عامة، لأن القوط كانوا مختصين أنفسهم بالجزء الغربي من البلد، وتركوا جزءه الشرقي لأهل البلد الأصليين، كما كان الرومان قبلهم يفعلون[3]، وأقاموا سوراً بينهم وبين أهل البلد الأصليين حتى لا يقرب هؤلاء مساكنهم كأنهم منبوذون. وكان البلد حصيناً حوله سور من الحجر الضخم، ولكن الظاهر أنه كان متداعياً في بعض أجزائه، فيه ثغرات يمكن النفوذ منها، وكان الجزء الذي يقابل القنطرة التي تقع على النهر، والتي كانت مهدّمة في حينه من السور وما وراءه من البلد، هو الجزء المخصص لسكان البلد الأصليين من الإيبيريين الرومان، وفيه الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية). ولم يصعب على المسلمين الإتصال بنفر من سكان قرطبة المحليين، وبمعونة هؤلاء استطاعوا العبور في ليلة من ليالي آب (أغسطس)[4] غزيرة المطر، وكان عبور المسلمين نهر الوادي الكبير في

---

(١) البيان المغرب (٢/ ٩-١٠) ونفح الطيب (١/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا (١٣٩).

(٣) Saavedra . OP. Cit. P. 81-82

(٤) يقول الرازي: «وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه، ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد، =

مواجهة باب القنطرة، أو باب الصورة، نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور، وظل قائماً أيام المسلمين، وجعل مغيث ورجاله يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها إلى قرطبة[1].

وحاول المسلمون التعلق بالسور، فلم يجدوا مُتَعلّقا، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها، فأراهم إياها، فإذا بها غير متسهّلة التسنّم، إلاّ أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكّنت أفنانها من التعلّق بها، فصعد رجل من أشِدّاء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفَها، وأعان بعض الناس بعضاً، حتى كثروا على السّور. وركب مغيث ووقف من خارج، وأمر أصحابه المرتقين للسّور بالهجوم على الحرس، ففعلوا وقتلوا نفراً منهم، وكسروا أقفال الباب، وفتحوه. ودخل مغيث ومَنْ معه، وفتحوا المدينة عَنْوَة[2].

وهاجم مغيث ومَن معه من المسلمين قصر الملك[3]، وقد بلغ الملك دخول المسلمين المدينة، فبادر بالفرار عن البلاط في أصحابه، وهم في زهاء أربعمائة فارس، وكانوا مقيمين مع الحاكم في الجزء الغربي من قرطبة، الذي سيعرف في أيام المسلمين بالمدينة أو القصبة (يسمى اليوم لاڤيليا = المدينة)، وكان الملك مقيماً وحده في قصر منيف من الضاحية التي ستعرف أيام المسلمين برَبَض الورّاقين، وأسرع الملك إلى حاميته القوطية، فطارده المسلمون، ففرّ بجنده إلى كنيسة قريبة تسمى كنيسة اشيسكلو (San Aciscle)[4] وتحصَّن فيها، فحاصرها المسلمون. واستمر الحصار

= فترجّل القوم حتى عبروا النهر، وليس بين النهر والسّور إلاّ مقدار ثلاثين ذراعاً»، أنظر نفح الطيب (١/ ٢٦١).

(١) فجر الأندلس (٨٠ـ٨١).

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٦١) وأنظر البيان المغرب (٢/ ١٠).

(٣) حاكم المدينة، وقصر الملك هو البلاط: (Palatum) عن اللاتينية كما هو معروف.

(٤) يسمي صاحب الأخبار المجموعة هذه الكنيسة: شنت أجلح، وقد ورد في تقويم قرطبة لعريب الذي نشره دوزي، أنّ هذه الكنيسة هي سان أثيسكلو بالعجمية، أنظر =

نحو ثلاثة أشهر، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين، وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض، وقصة اكتشاف مصدر هذا الماء، أن مغيثاً ضاق بطول حصار المدينة، فتقدم إلى رجل أسود من رجاله اسمه رَباح، وكان ذا بأس ونَجْدَة، وأمره بالكُمون في جنان إلى جانب الكنيسة ملتفّة الأشجار، لعلّه يظفر بعلج يقف به على خبر القوم، ففعل وبصر به أهل الكنيسة فأسروه وحبسوه في الكنيسة. ومكث في إسارهم سبعة أيام اطّلع خلالها على مصدر الماء الذي يأتي عبر قناة، ثم فرّ من الكنيسة ليلاً، وأخبر مغيثاً عن موضع الماء ومصدره، فأمر مغيث بطلب قناة الماء في الجهة التي أشار إليها الأسود حتى أصابوها، فقطعوها عن جَرْيتها إلى الكنيسة، وسدّوا منافذها. وأيقن المحصورون في الكنيسة بالهلاك، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا عليه، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم، فسمّيت: كنيسة الحرقى[1]، ومن المستبعد أن يُقدم المسلمون على حرق الكنيسة، وفيها نحو أربعمائة فارس من القوط، لأن الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زماناً طويلاً، وليس فيها للنار أثر[2]، ولم يسبق للمسلمين الإقدام على حرق الكنائس على مَن فيها من البشر، ولا مسوّغ بحرقها بعد انقطاع الماء عنها، لأن استسلام حاميتها بعد انقطاع الماء عنهم أصبح مضموناً، وثباتهم لن يطول إلاّ ريثما ينفذ ماؤهم، وإلاّ ماتوا عطشا، فلا يُقدم على حرق الكنيسة، في مثل هذا الموقف الراهن الذي تعيشه، بانقطاع الماء عنها، مسلم ولا غير مسلم أيضاً.

ويبدو أن قصة حرق الكنيسة لم تحظ بتصديق المصادر المعتمدة، فلم تذكر في مصدر من المصادر الإسلامية[3]، لأنها متهافتة لا ترقى إلى حقيقة

= الأخبار المجموعة (١٢)، وأنظر ساقدرا (٨٥) هامش (١).

(١) نفح الطيب (١/ ٢٦٣) برواية الرازي.

(٢) فجر الأندلس (٨٢).

(٣) أنظر مثلاً: البيان المغرب (٢/ ١٠).

من حقائق التاريخ.

ورغب ملك قرطبة أن يتخلص من الموقف الحرج الخطر الذي حاق برجاله، عند إيقانه أنه هالك إذا بقي معهم، ففرّ عن رجاله وحده بعد أن استغفلهم، ورام اللّحاق بطُلَيْطِلَة. وعلم مغيث بهرب الملك، فبادر الركض خلفه وحده، فلحقه بقرب قرية تُطِيلَة هارباً وحده، وهي قرية قريبة من قرطبة، وكان تحت هذا الهارب فرس أصفر ذريع الخَطْوِ. والتفت الملك ودُهِش لما رأى مغيثاً يطارده مطاردة عنيفة بلا هوادة، فزاد في حثّ فرسه، فقصر به، فسقط عن الفرس، واندقَّت عنقه، فقعد على ترسه مستأسراً، قد هاضته السقطة، فقبض عليه مغيث، وسلبه سلاحه، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره، لأن بعضهم استأمن، وبعضهم هرب. إلى جِلِّيقِيَّة[1]. وفي رواية: أن مغيثاً استنزل أهل الكنيسة، بعد أسره لمليكهم، فضرب أعناقهم جميعاً، فمن أجل ذلك عُرِفت بكنيسة الأسرى[2]، وأنه اختار القصر لنفسه والمدينة لأصحابه[3]. وسكن مغيث قصر الملك الذي أصبح فيما بعد مقام الأمراء والخلفاء، بعد أن عُدّل وأضيفت إليه أجزاء كثيرة. وقد ترك المسلمون كنيسة الأسرى لنصارى قرطبة، فظلت أكبر كنائسهم في عاصمة الأندلس الإسلامية، طالما بقيت المدينة في حوزة المسلمين[4].

ومن الواضح أن المقصود بملك قرطبة، هو حاكم قرطبة، ولكن المصادر العربية تلقبه بلقب الملك، لأنه أكبر مسئول رسمي في المدينة، والواقع أنه كان في الأندلس ملك واحد، وكان على المناطق حكام، يرتبطون بالملك،

---

(١) جليقيّة: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب، أنظر معجم البلدان (٣/ ١٣١).

(٢) نفح الطيب (١/ ٢٦٢ـ٢٦٥) وأنظر البيان المغرب (٢/ ١٠).

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٦٥).

(٤) فجر الأندلس (٨٢).

ويديرون مناطقهم في السلام، ويدافعون عنها في الحرب، فهو فيواقعه إداري قائد.

وهكنا انتهت ملحمة فتح قرطبة، استبسل فيها المسلمون وقاتلوا قتال الأبطال، كما أحسن القوط في دفاعهم، وصبروا وصابروا، ولكن بقدر ما بلغ مغيث قائداً تحمَّل القسط الأكبر من الفتح، بقدر ما تخنَّث حاكم القوط وقائدهم وتحمَّل القسط الأكبر من كارثة الهزيمة. فكان مغيث نِعمَ القائد، وكان قائد القوط بئس القائد.

وقد فتح مغيث قرطبة في شوال من سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١١م)، ثم فتح الكنيسة التي تحصّن بها حاكم قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر في محرم من سنة ثلاث وتسعين الهجرية[١] (٧١٢م).

الإنســـــان

كان مغيث أسيراً، أسره الروم وهو صغير[٢]، فأدّبه عبدالملك ابن مروان مع ولده الوليد، فكان مولى عبدالملك ومولى ابنه الوليد من بعده[٣]. وهو رومي بالرغم من ادّعاء أولاده بأنه عربي من غسّان، ومن المحتمل أنه كان من الروم الذين عاشوا في شمالي إفريقية، فقد كان خبيراً بإفريقية عارفاً بها[٤].

وقد نشأ في بيت عبدالملك وترعرع فيه، إلى جانب أكبر أولاد عبدالملك وولي عهده الوليد بن عبدالملك، فأصبح أحد أفراد العائلة المالكة وجزءاً منهم لا يتجزأ، مصيرهم مصيره، ومستقبلهم مستقبله، ويهمّه أمرهم، ويهمهم أمره، كما أصبح موضع ثقتهم الكاملة.

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٢).
(٢) نفح الطيب (٣/ ١٢).
(٣) أخبار مجموعة (١٠) والبيان المغرب (٢/ ٩) ونفح الطيب (٣/ ١٢-١٣).
(٤) أخبار مجموعة (٣١).

وكان للخلفاء في مختلف أمصار الدولة، مَن يُطلعهم على حقيقة الأوضاع فيها، إلى جانب الولاة والقادة، فلا يستطيع الولاة والقادة أن يُخفوا على الخلفاء شيئاً يهمّ الخلافة، وكان مغيث أحد هؤلاء الذين يثق بهم الخليفة، ويجب أن يطّلع على أمور الولاة والقادة والرعيّة عن طريقهم، فأوفده الوليد ليرافق الحملة الأندلسية، وينقل إليه أخبار الفتوح كما يجب أن يُنقل، لا كما يحب الولاة والقادة أن تُنقل، والفرق بين النّقلين كبير.

ودخل مغيث الأندلس مع طارق[١]، وكان على تماس شديد به، فهو مدير مخابرات الخلافة في الأندلس دون أن يكون واجبه مجهولاً من طارق بن زياد أو من موسى بن نصير، وبعد أن استقر طارق وموسى، في طليطلة، أرسل موسى وفداً إلى دمشق يتألف من مبعوثين هما: مغيث وعلي بن رباح اللّخْمِي وهو من التابعين[٢]، لينقلا إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك أخبار الفتح[٣].

ولكن الوليد بن عبدالملك أعاد مغيثاً إلى الأندلس، وأمره أن يبلغ موسى بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد، وأن يشخص موسى إلى دمشق، فعاد مغيث إلى موسى بما أمره به الوليد.

ولم يصرف قدوم مغيث موسى عن المضي في إتمام خطته في الفتح، فلاطف مغيثاً وسأله إمهاله إلى أن ينفّذ عزمه في فتح جِلِّيقِيَّة، وأن يسير معه أياماً، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل مغيث ومشى مع موسى[٤]، وقد وهب مغيثاً القصر الذي ينسب إلى مغيث في عهد المسلمين، وهو: (بلاط مغيث) بجميع أرضه من أرض الخُمُس[٥]، وهو قصر حاكم قرطبة،

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٢).
(٢) أنظر سيرته في: تاريخ علماء الأندلس(١/ ٣١٠) ورياض النفوس (١/ ٧٧ـ٧٨) ونفح الطيب (١/ ٢٦٠ـ٢٦١).
(٣) الإمامة والسياسة (٢/ ٧٥ـ٧٦).
(٤) نفح الطيب (١/ ٢٥٨).
(٥) الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية (٢٠٤).

نظير إمهاله بعض الوقت في غزو جِلِّيقِيّة. وقَبِلَ مغيث هذه الشروط، فلما اطمأن موسى إلى ذلك، بادر بالمسير شمالاً لإكمال فتوحه[1].

والحديث عن إقناع مغيث بالغنيمة والقصر، لإبقاء موسى على رأس جيشه في الأندلس، من أجل استكمال خطّة الفتح كاملة، ليس من السهل تصديقه ولا قبوله، فهو رشوة لتأجيل تنفيذ أمر الخليفة الواضح الصريح، في استقدام موسى من الأندلس. وقد كان مغيث قويّاً أميناً، لا يتقبّل الرشوة، ولا يرتضي لنفسه مخالفة الخليفة الصريحة الواضحة في حال من الأحوال، والذي يبدو أن الخليفة أمر مغيثاً أن يُشخص موسى إلى دمشق، دون أن يأمره بإشخاصه فوراً، وترك الحرية لمغيث أن ينفِّذ أمره دون تقييده بوقت معين محدود، فكان لمغيث أن يتصرف في أمر موسى بحرية مطلقة. ورأى مغيث أن الموقف العسكري يتطلب بقاء موسى ردحاً من الزمن في الأندلس لاستكمال فتوحاته، واقتنع برأي موسى بضرورة بقائه لغزو منطقة جِلِّيقِيّة التي كانت مركز حشود المقاومة القوطية، حتى لا يتعرض إقليم طليطلة لتعرض قوطي متوقع، قد يتسع نطاقه ليهدّد فتح المسلمين كله للأندلس إلى الخطر، كما لم يجد مغيث أي محذور لبقاء موسى في قيادته، وهو حاضر، والخليفة غائب، ويرى الحاضر ما لا يرى الغائب، ومغيث ليس متّهماً من الخليفة، وهو موضع ثقته الكاملة به، فلا اعتراض للخليفة على بقاء موسى مدة من الزمن لا تطول، من أجل مصلحة الفتح في الأندلس، ومن أجل حاضر الفتح ومستقبله. كما أن موسى لم يعترض على تنفيذ أمر الخليفة، كما لا يستطيع أن يعترض عليه، فكان لبقاء موسى فائدة للفتح، دون ضرر على العلاقة، لذلك اقتنع مغيث بالسير مع موسى ومرافقته في فتوحه الجديدة، وكانت الغنيمة والقصر جزاء جهوده وجهاده لاجزاء تقاعسه وتراخيه في تنفيذ أمر الخليفة، أو جزاء التخلّي عن هذا التنفيذ.

---

(١) Saavedra . OP. Cit. P. 113-114

والغريب أن المستشرقين ركّزوا على هذه الفرية، وبالغوا في شرحها وتوضيحها وتسليط الأضواء عليها، فصوروا مغيثاً في فصل من فصولهم متواطئاً مع موسى على الخليفة، وصوّروه في فصل آخر عدوّاً لدوداً لموسى، يشنِّع على موسى لدى الخليفة، لأنه كان يرى نفسه أحق من موسى بتولي الأندلس[1]، وليس ذلك من خلق التابعين وتابعي التابعين، ولا كان الدسّ والافتراء والحسد والرشوة من أخلاقهم. فإذا لم يكن ذلك مقنعاً للمؤرخ الذي تتبع خلق أولئك الرجال، فالتناقض المكشوف في موقف مغيث ـ بحسب ادعاءات المستشرقين ـ لابد من أن يكون مقنعاً، إذ كيف يمكن أن نصدِّق أن مغيثاً يفتري ما يفتري على موسى بحضور الخليفة، ثم يسكت عنه موسى في فضح تقاضيه الرشوة، لقاء تراخيه في تنفيذ الأمر الخليفي؟ وهل من المعقول أن يعفو الخليفة عن التراخي في تنفيذ أمره لقاء رشوة معروفة مكشوفة وليست سِرّاً من الأسرار؟ ثم كيف يكون مغيث مع موسى على الخليفة مرة، ويكون مع الخليفة على موسى مرة أخرى!!

وبالطبع استفاد المستشرقون من المصادر العربية الإسلامية، في ترويج هذه الادعاءات وما أراد مؤلفوها ذلك.

وبعد أن استكمل موسى خطة فتحه، ومغيث معه، أخذ مغيث يتعجل موسى، وكان الوليد بن عبدالملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهّل إذ أن رسولاً آخر من الوليد، يكنّى: أبا نَصْر، بعثه إلى موسى، عندما استبطأه في القفول، فأتاه وهو بمدينة لُكّ بناحية جلِّيقيّة[2]. وبادر موسى بالعودة مع أبي نصر من لُكْ، وكان مع أبي نصر رسالة من الوليد إلى موسى يأمره بالخروج من الأندلس، فغادر موسى الأندلس مع طارق بن زياد ومغيث وأبي نصر في شهر ذي الحجة من سنة خمس وتسعين الهجرية[3] (أيلول ـ سبتمبر ـ ٧١٤م).

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٢ـ١٣).
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٧٦).
(٣) نفح الطيب (١/ ٢٧٧).

ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه، سأل مغيثاً أن يُسلِّم إليه العِلْجَ صاحب قرطبة الذي كان في إساره، فامتنع عليه، وقال: «لا يؤديه للخليفة سواي»، وكان مغيث يُدِلّ بولائه من الوليد بن عبدالملك، فهجم عليه موسى فانتزعه منه، فقيل لموسى: «إن سِرْتَ به حيّاً معك، ادّعاه مغيث، والعلج لا ينكر قوله، ولكن اضرب عنقه»، ففعل، فاضطغنها عليه مغيث، وصار إلْباً مع طارق السّاعي عليه[1].

ومن الصعب تصديق، أن موسى يُقدم على قتل العلج بعد أن أصبح بحوزته، حتى لا يدّعيه مغيث لنفسه، لأن علاقة العلج بمغيث أشهر من أن لا تعرف على حقيقتها، فلا مسوّغ لقتل العلج لتغطية قصة أسره من مغيث، كما أن من الصعب تصديق أن موسى يُقدم على اغتصاب العلج من مغيث، فقد كان مع موسى في رحلته إلى المشرق ما لا يُحصى من الرجال والنفائس[2]، ما يمكن أن يُعَدّ العلج، إلى جانبها أمراً تافهاً لا يُؤْبَهُ به، ولا مجال أن نجعله مشكلة بين موسى ومغيث، ولا مسوّغ لذلك.

ولما قدم موسى وطارق بن زياد ومغيث وأبو نصر إلى الوليد بن عبدالملك في دمشق، كان قدومهم عليه وهو في آخر شكايته التي تُوفي فيها، إذ بلغوا دمشق سنة ست وتسعين الهجرية (كانون الثاني ـ يناير ـ ٧١٥م)، أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً[3]. وخلف الوليد أخوه سليمان بن عبدالملك الذي كان مستاءً أيضاً من موسى، لأن طارق بن زياد ومغيثاً رمياه بالخيانة، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة، وقالا له: (إنه قد غَلّ جوهراً عظيماً أصابه، لم تحوِ الملوك من بعد فتح فارس مثله)، فلما وافى سليمان وجده ضغيناً عليه، فأغلظ عليه واستقبله بالتأنيب والتوبيخ، فاعتذر

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٧٩) و (٣/ ١٣ـ١٤).

(٢) أنظر التفاصيل في الإمامة والسياسة (٢/ ٨٢) وتاريخ افتتاح الأندلس (٣٦)، وأنظر فجر الأندلس (١٠٧).

(٣) ابن الأثير (٤/ ٥٦٦) والنويري (٢٢/ ٣٠) وابن الكردبوس (٥٠).

له ببعض العذر[1].

وقد كان للخلفاء أساليب خاصة، لمعرفة تفاصيل أعمال ولاتهم وقادتهم وتصرفاتهم، للاطمئنان إلى أن أولئك القادة والولاة، لا يخرجون عن الخطّة العامة التي رسمها لهم الخلفاء، وليحول الخلفاء جهد الإمكان دون خروج الولاة والقادة عليهم عند سنوح الفرصة المناسبة لهم للخروج.

ومن تلك الأساليب الخاصة التي يسيطر بها الخلفاء على ولاتهم وقادتهم، وبخاصة أولئك الذين يعملون في الأصقاع النائية عن عاصمة الخلافة، هي إرسال مّن يعتمدون عليه من الرجال، لينقل إليهم بدقّة وسرعة وأمانة كل ما يراه الخلفاء ضرورياً لجعلهم مطمئنين على سير الأمور في مختلف البلاد والأمصار كما يريدون[2].

وكان مغيث أحد هؤلاء الذين كان الوليد بن عبدالملك يعتمد عليهم، وقد وقع بينه وبين طارق، ثم وقع بينه وبين موسى، فرحل معهما إلى دمشق، ثم عاد ظافراً عليها إلى الأندلس. وكان مغيث مشهوراً بحسن الرأي والكيد[3]، وكان يطمع بولاية الأندلس، فلما عزم سليمان على تولية طارق بن زياد، استشار مغيثاً، فصرفه عن عزمه، وقد بالغ في إذاية موسى عند سليمان[4].

والظاهر أن مغيثاً لم يدّخر وسعاً في تشويه سمعة موسى عند الوليد بن عبدالملك، وعند سليمان بن عبدالملك من بعده، طموحاً لتولي الأندلس من بعد موسى، ولكن كان مغيث صادقاً في اتهامه، إذ حقّق سليمان جميع ما رُمي به موسى عنده، فأغرمه غرماً عظيماً[5].

ولا شك في نزاهة موسى بن نصير، ولكنه كان على جانب عظيم من الجود

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٧٩-٢٨٠).
(٢) قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٨١).
(٣) نفح الطيب (٣/ ١٣).
(٤) نفح الطيب (٣/ ١٣-١٤).
(٥) نفح الطيب (١/ ٢٨٠).

والكرم، فأعطى من الغنائم مّن أعطى، ولم يستأثر بما أخذ منها لنفسه ولمصلحته الشخصية حسب[١].

لقد كان مغيث مخلصاً لبني أميّة، أميناً على مصلحتهم، ساهراً على جمع المعلومات التي تعمّهم، وكان ضابط مخابرات لهم من الطراز الأول.

وقد عاد إلى الأندلس بعد رحيل موسى وطارق برفقته إلى دمشق، وأنجب في الولادة، فصار منهم بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة، وسادوا وعظم بيتهم، وتفرعت دَوْحَتُهم، وكان منهم عبدالرحمن بن مغيث حاجب عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) صاحب الأندلس وغيره[٢]، وقد فتح قرطبة، فدخل بلاط صاحبها واختطّه[٣]، ومعنى ذلك أنه أضاف إليه إضافات جديدة، ثم وهبه موسى بن نصير إلى مغيث مع أرضه[٤] كما ذكرنا ذلك قبل قليل.

ووقع بينه وبين طارق بن زياد، ثم وقع بينه وبين موسى بن نصير[٥]، مشاكل ومشادّات، وهذا ما يحدث بالطبع بين القائد ومَنْ معه، وبخاصة في الظروف القتالية الصّعبة.

ولمغيث من الشعر ما يجوز كَتْبه، فمن ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقاً، يكفي منه هنا قوله:

أَعَنْتُكُمُ ولكِنْ ما وَفَيْتُمْ فسوفَ أَعيثُ في غربٍ وشرق[٦]

ويبدو من شعره هذا، أنّه كان عاتباً على موسى وطارق، فنفّس عن نفسه بالشعر الذي منه هذا البيت.

وقد تأدّب بدمشق مع بني عبدالملك، فأفصح بالعربية، وصار يقول من

---

(١) أنظر التفاصيل في قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٨٢-٢٨٣).
(٢) نفح الطيب (٣/ ١٢) و (٣/ ٤٥).
(٣) أخبار مجموعة (١٢).
(٤) الرسالة الشريفية في الأقطار الأندلسية (٢٠٤).
(٥) نفح الطيب (٣/ ١٢).
(٦) نفح الطيب (٣/ ١٤).

الشعر والنثر ما يجوز كَتْبُه. وعنوان طبقته في النثر، أن موسى بن نصير قال له، وقد عارضه بكلام في محفلٍ من الناس: «كُفَّ لسانك»، فقال: «لساني كالمفصل، ما أكفّه إلاّ حيث يقتل»[1].

ومن الصعب تقدير منزلته شاعراً وناثراً، بهذا البيت من الشعر، وهذا المقطع من النثر، ولكنهما دليل على كل حال أنه أفصح بالعربية، وهو الرومي نسباً، العربي لساناً.

وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيد، فقد ذكروا أنه لما حصل بيده صاحب قرطبة وحريمه، رأى فيهنّ جارية كأنّها بينهنّ بدر بين نجوم، وهي تكثر التعرّض له بجمالها، فوكل بها مّن عرض عليها العذاب إن لم تُقِرَّ بما عزمت عليه في شأن مغيث، وأنه قد فطن من كثرة تعرّضها له بحسنها لما أضمرته له من المكر، فأقرّت أنها أكثرت التعرّض له لتقع في قلبه، إذ حُسْنُها فتّان، وقد أعدّت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذَكَرَه عند وقاعها، فحمد الله تعالى على ما ألهمه إليه من مكرها، وقال: «لو كان نفس هذه الجارية في صدر أبيها، ما أخذت قرطبة من ليلة»[2].

وأراد سليمان عبدالملك، أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق بن زياد، فاستشار سليمان مغيثاً في تولية طارق، فقال له: «كيف أمره بالأندلس؟»، فقال مغيث: «لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا»، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان، وبدا له في ولايته. ولقيه طارق بعد ذلك، فقال له: «ليتك وصفت أهل الأندلس بعصياني، ولم تضمر في الطاعة ما أضمرتَ»، فقال مغيث: «ليتك تركتَ لي العِلْجَ فتركتُ لك الأندلس»، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه صاحب قرطبة الذي حصل في يده، فلم يمكنه منه، فأغرى به سيّده موسى بن نصير، وقال له: «يرجع إلى دمشق، وفي يده عظيم من عظماء الأندلس، وليس في أيدينا مثله، فأي فضل

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٢ و١٤).
(٢) نفح الطيب (٣/ ١٣).

يكون لنا عليه؟»، فطلبه منه، فامتنع من تسليمه، فهجم موسى على العلج وانتزعه من مغيث، ثم ضرب عنقه[1]، كما ذكرنا.

فإذا صحّت هذه الروايات أو لم تصحّ، فإنه كما قيل عنه: كان مشهوراً بالرأي والكَيْد، وأنه كان على جانب كبير من الذكاء والفطنة وحضور البديهة، وأنه كان منتبهاً أشدّ الانتباه إلى ما حوله ومَنْ حوله، وليس من السهولة أن يُؤخذ على حين غُرّة، أو يتغلب عليه أحد، وأنه كان طموحاً يحب التملّك والمال حبّاً جمّا. لذلك كان أحد مسئولي مخابرات الدولة الكبار المرموقين، الذين يفرض كفايته على الخلفاء، فاستعان به الوليد بن عبدالملك، ثم استعان به سليمان بن عبدالملك[2]، دون أن يستطيع الاستغناء عنه أو يُسدل عليه ستاراً من ستائر النسيان.

حتى الخليفة هشام بن عبدالملك الذي تولى الخلافة سنة خمس ومائة الهجرية[3] (٧٢٣م) بعد موت يزيد بن عبدالملك، الذي خلف عمر بن عبدالعزيز، الذي خلف سليمان بن عبدالملك، الذي خلف الوليد عبدالملك، الخليفة هشام هذا الذي أخرج أحد قادته إلى إفريقية[4]، عهد إليه أن يطيع مغيثاً مولى الوليد، لمعرفته بالبلد[5]، مما يدل على أنه بقي غير مجهول المكانة والمكان لكفاياته المتميّزة، وإخلاصه للبيت الأموي إخلاصاً لا شائبة فيه. ولكن مغيثاً قُتِل في إفريقية[6]، في منطقة طنجة، وكان مع جيش الدولة في قتال الخارجين من البربر، وكان قتله سنة ثماني عشر ومائة الهجرية[7] (٧٣٦م). فإذا كان عبدالملك قد أدّب مغيثاً مع ولده الوليد بن

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٣).
(٢) نفح الطيب (٣/ ١٤).
(٣) ابن الأثير (٥/ ١٢٣).
(٤) أخبار مجموعة (٣٠).
(٥) أخبار مجموعة (٣١).
(٦) أخبار مجموعة (٣٤).
(٧) أنظر التفاصيل في ابن الأثير (٥/ ١٩٠ـ١٩٤).

عبدالملك[١]، فمات الوليد سنة ست وتسعين الهجرية[٢] (٧١٤م) عن اثنتين وأربعين سنة[٣]، فمعنى ذلك أن الوليد قد ولد سنة أربع وخمسين الهجرية (٦٧٣م)، ومغيث بعمر الوليد، أكبر منه قليلاً أو أصغر منه قليلاً، لأن عبدالملك بدأ في تأديبهما في سنة واحدة، أي أن مولد مغيث كان سنة أربع وخمسين الهجرية (٦٧٣م)، ووفاته كانت سنة ثماني عشرة الهجرية (٧٣٦م)، أي أن عمره كان أربعاً وستين سنة قمرية، وثلاثة وستين شمسيّة.

وقد أنْسَلَ مغيث في قُرطبة بني مغيث[٤]، ولا علم لنا بعددهم ولا بأخبارهم، عدا ما ذكر من أن عبدالرحمن بن مغيث تولّى منصب الحجابة لعبدالرحمن الداخل[٥] لا أكثر ولا أقل، وأخبار مغيث على العموم إنساناً قليلة للغاية، وبالرغم من قِلّة أخباره، فإنه يبدو أنه كان إنساناً عظيماً.

القائـــــد

تدرّب مغيث على الركوب، وأخذ نفسه بالإقدام في مضايق الحروب، حتى تخرّج في ذلك تخرُّجاً أهّله للتقدم على الجيش الذي فتح قرطبة، وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيد[٦]، وقد وجهه الوليد بن عبدالملك إلى الأندلس غازياً، ففتح قرطبة[٧]، وكان على خيل طارق بن زياد[٨] في الأندلس.

تلك عناصر شخصية مغيث القيادية: تدريب لا يقتصر على الفروسية

---

(١) ابن الأثير (٥/ ٩).

(٢) ابن الأثير (٥/ ٨).

(٣) ابن الأثير (٥/ ٩) مع روايات مختلفة أخرى.

(٤) نفح الطيب (٣/ ١٢).

(٥) نفح الطيب (٣/ ١٢) و (٣/ ٤٥).

(٦) نفح الطيب (٣/ ١٢-١٣).

(٧) نفح الطيب (٣/ ١٤).

(٨) فتوح مصر والمغرب (٢٧٩).

واستعمال السلاح والقضايا التعبويّة، بل يشمل التدريب العنيف في تحمل المشاق والصبر على المكاره واجتياز العقبات، ومواجهة المعضلات بحسن الرأي لا بحدّة العاطفة حتى يجد لكل معضلة حلاً مناسباً، وقدرة على إعداد الخطط المرنة السليمة القابلة للتنفيذ المؤدية للنصر.

هذه المزايا القيادية، تجتمع في مجاهد، لا يتخلف عن الجهاد، ويعتبره على المسلم فرضا، رشّحته لقيادة الفرسان، لأنه سريع الحركة، ألمعي الذكاء، فلما نجح في مهمّته قائداً للفرسان، تسنّم قيادة مستقلة، في جبهة حيوية من جبهات القتال، فأثمرت كفاياته ومزاياه وجهاده فتحاً مبيناً، فكان فتح قرطبة إحدى تلك الثمرات.

وظل مجاهداً في ساحات الجهاد الإفريقية والمغربية والأندلسية، حتى آخر لحظة من لحظات حياته، فسقط مضرجاً بدمائه دون أن يسقط السيف من يده.

فإذا تجاوزنا مجمل عناصر سماته القيادية، إلى تعداد تفاصيل تلك السمات بإيجاز شديد، وجدنا أنه صاحب قرار صحيح سريع، لأنه ألمعي في عسكريته، ذكي في فطرته، حريص على جمع المعلومات عن عدوه وعن الأرض التي ستكون ميداناً لجهاده.

وكان يتحلى بالشجاعة الشخصية النادرة، فهو الذي تربّص بصاحب قرطبة، وهو الذي طارده وحده دون الاستعانة برجاله، وهو الذي أسره وقاده إلى معسكر المسلمين. الواقع أن الأثر الشخصي لشجاعة مغيث النادرة، واضح كل الوضوح، ليس في سير الأحداث لفتح قرطبة حسب، بل في سائر أعماله في القتال، حتىوهب روحه رخيصة دفاعاً عن تماسك المسلمين ووحدتهم. وصيانة لحاضر الفتوح ومستقبلها.

وكان ذا إرادة قوية لا تلين، فإذا أيقن بأنه على صواب، لم يتهاون في وضع الأمور في نصابها، مستسهلاً الصعب، مستهيناً بالخطر.

وكان يتحمل المسئولية ويحبها، ولا يتهرب منها أو يتخلى عنها، محاولاً

إلقاءها على عواتق الآخرين.

وكان له نفسية متماسكة رصينة، لا تتبدّل في حالتي اليسر والعسر، والنصر الاندحار.

وكان يسبق النظر، ويضع نفسه موضع العدو، ويفكِّر بما عساه أن يفعل لو كان مكانه، ثم يُعِدّ لكل ما يتوقعه من نشاطات معادية وخطط، ما يكون مستعداً به سَلَفاً لمعالجة التحديات، فلا يؤخذ على حين غرة، ويكون مستعداً باستمرار لمعالجة ما يتوقعه من أحداث، في المكان والزمان الجازمين.

وكان على معرفة دقيقة بنفسيات رجاله وقابلياتهم بخاصة، لأنه على اتصال مباشر مستمر، وبنفسيات وقابليات الفاتحين في الأندلس بعامة، لأنه المسئول الأول عن المخابرات في الأندلس، ومن واجبه أن يعرف نفسيات الفاتحين وقابلياتهم، ليكون قادراً على وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

وكان يثق برجاله ويثقون به، ويثق برؤسائه ويثقون به، وكان موضع ثقة الخليفة بالذات وموضع اعتماده.

وكان يحب رجاله ويحبونه، وكان موضع حب الخليفة وموضع رجائه، فقد كانا معاً صغيرين، وتعلما معاً، وعاشا معاً، وأصبح مصيراهما مصيراً واحداً، كأنهما أخَوَان وليسا بأخوين.

وكان يتمتع بشخصية قوية نافذة، يحسب حسابها الكبير قبل الصغير، حتى لكأنّ شخصيته كانت طاغية على شخصية موسى بن نصير وطارق بن زياد(١)، وقد وقع بينه وبين طارق، ثم وقع بينه وبين موسى سيِّد طارق، مما يدل على قوة شخصيته.

وكان يتمتع بقابلية بدنية متميّزة، فقد كان في شبابه يوم كان في الأندلس أيام الفتح، وظلّ متمتّعاً بقابليته البدنية الفائقة حتى آخر يوم من أيامه، حيث

---

(١) نفح الطيب (٣/ ١٢).

كان يمارس القتال في ميادين الجهاد أقوى ما يكون على تحمل مشاق القتال. وقد نصّت المصادر المعتمدة، على أنه تدرب في فتوّته على مصاعب التدريب العنيف، استعداداً لأيام الجهاد.

وكان من ذوي الماضي الناصع المجيد، فقد عاش وتربّى في دار الخلافة، بإشراف الخليفة، مع أبنائه، وكان مولى الوليد بن عبدالملك، وليس ذلك بالقليل. وأضاف إلى ذلك جهاده في الأندلس وفتحه قرطبة، فأصبح الجدّ الأول لآل بيته: بني مغيث، الذين صار لهم شأن في الأندلس وبخاصة في مدينة قرطبة.

وكان يعرف مبادىء الحرب ويطبقها بشكل تلقائي، ومن المعروف أن مبادىء الحرب ثابتة في كل زمان ومكان، وهي لاتتبدّل ابداً، أما أساليب الحرب، فهي التي تتبدّل بتبدّل العوامل المختلفة، كتبدّل الأسلحة وتطورها، وتبدّل وسائل النقل، إلى غير ذلك من العوامل المعروفة.

فقد كان مغيث ماهراً في اختيار المقصد وإدامته، لذكائه وتيسّر المعلومات الوافية لديه عن عدوّه، فإذا وضع الخطة المناسبة لتحقيق مقصده، سار بخطوات ثابتة على طريق تحقيقه، ولا يتهاون في بذل ما يستطيع من جهد في سبيل جعل مقصده واقعاً، بعد أن كان خطّة فقط.

وكان قائداً: تعرّضياً، لم يتّخذ أسلوب الدفاع في جهاد، لأنه يعلم أن المدافع لا ينتصر، والمنتصر هو الذي يتعرّض، ويديم تعرّضه.

وكان يطبّق مبدأ: المباغتة، فقد باغت صاحب قرطبة بعبور أسوار المدينة، وباغته بقطع الماء على كنيسته، وباغته بمطاردته وأسره.

وكان يحشد قوته، ويستفيد من طاقاتها كافة في تحقيق هدفه، ولا يتخلّى عن قسم منها ليبقى متعطلاً دون جدوى.

ولكنه كان: يقتصد بالمجهود، فيحرص على أرواح رجاله حرصه على روحه، ولا يغرِّر بهم أو يعرِّضهم للتهلكة، ويضع القوة المناسبة لتحقيق الهدف المناسب.

وكان يحرص غاية الحرص على أمن رجاله، وقد باغت عدوّه في مواقف كثيرة، ولا نعرف أن عدوه باغت رجاله في موقف واحد، مما يدلّ على حرصه الفائق على تأمين الأمن لرجاله.

وكانت خططه مرنة، قابلة للتطوير والتحرير، وليست جامدة لا تُطور ولا تحوّر، وكانت قابلية الحركة في قوّته سريعة نسبيّاً، فقد كان رجاله من الفرسان، وليس فيهم من المشاة.

وكان يطبق مبدأ: التعاون، بين رجاله أولاً، وبينهم وبين الأدلاء من جماعة يُلْيَان ثانياً، وبينهم وبين المتعاونين معهم ومعه من سكان البلاد الأصليين ثالثاً، وبينهم وبين القيادة العامة للمسلمين في الأندلس رابعاً وأخيرا.

وكان يديم معنويات رجاله، بالعقيدة الراسخة، والقيادة الواعية، والانتصارات المتعاقبة، فكانت معنويات رجاله عالية إلى أبعد الحدود، وهذا ما يعلل لنا إقدامهم وهم في سبعمائة فارس، على فتح قرطبة، التي كانت من أكبر مدن الأندلس، إن لم تكن أكبرها.

وكان يهتم غاية الاهتمام بأمور رجاله الإدارية، فلا نعلم أنهم عانوا من نقص في أحد نواحيها، وقد كان مجاهدو الأندلس، من الناحية الإدارية، في بحبوبة يُغبَطون عليها من مجاهدي ساحات الفتوح الأخرى شرقاً وغرباً، ومع ذلك فقد كان من سمات المجاهدين حينذاك التقشف المطلق، لأنهم كانوا معنيين بأرواحهم أكثر بكثير من عنايتهم بأجسادهم، فإذا أصاب أحدهم شيئاً من السَّويق والتّمر ليسدّ بهما رمقه حمد الله وشكره.

وكان يساوي نفسه برجاله، ولا يتميّز عليهم بشيء، ويعيش كما يعيشون، في الخيام تارة، وفي العراء تارة أخرى، ويشاركهم في السرّاء والضرّاء وقد يستأثر دونهم بالخطر، ويؤثرهم بالأمن، كما فعل بمطاردة صاحب قرطبة وحده، معرِّضاً نفسه للخطر، دون أن يستعين برجل من رجاله ليعينه في مطاردة صيده السّمين.

وقد كان يطبِّق مبدأ الشّورى، أسوة بالقادة المسلمين، الذين كانوا لا ينفكون يطبّقون هذا المبدأ في الحرب، وقد ظل مستشاراً للمسئولين طيلة حياته، قادة وولاة وخلفاء، حتى قُتل وهو يمارس مهنة المستشار للقائد في أصعب الظروف والأحوال، بإيعاز من الخليفة هشام بن عبدالملك الذي أمر القائد أن يستشيره ويستفيد من خبرته وتجاربه.

ولعل أوضح ما كان يتميز به مغيث من سمات، هو هوايته العارمة لجمع الأخبار والمعلومات من شتى مصادرها، واستغلال تلك الأخبار والمعلومات لمصلحة الإسلام والمسلمين، ولمصلحة ولاة أمورهم من خلفاء وقادة وولاة.

ولا عجب في ذلك، فقد كان صاحب سر الخليفة «رجل مخابرات» في الأندلس، وكان مجاهداً من الطراز الأول وقائداً فاتحاً.

مُغِيْث في التاريخ

يذكر التاريخ لمغيث، أنه كان صاحب سرّ الخليفة الوليد بن عبدالملك في الأندلس، وكان المسئول الأول أمام الخليفة عن أمن المسلمين الفاتحين في الأندلس.

ويذكر له، أنه شارك مشاركة وثيقة في فتح الأندلس، وأنه فتح مدينة قرطبة، وأنه مجاهد صادق وقائد فاتح.

ويذكر له، أنه كان يتمتع بكفاية عالية جداً في جمع الأخبار والمعلومات، وكان يستفيد منها قائداً، ويفيد بها الخلافة أيضاً.

ويذكر له، أنه فرض كفايته على الخلفاء بعد الوليد بن عبدالملك، فظل موضع ثقة الخلفاء، حتى قُتل على عهد هشام بن عبد الملك.

ويذكر له، أنه حرص على واجباته، مجاهداً وقائداً ومستشاراً، طيلة حياته، وبقي موضع ثقة القادة والولاة والخلفاء في إفريقية والمغرب

والأندلس ودمشق.

ويذكر له، أنه قُتل في معركة على الخارجين، فسقط مضرجاً بدمائه دون أن يسقط السيف من يده.

رحم الله مغيثاً، القائد الفاتح، المجاهد الصادق، صاحب سرّ الخلفاء وموضع ثقتهم، جزاء ما قدّم من أعمال جليلة، في الفتح وفي بناء الدولة والدفاع عن حاضرها ومستقبلها.

فهرس الجزء الأول